مكتب الصحافة الدولى
للصحافة والنشر

مساجد ودول

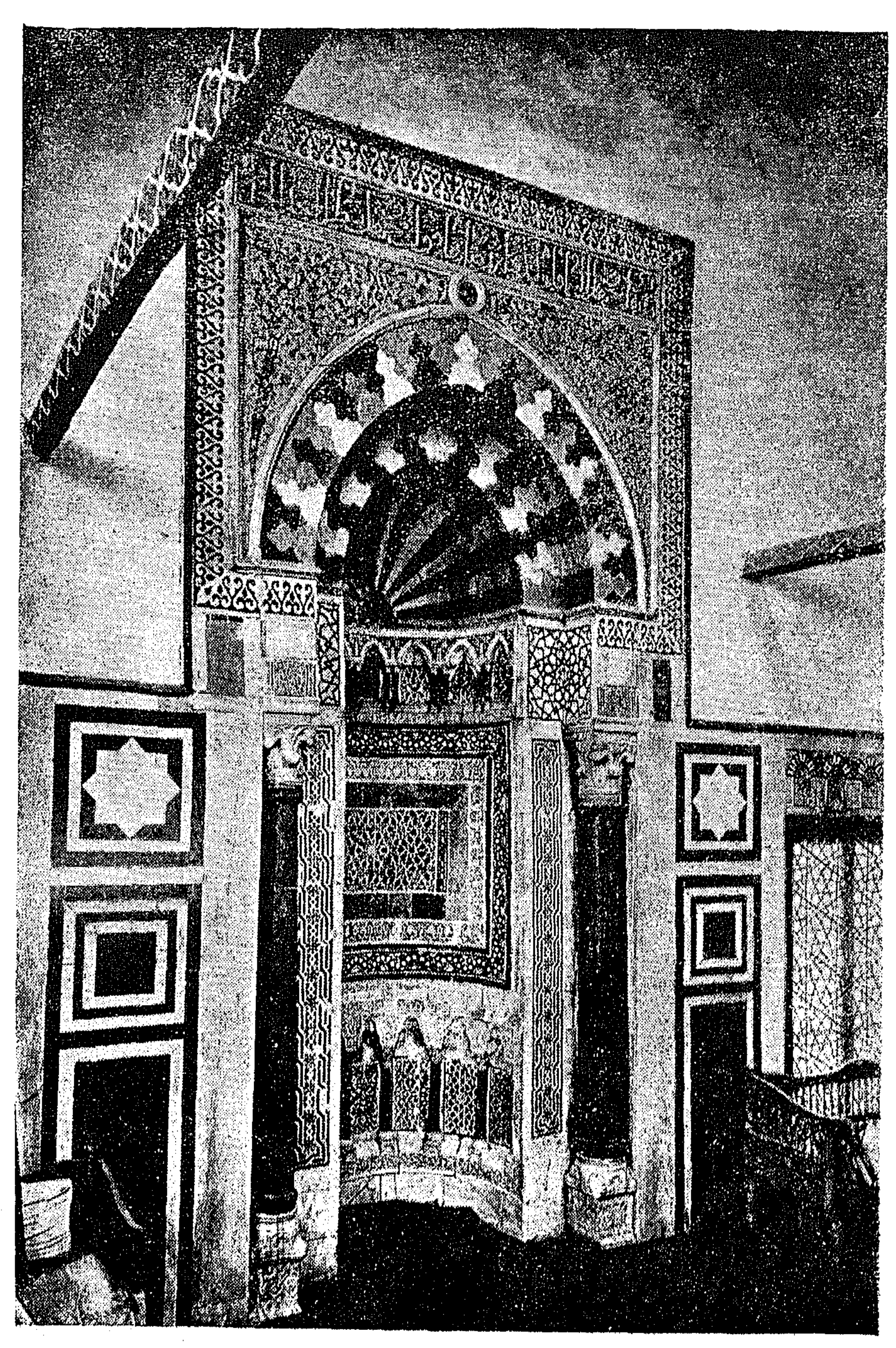
الكتاب الفائز بالجائزة الاولى لعام ١٩٥٨ من وزارة التربية والتعليم

بقلم
سنية قراعة

مطابع دار اخبار اليوم

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك
شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

(قرآن كريم)



« محراب المدرسة الطيبرسية الملحقة بالجامع الأزهر »
أنشأها الامير عـلاء الدين الخازندارى سنة ٧٠٩ هـ ، ١٣٠٩ م .

كلمة السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة التى قدم بها كتاب « وزارة الاوقاف فى مساجدها » حرصت على أن أسجلها فى كتابى هذا استكمالا للهدف الذى أرمى اليه ، وهى الكلمة الجامعة التى حفزتنى على التوفر على دراسة تاريخ مصر الاسلامية جامعة العروبة ممثلا فى مساجدها الكبرى . لأنقل الى القارئين صورة من أجمل وأجل صور الاسلام التى تروى لنا عن طريق المساجد قصة جهاد طويل لجمع كلمة العرب فى كل بقاع الارض تحت راية الوحدة التى أمر بها الله ، ونادى بها الدين ، وسعى الى تحقيقها رسوله .

بسم الله الرحمن الرحيم

كل كتاب يُضاف إلى المكتبة العربية ، هو فى الواقع عنصر جديد من العناصر العقلية ، وثروة مستحدثة فى رصيد التفكير العربى ، وقوة بنّاءة فى كيان أمتنا المتهيئة لإعادة دولتها واسترجاع مجدها.

فالعلم والمعرفة هما سبيلنا إلى الحياة ، وهما عدتنا للمستقبل المرتقب ، وبغيرهما لن تقوم بنيان ، ولن تثبت قدم ، فإنه بقدر ما تحصل أمة من العلوم والمعارف بقدر ما تبلغ فى هذا العصر بصفة خاصة من مكانة فى المحيط الدولى ، وما اختلاف موازين الأمم اليوم فى الحياة إلا نتيجة لاختلاف حظوظها فيما بلغت من علم ومعرفة.

ولاشك أن الكتب مادة القراءة ، والقراءة أوسع أبواب المعرفة وأكثرها ثمرة ، فإذا وجد الكتاب الصالح والنفس الراغبة فى القراءة الباحثة عن الحقيقة وجدت المعرفة طريقها إلى العقل فغذته وربته وأشرفت به على آفاق جديدة فى الحياة ، وخلقت فيه وعياً صحيحاً ، ومدركات سليمة لواقع الأمور وتقديراً دقيقاً لنتائجها.

ولقد سرّنى حقاً أن تقدم وزارة الأوقاف هذا الكتاب إلى أبنائنا الطلبة وأن تتخير موضوعه ومادته من صميم الحياة الإسلامية مستقاة من المساجد وما يتصل بها من أحداث التاريخ الإسلامى ، وتطور العمارة الإسلامية بتطور الزمان والأحوال التى اختلفت على دولة الإسلام :

أحب أن يقرأ أبناؤنا هذا الكتاب قراءة حرة خالصة للعلم والمعرفة ، بعيدة عن قيود الاعتبارات الدراسية فذلك جدير بأن يقيم فى أنفسهم معرفة مثمرة ينتفع بها فى كل مجالات الحياة.

ففى الكتاب علم يجده الطلاب فى هذا التاريخ المسطور عن كل مسجد ، وفى الكتاب فن يجده الطلاب أيضاً فى هذه الصور المعبرة عن الفنون الإسلامية فى العمارة والنقش والخط ... والعلم والفن هما عنصرا المعرفة الكاملة ... فإذا وقع لقراء هذا الكتاب من أبنائنا شئ من المعرفة - وهذا ما أرجوه - فإنى أقدر أن هذه المعرفة لابد أن تصلهم بالمساجد ، وتحببها إليهم ، وتوثق الصلة بينها وبينهم ، فيسعون إليها وفى قلوبهم ألف لها ، وإعجاب بها - وحسب الإنسان أن توثق الصلة بينه وبين بيوت الله ، فإن هذا خليق أن يمد له فى أسباب الهدى ، وأن يهيئ له الجو الصالح لتربية النفس ، وتقويم الخلق ....

وذلك ما نرجو أن يكون لنا منه حظ فى أنفسنا وفى أبنائنا »

جمال عبد الناصر

كلمة السيد الأستاذ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف

منذ قام الاسلام ، والمساجد بالمكان المكين من قلوب المسلمين .. اذ رفع الله قدرها ، وجعلها بيوتا لذكره وتمجيده ، يسبح فيها بحمده ، ويؤذن على مآذنها بوحدانيته .. استجابة لقوله سبحانه وتعالى « وان المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » .

والرسول الكريم – منفذ الشريعة ، وكاشف معالمها – يضرب المثل للمسلمين فيما للمسجد من شأن فى رسالة الاسلام ، حين دعا المسلمين الى بناء مسجد «قباء» على مشارف المدينة قبل أن يستقر بهم المقام فى دار الهجرة .. ولقد شارك الرسول الكريم فى البناء ، وعمل فيه بيديه الشريفتين .. ذلك ليكون المسجد الدعامة الأولى التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى ويستند اليها .

واستن المسلمون سنة رسول الله فى هذا ، فما اجتمعت منهم جماعة فى أي أفق من آفاق الارض حتى كان المسجد هو الراية التى يجتمعون اليها ويلتفون حولها وحتى كان المسجد هو أجمل مايتخذون من بناء ، وأثبت مايقيمون من دور .

ومن ثمة كانت المساجد سجلا صادقا لتاريخ الحضارة الاسلامية فى فن البناء والنقش والنجارة .. اذ قامت العاطفة الدينية بدور عظيم فى خلق الجو الفنى الصافى الذى يتجرد فيه الفنان من شواغل الحياة ليودع أروع ماعنده فى هذه البيوت ، تقربا الى الله ، وطمعا فى رضاه ، ورغبا فى ثوابه .

فالمساجد من هذه الناحية تاريخ كامل لفن البناء العربى ، الذى ظلت المساجد – وحدها – محتفظة به دون أن يعدو عليها ما عدا على التراث العربى من محو أو تبديل !

ويحتفظ التاريخ الاسلامى بصفحات مشرقة رائعة للمساجد فى اذاعة الثقافة

الاسلاميـة ، وفى تخريج العلماء فى كل علم وفن .. اذ كانت المسـاجد دور عبـادة وجامع علم ، يلتقى فيها العلماء والطلاب من آفاق الاسـلام المختلفة ، فيجدون فى مكتباتها نفائس الكتب ومذخور العلوم .. ففى مسجد رسول الله بالمدينـة تخرج صحابته أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وابن‌عباس ، ومعاذ بن‌جبل ، وأبوهريرة وغيرهم من أئمة المسلمين وفقهاء الاسلام .

وفى مسجد البصرة والكوفة ، تخرج علماء اللغة وفقهاء الدين وكذلك الشـأن فى مساجد بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، التى كان الأزهر ـ ولا يزال ـ جامعة العالم الاسلامى لعلوم الشريعة وفقهها .

وهذا الكتاب الذى نقدمه للقراء عن المسـاجد ، وعن الدور الكبير الذى أدته فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، قد بذلته مؤلفته الاستاذة سنية قراعة جهدا مشكورا ، جديرا بالتقدير والثناء .

واذا كان تاريخ المساجد قد نال من الباحثين المؤلفين عنـاية وجهـدا على مختلف العصور ، الا أن وسائل الحياة فى الازمنة الماضية لم تكن تمكن من رسم مصورات للمساجد ، تظهر معالمها ، وتشـير الى مواطن الابداع الفنى فيهـا ، ولهذا فقـد استدرك هذا النقص فى المؤلفات الحديثة حين تيسرت وسـائل التصوير ، وكانت وزارة الاوقاف سـباقة الى هـذا فأخرجت مجلدين كبيرين عن مسـاجد مصر كما أخرجت كتيبا صغيرا عن هذه المساجد أيضـا ، وشـارك وزارة الاوقاف فى هـذا بعض الافراد بجهودهم الخاصة فأخرجوا ـ مشكورين مقدورين ـ كتبا مصـورة عن المساجد ، كان هذا الكتاب أحدثها ونرجو ألا يكون آخرها ، فالمساجد موضوع متسـع الجوانب للباحثين والدارسين يمكن أن يستقل كل جانب منهـا بدراسات وموسوعات من التاليف .

وبعد ، فشكر الله للمؤلفة جهدها ، ونفع بمؤلفها .

أحمد حسن الباقورى
وزير الأوقاف

٩ ربيع الاول سنة ١٣٧٨
٢٢ سـبتمبر سنة ١٩٥٨

كلمة الثائر الشاب السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم .. لم تفته فرصة اخراج كتاب ((وزارة الاوقاف فى مساجدها)) فاسهم فيه بالكلمة التالية الداعية الى دراسة أحداث الماضى ليعرف الشباب عن طريق تلك الدراسة أن آباءهم كانوا شيئا كبيرا ..

بسم الله الرحمن الرحيم

أشكر لوزارة الأوقاف هذا المجهود القيم فى تقديم هذا الكتيب بل هذه القصة لأبناء هذا الوطن وأشكر للسيد وزير الأوقاف هذه المكرمة إذ تفضل فأمر بطبع عدد هائل من النسخ لتوزيعها على المدارس المصرية لتعريفهم بتاريخ وماضى أمتهم.

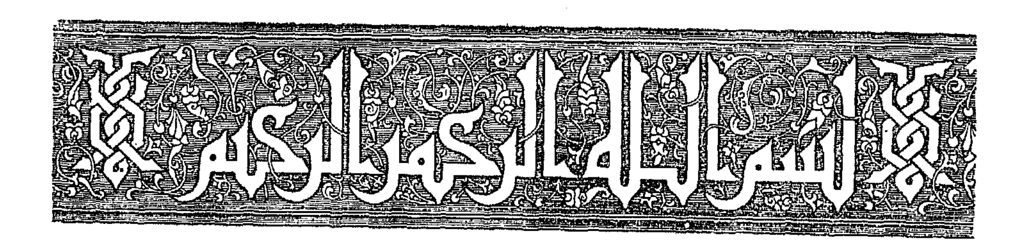
إنها قصة تاريخ وحضارة ومجد وفن فيها ذكرى وفيها عبرة وفيها حوافز للأمل.

وإنها لتطوف بخيال أبناء هذا الجيل خلال العصور لتصور لهم أحداث الماضى البعيد والقريب وتشرح لهم بما لا يقبل الشك أن آباءهم كانوا شيئًا كبيرًا وأنه رغم ما كان يحل بهم من نكبات فإن نفوسهم الأبية وروحهم العالية كانت دائمًا تظهر فى كل وقت وتبرز فى كل عصر عالية تعلو هذه المنائر قوية قوة هذه العمائر نبيلة صافية نبلا يتمثل فى هذه النقوش البديعة وصفاء يتجلى فى جمال هذه الألوان والزخارف.

إن أبناء الجيل الحاضر وقد تفتحت أمامهم أبواب الأمل لقادرون على إعادة الفصول المجيدة لهذه القصة وأن يجنبوا أنفسهم وبلادهم الدروس القاسية فى باقى فصولها.

وفقنا الله وإياهم لما فيه إعلاء كلمة الحق ورفعة هذا الوطن وسعادة هذه الأمة

كمال الدين حسين



مساجد : إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر

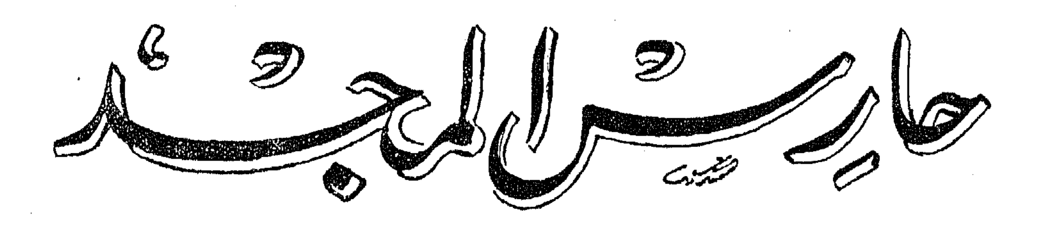
و

دول : وتلك الأيام نداولها بين الناس

الطبعة الاولى
غرة ربيع الاول ١٣٧٨ هـ
١٤ سبتمبر ١٩٥٨ م

الناشر
مكتب الصحافة الدولى

الكتاب القادم



بقلم سنية قراعة



هذه المآذن .. وتلك القباب .. وهاتيك المساجد ..

هذه المآذن المتعالية نحو السماء فى زهو : أنها بيارق الاسلام وشارات مجده ..

وتلك القباب العظيمة الجليلة : انها آية التحضر الناطقة بسماحة الدين وتحضر العرب

وهاتيك المساجد العامرة : انها دلائل الرفعة ، ورمز القوة والخلود ..

انها تروى لك تاريخ دول دالت بشخوصها وبقيت آثارها ..

انها اللسان المعبر الناطق بما كان لنا من حضارات .. تمثلت فيها السيادة العربية الكاملة ، والوحدة التامة بين شتى شعوب الشرق التى جمعت بينها وحدة اللغة والدين والعادات .

جمعتها بين دفتى هذا الكتاب ، ليكون فى عرض وقائعها العبرة بالماضى والحافز الى المستقبل ..

فالى شباب العرب المتحرر فى كل مكان ..

الى سادة الغد وبناة المستقبل .. الساعين الى جمع الشمل وتحقيق الوحدة ، واعادة الدولة العربية العظمى ...

أهدى هذه الصحائف المعطرة بعبق الخلود ، ليستروحوا فيها نسائم المجد ، فتوقظ فيهم روح المعالى ، وحب النضال فى سبيل استرداد مجد العرب .. لتتم نهضة هذا الشرق وتعلو راية الأمة العظمى ، وتكون خير حارسة للتراث العظيم .. وخير بانية للمستقبل الزاهر ...



كلمتي

هذا كتاب لا اقول انه الاول من نوعه فى مكتبتنا العربية ، ولكنى أرجو أن يكون قطرة من غيث .. أتمنى أن يهمى ، وأن يستحيل فيضانا ثقافيا ، يكتسح الحواجز التى احاطت بتاريخنا الاسلامى وحجبته عن العيون ، وأبعدته عن الاذهان .. فتتكشف لنا مناحى العظمة فى صحائف تاريخ أمتنا العربية المجيدة ، ليعرف ابناؤها انهم انما يجاهدون اليوم ليستردوا التراث الخالد الذى كان لهم ويأخذوا مكانهم تحت الشمس ..

اننى اقدم اليوم صفحة ناضرة من أعز الصحائف فى تاريخ العرب والاسلام ، مستجيبة وأنا أقدمها للدعوة الكريمة التى أوحى بها السيد الرئيس جمال عبدالناصر فى نشر صحائف أمجاد العرب لتكون الدافع القوى فى الزحف الكبير نحو اتمام صرح المجد الذى وضع سيادته أساسه الراسخ .

لقد كان مجرد الاشارة فى مستهل دستور الشعب الى أن مصر دولة عربية - كافيا لتوجيه الأنظار الى الحقل الجديد الذى تعمدت الثورة أن ترشد اليه الباحثين ليعملوا فيه فيستخرجوا درره ويعرضوا على الانظار جمعاء مافيه من نفائس وروائع ، تثبت بالبرهان القاطع ان العرب كانوا اساتذة الامم ومعلميها .. وان تأثيرهم الحضارى فى تقدم الغرب ونهوضه واضح للعيان ، وعليه ألف دليل .

ولم يكن غريبا منا - نحن المصريين - أن نوجه كل اهتمامنا الثقافى الى تاريخنا القديم .. تاريخ الفترة الفرعونية ، ذلك لاننا احسسنا ذات عصر من العصور أننا فى حاجة الى مانفاخر به من ادعوا انهم اصحاب حضارات - ونسينا فى غمرة تحزبنا لهذا التاريخ الفرعونى - ان نذكر شيئا عن امجادنا العربية ، ومدى تأثير الاسلام فينا كأمة موحدة كانت خير أمة أخرجت للناس ..

ان المكتبة العربية تشكو اليوم تخمة ثقافية ، عربية اللغة اجنبية الروح .. وإنها لتشعر بالحنين الطاغى الى مزيد من العناية بالتراث الاسلامى بصفة خاصة والتاريخ العربى بوجه عام ..

لقد شهدت مصر انبثاق فجر التاريخ فى ربوعها المقدسة ، ورأت وهى فى مكانها الشامخ مطلع أنوار الحضارات التى شعت على العوالم القديمة فوقفت منها موقف المعلم المرشد الذى ينشط الهمم وينمى المدارك ويبعث الوعى الى العقول ويدعو الى مزيد من التقدم والرقى ..

وتوالت عليها بعد ذلك حضارات متباينة كانت من الضعف بحيث زالت بزوال المؤثر ... وعرفت كذلك على كر العصور ديانات ومعتقدات وآراء - لم تستطع البقاء فيها لضعفها فزالت وتبددت وكأنها لم تكن ...

وشاء الله أن يشرق عليها الاسلام بنوره ، فتفتحت القلوب للدعوة المحمدية - واذا بمصر تتحول بكليتها وافكارها وايمان اهليها - الى ذلك الدين السمح حتى لقد صارت حصنا من حصونه القوية ، ودرعا من دروعه الحامية .. فحمت الدعوة ، واعلت شأنها وراحت تجاهد فى سبيل اعزازها واحلالها اقدس واحب مكان ..

لقد تجلى الله على مصر فجعلها - وهى كنانته فى أرضه - جامعة لكل عظيم ، وشاءت ارادته ان تجتمع فى صعيدها الحبيب آثار القديم وظلال الحديث ، وان تنبت أرضها الجلال والرقى ، وهذه آثارها الفرعونية وقد تعالت مسلاتها واعمدة معابدها الخالدة سامقة جليلة نحو السماء لاتزال حية تشهد بعظمة القديم ومجده .. كذلك تعالت فى حاضرها الاسلامى منائرها وقبابها شاهدة بالفضل معتزة بالمجد ، قادرة على سرد أخلد قصة واجمل رواية عن عظمة العرب وتأثيرهم فى حضارات الشعوب جمعاء .

ان دور مصر فى الذود عن الاسلام ورفع رايته .. ثم تخليد عماراته الرائعة ونشر آيات فنه - دور خالد ، حملت مصر وحدها فخره دون العواصم الاسلامية جمعاء ، وكانت جديرة به قادرة على تحمل مسئولياته الجسام ، حتى لقد طالما كانت دائما كعبة القصاد لطالبى العلم وناشدى المعرفة فى هذا الدين العظيم .. وكانت دائما ملاذا للخائفين يفرون اليها بعقائدهم ومبادئهم من الظلم .. فيجدون فيها الحمى والامان .. لانها انما كانت فى الواقع عاصمة الدنيا الاسلامية ، وحاملة لواء الجهاد فى سبيل دين الله وحامية الاحرار اهليه ..

ومصر اليوم تقوم بنفس الدور الذى قامت به منذ أشرق فى ربوعها فجر الاسلام . انها لتجاهد فى سبيل العروبة مترسمة فى ذلك خطوات الرسول القائد وصحابته - داعية الى الاتحاد والى تعزيز الوحدة عاملة بالامر الربانى الكريم « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » ...

ان لمصر من ماضيها وجهادها فيه ، مايعزز حاضرها ، وان لها فى انتصارات الامس البعيد والقريب - مايؤكد أنها ستصل الى تحقيق ماجاهدت من أجله لتحفظ على العروبة هيبتها وتبقى على الوحدة جلالها ، وما ذلك ببعيد على مصر التى حمت الاسلام فى « عين جالوت » فكسرت التتار وردتهم بعد أن ردت من قبل ، أطماع الصليبيين فى فلسطين وحفظتها عربية للعرب المغاوير .. ثم قامت تحميها بعد ذلك من عدوان صهيون وأحلام اسرائيل ..

لكم هو جميل أن نلقى اليوم على حاضرنا المجيد ظلالا من ماضينا العظيم .. انها الذكرى وللذكرى جلالها .. وكم هو جميل أن نتذكر فنحث الخطى فى طريق الجهاد لأننا نعرف جيدا ، « أن الذكرى تنفع المؤمنين » ..

هذه صحائف أعرضها .. وأعرض فيها أمجادا ترويها للعالمين بيوت الله .. وهى اذ تروى وتقص فانما تقص « أحسن القصص » وتروى أقدس واحب واطهر قصص فى الوجود ..

ولكم هو جميل ان ينصت العرب فى كل مكان الى تراجيع الماضى ، فيتعرفون مواضع العبرة ، ويأخذون أروع المثل ويقتبسون أقوم الصفات ..

« مساجد ودول » أقدمه وقد أبيت الا ان اجمع بين هذه وتلك ليشعر القارىء العزيز بقداسة الهدف الذى أردت أن أصل اليه من الجمع بين المساجد والدول ..

والحكمة فى جعل « المساجد » نفسها تقص قصة هذه « الدول » فى سرد صادق يعرض جلائل اعمال فئة من القادة اخلصت للدين ، ونقشت لنفسها فى صحائف الجهاد مكانا مرموقا كان وجوده وظهوره حافزا على العمل المفيد ..

والمعنى من هذه التسمية واضح فى قوله تعالى : « وتلك الايام نداولها بين الناس »

***

لقد هدفت من كتابى هذا أن أعرض على كل عربى تاريخه العظيم ليشعر بالزهو وهو يدرسه كما أردت أن أزيده صلة ببيوت الله ، ليعرف أن هذه المساجد العظيمة لم تؤسس ليذكر فيها اسم الله فقط بل لتردد على مسامعه مع كل آذان قصة تروى مجده الاسلامى وتاريخ أولئك الغطاريف الذين نفخر بهم ، ليسير فى طريق ساروا فيه ، وليبنى هو الآخر .. لامسجدا شاهقا .. بل مجدا من أمجاد الاسلام ، يتمثل فى احساسه بعروبته ، وايمانه بالوحدة وغيرته على الدين

ولا أجد ماأنهى به كلمتى هذه الا أن أسأل الله أن يوفقنى الى الخير ، وأن يجعل من « مساجد ودول » صحائف تدفع الى فعل الخير وتشجع على الاسهام فى بناء صرح العروبة وتدعيم وحدة هذا الشرق ليأخذ مكانه القديم فيكون هاديا للأمم ، ومصلحا للشعوب ، وداعية خير ، وبر ، وأمن ، ومساواة ، وسلام .

والسلام على من اتبع الهدى أو ألقى السمع وهو شهيد ..

سنيه قراعه

((شكر واجب))

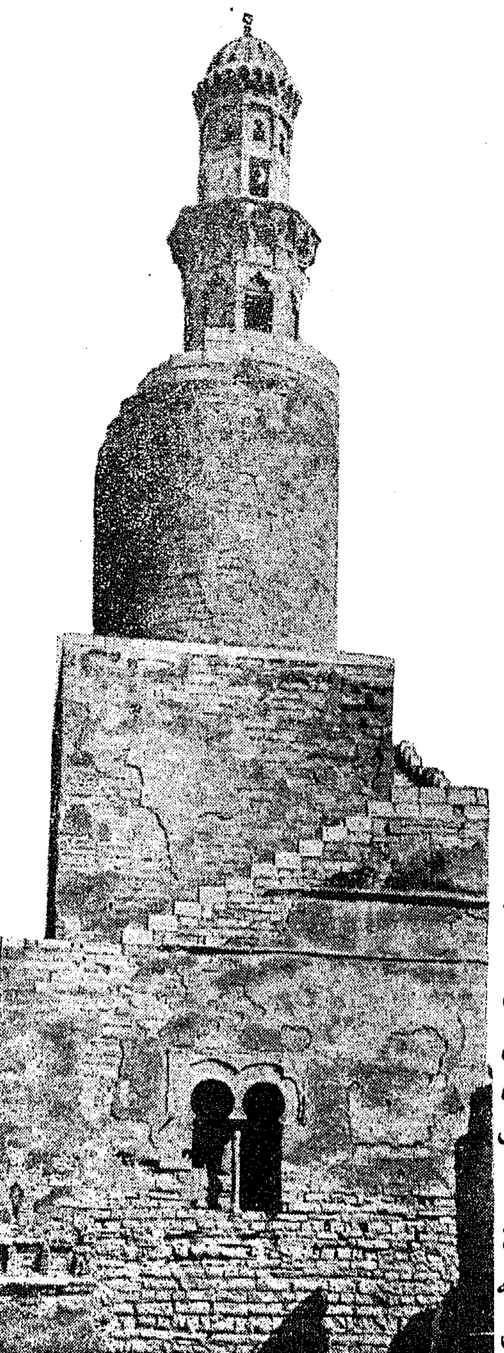
الى كل من تكرم بامدادى بما تطلبه اخراج هذا الكتاب من مراجع تاريخية ولوحات فنية ، وخاصة وزارة الاوقاف ودار الكتب المصرية ، ومصلحة السياحة ، ومصلحة المساحة .. اليهم جميعا اقدم خالص الشكر والتقدير .

سنية قراعة

((مصادر الكتاب))

١ ـ خطط المقريزى .
٢ ـ النجوم الزاهرة .
٣ ـ تاريخ المسبحى .
٤ ـ تاريخ ابن الطوير .
٥ ـ تاريخ ابن المأمون .
٦ ـ الخطط التوفيقية .
٧ ـ المحاضرات الاثرية للاستاذ المرحوم يوسف أحمد .
٨ ـ ابن خلكان .
٩ ـ ابن دقماس .
١٠ـ مساجد مصر .
١١ـ اتعاظ الحنفاء للمقريزى .
١٢ـ أخبار مصر لابن ميسر .
١٣ـ الاشارة الى من نال الوزارة .
١٤ـ الولاة والقضاة للكندى .
١٥ـ التبر المسبوك .
١٦ـ عجائب الآثار .
١٧ـ الافادة والاعتبار .
١٨ـ ابن اياس ((بدائع الزهور)) .
١٩ـ كنز الجوهر فى تاريخ الازهر .
٢٠ـ تقويم النيل .

فتح مصر



أيها الأمل .. ياظل السعادة البراق ، يامن تداخل قلوب الحزانى ببرد الراحة وجلال الهدوء ؛ انها لترقب مجيئك فى لهفة الضال الذى أتته الأمانى على غير موعد ، فأسعدته المنى وحبته الآمال ...

يا نور الأمل لاحت أضواؤه القدسية فى ليل الحيارى ..

من أين ؟! والى أين ؟!

من مكة تفجر نبعك ، وفى يثرب انتشرت أضواؤك ، ومع صيحات الحق ، استحالت أحلامك حقائق نورانية .. بددت الظلمات واختفت أمام التماعها عتمة الدياجير والأباطيل والضلالات !

الله أكبر لمشرقك .. والله أكبر لانتشارك .. والله أكبر حيثما تسير .. الله أكبر ..

عنت الجباه للحي القيوم ، وخشعت القلوب للاسم الأعظم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، يسبحون بحمده ويستغفرون لماض تولى فى الضلالات والأوهام ...

الله أكبر .. وانصتى أيتها الدنيا للتكبيرة المقدسة ، يرددها قوم باعوا أنفسهم لله واشتروا بها الشهادة فى سبيل نصرة دين الله ، وأنه لا اله الا هو وأن الصادق محمد عبده ورسوله ..

« مئذنة أحمد بن طولون »

الله أكبر .. تهاوى ايوان كسرى معلنا زوال دولة النار ، فما أسرع ما تحطمت البنود السامقة واندكت الصروح المنيعة ، وتصدعت جدران المعابد وأقفرت باحاتها

من أرواح الشياطين ، هاربة بباطلها أمام كلمة الله الحق !

الله أكبر « **غلبت الروم فى أدنى الارض** » . تمزقت طيـالسهم ، واختلطت بالغبراء معاقرهم ٠٠ وعفى الزمن على آثارهم ، فهربت الجيوش المجيشة ، وتبددت الجموع الباغية ودالت دولة الظلم والعسف والجبروت وأذل الله قيصرا وخذل أتباعه ومن معه وفتحت الشام أبوابها للقادم المنتصر رافعا راية التوحيد والحرية والعدل ٠٠

***

الله أكبر ٠٠

هذه الهمهمة الخافتة التى أحالها الايمان دويا ملأ الأسماع ونفذ الى القلوب ٠٠ فدان له العالم الاكبر !

أهو السحر ؟! أهى القوة ؟! أم هو الأمل ٠٠

انها السحر أحله الله ، وهى القوة لانها الاعتزاز به ، وهى الأمل لأنها دكت حصون الظلم ٠٠ وثلت عروش البغى ، وزحف موكب النـور المقـدس على جحافل ليل لم تستطع ظلماته أن تثبت فى وجهه أو تقاوم فذهبت أباديد ٠٠

وان الصيحة لتشتد وتعلو ٠٠ وان الارنان ليتزايد ويعصف وان الاصداء لتدوى بجلجلة معتدة ، وان الناس لينصتون فى فرح وزهو واكبار ٠٠

انه الأمل يداخل القلوب ٠٠ وان اشعاعه ليمتد هنا وهناك وفى كل مكان ٠٠ وانه ليصل الى ضفاف النيل فيستقر فى الآذان ، وتخفق بحبه والحنين اليه القلوب ٠٠

أجل ٠٠ انه الامل الذى هو سر الحياة والبقاء والخير ٠٠

ان كل كائن حى يعيش بالأمل ، وللأمل ٠٠

انه القوة التى تسيطر على نفوس البشر ٠٠ ويلجأون اليها كلما اشتد الكرب وعظم الخطر ، وساد الظلام والظلم الأرض ٠٠

* * *

لقد امتد الى الحيرة ، والعراق ، وتهاوت تحته حضارة النار وتبدد ملك كسرى ٠٠ ثم ، هاهو ذا ينتشر ظله وتتقدم جموعه المظفرة ٠٠ حتى وطات أمجـاد قيصر روما وطاغيتها العتيد !

واستمر الاعصار العربى المدمر فى مسيره الظافر ، قويا ، ساحقا مشبوبا ، فدك وهدم ٠٠ وسحق وبدد ٠٠ واباد وحطم ، واعدم وأوجد ، وانهزمت أمامه كل القوى التى طالما كانت أداة الظالمين فى اذلال الشعوب الحرة المسالمة ٠٠

ورنت العيون فى الوادى متطلعة الى الافق ترقب مطلع النور والسعادة ، وهمست الشفاه فى مصر المجاهدة الباسلة ، موطن الشهداء وأحرار المجاهدين ـ متسائلة ، تتعجل مشرق هذا الامل ، ومقدم مواكبه وهى ترجو أن يمتد على النيل رواقه ، لتستنشق مصر

المناضلة عبيره الحلو ، واهب الحياة والحرية والامل لكافة شعوب الارض التى أذلها قيصر وحطم معنوياتها كسرى ، وكبلها كلاهما بقيود الذل والمهانة والاحتلال ..

وفى غمرة الامانى التى داخلت القلوب فى مصر ، راح شعبها المتلهف الى طلعة الامل يستعرض الماضى ويراجع صـــوره .. ويرى فى نصر العرب فى كل ميدان استكمالا لكفاحه ، وتعزيزا لجهاده العظيم ..

ان شعب مصر ليذكر كيف طغت روما وبغى أباطرتهـا . واستأسد ذئاب جنودها وصــور لهم غرورهم ان كنانة الله مزرعة توارثوها ، فاذا بالشعب الاصـيل يخيب أمانيهم ، فكان أن كافح وناضل ، ورد ودفع ، وكسر الشوكة وقلم الاظافير فى حدود قوة معنوية ان لم تمكنه من القضاء على الظالم بصفة نهائية الا أنها روعت العدو وأرعبته ولقنته درسا جعله يتراجع أحيانا وينكمش أحيانا أخرى ، خشية من كفاح الشعوب وثورات الأحرار !

ولم يكن غريبا أن تكافح مصر الاحتــلال الرومانى ، ثم يتطلع أحرارها الى أضواء الأمل التى حملتها مشاعل النصر العربى لا رغبـة فى العرب لذاتهم ، ولا لاســتبدال احتلال باحتلال أفضل .. ولكن ترحيبا بالنور .. نور الوحدانية الذى كفل النصر للفاتحين الجدد ، امتدادا وتعزيزا لعقيدة آمنوا بها واستمسكوا بدعوة صاحبها ولقوا فى سبيل ايمانهم العنت والطغيان ..

لقد كان الاسلام متمما للمسيحية ، وكانت رسالة محمد مكملة لناموس عيسى وشريعة موسى .. وكان أحمد المختار هو بشرى المسيح الى العــالم الذى أثقله نير روما وحطم معنوياته عبث الأباطرة وطغيان من ألهوا قيصرا ونادوا به ربا بين المعبودات !

وهناك صلة أخرى ربطت بين مصر وأولئك الموحدين الفاتحين الجدد ، تلك هى صلة الرحم والمصاهرة ، فالمصريون هم خؤولة العرب .. فلقد كان نسبهم من القوة بحيث امتد على كر العصور .. من عهد ابراهيم عليه السلام وزوجه هاجر المصرية .. حتى عصر محمد رسول الله ، فكانت له مارية المصرية أم ولده ابراهيم ..

من أجل هذا راحت مصر ترقب الأمل الجديد ، فى لهفة وقلق وشوق .. حتى لقد راح شعبها المناضل يرى على اشــعاع نوره ، أقسى صور مرت به على أيدى الظالمين الذين عرف رغم حاجته وفقره ، كيف يهزمهم ويورثهم الفزع والرعب ، وانه ليـــذكر الماضى ويدرس ماحوى من عبر وشجون ..

لقد طالما أرعبت مصر روما ... ولقد طالما وقف الصعيد فى وجه الطغاة غير عابىء بوسائلهم وســلاحهم ، فروع الامبراطورية وأرعب جنـــدها وشتتهم وأقلق مضــاجع أباطرتهم الماجنين ..

وسارت الدلتا فى الكفاح والصراع ، على نفس المنوال .. ولعبت نفس الدور الخطير

.. كما حملت « منف » العاصمة القديمة ، عبء الكفاح طويلا ، فحركت معنوية الاقاليم وشجعتها على سحق قوى الطغيان ..

أما الاسكندرية ، فكان لها فى جهاد الرومان دور مشهود ..

كانت عاصمتهم وكانت بالنسبة لهم مفتاح مصر ، فلم يكن عجيبا أن يقف أهلوها فى وجوههم وأن يذيقوهم عذاب السعير ..

ان مصر وهى تنصت فى شغف الى انتصارات العرب على الروم فى الشام ، لترى فى الأمر قصاصا وعدلا .. وأنها لتحس بالسعادة ، لان طغاة الأمس يشربون اليوم كأسا ـ طالما أجبروا الشعوب على تجرعها بقوة العسف وجبروت الطغيان ..

انهم ليذكرون الطاغية « كراكلا » الذى زار الاسكندرية وخدع أهليها أدنأ خدعة ، اذ دعاهم الى حفل ليتعارف عليهم .. فلما وافوه مسلمين ، أمر بحصارهم وقتلهم أجمعين..

وسافر بعد ذلك الى روما ، تطارده أشباح الابرياء .. ورغم هذا ، أبى الا أن يغسل الدم بالدم ، ويعزز الظلم بالظلم ، وينتقم من قوم لا ذنب لهم الا أنهم أحرار.. فأرسل لواليه مرسوما امبراطوريا يقول فيه :

« ينبغى أن تعمل على طرد جميع المصريين المقيمين بالاسكندرية بشتى الوسائل ، وخاصة الريفيين الذين فروا الى مناطق أخرى ـ عدا تجار الخنازير وأصحاب القوارب ، الذين يحملون الاحطاب لتدفئة الحمامات .. وأنه لأمر هين أن تعرفهم من لهجاتهم وأساليب معيشتهم ، وتطردهم لانهم يثيرون القلاقل والفتن .. »

وان مصر لتذكر جيدا عهد « دفيانوس » والشهداء فى عصره !

وتذكر وقفة الاسكندرية وبطاريقها فى وجه روما ـ وقد صارت دولة مسيحية .. وكيف خالفوها الرأى وجادلوها فيه ..

لقد حاربت مصر احتلال روما بكل سلاح .. وعلى الرغم من طول فترة الاحتلال ، فقد كان النصر دائما للشعب .. اذ لم تستطع روما أن تصل الى روحه وطباعه ، فظل مصريا .. واستطاع بقوته أن يصهر فى بوتقته حضارة الرومان ونفوذهم !

غلبت مصر روما فكريا وروحيا ، وآثر أهلوها الفرار الى الصحراء بآرائهم وأفكارهم ودياناتهم ..

ولم يكن عجبا ـ وهم الأحرار ـ أن يتطلعوا الى مقدم الاحرار .. الذين كانوا فى ذلك الوقت يقطعون أوصال المارد الذى شاخ ، ويحطمون صولجانه ويثلون عروشه فى بلاد الشام ..

وشاءت ارادة الله أن يمهد شعب مصر للفتح العربى .. وأن يعد التربة الصالحة لاستقبال البذرة الطيبة ، القادمة اليهم عبر الصحراء ، حاملة ايمانا وعقيدة وشريعة وحياة

ولم يكن عجيبا أن يملأ الأمل القلوب .. وتغمر الامانى نفوس الشعب الثائر على

الرومان ، الراغب فى مقدم العرب الغازين بأفكارهم ودينهم ، لا بسلاحهم وجموعهم اللجبة ..

ولم يكن عجيبا أن يتلهف القوم فى مصر على سماع أنباء الكوارث التى نزلت بالرومان فى شتى المواقع التى خاضوها ضد العرب ، وأن يتعجلوا الحوادث ، ويسائلوا أنفسهم : متى يصل الى مصر هذا الغوث القوى الذى سيتقدم فيه الاعصار الشاب ، ليحطم المارد الرومانى ويزيل آثار وجوده من الوادى الخصيب ؟

***

وكان طبيعيا أن تحس مصر بالهزة الجبارة التى أحدثها الزلزال المحمدى ، وأن يتلقى أحرارها بالفرحة أنباء فرار طواويس روما من وجه العرب الجراء المغاوير .. وأن تنتقل هذه الانباء السعيدة عبر القرى والبلدان مع نسائم الصبح وهى تنتقل فى مساريها بين أعواد القمح اللينة فتتمايل سنابله فى أغرودة البشرى يعزفها النسيم لحنا يسرى فى مرح وحيوية وحياة ، فيصل الى شتى المسامع بعيدها والقريب وينفذ الى المحاريب فى المعابد والصوامع وتدق فى حذر منافذ البيع التى استقر بداخلها أحرار الوادى فى قلب الصحراء ..

أية أنباء ! وأية بشائر ، طالما هفت اليها القلوب الصادية ، أظمأها العسف .. فحنت الى ذلك الغيث الربانى ، حاملا فى طياته الايمان والعدل والحرية !

وألهبت أنباء انهيار الامبراطورية الظالمة ــ قلوب الاحرار الذين وقفوا بايمانهم أمام سلطانها وقواها ، ووثقوا أنهم لابد منتصرون ..

وثار فى قلوبهم من جديد حب الجهاد .. وأحست جموعهم برغبة ملحة فى استئنافه والانتظام فى صفوف أولئك العرب البواسل ، ليكون لهم شرف الثأر من طغاة الرومان!

وهكذا .. وأمام حرب التحرير الكبرى التى أثارها أبطال العرب ، أحس أحرار وادى النيل بصدى ذلك البعث الجديد .. ووجدوا فيه فرصتهم للثأر والتكتل لطرد الرومان من الشرق !

ومع مسارى الأهوية ، ترددت الهمسات المشبوبة .. وسرعان ماتجمع أحرار مصر وخيرة بنيها وتسللوا سرا عبر الحدود متطوعين فى الجيش العربى الغازى ، ليكون لهم فخر الاشتراك فى سحق الطغيان العتيد ..

والمصريون بوصفهم أهل حضارة ودين ــ قوم فيهم الوفاء وحب الدين ، وتقديس العبادات الداعية الى التحرر والجهاد بصفة خاصة .. لأن صلب عبادتهم القديمة كان الدعوة الى الفتح والقوة والتوسع .. فلا عجب أن يركن أحرارهم الى أحرار الدعوة المحمدية ، وأن يقبلوا بقلوبهم على الدين الجديد يستروحون فيه عبير دعوة جديدة الى جهاد مقدس لا لفرض سلطان وتملك .. بل دعوة تهدف الى جمع العالم كله فى صعيد واحد تظلله راية المساواة وينتشر فوقه قانون العدل والحب والاخاء ..

بهذا الروح السامى تقدم المصريون من العرب ..

وعلى ضوء تلك النورانيـة التى توهج بها الايمان القوى ، كان التعـارف ، وكان التواد .. وكانت الصلة القوية التى أكدها « عمرو » وثبت دعائمها ، وأحب أن يجعل منها تكأة لتكون له فاتحة خير لفتح ومزيد من التقدم والفتوح ..

لقد أحب « عمرو بن العاص » مصر .. ولم يكن غريبا أن يندمج والاحرار من أهليها ، وهو الذى طالما كانت له بالكثيرين منهم صلات تعدت روابط التجـارة والكسب الى الصداقة والاخاء ..

لقد عرف « عمرو » مصر وخبر أهلهـا خبرة التـاجر الذكى البعيـد النظرة .. فلا عجب وهو الداهية الحصيف ، أن يسـارع للاسـتفادة من هبوب رياحهم الجديدة النزاعة الى هدم العتيق القـائم على العسف والمظالم ، واعداد الاسس الطاهرة لاقامة البناء الجديد ..

واعتبر عمرو بن العاص أحرار المصريين الذين التفوا حواليه عيونا له وسـواعد ، وقوة يرجوها فى غد مأمول .. لتكون عدته لتحقيق حلم قديم .. بشرهم به محمـد رسول الله اذ قال :

« ان الله سيفتح عليكم مصر » .. وأوصاهم خيرا بقبطها ، فان لهم فيهم مودة ورحمة من عهد خليل الله ابراهيم عليه السلام ..

* * *

وشاءت ارادة الله فى تلك الفترة من فترات الجهـاد ، أن يظلل بالنصر ركاب عمرو ابن العاص ، ويكون التوفيق حليفه ، فيسير به من نصر الى نصر .. حتى لقد كان مجرد ذكر اسمه العظيم ، كافيا لالقاء الرعب فى قلوب الرومان المعسكرين فى فلسطين — وكان يسير اليهم بقواته ويضربهم الضربة تلو الضربة ، ويوقع بهم الهزيمـة فى اثر الهزيمة ، وهو سائر قدما الى الفتح المبين ..

وحقق عمرو الداهية بالقوة الفتية المحدودة العدد التى كانت تتبعه ، أعظم نصر ..

وكانت الضربة التى وجهها لقوات قيصر فى « اجنادين » مصـدر رعب لروما ، وأداة لتحطيم معنوية جنودها .. وكان من جرائها أن فتحت « غزة » أبوابها مرحبة بالعرب .. ثم لم تلبث أن نهجت نهجها بقية المدن .. وسرعان ما انهارت القوى الباغية ، واستسلمت الحاميات الرومانية فى « يافا » و « الرملة » و «صور» ..

واستمر عمرو فى تقدمه ، وقد تقوس الحديد الرومانى ولان وفقد صلابته أمام المطارق العربية .. وظلت الجيوش المظفرة فى مسـيرها تتبع طريقها المرسـوم لتصل الى « بيت المقدس » لتفتحه وتحرره باسم الله ، وتبنى فيه للعرب الأماجد عزا وسلطانا ..

وهاجم العرب المدينة المقدسة .. واستطاع « البطريق » ، زعيم بيت المقدس وقائده

الروحى أن يصمد ويقاوم ٠٠ حتى بعد أن تخلت عنه فلول الرومان ، طوال شهور أربعة، وجد فى نهايتها أنه يقوم بمحاولات مقضى عليها بالفشل ، لأنها أمام القوة الفتية التى تشبه الاعصار المشبوب وأن الصمود أمامها ضرب من ضروب المحال !

ورأى « البطريق » أن التسليم للعرب خير وسيلة لحقن الدم ، وحفظ التراث الدينى للمدينة المقدسة ٠٠

وأحب فى نفسه أن يختبر مدى سماحة أتباع هـذا الدين الجديد ، الذى بعث الله به محمدا ليتمم مكارم الأخـلاق ٠٠ وليرى كيف يحترم المسـلمون أهل الديانات الكتابية ، فكان أن بعث يفاوض الفازين المنتصرين فى شروط التسليم ٠٠

وطالب « البطريق » بأن يحضر أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » بنفسـه ، ليتسلم مفتاح « القدس » ــ ذات الأمجاد الدينية العريقة ــ من يد البطريق ٠٠

ولم يستطع عمرو أن يجزم بموافقة أو رفض ٠٠٠ وأسرع فأرسـل الى أمير المؤمنين ليحضر بنفسه ويشهد استسلام بيت المقدس ٠٠

وكان طبيعيا أن تمر فترة مهادنة بين المتحاربين ٠٠ وكان طبيعيا خلال هذه الهدنة أن تتجه قلوب أحرار وادى النيل الى مصرهم العزيزة ، ويتمنوا زوال الطغيان الرومانى وانحساره عن أرضها الطاهرة كما انحسر وزال عن فلسطين ٠٠

ويغلب الحنين الى تحرير مصر قلوب الأحرار من شبابها ، فيخرجون على شرعة الكتمان ٠٠ وتسارع جموعهم الى صديقهم الوفى القائد المظفر عمرو بن العاص ، ليبثوه شكواهم ويبوحوا له بما أمضهم من لواعج الحنين الى الوطن الحبيب .. ثم يسـألوه أن يكون وسيوف الله عونهم فى طرد أولئك الغاصبين !

وأصغى ابن العاص الى الهمسات المؤمنة بحق وطنها فى الحرية والسيادة ٠٠

وراقت له الفكرة وقد بسطها له القوم وزينوها وصوروها له فى هيئة حركة مباركة لن تكلفه أكثر من أن يسير قدما عبر سيناء ليصل الى الوادى الخصيب ، فيضرب الرومان الضربة الاخيرة المرتقبة ، التى سيكون معناها القضاء النهائى على طغيـانهم المقيت ، فلا تقوم لهم بعد ذلك قائمة فى الشرق أبدا !

وبلغت الحماسة بالمتحدثين مداها ٠٠ وراحوا يعززون الفكرة لعمرو ، وكيف أن مصر بأسرها ستؤيد مقدمه وتعزز تقدم قوات الفاتحين القـادمين بالحرية والنور الى شعب متعطش اليهمـا ٠٠ وكيف أن شعب وادى النيل بأسره سينقلب على الرومان ويقطع امداداتهم وتموينهم ويعوق تقدمهم ويعرقل تحركاتهم ٠٠ وأن حركة مقاومتهم السلبية التى استمرت سنين عديدة ستظهر اليوم ايجابيتها بصورة واضحة ٠٠

وراقت الفكرة لعمرو بن العـاص ٠٠ فسـيكون له ، فوق فخر السبق بفتح مصر

ونشر الاسلام فيها ، فخر تحقيق نبوءة رسول الله على يديه !

فراح فى شغف ينصت ويبحث ويدقق ويفحص •• فأسعده أن وجد التربة معدة ، والجو ممهدا ، والظروف مهيأة لاستقبال الحدث العظيم ••

وبالغ عمرو فى تفاؤله الى الحد الذى جعله يطلب من طائفة من مجاهدى مصر وخيرة بنيها ، أن يعودوا متسترين الى بلادهم ، ليبثوا الدعوة ويهيئوا الاذهان للفتح العربى الوشيك •• فأسرعوا تستخفهم الحماسة للدعوة المباركة التى سيكون من ورائها تحرير الشرق من ربقة الاستعباد والذل الى الأبد !

وبات عمرو بن العاص •• وأصبح ولا فكرة تشغله غير فتح مصر الخصيبة الغنية ذات الصيت والمجد التليد • حتى لقد آمن بأنه لابد وأن يتم على يديه هذا الامر العظيم

ولم يكد أمير المؤمنين يحضر الى « القدس » لبتسلمها من البطريق ، حتى أسرع عمرو يسر اليه برغبته فى فتح مصر ••

* * *

لقد كان تسليم بيت المقدس للعرب ، واتمام فتح فلسطين على يدى عمرو ، ضربة •• لم يتحملها هرقل الذى جاء من بلاده ليشرف على سير المعارك ، فأسرع هاربا ناجيا بنفسه

وأن فى هذا النصر المعنوى ، الذى عاينه أمير المؤمنين بنفسه ، لما يشجع عمرو بن العاص على مفاتحته برغبته فى فتح مصر الخصيبة ، التى فتحت ذراعيها وتعالت صيحات أهليها الاحرار داعية العرب الى القدوم ؛ لسحق قوات الاحتلال الباغى وطردها من شتى جوانب هذا الشرق العزيز ••

وأنصت عمر بن الخطاب الى حديث قائده وأخيه فى الله عمرو بن العاص •• وراح يفكر ويدبر •••

لقد فتح الله على المسلمين بلاد فارس والشام وفلسطين ••

وان الدولة الفتية لتمارس اليوم لونا من ألوان الحكم لم يكن لها به عهد من قبل ••

وان أقدام العرب الفاتحين لم تثبت بعد فى أماكنها الجديدة •• وأنه لجدير بأمير المؤمنين المسئول عن أقدار هذه الأمة الشابة ، وذلك الدين القيم ـ الذى دفع بأهليه الى تحقيق الامجاد ، أن يفكر لا فى فتح جديد ، ولا فى ارسال قوات أخرى عبر الصحارى والقفار ، بل فى تركيز ذلك الفتح وتعزيزه وتقويته بشتى الوسائل ليستقر ويعظم ويكتب الله له البقاء ••

وهكذا تردد عمر بن الخطاب فى أمر فتح مصر •• ولكن تردده لم يقنع عمرو •• وما كان عمرو ليسلم به أو يرضاه ، فعاد يطالب ويلحف •• ويهمس فى ايمان لأميره ، مبينا له مدى الغنم الذى سيعود على الاسلام من فتح مصر والقضاء على الفلول الباقية هناك من قوى الرومان ••

وأنصت عمر من جديد الى صاحبه وقائده ـ ثم عاوده من جديد تردده وخشيته ،

وراح يبين لصاحبه وجهة نظره ·· التى آمن بها عمرو ·· ولكنها مع ذلك لم تثنه عن تكرار الالحاح والاستمساك بمطلبه ··

لقد كان أحرار مصر يرون فى تقدم قوات المسلمين عبر الصحراء نحو واديهم أملا منشودا ، ورجاء عزيزا ، وأمنية غالية ·· وماكان العرب البواسل ليحجموا عن اسدائها !

انهم يبشرون بدين ودولة وحضارة وشريعة ··

وانهم كرسل صدق لهذه الفضائل ، واجبهم الاول يحتم عليهم الاستجابة والتضحية فى مثل هذا الموقف ··

على هذه الوتيرة أخذ عمرو بن العاص يضرب لصاحبه أمير المؤمنين ·· حتى لم يجد عمر بن الخطاب بدا من أن يوافق ، مادامت موافقته ستمنح أهل مصر ــ خؤولة العرب وأصهارهم ــ الأمل العزيز الذى ينشدون !

* * *

الله أكبر ! لا اله الا الله ، محمد رسول الله

انها صيحة الحق وشهادة الصدق ، وصك الرضوان ، تدوى فى جوانب الوادى !

وان أصوات الفاتحين فى تقدمهم الظافر لتعلو بها هاتفة من الاعماق :

لا اله الا الله ·· وحده ، لا شريك له فى ملكه ، هو الحق ·· هو العدل ·· وهو على كل شىء قدير ··

نفس الصدى المشبوب ·· نفس الأرنان العميق ··

هى ·· هى ، الدعوة السمحاء النقية !

هى ·· هى ، صيحة الحق والفوز والنصر المبين ··

ان الوادى الاخضر ليصغى الى الدوى المجلجل ، فيذكر شبيها له من قبل ·· دوى فى جنبات هذا الوادى منذ دهور عديدة خلت ! وعصور ماضية تولت ··

ولكن الأصداء الحبيبة مازالت باقية تتردد على الزمان شاهدة أن لا اله الا الله ، خلق فسوى ، وقدر فهدى ــ وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ·· ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا ··

وأصغى الشعب الذى تبدت بشائر تحريره من الغاصبين ·· وأنصت فى شغف ليذكر الماضى ويعرف متى سمع مثل هذه الصيحة ·· وأين ؟!

الله أكبر ، لا اله الا الله ! هتف بها خليل الرحمن ابراهيم «امام الشعوب» ·· وتردد صداها فى أجواء مصر ·· عاد بعدها أب الانبياء ، وقد ربط بين المصريين والعرب برباط المصاهرة ··

الله أكبر ، لا اله الا الله ! ــ هنا ·· علا بها صوت الصديق يوسف فى محنته ·· وبشر بها صاحبى سجنه ــ وقد أحب أن يرشدهما الى طريق الحق السوى ، هما وغيرهما ممن كانوا يصغون اليه ··

الله أكبر ، لا اله الا الله ! دوى بها فى مصر ، صوت موسى كليم الله ·· وقضى بها على كبير

طغاة الأرض، فرعون العاتى الظلوم الذى علا فى الأرض، وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويسبى نساءهم •• فجعله الله نكالا فى العالمين وأهلكه ، وأغرقه فى اليم ثم نجاه ببدنه ليكون عبرة للطغاة من بعده !

الله أكبر ، لا اله الا الله ! ترنم بها الفيلسوف الموحد « أخناتون » ودعا اليها وجاهد فى سبيلها ••

الله أكبر ، لا اله الا الله ! همهمت بها « مريم العـــذراء » ، وقد جاءت الى مصر هاربة بمسيح الله عيسى ، لتخفيه بعد مولده من بطش هيرود !

الله أكبر ، لا اله الا الله ! هتفت بها حناجر أهل مصر وآمنت، فثار الأباطرة وعذبوهم وطاردوهم ، فخرجوا بدينهم هاربين الى الصحراء ••

الله أكبر ، لا اله الا الله !

انها صيحة تعرفها مصر كلها •• وتؤمن بها مصر كلها •• وتعرف أنهـــا دعوة الحق وصيحة الحق ، وأن أصحابها ولا شك أنصار الحق ورجال الله وأسيافه ••

الله أكبر ! ان عمرو ليتقـــدم باسم الله مؤيدا بنصره •• وهاهم أولاء فلول الرومان يفرون مرة ، ويقعون فى الاسر أخرى ، وتزهق أرواحهم تحت النصل القوى كالحصيد !

والشعب •• انه يعبد الطرق •• يقاوم ما وسعته المقاومة •• ينزل الرعب فى قلوب الرومان •• يقطع أوصالهم •• يمزق وحدتهم •• يقذف فى قلوبهم الرعب •• يريهم من الانتقام آيات تجعلهم يؤثرون السلامة ويفرون هاربين !

وسقطت «بلوزيم» وسلمت حاميتها الرومانية وقد ذعر قادتهـــا من عنف الهجوم ، واندفعت فلولهم تتلمس النجاة بعيداً عن الســـيوف العربيـــة المشرعة ، التى ما أن تم لأصحابها تملك الحصن الاول ، الذى يعتبر مفتـــاح حـــدود مصر ، حتى اندفعوا كالسيل العرم منتشرين فى خط طويل مهد الفدائيون المصريون لتقدمه •• حتى وصل فى النهاية الى « بلبيس » ••

***

وأمام بلبيس ، هذا الحصن الشامخ العتيد ، وقف العرب وقفة.. لم تطل ، اذ حملوا على أعدائهم فى عنفوان وقوة.. حملة سرعان ماانهارت لها مقاومة الرومان ففروا تاركين الحصن ، وقد أزيلت مواقعه وتهدمت استحكاماته وفتحت أبوابه •• واذا بها بين ليلة وضحاها معبر المنتصرين فى تقدمهم السريع !

ووصل العرب فى سرعة مذهلة الى الحصن الرومانى الذى كان يقع فى مواجهة «منف» العاصمة الفرعونية ، والذى كان يعرف وقتها باسم ((الحصن البابلى)) ـ فداروا حواليه وحاصروه أدق حصار ، اذ تكدست فى داخله جموع الرومان المعسكرة فى تلك الجهات والتى فرت أيضا عن المدن التى تم فتحها ••

ووقف عمرو فى الفضاء الفسيح المشرف على الحصن البابلى يرقب جيشه ‥ وينظر ناحية الحصن المنيع ذى المداخل السرية الملىء بالمؤن والذخائر وجنود الاعداء ‥

ووجد أن الحكمة تقضى باليقظة ‥ والانتظار بعض الوقت ، لاحكام الحصار وقطع كل صلة يمكن أن تحدث بين الرومان المحاصرين وأى قوة أخرى تمدهم بميرة أو عتاد أورجال

وسار عمرو شمالا فى هدوء ويقظة حتى باغت حامية « أم دنين » فتخلص منها وقضى على أى أثر يمكن أن تحدثه فى حصاره المضروب على الحصن ‥ ثم راح يفكر فى اشغال جيشه لبعض الوقت ، ليشعر الرومان المحاصرين داخل الحصن أنه يعمل للقضاء عليهم فنقل مراكزه الى منف نفسها ليشرف على الحصار من هناك وليتجنب خوض معركةفاصلة مع الرومان ‥

أبدا ماتبادر الىأذهانالرومان‑ سادة الحرب ودهاقين الوغى وأرباب فنونه ‑ أنعمرا انما انسحب منأمامهم لتجنبموقعة فاصلة‥ وأن خطة عبوره النيل واقامته معسكره فى منف ، كانت ضربة موفقة أراد بها أن يغطى موقفه ويستمر انتظار جنوده ‥ حتى يأتيه المدد الذى بعث يطلبه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ‥

***

كان عمرو القائد الداهية ، قد وصـل الى قلب مصر ‥ وكانت وقفته الجريئـة فى منتصف الطريق بين الوجهين القبلى والبحرى ، ضربة موفقة شـطرت قوات الرومان ، ومكنته وحلفاءه المصريين من سرعة العمل لتغطية الانتظار الذى أراده هو ليعزز جيشه العظيم ‥‥

لقد عرف عمرو صعوبة الطريق ، وكثرة المقاومة التى سوف تعترضه فى تقدمه لاتمام تحرير مصر ‥ فأرسل الى أمير المؤمنين يسأله العون وقد بيت فى نفسه خطة ‥

لقد قطع الطريق بين قوات الشمال والجنوب ‥ وحكم بالسجن على كثرة عظيمة من المحاربين فى الحصن البابلى ‥

ثم ، هاهو ذا يرسل الرسل ، ويبث الدعاة من أهل مصر للتحدث عن قواته ، وكيف سيبيد الرومان ويحطم قواهم كما كسرهم قبلا فى فلسطين ‥

واستطاعت الدعاية وقوة الحصار المضروب أن تؤتى ثمارها ‥ فلم تكد النجدة تصل من المدينة ، يقودها ((الزبير بن العوام)) و ((المقداد بنالأسود)) حتى كان عمرو قد أعد الخطة الجريئة للموقعة الفاصلة بينه وبين الرومان ‥

وقسم القائد العربى الداهية جيشه الى ثلاث فرق ‥ ثم أذن بالقتال ، وجعل نفسه على الفرقة الاولى وهى القلب وهاجم بها الأعداء ‥

فلم تكد جموعهم تكر ناحيته حتى تراجع ليخرجهم من مكامنهم ‥ ثم مالبث أن هجم الجناحان العربيان على جانبى الرومان ؛ فدارت عليهم الدائرة فى « عين شمس » وتبدد جمعهم ‥ وأسرعت فلولهم لاتلوى على شىء ، لتحتمى مرة أخرى « بالحصن البابلى » !

وأسرع عمرو الى موطن الخطر وقد استقر به الرأى على أن ينهى هـذه المقاومة بصفة نهائية ، فأحكم الحصار هذه المرة على الحصن المارد ..

وظل فى وقفته تلك صامدا قرابة ثمانية أشهر وقد قطع كل سبيل على أى نجدات أو مدد للمحاصرين الذين أرهقهم طول الحصار ، وقضت على معنوياتهم شدة العرب ، فطلبوا التسليم .. وعاهد رسلهم العرب على ذلك فى «جزيرة الروضة» وتم التحالف ، وأرسلت بنوده الى « هرقل » الذى انفطر قلبه كمدا وقد رأى امبراطوريته الفسيحة تتضاءل وتنهار أمام العرب المغاوير !

وترددت فى جوانب مصر صيحة الظفر ..

وبدأت المقاومة المصرية المستترة تظهر جهارا ، وقد طفت من أعماق القلوب الكراهية المتأصلة للرومان .. وراح القساوسة والبطارقة من أهل مصر يثيرون الناس ويذكرونهم بالصراع المذهبى بينهم وبين الكنيسة الرومانية .. وكيف اضطهدتهم روما وتحكمت فى عباداتهم ومذاهبهم وصادرت حرياتهم وألجأتهم الى الصحراء زمانا طويلا !

كان الرومان يتبعون المذهب « الملكانى » وكان المصريون يتبعون مذهب «اليعقوبيين» وفرق بين المذهبين ..

لهذا لم يكن غريبا أن يحاول الرومان ، بوصفهم السادة الحاكمين ، أن يفرضوا مذهب « الملكانى » على أتباعهم من « اليعقوبيين » الذين أبوا الخضوع لهذه السيادة .. فكانت الكراهية وكان الجهاد المستتر الذى أخذ يظهر ويعظم بعد سقوط الحصن البابلى وضياع هيبة الرومان ..

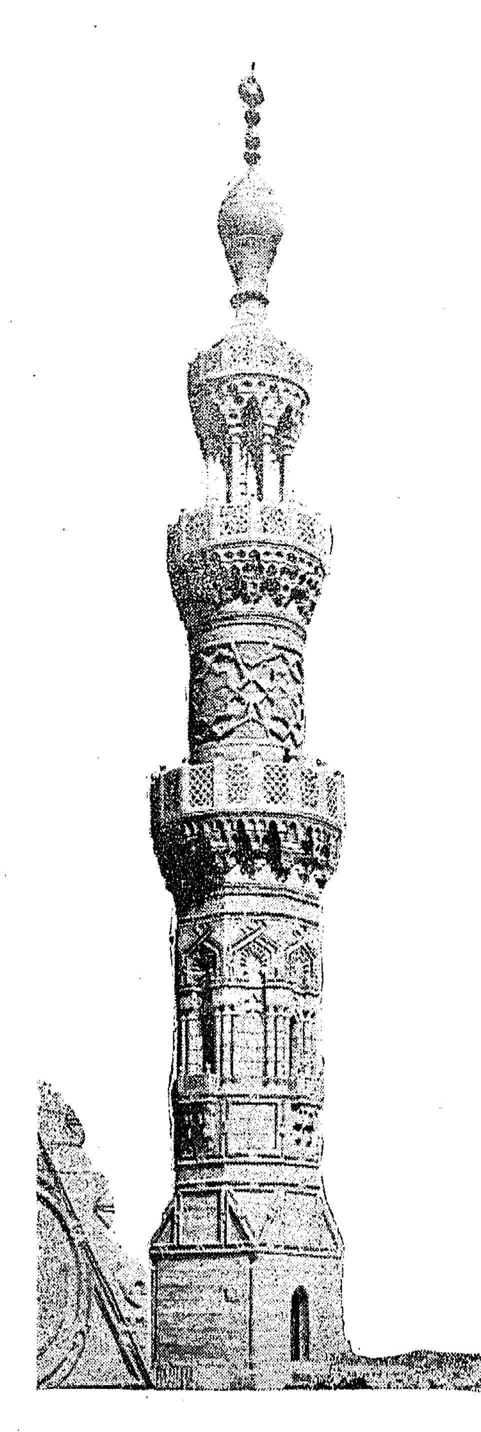
وتدارس المصريون وحلفائهم العرب خطة الهجوم ... وكانت المشاورة تقضى بتوجيه الهجوم الى الاسكندرية بالذات ، فهى عاصمة الرومان وهى حصنهم وهى نقطة اتصالهم بامبراطوريتهم وقادتهم وحكامهم .. ثم هى فوق هـذا كله موطن أحرار مصر وكبار مجاهديها الذين كانت لهم ضد الرومان وقفات مشرفة وجهاد معروف ..

وقبل أن يتقدم عمرو الى الاسكندرية ، حاصر الفيوم واستولى عليها .. ثم ترك حامية عربية فى الحصن البابلى . وسار بعد ذلك فى محاذاة فرع رشيد ؛ ليصل الى الاسكندرية محطما فى طريقه كل قوة رومانية كانت تعترضه .. حتى طهر الطريق كله من الرومان وألجأهم بجموعهم الى الاسكندرية ثم فرض عليهم الحصار البرى الطويل !

وبعد حوالى عام أو أقل قليلا ، بدأ الظل الرومانى ينجاب عن الاسكندرية .. واقتنعت الدولة البيزنطية فى النهاية أن بقاءها فى مصر مستحيل أمام القوة العربية ، واندماج مقاومة المصريين فيها ..

فكان أن رحلت قواتهم بحرا ، تاركة وراءها جنة الله ؛ لتستقبل عهدا جديدا من النور والحياة ..

إمام المساجد



« مئذنة قايتباي بالأزهر »

انطلق معاوية بن خديج الى المدينة تسبقه الفرحة ، ليحمل الى أسماع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنباء انتصارات قائده عمرو ابن العاص في وادي النيل ، ويصف له مدى التوفيق الذي لازم حملته المظفرة التي نجحت في طرد الرومان الغاصبين وقذفت بجموعهم الفارة الى البحر ، وحررت مصر ، كنانة الله في أرضه، من رجس الاستعمار ..

وارتاح أمير المؤمنين الى النبأ السار ، وامتلأت بالسعادة نفسه ، اذ شهد احدى بشائر صاحبه محمد عليه الصلاة والسلام بالفتح المبين .. ودعا مسرعا الى صلاة جامعة ، للشكر على أنعم الله وما من به على الدولة الفتية .. ثم صلى بالمسلمين صلاة الغائب على أرواح من استشهدوا في مصر وروت دماؤهم الزكية التربة الخصبة التي تفجرت منها أولى الحضارات ..

ولم تمض على وصول بشرى فتح مصر الى أمير المؤمنين أيام قلائل ، حتى كان قد وصل كتاب مفصل من عمرو يقص فيه على عمر بن الخطاب طرفا مما حدث .. وكيف هي الكنانة اليوم تحت الظل العربي سعيدة فرحة .. ترنو الى المستقبل وترجو الخير على يد الاخوة الذين حرروها من النير وقذفوا بأصحابه بعيدا الى غير رجعة ..

وأمام فتح مصر الخصيبة ذات الأمجاد ، وانضمامها الى كتلة الدول التي بدأت تتكون منها أول امبراطورية اسلامية ـ وجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن خير مايجزى به قائده الظافر عمرو بن العاص هو أن يقره على ولاية ذلك الاقليم الشهير ، ويسند اليه أموره



كان مسجد عمرو بن العاص يوم انشىء سنة احدى وعشرين هجرية ، اثنين واربعين وستمائة ميلادية يتسم بالبساطة الكاملة : فضاءرحب ، تسوره جدران عادية .. وله بابان يقابلان داره ثم بابان آخران فى ناحيته البحرية ، وبابان فى ناحيته الغربية ..

وكان سقفه المصنوع من الجريد منخفضا جدا واتخذت اعمدته من جذوع النخل ولم يكن له صحن يتسع لجلوس المسلمين .. وكان بينه وبين دار عمرو بن العاص سبع اذرع

جمعاء . فهو بمصر أخبر العرب ، وهو الى قلوب أهليها أقرب الناس ، وأعرفهم بها من حيث مسالكها وخيراتها وأسرارها وخراجها ومواسم الزراعة والاعياد فيها وأنه بعد هذا كله أقدر فاتح على السير فى الكنانة سيرة العدل والاحسان ونشر رسالة الدين السمح وتقريبه الى القلوب ..

وأرسل عمر الى قائده يوليه حكم مصر ويقره عليهـا ، ويطلق يده للتصرف فيها بما أمر الله ..

وبدأ عمرو يعمل فى همة عرفت عنه فى شتى أدوار حياته .. وكان أن فكر أول مافكر فى انشاء حاضرة لحكمه الجديد ، ومسـتقرا لسلطانه .. وأراد لهـذه الحاضرة أن تكون مدينة جديدة تصطبغ بالصبغة الاسلامية ؛ وتسودها التقاليد العربية لتكون مقرا للدعوة الدينية أولا ، ثم مستقرا للجيش الفاتح بعد ذلك ومن معـه من العرب القـادمين ، ومن سـيفدون على القطر الذى وصله بهم الفتح ـ والذين سـيكونون أنموذجا فى حيـاتهم وتفكيرهم ومعاملاتهم لسائر الأهلين .

ولم يبحث عمرو طويلا عن المكان الذى سيقيم فوقه حاضرته العربية ، اذ وجده الى جانبه فى ذلك الفضاء الذى نزل فيه أول مانزل بجنده .. وكان منزله فيه فاتحة خير على الحملة العربية كلها ؛ اذ واتاها النصر بعد ذلك واستقرت لها الغلبة واعتزت بالمدد القادم من مدينة رسول الله ، فكان هجومها التـالى على الرومان المحـاصرين أول ضربة أطارت صواب العدو وأذهلته ..

لقد عرف عمرو تلك البقعة الغالية جيدا ، وعرف قيمة موقعهـا الممتاز الذى عاينـه بنفسه ، وعرف الى أى مدى يتحكم فى مواصلات الوجهين : البرية والنهرية .. وكيف يستطيع وهو فيه أن يشرف على الشمال ويبسط سلطانه على الجنوب ، ويكون صاحب الغلبة على من حواليه والسيد المطلق ..

وكما اهتدى عمرو بسليقته الحربية الفذة الى ذلك المكان ، كذلك هداه اليه المصريون وجاءوا يحدثونه عن ماضيه .. ومدى ما أفاده حكامهم الاوائل من جعل حواضرهم قريبة منه ، ليسهل لهم الاشراف على جميع اطراف البلاد ..

وهكذا استقر الرأى بعمرو بن العـاص على أن يجعل من الارض الفضـاء الشاسعة المجاورة للحصن البابلى حاضرته الجديدة خاصة وأنها كانت فوق ماذكر .. أحب البقاع اليه ؛ ففيهـا عرف الراحة بعـد أول غزوة يغزوها قائدا فى سبيل الفتح ، وفيها أقام فسطاطه ، وحواليها تناثرت خيام جنده ، وفيها شهد احدى الحمائم البرية تتخذ لها من أعلا الفسطاط عشا تأوى اليه وتضع فيه فراخها .. فكانت فالاحسناوبشيرا بالاستقرار!

***

وأمام هذا كله .. أمر عمرو بأن يكون المكان حاضرته ، وصرح لرجاله أن يقيموا فيه

دورهم وأن يعمروه ويجعلوه مدينة عربية ذات طابع اسلامى بحت يكون نموذجا بعد ذلك للاهلين ، اذا ماحدن وتدارسوا الدين وأحبوا الدخول فيه ٠٠

واختط عمرو بذلك عاصمته ٠٠ وأسماها « الفسطاط » نسبة الى فسطاطه الذى كان أول ما أقيم فيها واشارة الى استقرار العرب الأول فى تلك البقعة المباركة ٠٠

وشاءت حكمة عمرو أن يوطد أركان دعوته فى البلاد التى فتحها باسم الاسلام ٠٠ فأشار على قومه وجنده أن يختلطوا بالأهلين ، تدعيما للصلة الجديدة ، وربطا بين القومية المصرية الأصيلة والعربية الوافدة عليها ٠٠

ثم بعث الى أمير المؤمنين بكتاب ضمنه كل هذه الخطوات ٠٠

ووصل كتاب عمرو الى عمر بن الخطاب ٠٠ فكان حافزا لأمير المؤمنين ، على التفكير ، لا فى أمر مصر وما فعله عمرو فيها ، بل فى أمر تلك الامصار جمعاء ، وقد فتحها الله على المسلمين ، وبدأت تنتشر فيها الدعوة الى دين الله ، الذى بدأ الناس فى شتى أصقاع العالم يدخلون فيه أفواجا ، ايمانا منهم بالحق ورغبة منهم فى أن يكونوا متساوين مع العرب الذين عظم شأنهم فى شتى الحقوق والواجبات ٠٠

ورأى عمر بن الخطاب ، أنه مادامت قد أنشئت حواضر عربية فى البلاد المفتوحة ، فانه استكمالا للطابع الدينى لهذه المدائن الجديدة ، يجب أن تكون بها مساجد جامعة ٠٠ لهذا أسرع فأرسل الى ولاته فى الشام والكوفة والبصرة ومصر بأن يتخذ كل منهم مسجدا للجماعة ، وألا يقيموا فى موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر ٠٠ وأن يجعلوا للقبائل مساجد بين بيوتهم فاذا كان يوم الجمعة حضروا الصلاة جميعا فى مسجد الجماعة

وأسرع عمرو بن العاص لينفذ أوامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠٠ وشرع يعد العدة ويتخير المكان الذى سيقيم على أرضه جامعه الكبير ، ليعزز وجوده العاصمة الاسلامية ، ولتكون اقامته فيها دليلا على صفته المعروفة لأمثاله من المساجد الجامعة ، يجعله مقرا للدعوة والحكم ؛ فتقام فيه الشعائر ويتدارس الدين ، وتنعقد فيه مجالس القضاء والشورى ومنه تصرف شئون الدولة جميعا ٠٠

ولم يطل بعمرو بحثه عن مكان مناسب ليقيم عليه الجامع الكبير ، اذ وجده فى قلب الفسطاط ٠٠

كان ذلك فى السنة الواحدة والعشرين من الهجرة المحمدية المباركة ٠٠ وكانت مصر حديثة عهد بالفتح العربى ٠٠

وكان للناس فيها أحاديث عن العرب ، بلغ بعضها حد الاسطورة ٠٠ ووصل البعض الآخر حد التحيز ، فى حين كان بين الأحاديث مايرتقى الى درجات الدعاية ، المختلفة الوجوه ، فبعضها يمدح والآخر يقدح ٠٠

ولم يكد عمرو يفكر فى اقامة جامعه الكبير ، حتى انطلقت الشائعات عبر القرى ٠٠

والدساكر حتى وصلت الى المدن واستقرت فى الاسماع مع محسنات غريبة ، أو مشوهات ، بعضها منفر وأكثرها مكذوب ••

لقد عرفت الجاهلية عمرو بن العاص داهية من الدهاة •• وعرفه الاسلام رجلا استغل ذكاءه في خدمة الدين ، فكان القائد الفرد الموفق الذى كان يضع خطته على أسس دقيقة تضمن له الفوز دائما •••

اذن •• فقد كان صاحب عقلية نادرة يميزه ذكاء مفرط ، وبعد نظر ، وتمكن من الأمور ، لهذا لم يكن عجيبا أن تدور الشائعات حول ذكاء عمرو •• وليكن بناء المسجد الجامع الذى سيكون مسجد الولاية الرسمى ، أول مصدر لانطلاق الشائعات •• حتى لو كانت هذه الاستعانة خاصة بغصب أرض من أصحابها دون دفع أجر لها وخداع هؤلاء الملاك لغرض اتمام بناء المسجد •

وانطلقت أولاها تقول : ان الصحابى الجليل والفاتح الأشهر « عمرو بن العاص » استعرض الفسطاط كلها •• فراقه مكان وجده أنسب الامكنة لاقامة المسجد الجامع •• فسأل عن أصحابه ، فقيل : انه لسيدة من ثراة الاقباط تملك بستانا مجاورا لذلك الفضاء الرحب •• فأرسل اليها من يسألها أن تمنح المسلمين من أرضها هذه مايكفى لان يكون مناخا لناقة عمرو !!

وقالت المرأة فى سماحة : « حبا وكرامة » ليأخذ الأمير من أرضى مايكفى لان يكون مناخا لناقته ••

وابتسم عمرو •• وكتب اقرارا على المرأة بهذا التنازل ••

وما أن حصل عمرو على هذا الاقرار حتى جاء بجلد ناقة وراح يقطعه حتى صار حبلا طويلا جدا •• ثم راح يحدد به مساحة من الارض ، حسب سعة الحبل وطوله من شرقيها وغربيها وشمالها وجنوبها ثم أخذ فى البناء !!

وراع المرأة أن رأت الأمير يغتصب كل هذه المساحة الكبيرة من أرضها ! ولكنه ذكرها بتصريحها له واقرارها المكتوب بمناخ للناقة ! وانه لم يفعل أكثر من أنه أخذ من الأرض بقدر جلد الناقة بعد أن حوله الى حبل طويل !

***

وكادت المرأة أن تسكت أمام هذا الدهاء ، وأن تسلم للأمير بما فعل •• لولا أن عمرو ابن العاص قد راق له أن يستمر فى دهائه ؛ واغتصاب أرض رعيته من المصريين ، بأن أدخل جزءا من بستان المرأة فى حدود مسجده ، بحجة أن الظل والماء لازمان للمصلين !

وغضبت المرأة واستشارت عقلاء قومها ، فنصحوها بأن تتظلم الى أمير المؤمنين من عامله على مصر ، فترفع اليه بشكوى تقص فيها قصتها •• ففعلت ، وأرسلت بذلك كتابا مع رسول الى عمر بن الخطاب ••

ووصل الرسول المصرى الى المدينة ٠٠ وسأل عن ديوان أمير المؤمنين : فقيل أنه ليس لعمر بن الخطاب ديوان ! فطلب أن يرشدوه اليه ، فأشاروا له الى رجل كان يجلس على كومة من الحصباء ٠٠ فدهش الرجل المصرى ، وظن أن القوم يسخرون منه ! ولكنه ذهب الى ذلك الجالس وحده بلا خدم ولا حراس ولا أبهة ٠٠ وأسلمه شكوى المرأة المصرية ٠٠

وفض عمر بن الخطاب الرسالة وقرأها ٠٠ ثم طلب رقا كتب فيه :

« من عبد الله عمر بن الخطاب ٠٠

الى العاصى بن العاص ٠٠

أما بعد ، فنحن أولى بالعدل من كسرى ! »

وختم الكتاب وأعطاه للرسول المصرى ، فحمله وهو يائس من نتيجته ، وعاد الى الفسطاط وأسلمه الى عمرو ، الذى لم يكد يقرأه حتى خر على وجه باكيا ٠٠ وذهب لتوه الى المرأة المصرية متوسلا يرجوها أن تغفر له خديعته اياها ويسألها أن تطلب الثمن الذى تريد أو يهدم مابناه !

***

ويأبى مروجو الشائعة بعد هذا الا أن يختموها بخاتمة مسرحية ! اذ لم تكد المسألة تتعقد الى ذلك الحد ، ويحار الوالى أمام رسالة اميره العادل – حتى تسارع المرأة المالكة بالمساهمة فى التضحية هى الاخرى ، فتقر ملكية عمرو للارض وتبارك اقامة المسجد الجامع عليها ! وتتمادى فى كرمها بعد هذا فتعلن اسلامها وتدخل عن صدق وايمان فى دين الله بعد أن رأت هذه الآيات السمحاء من أمير المسلمين العادل العظيم !

والقصة ولا شك لاتعدو أن تكون خيال قصاص بارع ٠٠ أو خرافة راوية من نسج الواهم اتخذ الناس منها مادة للسمر فراحوا يتبادلونها مرة بالتحبيذ وأخرى بالاستنكار وثالثة بالزيادة عليها ، من باب الحماسة للكرم العربى والاشادة بالعدالة الفذة التى اشتهر بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠٠

ومادمنا فى موضع التاريخ الحق لبناء المسجد الجامع «امام المساجد» ومقدم المعابد ، وقطب سماء الجوامع ، ومطلع الأنوار اللوامع ٠ عين قلادة البنيان ، وعقيلة بيوت الملك الديان ، موطن أولياء الله وحزبه ، ومنزل اشياع الدين وصحبه ٠ طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه ، وواظب على القيام بنواحيه ، وتقرب منه الى صدر المحراب ، وخر لديه راكعا وأناب ، ومال اليه كل الميل ، وجنح الى حضرته فى جنح الليل ، وصرف همته باجتناء ثمرة خيره ، وأدرك فضيلة جماعته التى لاتحصل أبدا فى غيره »(1) ٠٠٠

---

(١) ابن دقماص ج ٤ – ص ٥٩

أقول : مادمنا فى موضع التأريخ الحق لبناء المسجد الجامع ، فقد كان موضعه الأول دار قيسبة بن كلثوم النجيبى وهو واحد من بنى «سوم» حضر الى مصر مع جيش عمرو ابن العاص ، وكان ممن لهم شرف الجهاد فى شتى المواقع واحراز النصر . .

ويوم وفد قيسبة على مصر مع الجيش الفاتح لم يكن وحده ، بل كان مع اهليه وخدمه .. وكان يملك مائة بعير وثلاثين جوادا كريما ومائة عبد . . وقد نزل بهؤلاء جميعا فى « الفسطاط » ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المسلمين المحاربين الذين أقاموا خيامهم ودورهم بعد ذلك حول فسطاط قائدهم العظيم ..

ولما أنشأ عمرو عاصمته الجديدة ، وأقام العرب لانفسهم الدور بدل الخيام ، دلالة على الاستقرار ، واتخذت كل قبيلة حيا خاصا بها ــ أصبح المكان الذى نزل فيه قيسبة وأهله ملكا له ، فأنشأ فيه دارا وبستانا ..

ولم يكد اختيار عمرو يقع على مكان دار قيسبة ليقام على أرضها المسجد ، حتى بعث فى طلب الرجل .. وعرض عليه الأمر ، وسأله أن ينزل له عن ذلك الموقع الطيب ؛ ليكون أول مسجد يقام بأرض النيل لآداء شعائر الصلاة ..

وأبى كرم عمرو أن يسأل قيسبة الدار منحة ، بل رجاه أن يتخير من الارض مايشاء ، وسيقيم له عليها الدار التى يشاء فى مقابل داره ان هو نزل عنها لتكون موضع المسجد الجامع ..

ولم يطل بعمرو انتظار رد صاحبه قيسبة ، الذى اغتنمها فرصة يكون له فيها أعظم أجر وأخلد ثواب ، فجاء الى أميره العظيم ليقول له وللمسلمين من حوله :

« قد علمتم يا معشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته ، وأنا أتصدق به على المسلمين » !

وهلل المسلمون وكبروا .. وبارك عمرو بن العاص هذا الكرم العربى وعاد يعرض على قيسبة أن يقيم له من بيت مال المسلمين دارا بدل داره .. ولكنه أبى ، وأصر على أن يشترى بداره ، يوم يقام مكانها المسجد الجامع ــ عز الدنيا وثواب الآخرة !

وهجر قيسبة بيته وأسرع بأهله ومتاعه وما عنده من اماء وعبيد الى حيث كان قومه من « بنى سوم » ، فنزل بينهم .. ولم يكن من الصعب عليه ــ أمام انتقاله هذا ــ أن يجد فى الفضاء الرحب الذى كانوا يسكنونه مكانا مناسبا اختط فيه دارا لسكناه ..

وهكذا أزيلت دار «قيسبة» من مكانها .. وأسرع المسلمون يمهدون الأرض ويعدونها للبناء بهمة عرفت عنهم فى أمثال هذه المناسبات ذات الصلة بشعائر الدين ..

وأعدت الارض .. وراح المسلمون يفكرون فى البناء وصفاته وهيئته .. وكيف سيقام ؟! وأى مساحة سيشغل ؟!

وتطوع شقيق المقوقس ــ عظيم القبط فى مصر ــ بمشاركة من وكل اليهم أمر الاعداد

فى الرأى .. وراح بماله من خبرة . يرسم معهم الخطوط الاولى للمسجد الجديد ويحددون معالمه ..

وبناء مسجد اسلامى أمر عادى .. ولكن هذا المسجد « الجامع » الذى أراد له عمرو أن يكون على نمط جديد فى بلد فتح حديثا ليكون مقر الدعوة والحكم ـ لاشك أن أمر بنائه سيكون عسيرا دون الاستعانة بخبرة هندسية .. لاسيما وأن المساجد الاسلامية نفسها لم تكن ذات أشكال أو أحجام تقليدية .. أو مواصفات مفروضة ـ لهذا رأى عمرو ابن العاص أن يشرف على عملية البناء أربعة من أجلاء الصحابة ، هم : أبوذر الغفارى ، وأبو بصرة ، ومحمئة بن جزء الزبيدى ، ونبيه بن صواب البصرى ـ الذى بلغت منه الحماسة لسرعة اقامة جدران المسجد مداها ، فراح يصنع اللبن بيديه ويرفعه الى مكانه من البناء .

وظل العمل يجرى أياما فى ذلك الفضاء الرحب .. حتى استكمل المسلمون اقامة الجدران ، وتم تسوير المسجد واتخذ شكله الخارجى .. وكان عاديا الى حد بعيد ، خاليا من النقش أو الزخرفة أو المحسنات المعمارية ..

أما مساحة المسجد نفسها وقت انشائه ، فقد كانت صغيرة ـ لم تزد على ٣٠ × ٥٠ ذراعا .. وكان فى مكان متوسط من الفسطاط تحيط به المساكن من كل ناحية ..

ولم تكن للمسجد يوم أنشىء ـ سنة ٢١ هجرية ، ٦٤٢ ميلادية ـ مظاهر تقليدية تدل عليه اطلاقا ..

كان يتسم بالبساطة الكاملة : فضاء رحب ، تسوره جدران عادية .. وله بابان يقابلان دار عمرو بن العاص ، ثم بابان آخران فى ناحيته البحرية ، وبابان فى ناحيته الغربية .. وكان سقفه المصنوع من الجريد منخفضا جدا واتخذت أعمدته من جذوع النخل ولم يكن له صحن يتسع لجلوس المسلمين .. وكان بينه وبين دار عمرو بن العاص سبع أذرع (١)

ووجد عمرو نفسه بعد اقامة الجدران ، أمام اشكال فنى خاص بتحديد القبلة نفسها ، وكيف يمكنه ـ دون الاستعانة بآلات هندسية دقيقة ـ أن يعين مكانها الذى حدده الله فى البيت الحرام فى قوله سبحانه « **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** » !

اذن .. فالضرورة كانت تقضى بأن تتجه قبلة المسجد الجامع الجديد الى المسجد الحرام لتستكمل صفتها الشرعية ويستقيم وجودها الدينى وتؤدى الغرض المطلوب من اقامتها

ولم يجد عمرو كبير مشقة فى البحث ، فالعرب أهل نجابة فطرية ، ولهم خبرة بالفلك .. وهاهو ذا عمرو يستدعى « **ربيعة بن شرحبيل** » ، « **وعمرو بن علقمة القرشى** » ـ ويقول لهما :

---

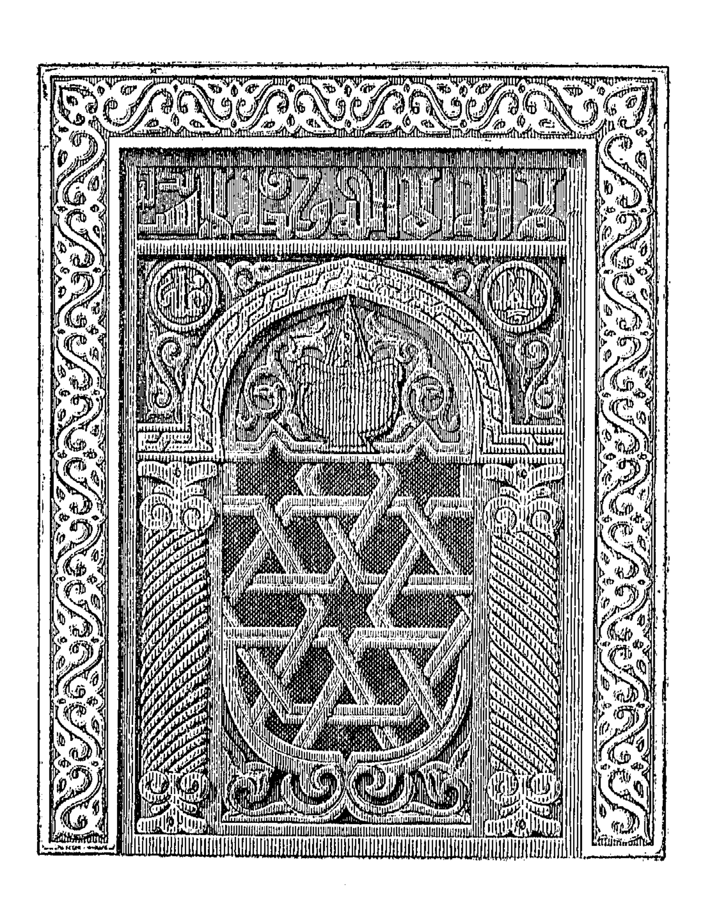
(١) **المقريزى** ج ٢ ص ٢٤٧

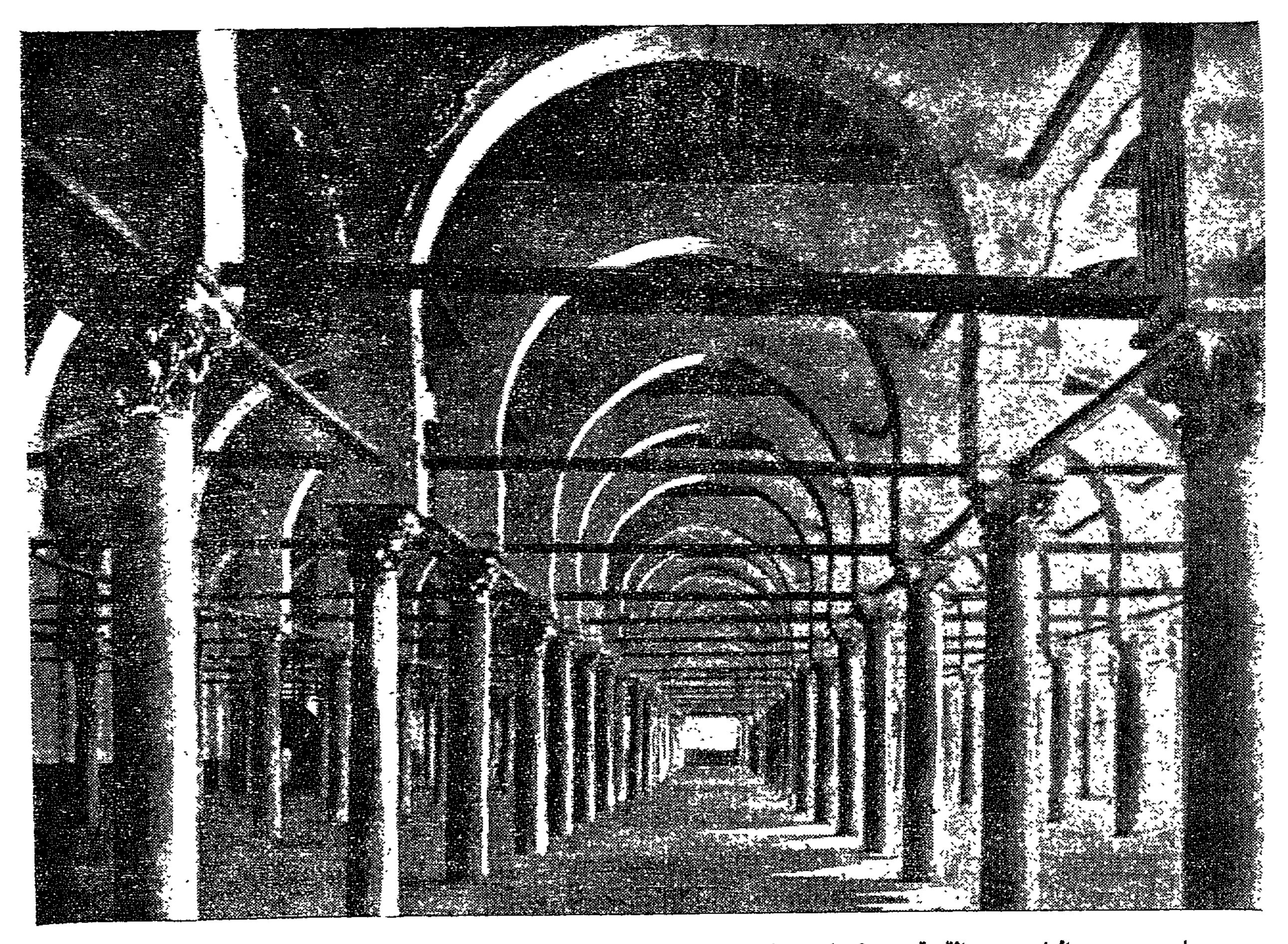
« اذا انتصفت الشمس فاجعلاها على حاجبيكما » ٠٠ فأطاعا وحددا المكان، فراح عمرو يشد الحبال ويمدها ثم قال : « شرقوا القبلة تصيبوا الحرم » !

وهكذا حدد عمرو بن العاص مكان قبلة المسجد الجامع ٠٠ وقد حضر تحديدها معه ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله ، بينهم «الزبير بن العوام » والمقداد بن الاسود » ، و « عبادة بن الصامت » ، و « رافع بن مالك » و « أبو الدرداء » ، و«فضالة بن عبيد » ، و« عقبة بن عامر » ، وغيرهم من أجلاء الصحابة ٠٠

ولم يكن لجامع عمرو يوم تم بناؤه ، محراب مجوف ، ولا منارة ، ولا منبر ، ولا فرش ٠٠ سوى الحصباء التى فرشت أرضه بها ٠٠

وجعل عمرو من مسجده الجامع المسجد الرسمى للدولة الجديدة ، فيه ينعقد مجلس القضاء والشورى ٠٠ ومنه تعرف أمور الدولة جميعا وافتتحه بأول صلاة جمعة جامعة عقب الانتهاء منه مباشرة ٠٠ وسمى المسجد باسمه ٠٠





جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة بعد الزيادات التى أضيفت اليه .. انشأه صاحبه عام ٢١هـ - ٦٤٢م - عصر الخلفاء الراشدين

تقاليد

باتمام بناء مسجد عمرو بن العاص الجامع بعد الفسطاط ، واقامة شعائرالدين فيه ٠٠ استكمل الفتح العربى مقومات وجوده الروحى كحامل دعوة ورسول هداية للشعوب .

واستطاع فى رفق وهوادة ولين أن يوجه أنظار المجتمع المصرى الى الدين الذى بدأ أهلوه يسودون العالم ويبشرون الناس بآداب وحضارة ومبادىء جديدة ليس لها مثيل من قبل ٠٠

وكان تقليدا رسميا بعد افتتاح المسجد للصلاة ، أن يتولى امامة المصلين فيه الحاكم المعين من قبل أمير المؤمنين ، بوصفه نائبه فى كل شىء ، حتى فى امامة المسلمين ٠٠

وكان لحاكم مصر ، بمقتضى ولايته ، ونيابته عن أمير المؤمنين ، أن ينيب عنه من يليه مرتبة ليقوم مقامه فى أداء الشعائر والصلاة بالمسلمين فى أى الاوقات يشاء ، حتى لو كانت صلاة الجمعة أو العيدين .

وكان من عادة عمرو أن يؤم المسلمين كثيرا ٠٠

وكان يحب أن يخطب فيهم ويعظهم ، خصوصا فى مواسم أوبة الجباة والعائدين من ريف مصر بعد مواسم الحصاد وغير ذلك

وكانت له فى توجيه شرطته وجباته ورجال دولته ، أساليب وآراء وتقاليد تحتذى

« مئذنة الغورى بالازهر »

وانه ليقول للقوم وقد اجتمعوا فى مسجده للصلاة الجامعة ذات يوم :

« أيها الناس ..

« انه قد تدلت الجوزاء ، وذلت الشعرى ، وأقلعت السماء وارتفع الوباء ، وقل الندى وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل . وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر .. فحى لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم لتنالوا من خيره ولبنه وفراخه وصيده ..

« وأريحوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها .. فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم .. واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ؛ فان لهم فيكم ذمة وصهرا .. فكفوا أيديكم وعفوا وغضوا أبصاركم ..

« ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه .. واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراضى الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططته من فريضته قدر ذلك !!

« واعلموا أنكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم ـ معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ..

« فاحمدوا الله أيها الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ماطاب لكم .. فاذا يبس العود وسخن الماء وانقطع الورد من الشجر ، فحى الى فسطاطكم على بركة « الله » ، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال الا ومعه لعياله ما أطاق من سعته أو عسره .. أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم » (١)

***

وجامع عمرو الذى هو « الجامع الفريد ، النضير النضيد ، الكامل المديد ، المأهول بالطائفين من الطوائف على أنه وحيد ، وهو الجوهر الفرد ، والبيت الذى قدر بانيه السرد ، والمسجد المؤسس على التقوى ، والمعبد المتمسك جاره من الاسباب ، بالاقوم القوى » (٢) كان أمر عمر بن الخطاب باقامته مقصودا به أن يكون المسجد الجامع الذى تقام فيه الصلوات الجامعة وأخصها صلاة الجمعة ..

وقد حافظ عمرو بن العاص على توفر هذا الشرط فلم يسمح بأن تقام صلاة الجماعة من يوم الجمعة فى أى مكان آخر بمصر غير مسجده هذا .. حتى لقد حدث ذات مرة أن جاءته وفود من الشعب ، تسأله رأيه فيما يمكن عمله اذا وجبت صلاة العيدين مثلا وهم فى أماكن بعيدة عن المسجد الجامع ، أيصح لهم حينئذ أن يقيموا صلاة الجماعة ويؤمهم واحد منهم ، فتكون الصلاة جامعة ؟!

وأجاب عمرو بأن صلاة العيدين تجوز اقامتها جامعة فى مكان بعيد عن المسجد الجامع .. وأن يؤم المصلين فيها واحد منهم ...

واذ ذاك تقدم واحد بسؤال جديد أحب عن طريقه أن يعرف ، ان كان من الممكن تطبيق

---

(١) المقريزى ج ٢ (٢) وفاء الوفاء للسهودى ج اول

هذا على صلاة الجمعة اذا وجبت واجتمع جماعة من الناس بعيدين عن المسجد ؟ واذ ذاك اعترض عمرو على المتحدث وقضى ببطلان هذه الصلاة قائلا : أنه لا يصلى بالناس الجمعة الا من أقام الحدود ، وأخذ بالذنوب ، وأعطى الحقوق ..

فكانت الصلاة بعد ذلك فى المسجد الجامع تقليدا استنه عمرو ، وطالب به ولى الأمر الذى اعتاد أن يؤم الناس فى كل صلاة ، وأن يحدثهم فى أمور دينهم ودنياهم ..

وبالرغم من البساطة التى تميز بها جامع عمرو ، وبعده عن الزخرف والفخامة التى اتسمت بها أبنية المصريين بصفة عامة ، والروعة التى اشتهرت بها فيما يختص بالمعابد بصفة خاصة ـ ، فان عمرو لم يوفر سببا من أسباب هذه الفخامة لمسجده بالرغم من مكانته الرسمية ، ولكنه اتخذ له فيه منبرا من خشب ..

وسمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن واليه على مصر عمرو بن العاص قد اتخذ له منبرا يتحدث الى الرعية من فوقه ، فأسرع وكتب اليه :

« أما بعد ـ فانه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين .. أما حسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك ؟! فعزمت عليك الا ماكسرته ! »

وأطاع عمرو .. ولم يحطم المنبر الخشبى ولكنه أبعده بأمر أمير المؤمنين ، اذ ماكان له أن يجادل ابن الخطاب أو يناقشه فى أمر من أمور الدين أو الدنيا ارتآه وأمر به !

وبهذه البساطة المتجردة ، أخذ المسجد سمته وصارت له المزايا والصفات ، فتميزت به الفسطاط وتفردت واشتهرت ، وأصبح وهو الجامع الاكبر قبلة الجميع ومقصدهم أيام عمرو ..

***

وبدأت قافلة الزمان تسير سيرها الحثيث .. حتى وقفت أمام حادث رهيب ، أصاب قلب الاسلام .. يوم جرؤ المجوسى اللعين أبو لؤلؤة فطعن بخنجره المسموم عمر بن الخطاب صاحب محمد ووزيره وخليفته الثانى ، الذى أعز به الله الدين ، فى فجر الدعوة ، وقضى به على الردة وأهل الشرك بعد ذلك ، وفتح عليه الامصار وجعله يضع أساس الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف !

وولى الخلافة بعد ابن الخطاب ، الصحابى الثالث **عثمان بن عفان** «**ذو النورين**» صهر رسول الله ، والمسلم العف الكريم ، الذى شغله دينه عن دنياه فترك أمر الخلافة فى يد أهليه من بنى مروان بن الحكم ؛ مما ترتب عليه أن عادت الارستقراطية الوثنية التى حاربها محمد وقضى عليها الاسلام ..

وكان طبيعيا أن يصدر أمر الخليفة الجديد بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، بحجة انه قصر فى جمع خراجها .. وولى عثمان بدلا منه أخا له فى الرضاعة هو « **عبدالله ابن أبى السرح** » ..

وترك عمرو مصر بشخصه وظل فيها باسمه وسمعته وذكريات أمجاده وأقاصيص عدله

وحب الشعب له ؛ اذ رفع عن كواهلهم الجزية ، واعتاد أن يصرف أكثر الخراج فى اصلاح شئون الدولة ثم يرسل بعد ذلك فائضه الى أمير المؤمنين ٠٠

***

ترك عمرو بن العاص مصر وله فى كل بقعة فيها ذكرى طيبة وأحدوثة عطرة ٠٠

وجاء عبدالله بن أبى السرح والمال همه ، فاستطاع أن يجمعه وان يكدسه وأن يرسله وفيرا الى عثمان الذى أدهشه ذلك التغير فى جمع الخراج ، حتى لقد قال لعمرو ذات يوم ، وقد وصله ذهب وادى النيل وفيرا : « لقد درت اللقحة بعدك ياعمرو ؟! » ٠٠

وأسرع ابن العاص يقول : « نعم ، ولكنها أجاعت أولادها » ! مشيرا بذلك الى أن ابن أبى السرح جمع الجزية ولم يهتم بمصائر الشعب، فجاع من جاع وتشرد من تشرد، وتذوق الناس غصص الحاجة وقسوة الفقر ٠٠

***

وظل عبد الله بن أبى السرح يحكم مصر باسم الخليفة عثمان ، حتى لحقه مرض الموت ، فمات فى الفسطاط ودفن بها ٠٠

وتولى حكم مصر من بعده وال جديد هو « **قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى** » وأبوه من الأئمة السابقين فى الاسلام ومن أوائل من دعوا الى هجرة رسول الله الى يثرب ، حيث حمى الاسلام بقائم سيفه وبعصبيته القوية ومكانته فى بلده وحب الناس له ٠٠

وكما مرت أيام عبد الله بن أبى السرح ، كذلك مرت أيام قيس : هدوء ٠٠ وخراج منتظم ٠٠ ولا شىء أكثر من هذا ٠٠ حتى المسجد الجامع الذى ضاق بالمسلمين الذين تكاثروا ، اما عن طريق الهجرة من مكة والمدينة وغيرها من البلاد الاسلامية ، أو عن طريق اسلام أهل مصر أنفسهم ــ حتى هذا المسجد لم يلتفت أحد من الواليين اليه وتركاه على حاله كما بناه عمرو بن العاص ٠٠

وقامت الفتنة الكبرى ٠٠ وشغلت الامصار نفسها بأنباء عثمان وقيام أمية ، وسطوة رجالها وانتزاعهم مقود الحكم من الخليفة المرضى الطباع ٠٠

وثار الناس ٠٠ وتبلبلت الخواطر ، وسافرت الوفود الى المدينة ، اما لشكوى ولاتهم أو للمطالبة بعزلهم أو التحقيق معهم لما ارتكبوه من جور وخروج على أصول الدين ٠٠

وخرج أحرار مصر فى جملة من خرجوا ، ووصلوا الى المدينة ٠٠ وكان لهم خطرهم بين الثوار على عثمان ٠٠

واستفحل أمر الفتنة ، وخرجت من أيدى العقلاء ، وركب الثوار رؤوسهم لاصرار أمير المؤمنين على موقفه الحازم منهم ، وعدم انصياعه الى آرائهم ورفضه الاستجابة الى مطالبهم وأمره اياهم بالعودة الى بلادهم وترك الفرصة له ليرى فى شكاويهم ومطالبهم رأيه ٠٠

وكانت الواقعة الخطيرة ٠٠ وكان الاقدام على اهراق الدم الزكى ! دم عثمان بن عفان

صهر محمد وصاحبه والمقدم على كثيرين من أوائل من آمنوا به !

وقتل عثمان.. ذبح ذبح الشاة وهو قائم يصلى فى محراب بيته رضوان الله عليه.. وترك وراءه ثلمة رهيبة ·· وخرقا كان من العسير رتقه ، فأخذ يتسع ويتسع حتى راحت الأمصار يأكل بعضها بعضا ·· وكثرت فيها الأحزاب واتسعت شقة الخلاف واستطاعت الارستقراطية الوثنية التى أطلت برأسها من وراء كرم عثمان وطيبته بالظهور ·· وخرجت الى ميدان الحياة العامة مرة أخرى ـ استطاعت أن تحدث بين المسلمين حدثا جللا ، رهيبا تمثل فى وقوف « **معاوية بن أبى سفيان** » فى وجه « **على كرم الله وجهه** » ، وعدم الاعتراف ببيعته الشرعية والمناداة به خليفة رابعا على المسلمين !

***

واتسعت رقعة الخـــلاف بين صاحب الحق الشرعى أمير المؤمنين « **على بن أبى طالب** » وبين حاكم الشام الخارج عليه ـ « **معاوية بن أبى سـفيان** » ووصلت الى درجـة اجتراء الوالى على اتهام أميره بالتقصير فى الأخذ بدم صاحبه وعديله **عثمان بن عفان** ·· من قتلته ، وتركه اياهم يعيشون أحرارا دون عقاب !

ووصل الخلاف الى ذروته بين الرجلين ·· حتى لقد جاهر معاوية أمير المؤمنين « عليا » بأنه لا طاعة له عليه ·· ولا ولاء له ، وانه لايمكن أن يعترف به أميرا للمؤمنين أبدا !

وتحصن فى دمشق الشام مقر ولايته واعتز فيها بأتباعه ·· وكون لنفسه شـبه دولة اسلامية لاتخضع لأمير المؤمنين !

واشتم عمرو بن العاص من رائحة الخلاف بين ابنى العم وصهرى الرســول أن الخرق سيتسع على الراقع ، وأن الكسر لن يقدر له أن يجبر أبدا ، لان الصراع يقوم بين داهيــة لايمكن أن يسلم وقد واتته فرصة السلطان ، وصــاحب حق يفضــل الموت على التهاون فى حقه !

ورأى عمرو أن من صالحه أن يقف فى المعسكر الأموى ـ ضد المعسكر الهاشمى ، لثقته بأن الحيلة قد تفلح ·· وان « عليا » المستقيم الخلق الشجاع القوى ـ قد يترنح أمام ضربة ماكرة من ضربات الدهاء والمخادعة التى سوف يحسن معــاوية توجيههــا اليه ، والتى قد تزداد وتعظم خطورتها ان هى تأيدت بانضمام عمرو !

وهكذا وجد عمرو الحصيف فرصته النادرة ؛ ليظهر فى مجال الحياة العامة من جديد ··

وسرعان ماكان على رأس جيش معاوية الذى وقف فى « صفين » يستقبل جيش أمير المؤمنين « على » ليحاربه !

ولقد كانت مغامرة فعلا من سيد بنى أمية أن يجند جنده ويقف بجيشه فى وجه «على» سيف الله وصاحب الانتصارات العظيمة فى الاسلام ·· الذى لم يكد يجول جولته فى أول موقعة حتى ولى جيش معاوية الأدبار وانهزم وفر صـــناديده يتلمسون النجاة من سيف

« علي » الذي علا صوته يطالب بحقن الدم ويدعو معاوية الى مبارزته ·· فان أظهره الله عليه انتهت الفتنة ، وان نصر الله معاوية ، تم له ما أراد ··

وزجف ابن أبي سفيان ·· وابتسم عمرو الداهية ، وطلب من معاوية أن يلبي دعوة ابن عمه ليبارزه ، قائلا له : « والله لقد أنصفك »

واذا بمعاوية يقول : « والله ما أنصفتني أنت يا ابن العاص أتريد أن تقذف بي بين فكي ابن أبي طالب ! »

وتبادل الرجلان نظرة مفهومة ·· ــ لقد كان معاوية الداهية يستجير بدهاء صاحبه وزميله عمرو ، الذي سرعان مافكر في خدعة «التحكيم» وأمر برفع المصاحف على الرماح ·

وانتصرت الخديعة في النهاية ·· وكوفيء عمرو بولاية مصر مرة ثانية ، وكان واليها في ذلك الوقت « محمد بن أبي بكر الصديق » ·· وكان بعض الخوارج قد ذهبوا اليه وحاربوه وانتصروا عليه فقتلوه شر قتلة ونكلوا به !

***

وهكذا ·· عاد عمرو الى مصر ··

ولكن عودته هذه لم تكن مستقرة في بدايتها ، لأن الشرارة التي اشترك في اطلاقها كانت لم تزل ترعى الهشيم ·· وكانت قد تكونت بين صفوف المسلمين فرقة من الخوارج القساة ، استقر بهم الرأي على القيام بعمل حاسم يريح الاسلام والمسلمين من دعاة الفرقة وكانوا في نظرهم ثلاثة : علي ، ومعاوية ، ثم ·· عمرو بن العاص !

ووقع اختيار الخوارج على ثلاثة من بينهم يقتلون هؤلاء الثلاثة ؛ ليعود الصفاء بين المسلمين ··

وأفلح قاتل « علي » في صيد سيد المحاربين غدرا !

وفشل من ذهب ليقتل معاوية ، اذ لم يحكم الضربة التي سددها ··

أما قاتل عمرو ، فقد ذهب الى الفسطاط ليتربص بضحيته الدائرة ···

ورابط الخارجي الى جوار باب مسجد الجامع المواجه لدار عمرو ··

وشاءت الظروف أن تعيق الامير عن الخروج ليؤم المسلمين في صلاة الجمعة في ذلك اليوم ، فأناب عنه صاحب شرطته ((خارجة بن حذاقة)) ليؤم المسلمين ويصلي بهم ··

وخرج صاحب الشرطة في موكبه ··· ومر في طريقه بالقاتل المتربص الذي انقض عليه كالوحش المفترس ، فأجهز عليه وهو يظن أنه قد نفذ ما أمر به وهو قتل عمرو ·· ولكن ، لم يكد الشرطة يقبضون عليه ويدخلونه على « عمرو » في داره حتى راعه تعظيم الناس لذلك الرجل الذي أدخلوه عليه ، فسأل عنه فقيل له : انه عمرو بن العاص ! فذهل ·· وأحب أن يعرف اسم ضحيته ·· فقيل له ان اسمه « خارجة » !

وصرخ الخارجي في ذعر وقال لعمرو في وجهه : « والله ماأردت غيرك ياعمرو » !

وأجاب عمرو فى ملء هدوئه : أردت عمرا ، وأراد الله « خارجة » !

***

وظل عمرو فى منصبه يحكم مصر باسم الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان ، حتى وافته منيته ليلة عيد الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة ..

فلما كان يوم العيد أخرج نعشه الى الجامع ووضع فى المحراب .. حتى تكاملت الناس وصلوا عليه بعد صلاة العيد .. ثم حمل ودفن فى مقابر الفسطاط على طريق الحاج » (١)

وأمر «معاوية» بعد موت عمرو بن العاص ، أن يولى على مصر أخوه «**عقبة بن أبى سفيان**» ليحكمها باسمه .. فحضر وتولى مقاليد الامور فى وادى النيل ..

ولكن منيته لم تمهله غير عام واحد ، مات بعده ودفن بمصر ..

***

وتولى مصر بعد ذلك الراوية المؤمن « **عقبة بن عامر الجهنى** » الصحابى الجليل والراوية الأمين لاحاديث رسول الله

وبعد « عقبة » ، تولى حكم مصر ، باسم معاوية أيضا « **مسلمة بن مخلد** » ..

ومسلمة بن مخلد أول حاكم لمصر ، بعد عمرو ـ اتجه بتفكيره الى المسجد الجامع ، ورغب فى زيادته وتوسيع رقعته بعد أن شاهد بنفسه كيف ضاق بالمصلين ، ولم يعد يتسع للمسلمين الذين كانوا يأتونه للصلاة والتذاكر فى الدين .. كما لم يعد يصلح بهيئته المتواضعة لأن يكون مسجد الدولة الأكبر ..

وكتب مسلمة بن مخلد الى أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان سنة ثلاث وخمسين للهجرة ، يشرح له حالة المسجد .. ويصف له ضيقه ، ويرجوه أن يأذن له بتوسيع رقعته وتحسين بنيانه ...

وأسرع معاوية وهو رجل الدعاية البارع ، فأمر واليه بأن يوسع جامع عمرو بن العاص وأن يزيد فيه ماشاءت له الزيادة وما سمحت له به الموارد ..

وصدع مسلمة بن مخلد للأمر ، وكان أن وسع رقعة الجامع وزاد فيه مما يلى دار عمرو نفسه .. حتى ضاق الطريق بين المسجد والدار ، ووسعه أيضا من ناحيته البحرية وجعل له فى هذه الجهة مكانا رحبا مسقوفا .. وكان ذلك فى سنة ٥٣ هـ ٦٧٣/٣٦٢ م

وبلغ اهتمام مسلمة بن مخلد بجامع عمرو مداه ، فطلا حوائطه وجدرانه بالجص وزخرف بنيانه ، وبنى له أربع منارات سامقة شامخة ، جعل مداخلها ومصاعدها من الخارج ..

ولم تكن هذه المنارات سوى ابراج مربعة كانت فى الواقع نواة للمآذن التى انشئت بمصر بعد ذلك مما نرى الكثير منها الآن وقد تطورت تصميماتها وتنوعت أشكالها ..

ولم ينس مسلمة فى غمرة اهتمامه بالمسجد أمر فرشه بالحصير ، فاستبدل به الحصباء ، وجمله وحسنه وجعله جديرا بأن يكون المسجد الجامع فى العاصمة الاسلامية ،

---

(١) ابن اياس ج ١ ـ ص ٣٧

الذى يتسع لوفود المصلين الذين تكاثر عديدهم وكانوا يتزايدون أضعافا فى المناسبات والاعياد ..

وظل مسلمة بن مخلد فى دست الحكم على مصر حتى مات بعد خمس سنين ، حافلة بجلائل الاعمال ..

***

وجاء من بعده «سعيد بن زيد الازدى» ثم .. خرج «عبد الله بن الزبير» على الخلافة الاموية وأنكر البيعة ، واستقل لنفسه بخلافة أعلنها فى المدينة ، **ودخلت فى طاعته امصار متعددة ، منها العراق ومصر ..**

وحكم مصر « عبد الرحمن بن جحدم » باسم الخليفة عبد الله بن الزبير .. وظل فى منصبه هذا يرقب الصراع السياسى بين مولاه ، وبين دهاقين السياسة الأموية ، الذين استطاعوا بعد خلافة قوية دامت سبع سنوات ، أن يثلوا عرشه ويبددوا ملكه ، ويعيدوا الأمر كله الى أمية من جديد ..

فذهب ابن جحدم عن مصر .. وجاء بدلا منه « عبد العزيز بن مروان » ليحكم مصر باسم أخيه الداهية « عبد الملك بن مروان » ..

ولقد كان عبد العزيز بن مروان — على قلة مكثه بمصر ، رجلا لم تصرفه السياسة عن شئون الدين .. لقد رأى انكباب أخيه عبد الملك على شئون الدنيا ، انكبابا أبعد عن ذهنه فكرة ارتقاء عرش الخلافة بعده وأحب أن يكون له شأن فى محيط الدين فقرب منه العلماء وشجعهم على أداء رسالة الدين ، ووجه اهتمامه بجامع عمرو ، ونظر اليه بعين الرعاية الجديرة به .. وبالدعاية الأموية التى لعبت فى تلك الآونة أخطر دور لتثبيت حقهم فى الخلافة ، وأنهم أجدر الناس بها على الاطلاق !

وبالرغم من أن عبد العزيز ترك سكنى الفسطاط ، وانتقل الى مدينة « حلوان » الجافة ذات المناخ البديع .. فانه لم يرد أن ينقل مقر العاصمة أو يغير أى وضع من الاوضاع .. وكان ، تأكيدا منه لرغبته هذه ، أن وجه همه الى الجامع الكبير ، فقرر أن يوسع رقعته وأن يدخل فيه زيادات تتناسب وخطورة الدور الدينى الجليل الذى كان يقوم به فى مصر الجديدة العهد بالاسلام .

وأعد عبد العزيز خطته الاصلاحية ، ورسم خطوطها وأكمل استعداده لتنفيذها فى العام السابع والخمسين للهجرة النبوية ..

وكانت خطته تقوم على ضرورة ابدال نظم الأبنية وأن يشمل التحسين جامع عمرو برمته ، ولو أدى الامر الى ازالة معالمه كلها واقامة مسجد آخر جديدا فى كل شىء يقوم مقامه ..ويفى بالغرض ويكون فيه من التطورات التى لحقت الفكر الاسلامى الشىء الكثير .

ووجد عبد العزيز أمام ظروف العمل الذى أخذ على عاتقه مهمة القيام به ، أن يهدم جامع عمرو من أساسه . ويقيم مكانه مسجدا آخر ، فكان أن أتم الهدم .. ولم يبق

شيئا من معالمه القديمة غير « قبلته » اذ أراد الاحتفاظ بها تكريما لمن وقفوا على بنائها من كبار الصحابة ، وابقاء لأثر دينى عظيم ••

وأولى عبد العزيز كل همته للبناء الجديد ، وراح عماله يعملون فى جد ومهارة ، وعرف حذاق الصناع من المصريين كيف يظهرون كفاياتهم الانشائية التى عرفت عنهم ••وسرعان ماتم بناء المسجد الجديد وكمل تزيينه ونقشه بما يتناسب ومقام بانيه ، شقيق أمير المؤمنين وحاكم وادى النيل ••

***

وافتتح عبد العزيز بن مروان المسجد الجامع للصلاة ، وأحب أن يؤم المصلين فجر افتتاحه •• فأعدت العدة لذلك ، وفتحت الابواب ، وخرج الوالى قبل موعد الصلاة من « دار الذهب » وصلى بالناس ثم •• اذا به يشهد عجبا !

لقد راع عبد العزيز أن يرى من جموع المصلين خفة ، ورغبة فى الاسراع بالخروج من المسجد •• فأصدر أوامره بأن تغلق الابواب كلها وألا يسمح لأحد ممن كانوا بالمسجد بالخروج ، فقد أحب أن يعرف سر هذه الخفة البادية منهم ، وسبب اسراعهم فى الخروج عقب الصلاة مباشرة ؟!

وراح الوالى يستدعى المصلين من رعيته واحدا واحدا ، ليتعرف أحوالهم • فكان يسأل الرجل منهم : ألك زوجة ؟!

فيقول : لا •••

فيأمر بزواجه !! ثم يسأله : « ألك خادم » ؟!

فيقول : لا ••••

فيأمر له بخادم ••

ثم يسأله : هل عليك دين ؟!

فيقول : نعم ••

فيأمر له بسداده !

ويسأله : هل أديت فريضة الحج ؟!

فيقول : لا ••

فيأذن له بالحج على نفقة الدولة !

وهكذا وصل الأمير الأموى الحاذق الى تعرف سر قلق الناس وخفة صلاتهم ••

لقد كانوا فى حاجة الى الاستقرار الذى فقدوا أسبابه فوفرها لهم ، ليرتاح بالهم من ناحية الدنيا فيلتفتون الى شئون الدين ليؤدوا حقه مطمئنين ••

وظل عبد العزيز حيث هو ، رجل الصلات والكرم ، الساهر على صوالح الشعب الراعى لامور الدين ، البعيد عن السياسة الاموية وتياراتها •• حتى حدث ذات يوم أن طرق « **النجابون** » باب داره فى حلوان ، وقد جاءوه من دار الخلافة بمصحف عظيم من

جملة المصاحف التى أمر بنسخها «**الحجاج بن يوسف**» لتوزع فى الأمصار ··

كان عبد العزيز يكره الحجاج ، ويكره سياسته ·· ويكره فيه سفاحا شريرا ، أساء الى أمية معنويا أكثر مما أفادهم ماديا ·· لهذا ساءه اليوم جد الاساءة أن يرسل اليه الحجاج مصحفا ·· وأن يطلب منه وضع هذا المصحف فى المسجد الجامع ليقرأ منه القصاصون ···

وأبى عبد العزيز أن يطيع الحجاج ، وكره أن يضع مصحفه فى جامع عمرو ·· **فكان أن أمر بأن يعد للمسجد الجامع مصحف خاص ·· وسرعان ما استجاب النساخون والكاتبون لأمره وتسارعوا يكتبون المصحف المطلوب ، ويفرغون فى نقشه وتزيينه وتنميقه خلاصة تجاربهم الفنية ··**

ثم قدموه اليه فأعجب به ، ولكنه مع اعجابه أراد أن يستوثق من صحته صحة كاملة ــ لا عن طريقه هو بل عن طريق الغير ، وان يعرف أن الاخطاء الاملائية قد فاتت كاتبيه ، فأفرد جائزة ثمينة لمن يكشف فيه أى خطأ ··

وأقبل القارئون من كل صوب على المصحف الجديد يقرأونه ويدققون حتى استطاع « زرعة بن سهيل » أحد قراء الكوفة أن يفوز « بالجمل ، والثلاثين دينارا » التى عرضها عبد العزيز يوم كشف خطأ لفظيا فى هذه الآية :

« ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة » وكانت مكتوبة كالآتى « له تسع وتسعون نجعة » بتقديم « الجيم » على « العين » ··

***

وأمر عبد العزيز بن مروان بالمصحف لاصلاح مافيه من خطأ لفظى ، واستبدل الورقة بأخرى ·· وبعد أن استوثق من صحته التامة · أمر بأن يحمل من داره الى جامع عمرو صباح كل يوم من أيام الجمعة ، ليتولى القصاصون القراءة فيه ثم يعاد بعد ذلك الى بيت الأمير ···

ولما كان القاضى « **عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى** » هو الذى يتولى فى ذلك الوقت أمر القضاء والقصص فى مصر ، فقد كان هو أول من قرأ فى هذا المصحف فى جامع عمرو

ومات عبد العزيز بن مروان والمصحف يومها فى داره فاعتبر ضمن ميراثه ··
واشتراه ابنه أبو بكر شقيق الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز ·· واشترته من بعد أبى بكر هذا ابنته « أسماء » بسبعمائة دينار ، ثم وهبته لجامع عمرو ليقرأ فيه القصاص الى جانب المصحف الآخر ، الذى نسب زورا الى « عثمان بن عفان » ·· ومن يومها عرف هذا المصحف باسم مصحف أسماء بنت أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان ··

وتولى مصر بعد عبد العزيز ابن أخيه عبد الملك ·· وكان اسمه « عبد الله » ··
وهذا الأمير الاموى لم يكن أقل من عمه اهتماما بجامع عمرو بن العاص ، اذ أمر

فى السنة التاسعة والثمانين للهجرة بأن يرفع سقف المسجد كله ـ وكان منخفضا .. وأن ترتفع جدرانه بما يناسب مكانته .. فتمت هـذه العمـارة وأخذ جامع عمرو سمة حسنة وأصبح عالى البنيان ..

وعند تعلية سقف المسجد ، وقفت جهود عبد الله ، فلم يزد عليها شيئا حتى انتهت ولايته بعد خمس سنوات ..

***

وجاء بعده الى مصر واليا جديدا هو « قره بن شريك العبسى » ليحكمها باسم «الوليد ابن عبد الملك » ..

وكما كان عصر الوليد هو عصر الفتوح واتساع رقعة الدولة الأموية كذلك كان هذا العصر عصر التعمير والبناء فى كل مكان ..

وكما أقام الوليد المساجد وجددها وبنى الدور والسبل ، وأعاد بناء مسجد رسول‌الله صلى الله عليه وسلم والمسجد الأموى ، كذلك أمر بأن يهدم جامع عمرو من أساسه وطلب من واليه قره بن شريك أن يعيد بنايته من جديد بما يتفق وجلال الخليفة الاموى وتراثه العظيم ، ويتناسب والخراج الوفير الذى كان يدخل خزائن بيت المال من شتى الاصقاع التى وصلت اليها فتوح المسلمين ..

وأتم قره بن شريك هدم المسجد الجامع فى العام الثـانى والتسـعين للهجرة ، وبدا بنيانه على أسس ونظم جديدة ..

كان عمرو بن العاص قد أقام أبنية الجامع الكبير على غير أسـاس من علم العمـارة أو فنونها ؛ اذ لم تكن للعرب وقتها دراية بالبناء ولا معرفة بأصوله وتقاليده .. كما أنه لم تكن للمساجد نفسها هندسة خاصة ولا أشكال معينة . ولكن بعد أن احتكت الحضارة العربية الناشئة بالحضارات العريقة الاخرى ، وذابت فى بوتقتهـا شعوب وحضارات ، وشهد عباقرتها فنونا متعددة من بيوت العبـادات ـ أصبحت للولاة والخلفاء فيهم آراء هندسية وتقاليد ، كان لابد أن تراعى فى بناء المساجد ..

ولما كانت هذه التقاليد الانشائية قد تم تطبيقها فى مساجد معينة ومحدودة ، فقـد رؤى أن تطبق عند اعادة بناء المسجد الجامع فى الفسطاط عاصمة مصر ..

وعلى هذا الاساس بدأ قرة بن شريك عمله ..

وآتت العبقرية الانشائية المصرية أكلها .. وكما أحسن الوليد استخدامهـا فى اعادة بناء مسجد النبى والمسجد الأموى .. كذلك أحسن «قرة بن‌شريك» استخدامها ، تحت اشراف « يحيى بن حنظلة » مولى بنى عامر بن لؤى ـ وهو يعيد بناء جامع عمرو بن العاص

وبالرغم من أن قره بن شريك لم يكن من الولاة الذين يقيمون حدود الدين كما يجب .. وبالرغم من أنه استباح الكثير من المحرمات ومنها شرب الخمر ـ كما قيل ـ فان صلاة

الجمعة لم يهمل شأنها ــ وقد هدم جامع عمرو ــ بل حرص على أن تقام باستمرار فى تلك الفترة فى « قيسارية العسل » ..

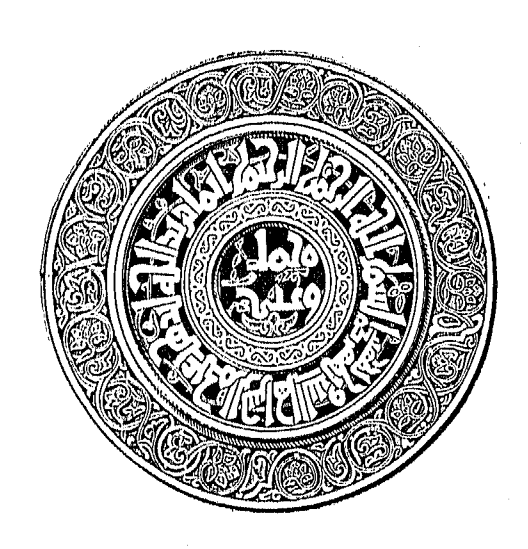
وتم بناء المسجد الجديد بعد أربعة عشر شهرا .. أصبح بعدها جديدا فى كل شىء ، فاتسعت رقعته وزيد فيه من ناحيتيه الشرقية والجنوبية ، ودخلت فى ساحته الدار التى كان يسكنها عمرو بن العاص نفسه ، وضم الى ساحته دار عبد الله بن عمرو بن العاص وكان بها فى ذلك الوقت قبره ، فشمله بناء الجامع الكبير فاثبت بذلك نسبة المسجد العتيد الى أبيه عمرو ، فاتح مصر ، ومنشىء فسطاطها وبانى جامعها .. وليكون فى وجود هذا القبر فى باحة المسجد مايزيد تلك الصلة ويعطيها صفة الخلود !

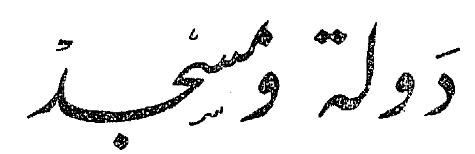
وعوض قرة بن شريك حفدة «عمرو بن العاص» عماأخذه منهم ، ووهبهم دورا بالغة الاتساع فى زقاق مليح فى «**النحاسين**» و « **العداسين**»

وأفرغ « قرة » همه فى تجميل المسجد ، **فنقل اليه لأول مرة أعمدة رومانية ومصرية ويونانية قديمة ، جلبها من بعض دور الثراة من الاسكندرية وغيرها ، أو من بعض المعابد القديمة أو البيع التى هجرها عبادها ...**

وباتمام عمارة « قرة بن شريك » **أصبح جامع عمرو بناء عظيما ، له فوق العمد والأيوانات والباحات ، أحد عشر بابا .. أربعة منها فى ناحيته الشرقية آخرها باب النحاسين ، وأربعة فى ناحيته الغربية ، وثلاثة من جهته البحرية .. !**

ولم تفت الأمير فرصة تجميل المسجد الجامع وطلائه وزخرفته بما يتفق والانشاءات الكبرى التى تمت أيام الوليد ..





توالى على مصر ولاة أميـــة بعد قرة بن شريك .. ولكن لم يهتم أحد منهم بعمارة جامع عمرو أو زيادته كمـــا اهتم «قرة» ، ذلك لان الرجل أسسه وأحسن بنيانه وجعله خليقا بأن يكون امام المساجد فى عاصـــمة البلاد ..

ومر ركب التاريخ فى سيره الرتيب مرة ومرات .. ثم مال ميزان نهار أمية وبدأت ظلمة الغروب تحتويها بعد طول الاشراقة ، وتبدت فى الافق شـــموس بنى العبـــاس ، وتقدمت بنودهم خفاقـــة ورماحهم مشرعة وسيوفهـــم مســـلولة ، ومعاولهم معـــدة . فأخذت تهـــدم صرح أميـــة وتثـــل عرش الارستقراطية ليرســـو مكانه عرش حفـــدة العباسى بن عبد المطلب عم سيـــدنا رسول الله ..

وتقدم أبو مسلم الخراسانى ، وخلفـــه البنود الســـود تخفق مزهوة .. وأخذت جحافل أمية تفر ، والصفوف تنهار فى أثر الصفوف .. حتى لم يبق هناك من أمل فى النجـــاة ، ووجد آخر بنى أميـــة «مروان الحمار» ، نفســـه فى مأزق ، أسرع يعمل جاهدا ليخرج منه .. بالفرار !

الى أين ؟!

« مئذنة الحاكم »

ونقل « مروان » عينيه حواليه ، يرقب الشمس التى أفلت، ويتذكر الدنيا العريضة التى كانت له ليتخير مكانا يختبىء فيه من الهول العبـــاسى الذى كان يتقـــدم كالاعصار

المشبوب ، يهدم ويدمر ويقوض ولا يستطيع أن يقف فى طريقه سد أو حائل على الاطلاق

وكانت مصر أقرب مكان يمكن أن يلجأ اليه مروان الحمار ؛ فاستقر به الرأى أن يهرب اليها عساه أن يجد فيها مايحميه من الهول العباسى وعساه يستطيع ساعة يصلها أن يجد الحمى والملاذ والجند الذى يظاهره ويعزز مكانته ويقف دونه ليحول بينه وبين العدو الذى تمكن واستعظم وحالفه التوفيق وسارت فى ركابه مواكب الانتصار ..

ووصل مروان الى وادى النيل .. ووطئت قدماه التربة الطاهرة التى ماأحبت جبانا ولا رحبت يوما برعديد .. فلم يجد المدد الذى كان يرجوه ولا القوة التى يعتز بها ، ولا الرجال الذين يذودون عنه الاعصار .. فوقف حائرا لايدرى من أمره رشدا ..

لقد ضاقت به الأرض ومادت ؛ فلا الشمال مرحب ببقائه ، ولا الجنوب راغب فيه .. وانه فى غمرة حيرته تلك ليقرر العودة ليلقى قدره ، وليكن مايكون !

كانت الراية السوداء العباسية قد ارتفعت ورفرفت خفاقة مزهوة ، وكانت راية أمية قد هوت بعد أن مزقتها رياح التواكل والفرقة والاضطهادات المتوالية ..

وكانت الاشراقة العباسية قد علت كل مكان من العالم الاسلامى ، وقد مهد لها الدعاة الطريق وسبقوها متقدمين طلائعها يروجون للقادمين بالعدل ، ويذكرون الناس بالأئمة الميامين من أبناء « على والحسين » الذين اضطهدتهم أمية وطاردتهم .. ويذكرون الخلفاء الراشدين من أصحاب محمد الذين لعنهم بنو مروان على المنابر علانية .

وأنصت الناس الى الدعاة .. وأصغت الشعوب الى الروايات المثيرة التى تحدثت عن المذابح والمطاردات وأقسى ألوان التنكيل ، وهم فى دهشة لم تلبث أن استحالت الى لعنات، راحوا يصبونها على بنى أمية ، وأمرائهم أجمعين ..

***

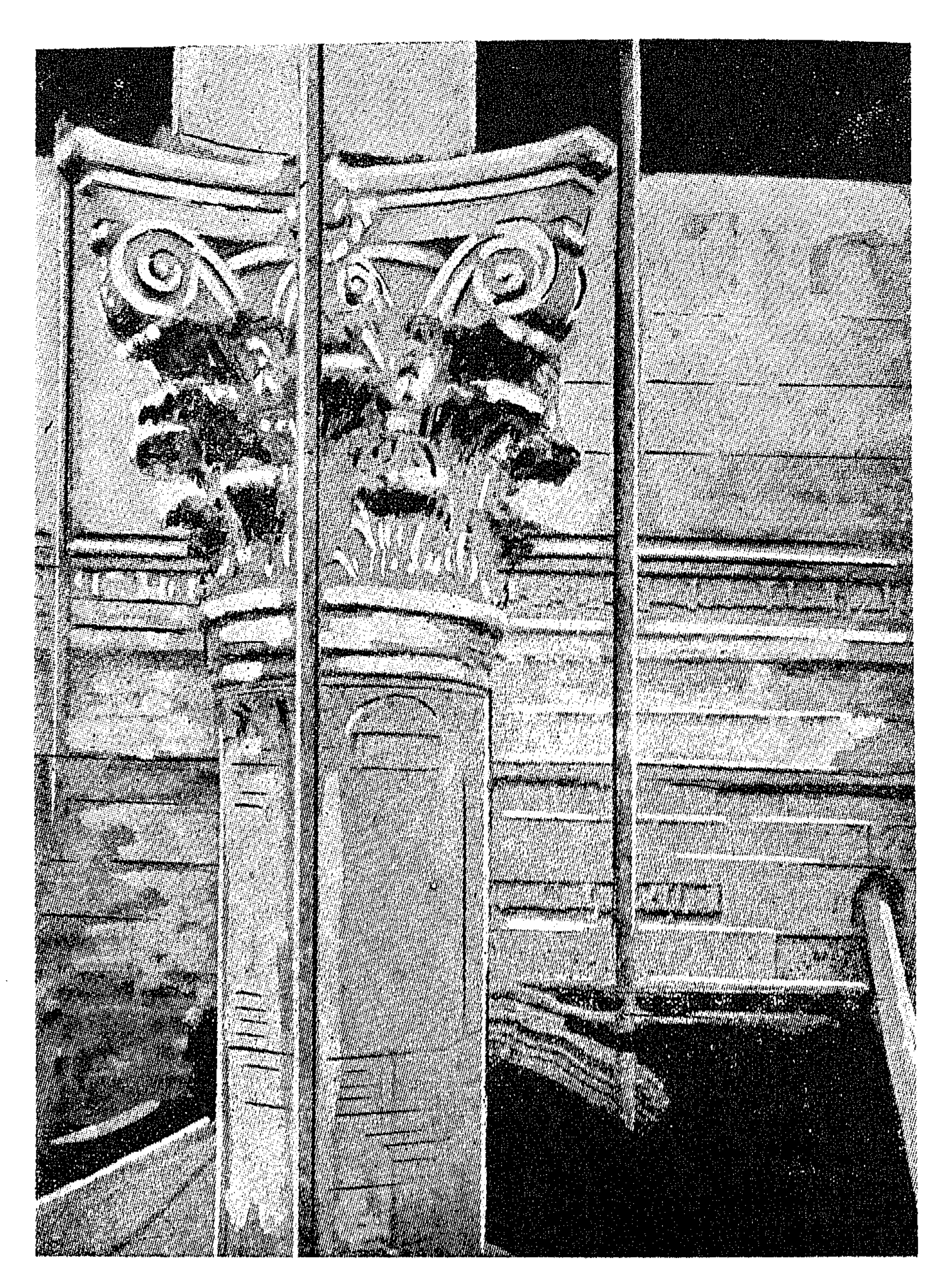
لقد كان الصراع بين الدولة التى شساخت وخرت على ركبتيها ساجدة مستسلمة ، والدولة الفتية المتطلعة ودعاتها من بلاد فارس ـ صراع دعاية ، أكثر منه صراع رماح وسيوف ...

وكان من البديهى أن تنتصر الدعاية أروع انتصار ..

قال الدعاة : ان أبناء العباس لم يخرجوا طالبين الامارة والصدارة ، بل جاءوا ليعيدوا أمجاد الهاشميين ويثبتوا الولاية فى أصحابها ورثة رسول الله وقرابته ، الذين كانوا موضع اضطهاد من كل الخلفاء وجميع الولاة ..

وكان طبيعيا أن ترتاح الاسماع لأقوال القائلين ، وأن تجد الدعوة صداها فى كل قلب يحب أهل البيت من عترة الرسول وأهليه ..

وعز على مروان أن يجد فى مصر جندا وحماية ، اذ سبقه الدعاة اليها وعرفوا كيف يسممون الآبار أمامه ..



مقياس النيل بالروضة

أنشىء عام ٢٤٧ هـ ـ ٨٦١ م فى عصر الدولة الأموية فى آخر عهد الخليفة المتوكل على الله جعفر العباسى وأشرف على بنائه المهندس محمد بن كثير الفرغانى واطلقت عليه اسماء : المقياس الهاشمى ، والمقياس الجديد ، والمقياس الكبير وهو ما نسميه الآن « مقياس الروضة »

ألم يكن مروان الحمار سليل معاوية الذى لعن عليا كرم الله وجهه علانية على المنابر ٠٠ وجعل هذه اللعنات على كر العصور التى تلته تقليدا أمويا ، اضطر الى سماعه الناس ؟!

ألم يكن مروان الحمار هذا سليل « يزيد » الماجن ، الذى اســتباح قواده دم الحسين الشهيد ابن الزهراء البتول ؟!

ألم يكن مروان هـذا الذى جاء يحتمى بالكرم المصرى ، سليل مروان بن الحكم ، وعبد الملك ، والوليد ومسلمة ٠٠ وغيرهم من طغاة أمية الذين أهرقوا الدماء الزكية ، وأفسدوا الذمم ، وكانوا حربا لا هوادة فيهـا على آل البيت ؛ فسـجنوهم وطاردوهم وتتبعوهم فى كل مكان !

اذن ٠٠ فلم تحمى مصر حفيد السفاحين القساة ـ ؟! ولأى سبب تؤيده ؟ ٠٠ ولماذا يقف أحرارها فى صفه يحولون دونه والقصاص ؟!

تلك كانت الأسئلة الحائرة التى لم تجد لها عند جموع الشعب جوابا ، والتى بسببها انفضت الجموع عن مروان الهارب وتركته وحده يشرب صاب الوحدة ويستشعر قسوة الندم ويعتصر الخوف قلبه ويرهبه ويميته فى كل لحظة عشرات المرات قبل أن يلقى الميتة التى كانت تنتظره لتضع حدا لحياته !

وهكذا وجد مروان نفسه وحيدا ، لا عون ولا نصير ٠٠ حتى أولئك الذين صحبوه فى هربه كانوا يتحينون الموقعة الفاصلة ، لينفضوا من حوله ويتركوه الى حظه التعس !

ووصل مروان الى ناحية الشرق ، وهو لايدرى : أكان فى طريق العودة الى عاصمته التى ملكها أعداؤه ، أم فى طريقه لمناضلة أولئك الأعداء الذين تبعته جموعهم الى مصر ؟!

* * *

وتقدم « صالح بن على بن عبد الله بن عباس » بجنـده الى مصر ؛ ليقضى على المقاومة الأموية الباقية ٠٠ وفر مروان ثانية والعدو يتابعه حتى شاء الله أن ينهى هـذه الحيـاة المضطربة القلقة ، وأن يضع حدا لحيرة صاحبها وتشرده وعدم استقراره وما لحقه من هوان واذلال ، فسقط مروان الحمار فى النهاية تحت النصل العباسى القاطع ، وقتل فى مدينة « بوصير » ٠٠ فأفل بموته نجم أميـة ودالت دولتهم ، وطوت يد الزمن كتاب أمجادهم ، وخلص الأمر فى النهاية للخليفة العباسى الجديد ، أبى العباس السفاح ٠

وتنفس شعب مصر الصعداء ٠٠

لقد عاد السلام الى الوادى ، وانجابت أشباح الحروب الداخلية من آل البيت المحمدى الكريم ٠٠

وعمت الفرحة البلاد كلها. . وخرجت الوفود والمواكب تستقبل القائد الظافر «صالح ابن على» أخ الخليفة العباسى الأول ٠٠ وترحب به ترحيبا حارا وصلت أنباؤه الى مسامع السفاح ؛ فوجدها فرصة لاظهار مشاعره الطيبة لمصر والمصريين ؛ فاقر بقاء أخيه بينهم

ليحكم مصر باسمه ويسوس أمورها ويثبت قوائم الدولة الفتية الجديدة ٠٠

وتسلم « صالح بن على » زمام الامور ٠ وأسعده أن وجد كل شيء ممهـــدا بما يعني الاستقرار وحب السلام ٠٠

وفتحت الفسطاط أبوابها للحاكم العباسي الجديد فدخلها دخول الظافرين مع بضعة عشر رجلا من أخلص رجاله ؛ ليستعين بهم في تصريف الامور ٠

أما جيشه الذي جاء لازالة بقايا أمية ، فقد بقي حيث كان يعســـكر شرقي الفسطاط بفرقه وجموعه وأمرائه ، وقد رمى صالح بن علي من وراء بقائهم حيث نزلوا أول الامر ، الى غرض انتواه في نفسه وترك أمر تنفيذه للزمن وللظروف ٠٠

وفي العاصمة الاسلامية الاولى ، والبلدة الطيبة المباركة التي زحف منها نور الاسلام فعم أرجاء وادي النيل ــ راح صالح بن علي يفكر في شئون دولته وأقدارها ، ويرسم خطوط الاستقرار والبقاء القائمين على حب الشعب وتفانيه في الاخلاص لحاكمه والالتفاف حول رايته ٠٠

ولما كان زوال الملك الاموى ، وقيام الخلافة العباســـية لايعني غير مجرد تغيير مظهري لشخوص الحكم ، وبقاء السياسة الاسلامية الرفيعة المستمدة من روح الدين الســمح ، فقد أحب صالح بن علي أن يعلن هذا الامر بصفة رسمية ، ليشعر الشعب بأمر التغير الشكلي الذي طرأ على البلاد ؛ فيبني للعباسيين عاصمة ومسجدا جامعا جديدين ٠٠

ولقد نهج صالح بن علي في ذلك التغيير المادي الذي أراده ، نهج عمرو بن العاص يوم جاء لاول مرة ، فبنى الفسطاط ومسجده الجامع ، وكان في انتقاله اليها وصلاته بالمسلمين في المسجد الجديد ، ما دل على تغيير السلطة وتبــدل الأحوال واعلان دخول مصر في حكم وسياسة جديدين ٠٠

وحتى يتم بناء العاصمة الجديدة ومسجدها الجامع ، بقي صالح بن علي في الفسطاط ٠٠ يصرف الامور ويحكم البلاد ويسن القوانين وينفذ الشريعة ، ويعنى بأمور المسلمين ٠٠

وبالرغم من أن الحاكم العباسي كان يضع أساس عاصـــمة جديدة ، لم يهمل شـــأن الفسطاط ٠٠ بل وجه جزءا كبيرا من اهتمامه الى مسجدها الجامع بصفة خاصة ٠٠

***

كان المصريون قد بدأوا يدخلون في دين الله عقب الفتح الاســلامي بقدر محدود ، زاد مع الأيام ومع اختلاطهم بالعرب الفاتحين ، اختلاطا جعلهم يتوقون أن يكون لهم حقوق العرب وميزاتهم ٠٠ وظلت هذه الزيادة تنمو وتعظم خلال الدولة الأموية ، حتى بلغت الذروة أيام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ؛ اذ كتب له عامله على مصر يقول : ان كثرة دخول المصريين في الاسلام قد أفلس خزائنـــه وحال دونه وجمع الجزية التي رفعت عن القوم لاسلامهم ٠٠ حتى أنه ليخشى ألا يجد لديه مايكفي نفقات جنوده !

وكتب عمر بن عبد العزيز الى واليه زاجرا غاضبا يقول : « ويلك ! لقد بعث الله محمدا

رسولا هاديا لله ، ولم يبعثه جابيا للمال ! ووالله ، لأحب الى أن يدخل أهل مصر جميعا فى دين الله فتسقط عنهم الجزية ، وأعمل أنا وأنت حراثين فى الارض نأكل من كد أيدينا»

* * *

لهذا .. وأمام تزايد المسلمين من أهل مصر من ناحية ، وهجرة الكثيرين من أهل الامصار الاسلامية الاخرى من ناحية أخرى ـ أصبح جامع عمرو ، حتى بعد الاضافات والزيادات والتحسينات التى أدخلها عليه قرة بن شريك ، لا يفى بالغرض الذى أقيم من أجله ، وهو جمع المسلمين فى صعيد واحد لأداء صلاتهم الجامعة ؛ التى شرعها الله ليجمعهم فيتعارفوا ويترابطوا ويتبادلوا المنافع وتتحد منهم الأفكار والآراء ، ويعملوا مجتمعين وبقوة لاعزاز دين الله ورفع مكانتهم بين الشعوب ..

وصالح بن على العباسى ، يوم وجه اهتمامه فى جامع عمرو ـ فى ذات الوقت الذى كان يضع فيه أسس جامعه هو أيضا ـ انما كان يشعر بمدى مكانة الجامع الكبير ، وحاجته الى أن يتسع وينمو وتعظم مكانته ، وأن يشعر الناس فى شتى الأمصار أن العباسيين لا يخصون منشآتهم وحدها باهتمامهم بل يخصون بيوت الله كلها بوافر التقدير وخالص الرعاية والاكبار ..

ولما كانت الخلافة العباسية قد قامت على قوة السواعد الأعجمية ، وشاد بنيانها الفرس ورعوها ودافعوا عنها .. فلم يكن عجيبا أن يقتبس الخلفاء العرب الشيء الكثير من حضارة الفرس ، وخاصة فى فنون البناء .. لهذا كان تفكير صالح بن على فى زيادة جامع عمرو قائما على أساس الاستعانة بالفن الفارسى فى البناء ومزجه بالخبرة المصرية العريقة ، ليخلص من هذا الاتحاد ظهور فن بنائى جديد يكون مثلا يحتذى بعد ذلك ..

* * *

وفى العام الثالث والثلاثين بعد المائة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ صالح بن على عمارته الجديدة فى جامع عمرو ، بأن وسع رقعته وزاد فى جناحه العربى أربعة أساطين ، وأجرى عمارة جديدة عند مدخل الجامع من ناحية بابه الاول ..

وكان طبيعيا أن يدخل الأمير العباسى فى هذه الزيادة الجديدة بعض الدور القريبة من المسجد .. وكانت دار الزبير بن العوام الواقعة غربى دار «النحاس» من هذه الدور ، وكان قد اشتراها أول الامر الحاكم الأموى عبد العزيز بن مروان من موالى الزبير الذين آلت اليهم ملكية الدار بالهبة عن سيدهم ، وقسمها عبد العزيز بعد ذلك بين ولديه ؛ الأصبغ ، وأبى بكر .. وهذان أورثاها بعدهما لحسان بن الاصبغ ، وأم عاصم بنت عاصم ابن أبى بكر .. ومن هذين اشترى صالح بن على الدار وأدخلها فى المسجد ..

* * *

وهكذا .. ومع تسلسل الزيادات والعمائر التى تمت فى جامع عمرو على كر العصور فشملت باحته دور الصحابة الاجلاء : عمرو بن العاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الله

ابن عمرو ‥ وكثيرين غيرهم من السـادات السـابقين فى الاسلام فشرف الله بذلك أقدارهم وجعل دورهم الدنيوية بيوت عبادة وعلم وألهم بتعميرها قوما آمنوا بالله ورسوله وعرفوا أن من أقام لله بيتا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا فى الجنة ‥

وما أكثر بيوت الخلد التى أقيمت لهم دعائمها هناك !

ولم يكد الأمير العباسى صالح بن على يفرغ من عمارة جامع عمرو هذه ، حتى التفت الى اتمام العاصمة العباسية الجديدة التى أراد اقامتهـا فى أرض مصر ‥ وراح يعمل بعزيمة وهمة ‥ حتى تم تشييد مدينة ‥ أخذت اسمها من « العسكر العباسى » الذين كانوا مقيمين بها منذ قدموا مصر ، فأصبح اسمها « مدينة العسكر » ‥

وما أن تمت العاصمة الجديدة واستكملت أسباب وجودها وتسـارع العباسـيون الموجودون فى مصر الى سكنى دورها الجديدة ، حتى راح أميرهم يتم تشييد المسجد الجامع الجديد ، والذى أطلق عليه أيضا اسم « جامع العسكر »

وهكذا أصبح للخلافة العباسية فى مصر عاصمة خاصة ومسجد جامع ‥

وهكذا انتقلت السلطة الزمنية من الفسطاط الى مدينة العسكر ‥

وانتقلت الزعامة الدينية من جامع عمرو الى مسجد العسكر الجديد ، الذى ضمنت له صفته الرسمية رواجا واقبالا من الناس ‥

* * *

وبالرغم من أن مهام الدولة الرسمية فى عهد صالح بن على قد انتقلت من الفسطاط الى العسكر فان « بيت مال المسـلمين » قد بقى مكانه فى جامع عمرو فى نفس المكان الذى أقامه فيه « **أسامة بن زيد التنوخى** » **أيام** « **سليمان بن عبد الملك** » **الأموى ‥**

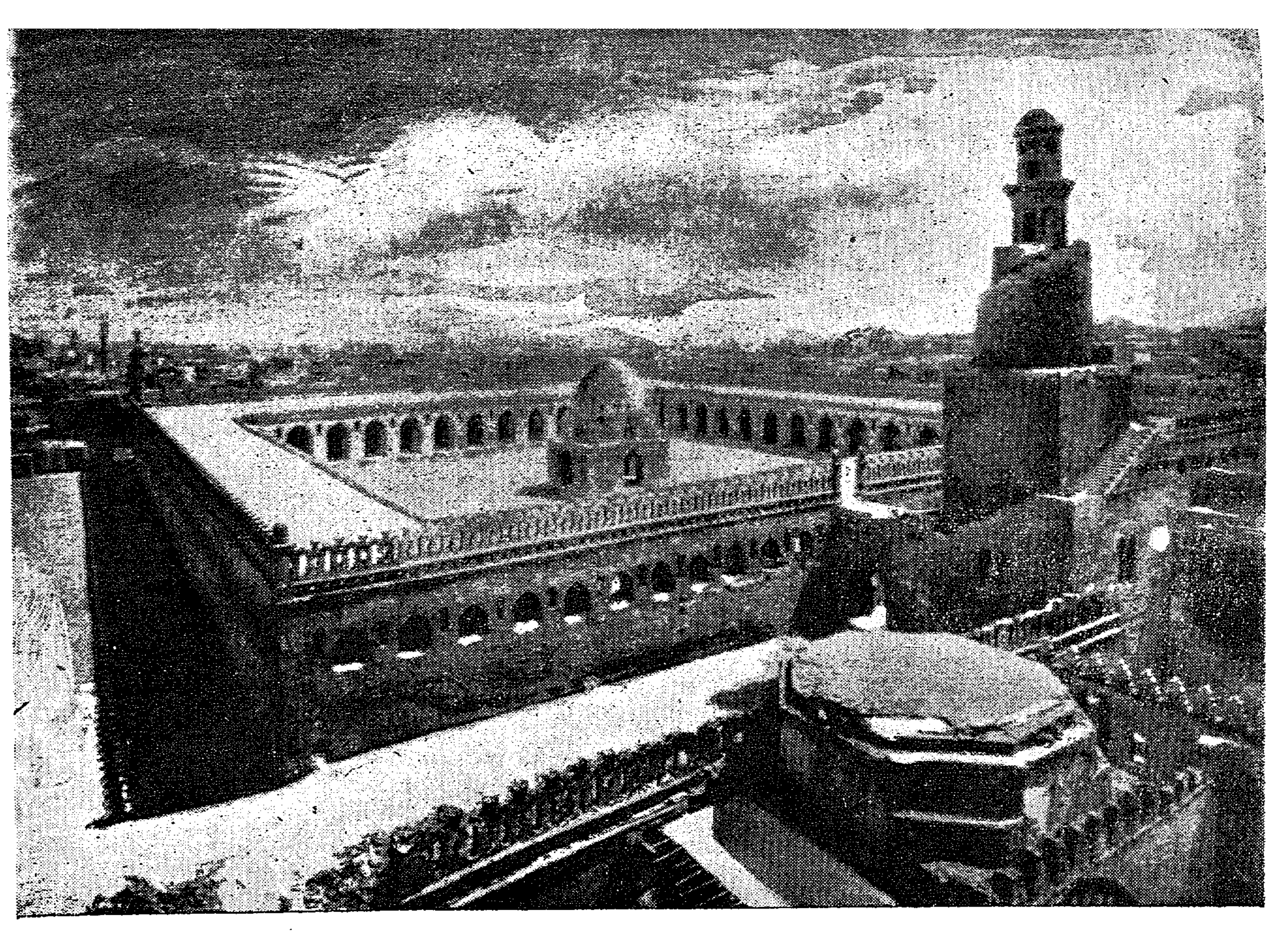
وبقاء « بيت مال المسلمين » فى الفسطاط ، وداخل جامع عمرو بن العاص بالذات فيه اقرار بأن الدولة العباسية الجديدة ، لم ترد بانشاء مدينة العسكر ومسجدها أن تسلب الفسطاط ولايتها الرسمية ‥ ولا المسجد الجامع مكانته الدينيـة ، فأبقت لهما هـذا المظهر المالى الخطير ‥

وظل « بيت المال » فى مكانه العتيد من جامع عمرو حتى تولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، وولى على مصر «يزيد بن حاتم المهلبى » الذى قامت فى أيامه فتنة أشعل العلويون نارها بزعامة « على بن محمد بن عبد الله العلوى » وهاجموا خلالها « بيت المال » ليسلبوا مافيه ، فيكون عونهم فى حركتهم الثورية ضد الخليفة العباسى اليقظ ‥

وعلم يزيد بالامر ‥ وكره أن يغتصب العلويون « مال المسـلمين » ليوقدوا به نار فتنة تأكل المسلمين !

فأسرع جنده الى جامع عمرو ، واستطاعوا صد دعاة الفتنة العلوية ، وتعزيز الحامية العباسية التى كانت هناك ، وتغلبوا على الثوار ، ولكن ‥ بعد أن أفلحوا فى نهب شىء كثير من « بيت المال » !

ولم يفعل الحاكم العباسى بعد أن أخمد الثورة شيئا بالنسـبة لمكان « بيت المـال » ، فأبقاه حيث هو فى مكانه بجامع عمرو ‥ وشدد عليه الحراسة ‥

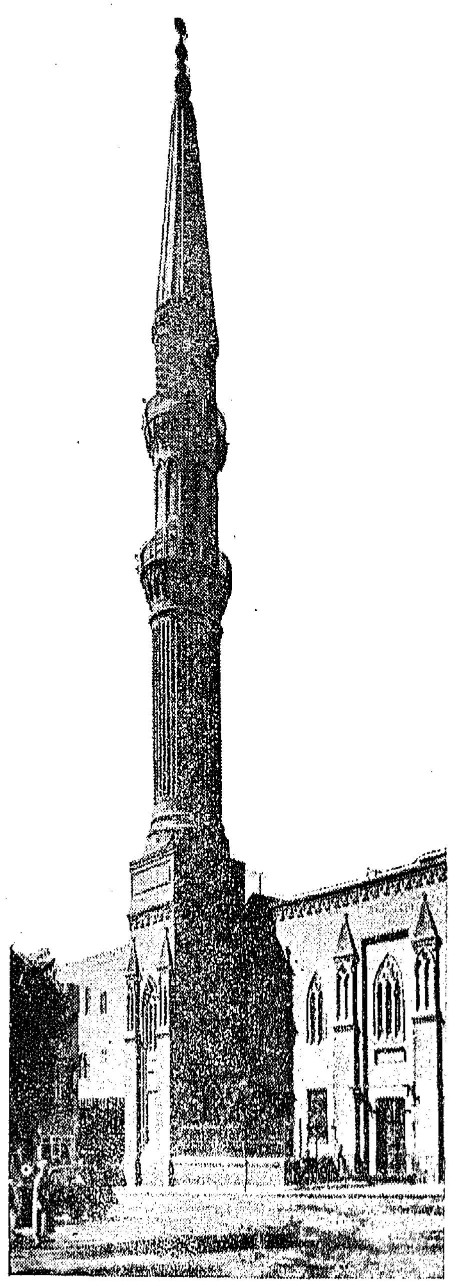


جامع احمد بن طولون أنشىء عام ٢٦٣ ـ ٦٥ هـ ـ ٨٧٦ ـ ٧٩ م أنشأه صاحبه على « جبل يشكر » بقلعة الكبش

نهاية دولة

وعلى الرغم من أن مدينة العسكر ظلت مقر حكم الولاة العباسيين ، ومسجدها الجامع ظل هو المسجد الرسمى للدولة منذ انشائه ، **فان مكانة جامع عمرو الذى تحول عنه الوالى وعسكره ورجال ديوانه — كانت أقوى من أن يسلبها مسجد حديث كجامع العسكر .. فرضت السياسة الجديدة مكانته — أن يقف الى جانب العملاق العتيد .**

لقد كانت لمسجد « عمرو » مكانة عظمى فى قلوب المصريين قاطبة . فهو أول بيت من بيوت الله ارتفع منه صوت الداعى الى الوحدانية الحقة ، وهو أول مسجد أنشىء فى الأرض ذات الحضارة الدينية الوطيدة ، التى دوت فى أرجائها منذ أظلم العصور أول الدعوات الى الكفران بالصنم والخروج على الشرك والاعتراف بالوحدانية .



((مئذنة الامام الحسين))

ولقد كانت نسبة مسجد الفسطاط الجامع الى عمرو بن العاص الصحابى الجليل ، كافية لأن تسبغ عليه هيبة ومكانة لا سيما وقد أشرف على تحديده ووضع قبلته أجل الصحابة وأقربهم الى رسول الله ، وأعرفهم بأصول الدين ولب الدعوة المحمدية ..

فمكانة جامع عمرو كانت مكانة روحية ، لم يكتسبها من صفته الرسمية فى الدولة ، بل من صلته بأولئك الذين شيدوه وارسوا قواعده وجعلوه مزارا مقدسا يذكرهم بالمجاهدين الأوائل ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده واستطاعوا على قلتهم وعظم ايمانهم

أن يثلوا العروش ويقيموا صروح الدول ويرسوا دعائم العدل فى عالم كان يرقب مقدمهم، ليخرجوا بالشعوب من ظلمات الجهل والشرك الى نور المعرفة الحقة والعبادة السامية .

وقد أدى جامع عمرو وظيفته الدينية فى مصر خلال حكم الخلفاء الراشدين ، واستمر فى أداء رسالته خلال فترة السلطان الأموى ، وطالما كان موضع اجلال الولاة ورعايتهم المستمرة التى بدلت فيه وغيرت وهدمت وشيدت .. حتى لقد احتفظ المسجد بشباب دائم ، وجمال قدسى منقطع النظير بما أدخل عليه من تجـــديد وما أضيف من زيادات

***

وكان كلما مر الزمن ، عظمت مكانة جامع عمرو بن العاص ، وعلا نجمه .. اذ تكاثر المسلمون فى الوادى الخصيب وجمعتهم السوامر والندوات ، وراحوا يتـــذاكرون سير السلف العظيم ، وعلى رأسهم عمرو الفاتح ، والزبير ، والمقــداد وعبادة بن الصامت وغيرهم من دهاقين الاسلام وحماته الذين كانت لهم فى مصر جولات وسير وذكريات .

لقد أنشأ « صالح بن على » مدينة العســكر ومســجدها .. ولكن ... هل فقدت الفسطاط مكانتها أو تراجع مسجدها الجامع عن مكانه فى المقدمة ... لا .. لقد كانت « العسكر » لها من اسمها صفة ، جعلتها شبه مقصورة ، هى ومسجدها على فئة خاصة من الناس ..

أما جموع الشعب ــ وهم الكثرة الغالبة ، فقد طالما كان ميدان تعبدهم وتجمعهم جامع عمرو فى الفسطاط ..

ولرب قائل يقول : ان اهتمام صالح بن على العباسى بزيادة جامع عمرو .. وعمارته كان الغرض منه صرف الناس عن القول **بأنه أنشأ فى العاصمة الجديدة مســجدا جامعا** « يضار » به المسجد الجامع الأصلى ذا الذكريات ــ فكان أن عمره ووسمه ذرا للرماد فى العيون ..

وهذا القول مردود عليه بأنه ان كانت تلكسياسة صالح بن على فان خلفاءه لم يقصروا فى العناية بجامع عمرو ولا هم انصرفوا عنه .. بل طالما اتجهوا اليه وأولوه من اهتمامهم الشىء الكثير دلالة على مكانته ، واعترافا منهم بعظيم فضله ، وبأنه المقدم على المساجد جمعاء ولو ملأت الرحاب فى وادى النيل ..

لم يكد يتولى « **موسى بن عيسى الهاشمى** » أمر مصر باسم هارون الرشيد حتى اتجه باهتمامه الى جامع عمرو .. **ورأى أن يزيد فيه وأن يوسع رقعتـــه ، فبنى « الرحبة » الفسيحة التى تقع فى نهاية المسجد ، والتى تبتدىء من ناحية شباك النحاسين ..**

وادخال هذه الرحبة الفسيحة فى حرم المسجد ، كان ولاشــك من أســباب ضيق الطريق العام ، لانها فى الواقع انما أخذت منه .. فلم يجد الوالى الطيب موسى بن عيسى الا أن يستمر فى كرمه ، فلا يقصر التوسعة والزيادة على المسجد دون توسعة الطريق

فاشترى دار الربيع بن سليمان الزهرى فهدمها وجعلها طريقا فسيحا للناس ..

***

والواقع أن جامع عمرو خلال العصر العباسى بالذات ، كان فى حاجة الى مزيد من التوسعة والتحسين ، وتشمل الطرق المؤدية اليه لانها كانت من الضيق بحيث لم تكن تتسع لجماهير الشعب التى كانت تتردد على المسجد فى ساعات النهار والليل على السواء لتحضر حلبات المدارسة وتصغى الى أجلاء أهل العلم وقد جلسوا فى صحن المسجد يحدثون الناس ويفقهونهم فى الدين ...

كان جامع عمرو ، باتخاذ أهل العلم مجالسهم فيه ، قد اتخذ مكانه المرموق بين المساجد الجامعة الكبرى .. فصار دار علم ودراسة ؛ شأنه فى ذلك شأن المسجد الجامع ببغداد ، ومسجد الرسول فى المدينة .. حيث كان أبو حنيفة النعمان يعقد مجالس العلم فى بغداد ، ومالك بن أنس فى مسجد النبى ..

ولما كانت المدينة المنورة أقرب الى أهل مصر من بغداد ، فقد توافد على مسجد الرسول فى مواسم الحج كثيرون ممن عشقوا العلم ، وأحبوا أن ينهلوا من مناهله ..

واجتمعوا بمالك .. وأخذوا عنه فقهه ودرسوا آراءه ، وعادوا الى بلادهم بمذهبه الدينى وراحوا يعلمونه للناس فى تلك الجلسات التى اعتادوا عقدها فى جامع عمرو ..

وعرفت حلبات العلم فى جامع عمرو « **عبد الله بن وهب** » وأنصتت اليه وهو يتحدث عن مذهب مالك وآرائه .. وتوافد عليه الناس – **وقد راقهم المذهب المالكى فاعتنقوه** – وتكاثرت جموعهم تكاثرا ظاهرا شجع كثيرا من العلماء على الجلوس للمدارسة والشرح **أمثال البويطى وابن عبد الحكم ، ويوسف بن يحيى ، وأبى بكر الحميدى ، وغيرهم ..**

كما دوى فى جوانب جامع عمرو وفى حلقاته الدراسية **صوت امام من خيرة أئمة المسلمين وأقدرهم هو « الليث بن سعد » .. المصرى الذى أضاع المصريون مذهبه وأهملوا دراسة فقهه وآرائه ، وهو الرائد المتحرر ، الذى كاتب الامام مالك وناقشه وأقنعه فى أعمق المسائل بالحجة والبرهان .. وكانت له فى أدق مسائل الدين وتفسير القرآن آراء صائبة ، عزت على كثيرين من العلماء وكانت موضع جدلهم ونقاشهم ودراساتهم عدة سنين بعد موت الليث بن سعد المصرى ..**

ولقد سمع « محمد بن ادريس الشافعى » ابان تجواله بين المدينة والكوفة والبصرة فى طلب العلم – بأمر حلقات الجدل الفقهى والمدارسة التى كانت تعقد فى أبهاء جامع عمرو وصحنه .. فتاقت نفسه الى الرحيل الى مصر للاستزادة ونشر العلم وتوجيه الآراء ..

ووصل الامام الشافعى أرض مصر .. وجلس فى جامع عمرو يحدث المصريين عن مذهبه وفقهه وآرائه ، فكثر تلاميذه وتوافد عليه المريدون من شتى الاصقاع وسرعان ما ارتفع صيته ونبه اسمه ، وعمت شهرته الآفاق ..

وتلاقى الشافعى فى مصر مع السيدة الشريفة « نفيسة بنت الحسن الانور » حفيد الامام « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ٠٠ وأخذتها بعض الأحاديث وجادلها الرأى فى كثير من المسائل الفقهية ، وكانت ضليعة فى العلم متمكنة من الفقه عالمة بالحديث .

وكانت طريقة الشافعى فى الدراسة بجامع عمرو ، هى أن يملى على مريديه ما كان يقول ٠٠ وقد أملى وهو فى مجلسه العلمى هذا ، ألفا وخمسمائة ورقة ٠٠ وأخرج كتاب « الأم » من ألفي ورقة ، وكتاب « السنن » ٠٠ ومراجع أخرى فى الفقه والشريعة ..

واعتاد الشافعى أن يأخذ مجلس دراسته فى جامع عمرو كل يوم عقب صلاة الصبح مباشرة ، وعندها كان يأتيه طلاب الحديث ٠٠ فاذا ارتفعت الشمس قاموا منصرفين ، واستوت الحلقة بعد ذلك للمناظرة والمذاكرة ٠٠ فاذا ارتفع النهار تفرق هؤلاء وقدم طلاب دراسة اللغة والفروض والشعر والنحو ٠٠ ويظلون أمام الشافعى يصغون ويناقشون ويكتبون حتى ينتصف النهار ، فيصلى بهم الظهر ويعود الى بيته ٠٠

***

وظل الشافعى فى مصر ، وفى مكانه العتيد يلقى على الناس درر علمه وآيات فضله ، حتى مرض مرضه الاخير فلم يستطع أن يبرح داره الى مجلس علمه فى جامع عمرو ٠٠ واذ ذاك تطلع كثيرون من العلماء الى ذلك المجلس الخطير الذى طالما ضاق بمن فيه ٠٠ وأحب كل واحد منهم أن ينفرد بالجلوس فيه دون الآخرين ؛ ظنا منه أنه بذلك يحل محل الشافعى وتكون له بين الناس مكانته العلمية التى لا تبارى !

وتطور الامر بين العلماء المتنافسين على المجلس ، الى حد جعل بعضهم يطعن فى بعض وكل يدعى بأنه أحق وأجدر بمجلس الامام ! حتى لقد بلغ من شدة التطاحن على ذلك المجلس أن رغب عنه كثيرون ابقاء لهيبة العلماء ورغبة فى عدم تجريح بعضهم بعضا .

وبالرغم من تنحى هؤلاء الكثيرين عن المطالبة بمجلس الشافعى ، فقد ظل أوار المعركة على أشده بين « **البويطى** » و « **ابن عبد الحكم** » **. وراح كلاهما يؤكد أنه أحق من صاحبه بمكان الامام !**

وتصادف أن أبا بكر الحميدى ، وهو من المقربين الى الشافعى ــ كان بمصر فى تلك الفترة ٠٠ **وساءته المعارك الجدلية التى قامت بين الفقيهين حول أحقية كل منهما بمجلس أستاذه ٠٠**

ووجد الرجل أن من الضرورى حسم هذا الخلاف الذى طال أمده ، بالتوجه الى الامام المريض نفسه وسؤاله عن أى الرجلين أحق من الآخر بمجلسه ؟!

وذهب الحميدى الى الامام ٠٠٠

وعاد ليقول للقوم : أن الشافعى يقول « ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابى أعلم منه !

وكان التصريح على جرأته مفاجأة للفقيهين فاتحدا وثارا فى وجه الحميدى ورميا

بالكذب ! فثارت بين تلاثتهم مناقشة وتطاول كل منهم بالسباب على صاحبه فغضب ابن عبد الحكم وترك مجلس الشافعي ، واتخذ له مجلسا بعيدا عن النطاق ..

ووجدها « البويطي » فرصة ، فجلس مكان أستاذه .. وراح كل من الرجلين يلقى العلم على مريديه من مجلسه الجديد في صحن جامع عمرو ، الذى أصبح فى ذلك الوقت مدرسة وجامعة علمية ؛ لها خطرها ولها أبلغ الاثر في توجيه التيـــارات الفكرية التى سادت مصر في تلك الآونة ؛ فجعلت بعض أحرارها يناقشون الحوادث التى كانت تدور في دار الخلافة في بغداد .. ويعترضون عليهـا اعتراضا تطور مع الزمن ومسـيره الى ثورات دامية أعلنت على الخلفاء العباسيين !

وكما اشتهرت مجالس العلم وحلقات المذاكرة في جامع عمرو ، اشتهرت كذلك مآذنه، وأعمدته وسطحه .. وكان للناس فى الاعمدة والسطح روايات وأقاصيص تعدت حد التحيز والتحمس الى الخرافة فى كثير من الاوقات ..

وأول مئذنة أنشئت بمصر في جامع عمرو هى تلك التى بناها مسلمة بن مخلد بأمر من معاوية بن أبى سفيان ؛ ليسمع الناس صوت المؤذن فى شتى البقاع ساعة ينادى : « حى على الصلاة » .. فيفدون سراعا الى المسجد الجامع لأداء فريضة الله ..

وبمرور الزمن وتكاثر الناس وامتداد العمران ، زاد مسلمة الى المئذنة الاولى ثلاث مآذن أخرى .. فأصبحت لجامع عمرو أربع مآذن سامقة تؤدى وظيفتها الندائية معا مرة واحدة في كل وقت من أوقات الصلوات الخمس ..

ولعل مرجع زيادتها هذه كان الرغبة في أن يعلو صوت المؤذنين على أصوات النواقيس التى كانت تدق فى الكنائس القريبة من الفسطاط ..

وأقيمت بعد ذلك للمسجد منارة خامسة في وسطه ، كان مدخلها كمداخل بقية المآذن الاربع من الخارج ..

أما الأعمدة فكما ذكرنا ــ لم تكن معروفة للعرب ، ولم تكن لهم خبرة بقطعها ولاطريقة صنعها ، لهذا نقل معظمها من بيوت بعض السادات والبيع المهجورة والمعـابد القديمة . وجاءت في مجموعها خليطا من شتى فنون بنائية ، بعيدة عن الذوق والفن العربى .

وطبيعى أن عمرو بن العاص ، لم يهتم باقامة الاعمدة فى مسجده الصغير ، اذ لم يكن مسقوفا ولم تكن له باحة ولا ايوانات .. ولكن عمليات الزيادة والتوسيع المستمرة هى التى ألجأت الولاة الى اقامة تلك الأعمدة ، التى بلغت فى النهاية ثلاثمائة وثمانية وسبعين عمودا ــ اصطفت فى شكل بديع كان آية من آيات الذوق العربى الذى استكمل وجوده وظهرت مزاياه ..

وبالرغم من أن العرب في أيام الخلفاء الراشدين ، لم يعرفوا هذه العمد ، ولم يستعملوها فى بناء .. فان بعض الاعمدة القائمة فى جامع عمرو بالذات لازمتها خرافات ، نذكرها

من باب الترويح ولعل أظهرها جميعا « العمود المسجون » !

ان لهذا العمود المسور بسياج حديدى ، والذى يقع الى يسار المنبر ، قصـــة غريبة مؤداها أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أراد ، يوم بنى عمرو جامعه هذا ، أن يسهم معه فى البناء والتجميل ٠٠ وكان بمكة عمود فخم ، أحب أمير المؤمنين أن يرسله الى مصر ٠٠ فذهب الى ذلك العمود وأمره أن يسير لفوره من مكة الى مدينة الفسطاط ، ليأخذ مكانه فى جامع عمرو !

وكأنما عز على ذلك العمود العتيد ، أن ينتقل من البلد الأمين ومن جوار بيت‌الله‌الحرام الى أرض بعيدة ــ لم يكن الاسلام قد انتشر فيها بعد ، فلم يطع عمر ولم يتحرك من مكانه

وعاد عمر يأمر العمود العاصى بالمسير الى الفســطاط ٠٠ وكرر الامر ثلاث مرات مع الضرب ! ولكن العمود لم يتحرك من مكانه ٠٠ فلم يجد أمير المؤمنين غير أن يهدد العمود بأن يترك هو مكانه ويسرع الى الفسطاط !

وأطاع العمود أخيرا ٠٠ وانتقل من مكة الى جامع عمرو ٠ وقد بقيت على سطحه آثار الضرب الشديد ، متمثلة فى عروق ظاهرة خلفها السوط الذى ألهب به أمير المؤمنين ذلك العمود المسكين !

والقصة خرافة لاتحتاج الى تكذيب ، فالعمود ، لم يوضع مكانه من المسجد الا فى‌أوائل القرن الثالث‌الهجرى ، خلال الزيادة التى زادها عبد الله بن طاهر فى المسجد ٠ وقدكتب فى وسطه مايلى :

« الله ، محمد ٠٠ لا اله الا الله محمد رسول الله ٠٠ على ٠٠ محمد ٠٠ محمد ٠٠ عبد الباقى أحمد » (١)

***

وهناك أعمدة أخرى فى جامع عمرو ، لها قصص ٠٠ منها العمـــودان اللذان يكتنفان المحراب ، واللذان قال‌عنهما العامة : انهما «يشفيان مرض الكبد‌بمجرد لعقهما باللسان، بعد وضع عصير الليمون على سطحهما » ! (٢)

وعمودا « كشف الخطايا » ــ وهما ثالث مجموعة من الاعمدة ذات الاقاصيص ــ فيقعان على يسار الداخل من الباب الغربى القبلى الكبير ٠٠ ويزعم البســـطاء أن المرور بينهما يستحيل على غير الطاهر من دنس الخطايا أيا كانت ٠٠ «٣»

ويبقى بعد هذا الحديث المستفيض عن «سطح» جامع عمرو ٠٠ حديث فيه طرافة ٠٠ وأدب ٠٠ وتصوف ٠٠

---

(١) قامت وزارة الاوقاف بوضع سياج حديدى حول هذا العمود لمنع الناس من ضربه بنعــالهم لعصيانه امير المؤمنين عمر ٠٠ ولهـذا سمى بالعمود الكافر او المسجون ٠٠

(٢) قامت وزارة الاوقاف بتسوير هذين العمودين ايضا منعا لانتشار الامراض

(٣) كان منجراء تكاثرالناس ومحاولتهم المرور بين العمودين لاثبات طهارتهم ، ان‌كاد يسقط احدهما من مكانه ، لولا أن تداركته عناية وزارة الاوقاف بسياج من حديد ٠٠

لقد كان النيل يوم بنى الجامع فى أول عهده . وخلال عصور أخرى تلته ـ يمر قريبا من المسجد ، وكان الصعود فى الاصائل فى بعض الليالى القمراء على « السطح » يكشف للعين منظرا طبيعيا رائعا يكتنفه جو شـــاعرى بديع .. يثير ملـكة التخيل عند بعض المتأدبين أو من أحبوا الطبيعة وجمالها .. وكان السطح بمثابة « الروف جاردن » يقصده طلاب المتعة من الادباء وعلية القوم والمترفين وكانت تدور بينهم المحـــاورات الجدلية فى الشعر والأدب .. كتلك التى حدثت ذات ليلة بين «ابن قلاقس» و «ابن المنجم» وقد كانا على « سطح الجامع » مع نفر من الاصدقاء ذات ليلة من ليـالى رمضـــان .. وقد غابت الشمس واختفت خيوطها الذهبية .. لتترك للهلال الوليد سماءه ..

واقترح جماعة على «ابن قلاقس» و «ابن المنجم» أن يصفا هذا المنظر الرائع شعرا .. فأطرق كل منهما مفكرا ..

ثم رفع ابن المنجم رأسه وقال :

وعشـــاء كأنمـا الأفق فيـــه لازورد مرصـــع بنضـــار
قلت لمـــا دنت لمغربهـــا الشـــمس ولاح الهـــلال للنظـــار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا را فأعطاه الرهن نصف سوار

وقال ابن قلاقس :

لاتظن الظلام قد أخذ الشمس وأعطى النهار هـــذا الهـلالا
انما الشرق أقرض الغرب دينا را فأعطاه رهنـه خلخالا ..

***

وهكذا ، كان الصعود الى سطح جامع عمرو نزهة جميلة ، وندوة لتطارح الشعر .. وكان الصاعدون الى هناك يصلون من خلال واحد من أبواب ثلاثة : أولها سلم باب «قاعة الخطابة » ، وهو الذى اعتاد أن يسلكه المؤذنون فى يوم الجمعة ليصلوا الى المآذن المتعددة هناك ..

أما ثانيهــا وهو « باب الفانوس » الكائن فى الناحية الشرقية ، اذ كانوا يستعملون « فانوسا » وهم يمرون منه الى « السطح » فى ليالى رمضان

أما الثالث فهو الكائن فوق غرفة الساعات ..

واذا ماخلفنا الأدب وهواته ، والشعر ومن يقرضونه فى سطح جامع عمرو وجدنا أنفسنا أمام الناحية « الصوفية » التى يوحى بها الوجود فى هذا المكان الجليل ..

لقد روى البعض أن الصعود الى سطح جامع عمرو ثم الطواف به سبع مرات ـ تبدأ من « باب الخزانة » الاولى التى يستقبلها الداخل اليه وهو يتلو .. الى أن يصل الى زاوية السطح اليسرى عند المئذنة المسماة «عرفة» ، فيقف عندها ويدعو بما أراد .. ثم يمر وهو يتلو .. الى أن يصل الى الركن الشرقى عند المئذنة الشهيرة بـ « الـكبيرة » ويدعو بما أراد .. ثم يمر الى الركن البحرى الشرقى فيقف فيه ، محاذيا لغرفة المؤذنين ويدعو بما

أراد ·· ويمر وهو يتلو ·· حتى يصل الى المكان الذى ابتدأ منه ·· يفعل ذلك سبع مرات ـ فان حاجته فى ذلك الوقت تقضى » (١)

« **ويستجاب الدعاء فى هذا الطواف بما يلى :**

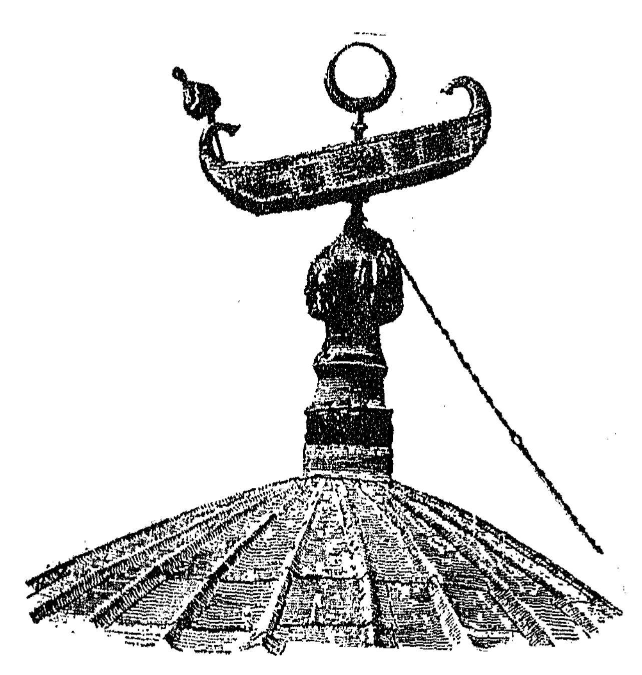
« **اللهم ياموضع حاجات المؤمنين ، ومنتهى مسائل السائلين ، وغياث المستغيثين ، ونور المستضعفين ، ومجيب دعوة المضطرين ، وكاشف الكرب العظيم ـ صل على محمد وآله الطاهرين ، وتولنى بحفظك وأحطنى بسرادق عرشك ، وأضرب على مدينة حصنك وأسبل على سترك ، ولا تغض عنى طرفك ، ولا تولنى غيرك · واصرف عنى شرار خلقك برحمتك يا أرحم الراحمين ··**

« **ياودود ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يا مبدىء يامعيد ، يافعال لما يريد ·· أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك ، وأسألك بقدرتك التى قدرت بها على جميع خلقك، وأسألك برحمتك التى وسعت كل شىء علما ··**

« لا اله الا أنت ، يامغيث أغثنى ·· يامغيث أغثنى ·· يامغيث أغثنى برحمتك» (٢)

***

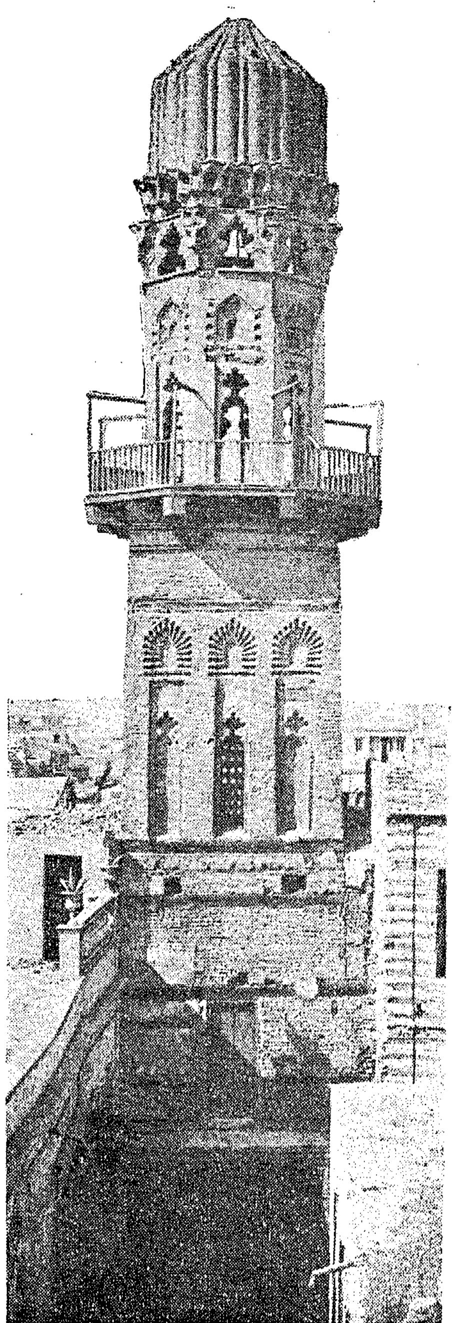
تلك كانت شائعات متواردة ، وأقاصيص بلغ بعضها حد الايمان به ولكن ··· استنارة البصائر ، ومحاربة البدع والضلالات كفلت القضاء على أمثال تلك الخرافات الشنيعة التى يبرأ منها الدين وأهليه



---

(١) المقريزى ج ٤ (٢) ابن دقماق

دُوَلٌ تدول


«مئذنة الصالح نجم الدين أيوب»

أوصى الرشيد فى حياته ، وابان سطوته وسلطانه ، بأن تكون الخلافة من بعده لأولاده الثلاثة على التوالى : الأمين ، ثم المأمون ، ثم المعتصم .. وكتب بذلك كتابا وأخذ عليه بيعة النـــاس وكبار رجال الدولة ، الذين أشفقوا فيما بينهم وبين أنفسهم من صراع تصوروا قيامه بين الاخوة الثلاثة ، لاختلاف فى الطبائع وتفاوت فى المعرفة ، وتباين فى المقدرة على تحمل التبعات ، خبروه عن كثب فى أبناء أمير المؤمنين ..

ولقى الرشيد ربه .. ونودى بالامين أميرا للمؤمنين وبالمأمون وليا للعهـد ، ومن بعده المعتصم ..

وافتتح الامين خلافته بما أساء رجال أبيه وأشعر شعبه بالقلق ؛ اذ سارت الامور فى أيامه على نهج خافه العقلاء ، لان ابن الرشيد من « **زبيدة** » الحصيفة الذكية ذات الدهاء وصاحبة تدبير مصارع البرامكة ــ لم يكن الخليفة الذى تمناه أبوه وتخيلته أمه ..

لم يكن الأمين العباسى غير وريث عابث الملك عريض ، فلم يقدر جسامة التبعات ، ونسى أمام بهرج السـلطان ، العبء الثقيل الذى ألقى على كاهله .. واعتبر الخلافة معبرا لينا مفروشا بالورود ، يصل به الى حيث كان يريد ، ليحقق كل ماصبت اليه نفسه من متع الدنيا وأهواء الشباب ..

وتمادى الوريث الطائش فى غيه ، فراح يعبث بالتراث العظيم ويبدد المال دون وعى ويركب رأسه دون خشية ، ويفعل مايشاء وكأنه لايخشى لومة لائم أو عتب رقيب ،

وظن الامين أمام يسر السبل ، وبساطة تحقيق المطالب أن بوسعه أن يفعل مايشاء وأنه لا سلطان لأحد عليه ، فانصرف بكليته الى الغى وسعى بالفساد ..

ورأى وزيره « الفضل بن الربيع » أن يعبث به وأن يوجهه حيث يريد ، فأوحى اليه أنه من اللازم لاستكمال جلال سلطانه أن يخلع أخويه من ولاية العهد المتتابعة ، وأن ينادى بولده وريثا له ..

وراقت الفكرة للأمين ، وأحب أن يبطش أول مايبطش بأخيه المأمون ، فاذا ناله سكت المعتصم وسلم بما يكون ..

***

كان المأمون وقتها يحكم باسم أخيه فارس وخراسان .. وكان الشعب هناك يعتبر المأمون منه ، فأمه فارسية ، وعصبته وخؤولته من فارس التى قامت الخلافة العباسية على رماحها وجهاد شبابها ..

ووصلت الى فارس أنباء مؤامرة الفضل بن الربيع الذى سخر الامين لتنفيذها .. فثار الشعب هناك ووقف الى جانب حاكمه يحميه ويذود عنه ويدفع العدوان .. ثم ينصح برد الاهانة ويطالب بالهجوم على بغداد نفسها لخلع الخليفة ؛ لأنه تنكر للبيعة وأراد أن يغتصب الحق من صاحبه ، فلا أقل من أن يعزله صاحب الحق لأنه خان !

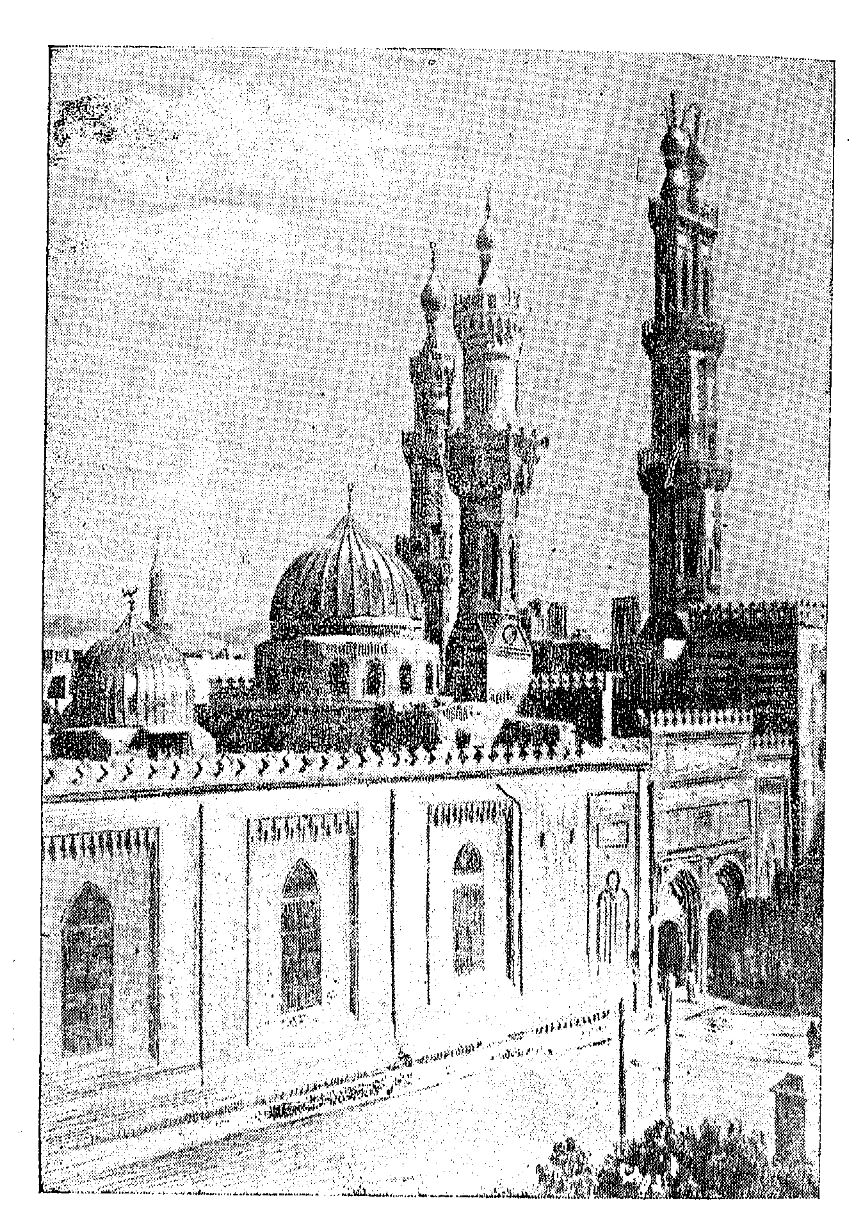
وحاصر المأمون ومن خلفه أهل فارس ــ أخاه الأمين ، وشدد عليه الحصار .. فلم يجد الخليفة غير التسليم .. ولكنه وقبل أن يصل أسيرا الى حيث كان أخوه المنتصر ، قتله بعض جند فارس !

وخلص الأمر للمأمون .. ونودى به خليفة فى بغداد ، وأميرا للمؤمنين فى شتى الأمصار التى كانت تدين للعباسيين بالطاعة ، وفى جملتها مصر ..

وفوجىء المأمون فى أول خلافته بأن الارض لم تكن مفروشة بالزهر والورد كما تصور بل بأشواك رهيبة تبدت فى ثورات هنا وهناك وفى كل مكان .. حتى لقد قضى السنين الأولى لحكمه فى اخمادها واعادة الأمر الى نصابه عن طريق قائده الظافر « طاهر ابن الحسين » ..

وثارت مصر فى جملة البلاد .. وكانت ثورتها رهيبة ، لم تدفعها اليها الخلافات التى حدثت فى بغداد ، بل ضعف الولاة العباسيين فيها ، وقصر مدة حكمهم ، واعتبار كل منهم جابيا للمال فقط ، مهملا ارادة الشعب ورغباته ، تاركا حبل الامور على غاربه الى درجة أطمعت بعض المغامرين فى تملك مصر ، فهاجموها وسقطت فى أيديهم الاسكندرية وغيرها من البلاد المجاورة لها ..

وكانت تنازع الوالى العباسى على مصر قوتان مدمرتان ، أولاهما « عرب الحوف » المصريون الذين ثاروا عليه وعلى المأمون .. وثانيتهما « القوة الاجنبية » التى استولت



المنظر الخارجي للجامع الأزهر

انشىء فى عصر الدولة الفاطمية عام ٣٥٩ – ٦١ هـ ٩٧٠ – ٧٢ م انشاه القائد جوهر الصقلى بامر مولاه المعز لدين الله الفاطمى أول الخلفاء الفاطميين فى مصر ليكون مسجدا جامعا للقاهرة الفاطمية الجديدة ، أسوة بالجامع الطولونى فى القطائع ، وبجامع عمرو فى الفسطاط فكان أول جامع أنشىء بمدينة القاهرة ،

قصد يعقوب بن كلس من هذه التسمية اصابة هدفين ، وارضاء طائفتين ، فالازهر فى عرف العامة وشتى طبقات الشعب منسوب الى الزهراء البتول فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والازهر فى عرف الخاصة من الفاطميين منسوب الى « القصور الزاهرة » التى كان يسكنها الامام العزيز بالله .. وفى انتساب المسجد اليها ما بينه وبينها من ناحية السياسة والمذهب ! وهو أقدم أثر فاطمى قائم بمصر .

على الاسكندرية ؛ ممثلة فى أولئك المهاجرين الاندلسيين الذين كانوا يقودون تلك الحملة

وأمام استفحال أمر الثورة فى مصر ، وخشية امتدادها واتساع رقعتها ، ورغبة فى تخليص الاسكندرية من غاصبيها ـ لم يجد المأمون غير أن يرسل قائده الظافر « عبد الله ابن طاهر » الذى وكل اليه أمر الشام ومصر ؛ ليأتى بجيشـــه الى وادى النيل ويضرب ضربته التى يستتب بعدها النظام وتهدأ الامور ويعود الأمن الى نصابه ..

وحضر عبد الله بن طاهر الى مصر بجيشه ، وكان قائدا يعرف كيف يحقق الانتصارات العظيمة فقمع ثورة المصريين وأخضع عرب الحوف ثم سار الى الاسكندرية ، فضرب الغزاة الغاصبين ضربة قذفت بهم الى البحر هاربين .. وخلص الثغر العتيـــد من طغيـانهم واغتصابهم وأعاد وادى النيل مرة أخرى الى السلطان العباسى ..

ولقد كان غريبا من القائد العباسى الظافر ، وقد بقى فى مصر متوليـا شئونها ، أن يهمل أمر « العسكر » ويتجه بعنايته الى الفسطاط ، ويترك « جامع العسكر » ويولى وجهه شطر جامع عمرو .. ويرى بعين بصيرته النفاذة ، أن الخلود وبقاء الذكر وطيب الأحدوثة ، حيث ولى وجهه .. فأحب أن يكون له فى مصر أثر باق ، وأى أثر فى ناظرى ذلك القائد العظيم أخلد من الاهتمام بجامع عمرو ، باعتباره المسجد العتيق وأحب بيوت الله فى مصر الى قلوب المصريين ..

***

كان عبد الله بن طاهر بعيد النظرة صائبها .. وقد رأى بعينيه بعد أن أخمد الثورات ووطد دعائم الأمن فى مصر ، أن جميع المصريين تقريبا قد نبذوا دياناتهم وهرعوا يبتغون رضوان الله ودخلوا فى دين الاسلام .. ورأى امام هذا النصر المقدس ، والتطور الاجتماعى الجديد أن يجعل من جامع عمرو خير مكان لصلاة الجماعة فى مصر ، خاصة أمام هذا التزايد الدينى العظيم ...

واستعرض عبدالله الزيادات التى تمت فى جامع عمرو بعد عمارة « **قرة بن شريك** » فوجدها زيادتين محددتين ، أولاهما قام بها « صالح بن على » والثانية « موسى بن عيسى الهاشمى » ولم تفتنه الزيادتان فى الواقع ولم تروقا له ، اذ تمنـــاهما أكبر وأعظم .. ورأى أنه مادام قد فكر فى أمر عمارة المسجد الجامع وزيادته ، فيجب أن تكون الزيادة شاملة وفسيحة تتناسب ومكانته . بل ومكانة المأمون الذى ستتم فى عهده ..

وبعد مدارسة وتمعن واستشارات ، رأى عبد الله بن طاهر أن تكون الزيادة من السعة بحيث تضيف الى مساحة جامع عمرو مايساوى مساحته التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ! ..

ورسم الاخصائيون خطة العمل .. وبدأ عبد الله فى التنفيـــذ السريع ، وكان ذلك فى العام الثانى عشر بعد المائتين من الهجرة ، فهدم مؤخر المســجد كله وأدخل فيه كل

مساحة « زقاق البلاط » وقطعة كبيرة من مساحة « دار الرمل » حتى لم يبق منهـا غير « دار الضرب » ..

ولما رأى ان الزيادة التى تمت بعد هذا العمل لم تف بما كان يطمع فيه ، استمر فى سياسته وراح يدخل فى رحبة الجامع مساحات كثيرة وفسيحة أخرى مثل « قيسارية بدر » و « الميضاة » ورحبة كانت بين يدى « دار الرمل » ..

وامتدت العمارة بعد ذلك ، وكأنما طابت نفس الأمير لتلك الزيادات التى تمت على يديه ، فأراد أن ينميها وأن يزيدها سعة ، فأدخل الى جانبها دارا كانت مملوكة الى «عمرو ابن محمد أبى ليلى الثقفى » كانت « سقاية » ويعلوها «مجلس السقاية» .. ودفع فى هذه الدار ألف دينار تسلمها القاضى حارث بن مسكين المشرف على « أحباس » أبى ليلى ، وأمر أن يشترى بها دارا أخرى ، وعوض عن « السقاية » ..

ولكى تأخذ الزيادة سمتها الصحيحة وتكون كاملة من شتى نواحيها ، اشترى عبدالله ابن طاهر دار « يزيد بن رمانة » وأدخلها فى الزيادة ، وأضاف اليها دار « العجلان » ــ مولى « عمر بن الخطاب » ، وكانت يومها فى يد بعض بنى وردان فأرضاهم بالمال .

وأدخل فى الزيادة أيضا بعد هذا كله ــ دار« أم ابان» من بنى مسكين ، وعوض المشرفين **على أحباسها بدارين أخريين فى النحاسـين، تعرف احداهما بدار « قلية الخباز » ثم ضم الى هذه الدار دارا أخرى كانت تسمى « الفضل » عوض أصحابها دارين فى «سوق بربر » وكانت هذه الدار مما خطه « عبادة بن الصامت » الصحابى الجليل .**

ورأى عبد الله بن طاهر بعد هذا كله ، ورغبة منه فى استكمال الزيادة الواجب أن تتم فى جامع عمرو بن العاص أن تدخل فيه بضع دور باقيـة ، هى : **دار عبد الله بن الحارث ، وحكيم بن يوسف ، وقطعة من دار قيس بن أبى العاص السهمى ، فاشتراها من أصحابها وهدمها سريعا .. وبذلك أصبحت لديه مساحة شـاسعة مربعة ، كبرت بها مساحة المسجد ، حتى لقد تضـاعف وزاد زيادة لم تكن على بال أحد من المصريين أنفسهم ..**

***

وبدأ عبد الله العمل بهمة عرفت عنه ، وهو رجل العمل السريع الحاسم ، وسويت الأرض ، وراحت الجدر ترتفع وتتلاقى مع الجدر القديمة .. وسرعان ماصفت الاعمـدة المتعددة الطراز وأقيمت البائـكات ..

ولكن ، ونظرا لظروف خاصة طارئة ، عاد عبد الله الى بغداد قبل أن يتم ذلك العمل العظيم الذى شرع فيه وأوشك على الانتهاء منه ..

ولم يكد عبد الله بن طاهر يعود الى « دار الخلافة » حتى رفعت الثورة رأسها من جديد فى مصر ، وامتد لهيبها ، واتسعت رقعتها وطرد الشعب رجال الخليفة وجباته وامتنعوا

عن دفع الخراج •• وشقوا عصا الطاعة فى قوة ، حسب لها المأمون ألف حساب ، فأسرع بالحضور الى مصر هذه المرة بنفسه ••

وكان المأمون حاسما شديد الوطأة سريع العمل ، فلم يكد يصل الى مصر حتى جابه الثورة وراح يعمل على اخمادها بالعنف والقوة •• حتى قمعها وقضى عليها وجعل الأمن يستتب نهائيا فى وادى النيل ••

وعاد المأمون الى دار خلافته تجلله بنود النصر ، وترك على مصر واليا جديدا هو « عيسى بن يزيد الجلودى » ، الذى لم يكد يتسلم مقاليد الامور فى البلاد ، حتى اتجه باهتمامه الى جامع عمرو ــ وقد أحب أن يكون لاسمه شرف الخلود الى جانب الأسماء التى كان لها أثر فى تعمير ذلك المسجد العظيم وزيادته فكان أن أسرع يتمم العمارة الانشائية الكبيرة التى بدأها عبد الله بن طاهر •

واتسعت رقعة العمل •• وسارت عجلته بهمة لاتعرف الوهن ولا الكلل ، حتى كملت الزيادة التى أرادها القائد الظافر عبد الله بن طاهر ؛ فاتسعت رقعة جامع عمرو •• وبلغت مساحته الكلية بعد اتمامها أكثر من ثمانية وعشرين الف ذراع !

***

وخلال هذه الفترة وما بعدها ببضع سنين ، تولى القضاء بمصر قضاة عرفوا بالعدل والاستقامة ، الى حد أن الكثيرين منهم لم يبقوا فى مناصبهم طويلا ، اما لخوفهم من تحمل المسئوليات الجسام ، أو لتعارض سياستهم مع سياسة الولاة العباسيين الجفاة ••

ومن أشهر القضاة الذين تولوا هذا المنصب الخطير فى مصر بأمر المتوكل العباسى، القاضى المصرى «أبوعمرو الحارث بن مسكين » وكان له فوق مواقفه القضائية العادلة المشهورة ، يد فى زيادة جامع عمرو ــ قام بها فى السنة السابعة والثلاثين بعد المائتين من الهجرة • وذلك بأن بنى فى المسجد الجامع رحبة فسيحة عرفت باسمه •

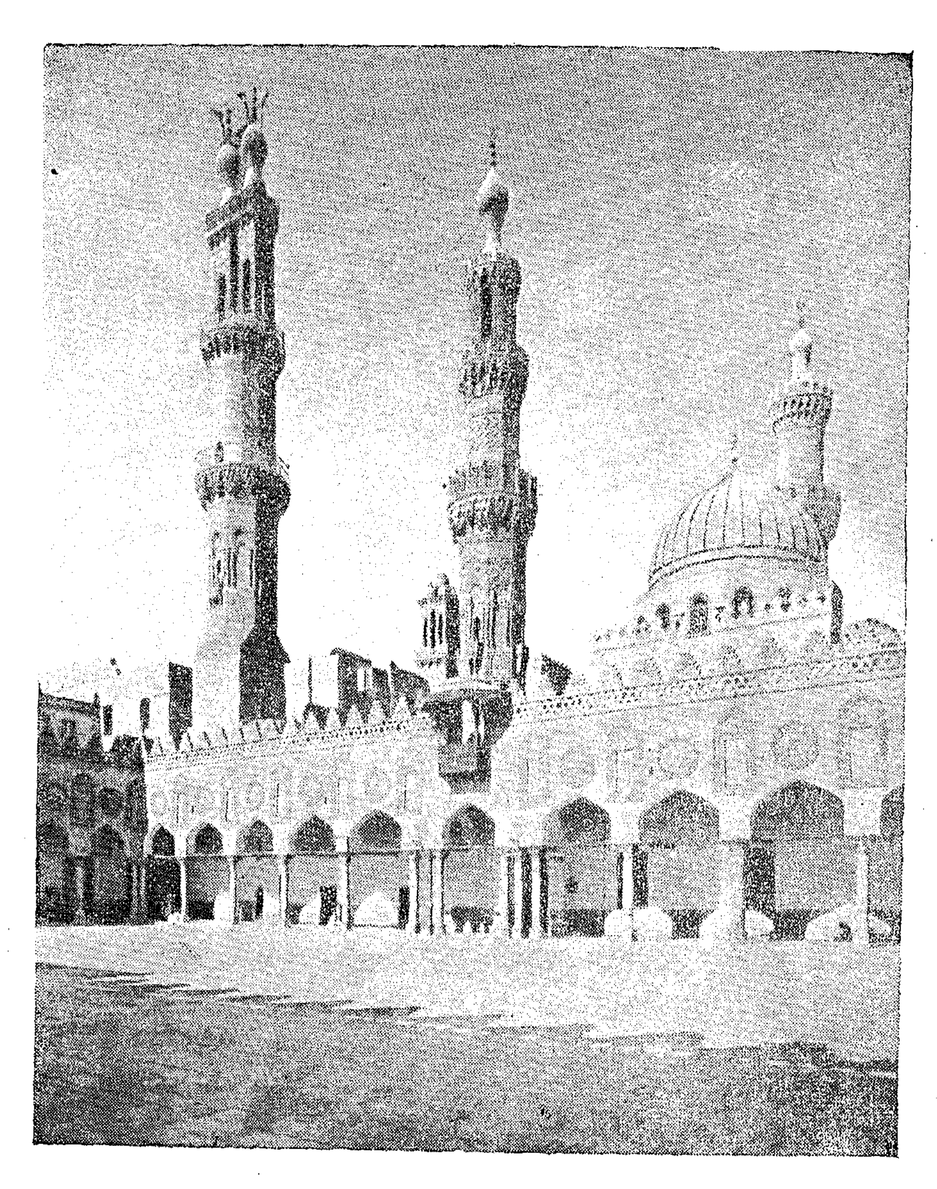
ورأى القاضى الصالح ، بعد أن أتم بناء الرحبة لتتسع لجموع الناس ، أن يحول «سلم المؤذنين » من مكانه الاصلى الى الناحية الغربية لجامع عمرو ••

***

ولم يكتف الحارث بما فعل ، بل قام يكسو « بالبلاط » زيادة عبد الله بن طاهر كلها •• ولم يغفل أمر اصلاح السقف ، ثم رأى بعد هذا أن يبنى سقاية فى الحذائين ، ثم قام ببناء رحبة أخرى للمسجد من جهته القبلية والغربية (١)

وعند اتمام أعمال القاضى العادل أبى بكر الحارث بن مسكين وقفت الزيادات العباسية فى جامع عمرو ، ذلك لأن حبل الأمور فى بغداد بدأ يضطرب ، وقل اهتمام الخلفاء باختيار ولاتهم على مصر فكان عدم استقرارهم فيها يهون عليهم أمر الاهتمام بصوالحها ، خاصة وقد عرف معظمهم أنهم ليسوا أكثر من جباةضرائب للخليفةولأنفسهم

(١) ابن دقماق ج ٤ ، المقريزى ج ٢



صحن الجامع الازهر ومنارتا قايتباي والغورى

لقد استطاع الجامع الازهر أن يحول الانظار الى القاهرة المعزية .. وأصبح قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة من شتى الطبقات الاسلامية فكثرت الحلقات فى صحنه وأروقته .

وثمة تغير آخر تم في تلك الآونة ، وهو أن الخلفاء قد أبعدوا العرب عن مجالسهم ٠٠ الى حد أنهم استغنوا عن خدماتهم ولجأوا الى الأتراك ٠٠ فكان منهم الولاة الأجلاف الذين بغضوا أهلَ الامصار فى الحكم العباسى ٠٠

ولم تشهد مصر ، بعد عبد الله بن طاهر ، حكما عباسيا عادلا غيرحكم « عنبة بن اسحق ابن شمر » الذى تولى حكمها عام ٢٣٨ هجرية ـ وكان آخر عربى يحكم مصر باســم العباسيين ، فكان صورة من الوفاء العربى وحب النجدة والتواضع والسهر على صوالح الرعية ٠٠

وابان حكم « عنبة » هاجم الرومان ثغر دمـيــاط وضربوه ٠٠ وتقدمت جحافلهـم الى داخل البلاد ، حتى بلغت مدينة بلبيس ٠ ٠ واذ ذاك نهض عنبة للدفاع عن مصر ٠ ٠

ولم يكد الرومان يرونه وســط جنوده وقد قدم ليلقــاهم فى «بلبيس» حتى فروا هاربين وعادوا من حيث أتوا ولم يحاولوا الاقتراب من سواحل مصر مرة ثانية !

ولم يكد عنبة يفرغ من أمر الرومان ، حتى فوجىء فى السنة التالية بخروج النوبيين على الحــكم المصرى ٠٠ ورفضوا دفع الخراج المقرر لعنبة ، وجرؤ ملــكهم « عــلى بابا » على الخروج بجيش لجب ، ذهب « اسنا وادفو » وتوغل فى « الصــعيد » ٠٠ واذ ذاك طالب « عنبة » الخليفة العباسى بأن يرسل اليه مددا ليصد الزحف النوبى ٠٠

***

ووصل المدد الى مصر٠٠ وأسرع عنبة ليلقى « على بابا » فهزمه بعد حرب طاحنة استتب بعدها الأمر لبنى العباس ٠٠

وبعد عنبة غير الخليفة المتوكل سياسته قبل مصر ، فولى عليها الاتراك من مماليكه ٠٠ وكانوا جفاة غلاظا ، يســيرهم الجشع وتتحكم فيهم الشراهة والرغبـــة فى الاثراء ٠٠ فراحوا يسرقون وينهبون ، ولا يجدون من يردعهم ٠٠ حتى القحط الذى عم البلاد ، لم يكن ليوقفهم عند حدهم فاستمروا فى سياستهم التعسفية غير مبالين بشىء !

وحكم مصر بعد عنبة من الولاة الاتراك « يزيد بن عبدالله » ومن بعده « مزاحم بن خاقان » ثم « أرخور » الذى انخفض الفيضان خلال حكمه ٠٠ وزاد نقصــــانه فى عهد الوالى الذى تبعه ، فقل الخراج وثار المتوكل ، وكان أن عين على ولاية مصر «أحمدبن المدبر» الجلف القاسى المتكبر !

***

وجاء ابن المدبر الى مصر ولا رغبة له الا جمع المال بأى وســـيلة ٠٠ ففرض ضرائب جديدة ومكوسا باهظة ، واستبد بالشعب وأذاقه من ألوان الظلم مالم يكن له عهد به من قبل ٠٠

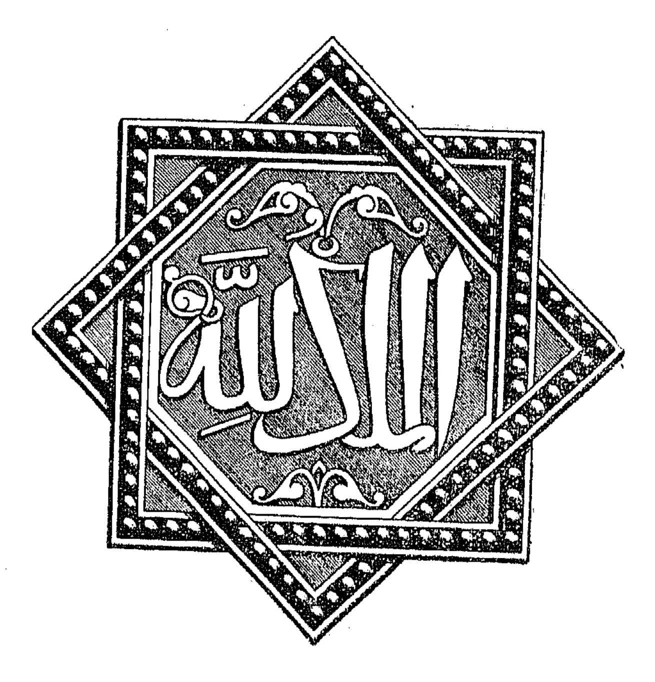
قحط ومسغبة ومظالم وجبروت ٠٠

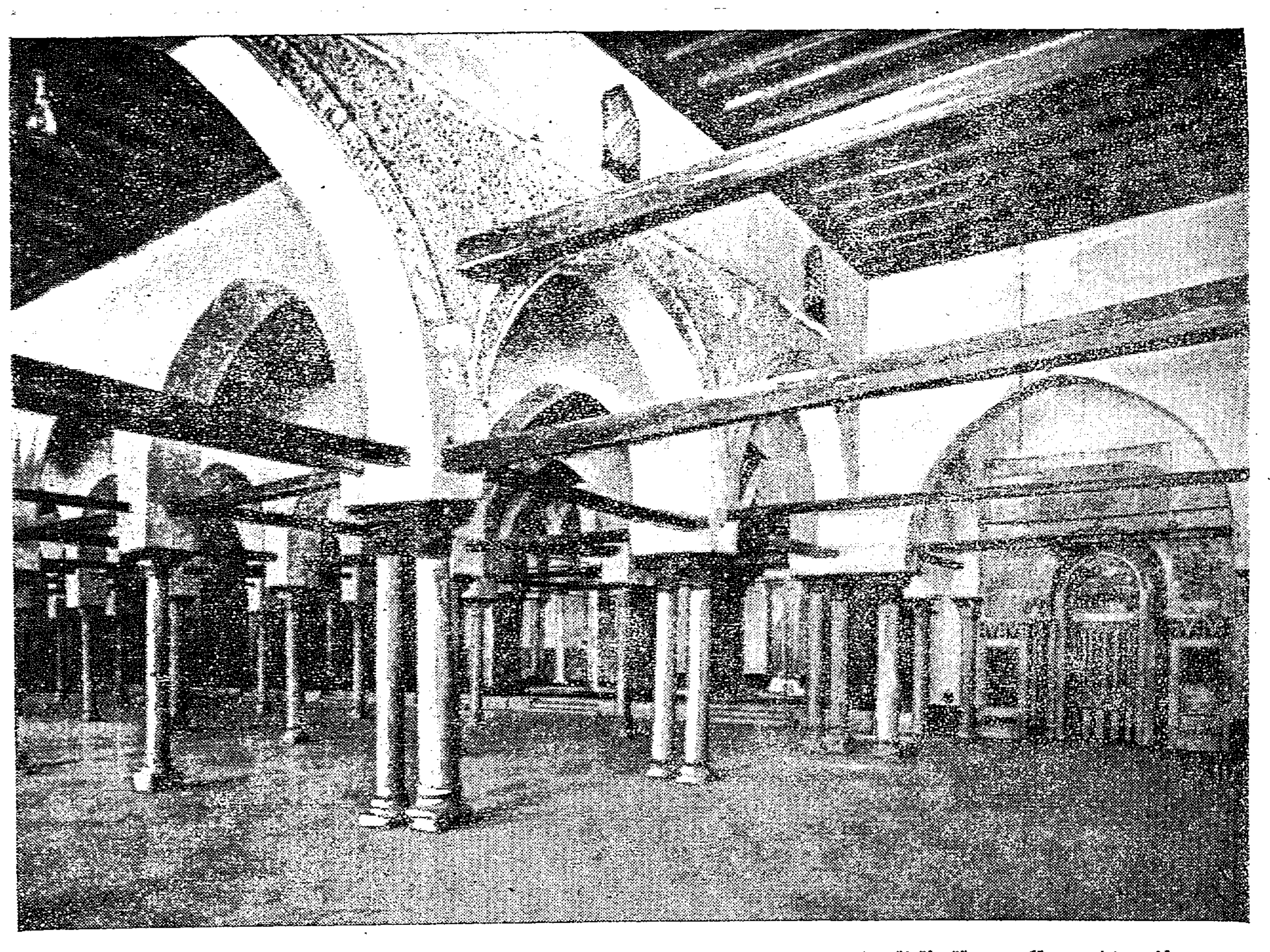
قلق واضطراب وحيرة ٠٠

لا سلام ، ولا أمان ، ولا راحة !!
طغاة قساة سلبوا الجياع أقواتهم فى حين كادت تقتلهم التخمة !
ترف وثراء فى ناحية ·· وفقر مدقع يخيم بعدها على كل البقاع !
زفرات حرى ، تتعالى الى السماء ··
نفوس خاشعة وجلة تدعو ، وترجو ··
قلوب تهفو الى المنقذ المنتظر ، الذى يخرج بالناس من هذا البلاء المقيت !
وخيمت المظالم فوق الظلمات ·· وأمير المؤمنين لاه عابث سعيد بالتفـــاف مماليكه الأتراك حوله فى العاصمة الجديدة « سر من رأى » ـ التى انتقل اليها وهجر بغداد ··

❊❊❊

لقد كان « ابن المدبر » أقسى عقاب أنزلته الخلافة العباسية بمصر ، يوم أرسلته أميرا لخراجها ·· فاستحل الحرام ، واستباح ماليس له ·· وأسرف فى نهب أموال الناس ، لينعم خليفته بالذهب ويرفل فى الحرير ويجود على الجوارى باللآلىء واليواقيت !
وكان طبيعيا أمام الجشع التركى الذى أبداه مماليك المعتصم ، أن يتحول اهتمـامهم الى المال ، فانصرفوا عن الاصلاحات انصرافا تاما ·· ولم يحظ مسجد من المساجد بعناية واحد من هؤلاء النهابين ··
وشاءت الظروف فى تلك الفترة العصيبة ، وقد اشتد استبداد ابن المدبر بالمصريين ـ أن يهيىء الله لها حاكما جديدا ، أرسله الخليفة العباسى هو « احمد بن طولون » الذى كانت ولايته ايذانا بنهاية دولة ·· وبداية دولة جديدة ·· دولة مصرية فى كل شىء ، بعيدة عن سلطان الخليفة العباسى ومماليكه الأتراك ··





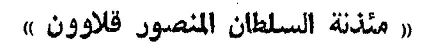
الجامع الازهر : آكبر اروقة القبلة بالجامع الازهر ، وبه اروقة آخرى لأبناء كل أقليم او قطر من الاقطار الاسلامية .

أحمد بن طولون

وصل أبو العباس أحمد بن طولون الى مصر ، وليست له يومئذ صفة رسمية ، ولكن الرسميين كلهم خرجوا يرحبون به ويتفننون فى استقباله ويرجون له اقامة سعيدة هانئة فى رحاب وادى النيل ..

وصل أحمد الى مصر وكل صفته أنه كان نائبا عن زوج أمه « الأمير بقيق » ، الذى أسند اليه المتوكل العباسى الولاية وشئون الخراج فى تلك البلاد الوادعة الامينة التى طالما تاق أحرارها الى التحرر من ربقة هؤلاء الغاصبين اللصوص ..

كان ابن طولون شابا لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، وقد أدهش مقدمه الشيوخ ودهاقين الولاية .. ورأوا فى انابة « بقيق » له ، جرأة على الاوضاع المألوفة ، واستهتارا بتقاليد الحكم المتوارثة التى طالما حافظ عليها بنو العباس فى مصر بالذات ، فقدموا الكبير على الصغير وسودوا الشيخ على الشاب .. ولم يحدث فى يوم من الايام أن خرجوا على تلك الشرعة فجعلوا حدثا فى مثل سن أبى العباس يتصدر مجالس الحكم ، متقدما فى ذلك على من يكبرونه سنا ويفوقونه تجربة وخبرة ، ولهم فى خدمة الخلافة ماض معترف به !



« مئذنة السلطان المنصور قلاوون »

لقد كان مقدم أحمد مفاجأة لها صداها فى كل مجال .. مفاجأة أذهلت رجال الحكم فى مصر نفسها .. ورأى فيها الشعب المصرى اجتراء جديدا من الخليفة العباسى ، عزز به بغيه واستهتار من سبقوه بأقدار الشعوب !

وتلفت الناس بعضهم الى بعض يتساءلون فى دهشة ، عمن عساه يكون ذلك الشاب الحلو الملامح الفارع القامة ، الذى قدم الى مصر ليكون نائبا عن واليها الأصيل ، فى الاضطلاع بشئون الحكم وتحمل مايستتبعه من تبعات جسام ؟!

وأشفق الشعب مقدما على نفسه وبلاده ــ وقد تصور أبا العباس احمد بن طولون عابثا جديدا ؛ جاء ليعزز مظالم ابن المدبر وليجمع بدوره من المال مايكفى نهم الوالى الأصيل ، الذى فضل البقاء حيث هو وبعث الى مصر نائبا عنه !

وفى الوقت الذى استقر فيه أحمد بن طولون فى دار الحاكم ، تسارع الناس متسائلين ليعرفوا من هو ·· وكيف ولماذا جاء !

كان احمد ابنا ، أو متبنى لمملوك تركى من « نجارى » ، أرسله حاكمها هدية للخليفة المأمون ·· وكان شجاعا ، جرىء القلب ، ثبت الجنان ، فأحبه أمير المؤمنين وقربه وقدمه على كثيرين من أخدانه ··

وانتقل طولون الى المعتصم بعد موت المأمون ·· ورحل معه فى جملة مماليكه الى عاصمته الجديدة « سر من رأى » ·· وهناك تربى احمد الصغير مع أترابه تربية عسكرية وأظهر تفوقا فى علوم الدين ، وبرع فى اللغة وتفوق فى دراسة الشريعة ·· وأظهر فى كل مجال نشاطا وذكاء منقطعي النظير ..

***

ولما مات أبوه طولون ، ترك وراءه أم أحمد ، وهى يومها أرملة جميلة ، راقت فى عينى « بقبق » فأسرع يخطبها ·· وعارض احمد ·· وكره أن تتزوج أمه بعد أبيه ، ولكن « بقبق » تزوج الأرملة وعمل فى ذات الوقت على ارضاء الابن الغاضب بابعاده الى مصر التى كان قد تقلد ولايتها ، ولم يذهب لتسلم مقيالدها مدة زادت على العشر سنين ··

وجاء أحمد الى مصر وهو لايملك غير نفس عالية ، وقلب جسور فيه جرأة واستهانة بالمخاطر ، وتطلع الى الأمجاد ··

ولقد حذر القادم الشاب عند مقدمه من ابن المدبر ، وعرف مدى نفوذه وقوته ، وماكان يستمتع به من ثراء .. فابتعد عنه الى حد ما ، خشية ان يقع بينهما فى البداية تصادم ربما خسر فيه أحمد بعض الآمال التى كان يعلقها على بقائه فى مصر ..

وبدأ أحمد يعمل فى صمت وهدوء ويقظة ، يساعده كاتم سره أحمد الواسطى ·· حتى استطاع فى النهاية أن يجمع خيوط الحكم فى يديه ويسيطر على داخلية البلاد ، ويوجه العمال فيها لتنفيذ ماكان يريد ··

وجمع أبو العباس المال ·· وبالمال استطاع أن يعزز مركزه وأن يقوى نفوذه ، وأن يرهب ابن المدبر ·· ويحد من سلطانه ويشعره بأن الشاب المعدم ، الذى جاء نائبا عن والى مصر ــ قادر على أن يملأ مركزه ويخيف الطامعين ويرهب من يفكر فى الخروج عليه أو الحد من سلطانه أو شل حركته !

وتنفس الشعب الصعداء واتجه الى النائب الشاب بكل حواسه ، وقد رأى فيه شبه المنقذ الذى تصوره ..

وأحس أبو العباس احمد باعجاب الشعب به ، فصمم على أن يستغل هـذا الاعجاب ويجعل منه حبا يستعين به بعد ذلك فى مغامرات ومخاطرات .. ربما فكر فى القيام بها لصالح هؤلاء الناس الذين أولوه الحب واعتبروا وجوده محققا للآمال ..

وكان احمد من الذكاء بحيث عرف كيف يغير اتجـاه الريح ويجعلهـا فى ناحيته ، ليستطيع أن يسير بمركبه وسط البحر الصاخب المتعددالتيارات ، الذى كانت تمخر فيه سفن المطامع والأهواء ..

وبدأ ينفذ الى الحياة العامة فى يسر من عرف دروبها وخبر مسـالكها .. وأفلح فى اظهار نفسه للنـاس جميعـا بأنه رجلهم وراعيهم وحارسهم ، الذى يعرف مدى خطورة مركزه ، وما يتطلبه موقفه من تضحيات ..

ونظر نائب الوالى حواليه .. وجعل يتحسس مواطن الأدواء ليصف العلاج ويحسم الخطر .. ويحارب وجوده ..

كانت مرافق مصر مهملة كلها ، لأن من تولوا خراجها لم يكن يهمهم الا جمع الضرائب وسلب مايشاءون منها لأنفسهم والتفضل بالبقيـة التافهـة على الخليفة ورجال بلاطه السلابين .. فوجه ابن طولون اهتمـامه الى الاصـلاح ، فشـق الترع ، وأقام الجسور .. وألغى أنواعا كثيرة من المكوس التى فرضت قسرا على العـامة ، ونظم جمع الخراج ، وأرسل عماله فى كل مكان ينشرون العدل ويشـعرون كافة طبقـات الشعب بالاستقرار والأمان ..

وانكمش ابن المدبر الطاغيـة الرهيب .. وراح فى صـمت يحيك خيوط مؤامرة لاستعادة سلطانه ، بتـدبير انقلاب يطيح بابن طولون الذى خرج على تقاليـد ولاة بنى العباس وانحاز الى جانب الشعب ، تاركا جانب أعوان الخليفة وأتباعه ومواليه من الأتراك ...

وشاءت العناية أن تحرس خادم الشعب احمد بن طولون من دسـائس ابن المدبر ؛ فذهبت جهوده بددا .. وما لبث . وقد أسفر عن وجه مطامعه أن وجد خصـمه احمد ابن طولون أمامه وجها لوجه ، يخيره بين الوقوع فى يد العدالة لتقتص منه ، أو الرحيل عن مصر كلها ليتولى الخراج فى بلد بعيد !

وسلم ابن المدبر وألقى سلاحه فى يأس .. ورحل ذليلا صاغرا ، تاركا وراءه أبشع الذكريات !

وبهذا خلصت مصر لأبى العباس أحمد بن طولون ، فأصبح واحدها وصاحب الأمر والنهى فيها .. فراح يحصن مركزه فى البلاد ويقوى نفسه ليستطيع أن يقف ثانيـة

فى جولات قادمة لصالح الشعب الذى وهبه الولاء ومنحه خالص الحب والتقدير ..

وراح أحمد يأخذ من مصر ليعطى لمصر .. وامتدت يده فى كل مرفق ومجال .. واقترنت باسمه الأعمال العظيمة ، وما قصر فى عمارة ولا رعاية ، وشمل بره الريف والحضر ، وبنى وشيد لشئون الدين والدنيا ..

ألم يكن احمد ممن درسوا الشريعة وعرفوا الفقه وتفقهوا فى علوم الدين ؟!

فلم لا يتجه الى العناية ببيوت الله ؟! ولم لا يولى وجهه الى جامع عمرو بن العاص ..

لم يكن المسجد الجامع الشهير فى حاجة الى مزيد من العناية التى تستلزم توسعته أو رفع جدرانه ، لهذا لم يفكر فى زيادته ، ولم يوسعه كما فعل غيره من ولاة أمية وبنى العباس — بل أصغى الى رغبة حملها أفراد الشعب الى مسامعه . وكان أن أسرع بتنفيذها .

لقد شكا الناس الى ابن طولون من أن صحن جامع عمرو يتعرض فيه المصلون فى شهور الصيف القائظة لحرارة الشمس المحرقة .. وسألوه أن يعمل على حمايتهم من شواظ اللهب الذى كان يصيب البعض بضربات الشمس المميتة .. فكان أن أصدر أمره الى ابى أيوب « احمد بن شجاع » أحد خلصائه ؛ ليفكر فى استنباط طريقة يحمى بها جمهرة المصلين من الشمس فى جامع عمرو ..

كانت تقاليد المساجد الجامعة فى تلك الاوقات تحتم تعرض باحة المسجد للشمس ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المساجد الكبيرة وعلى رأسها بيت الله الحرام ..

ولما كانت جوانب جامع عمرو تقوم على أعمدة مسقوفة ، فقد كان من العسير أن تمتد هذه الاعمدة عبر مساحته كلها ليتم سقفها .. فكانت حماية المصلين اذن .. تستلزم بعدهم عن الباحة المكشوفة ، وهذا أمر متعذر لكثرة الزحام خاصة فى المناسبات .

وفكر أبو أيوب فى طريقة يحمى بها المصلين من وهج الشمس دون ارهاق لبيت مال المسلمين . ودون القيام بعمل انشائى جديد ربما ترتب عليه هدم بعض صحون الجامع وانهائه لتسوية البناء واقامة سقف شامل له . وفى هذا خروج على التقاليد البنائية السائدة فى ذلك الحين .

واهتدى تفكير أبى أيوب الى اقامة عمد خشبية عادية فى محاذاة العمد الحجرية العديدة ، تصل بين بعضها قوائم خشبية مستعرضة ، تكون بمثابة معابر تحمل ستائر قماشية تمتد فوقها فى شهور الصيف لحماية المصلين من الشمس ، وفى شهور الشتاء تحميهم من المطر وتقلبات الجو ..

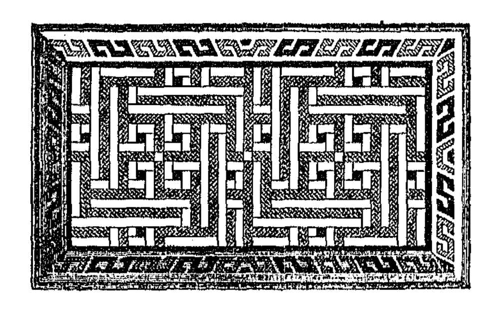
وأسرع أبو أيوب يعرض فكرته على سيده ابن طولون . فأقره عليها وأمره أن يسرع بتنفيذها ولم يمض وقت طويل حتى خرجت الفكرة الى حيز الوجود .. ورأى فيها الناس دليلا من دلائل اليقظة وحسن الرعاية ؛ فزاد التفافهم حول واليهم الشاب وتضاعف حبهم له ...

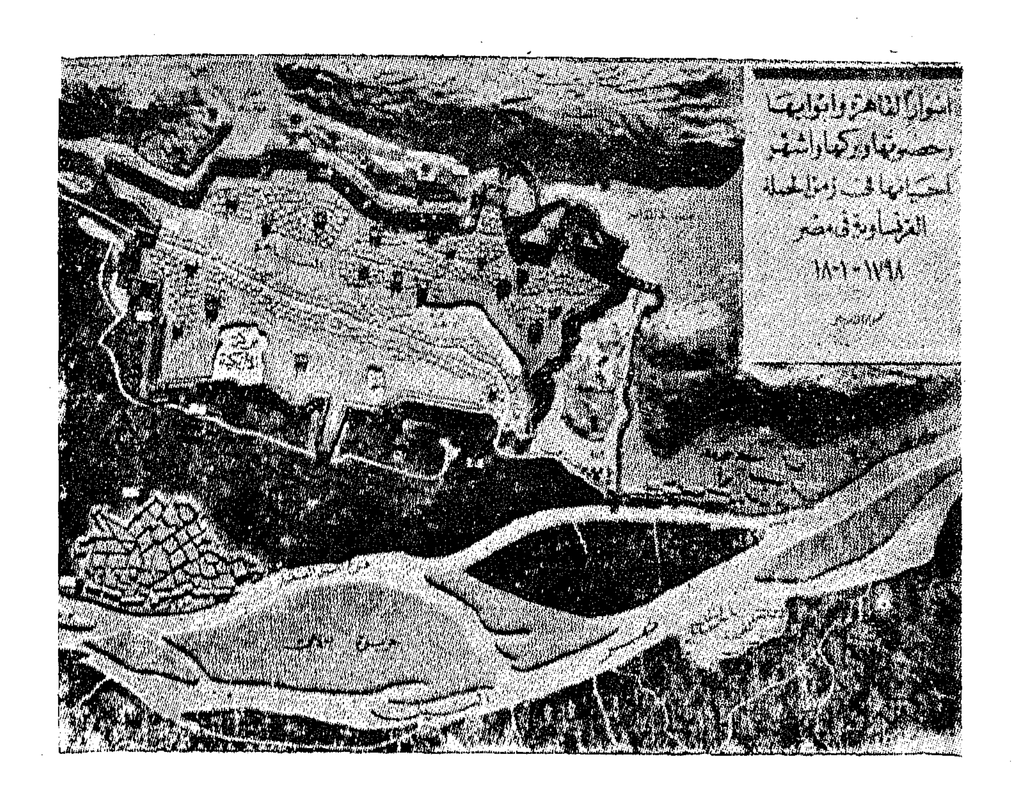
وهكذا شهد جامع عمرو سنة سبع وخمسين بعد المائتين من الهجرة نظام الستائر لأول مرة ‥ فكانت آية جمال ودليل تفكير مستقيم ‥

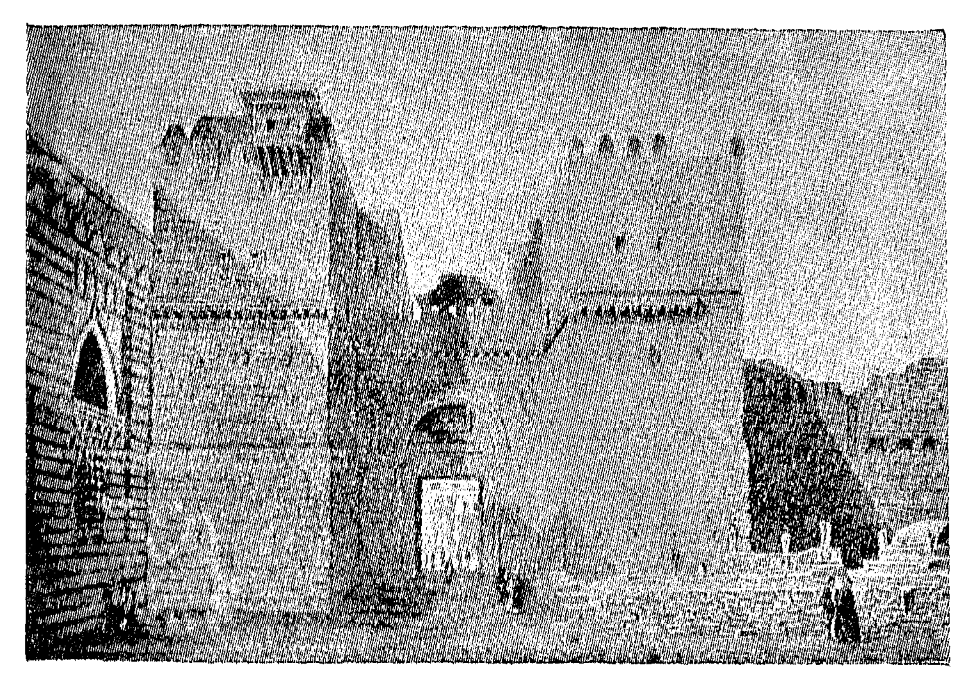
***

وكأنما راق لأبى أيوب بعد ذلك أن يستمر سالكا سبيل الخير فى تعمير بيوت‌الله ‥ وأحب بدوره أن يخلد لنفسه هو الآخر اسما ، الى جانب اسم ابن طولون وغيره من المقربين الصالحين الذين وسعوا الجامع وزادوا فى أبنيته ، وأقاموا فيه العمائر الشامخة ‥ فبدأ عقب وضع الستائر بعام واحد فى اقامة عمارته الجديدة ‥

واشترى أبو أيوب لتنفيذ خطته التى رسمها ، بعض دار « أم ابان » بنت الحارث ابن مسكين ، التى أدخل عبد الله بن طاهر بعضها فى زيادته المعروفة ‥ واشترى الى جانبها دار « خارجة بن حذافة » ثم هدم الدارين ‥ وفى الفضاء الذى تخلف عنهما ، أضاف الى جامع عمرو رحبة فسيحة نسبت اليه : فعرفت باسم « رحبة أبى أيوب » ‥

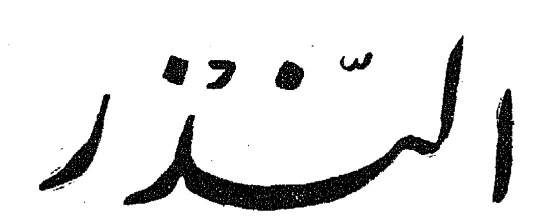






باب النصر

انشاه القائد « جوهر الصقلى » وقت تاسيس القاهرة وعندما جدد « بدر الدين الجمالى » سور القاهرة نقله الى مكانه الحالى سنة ٤٨٠ هـ ، ١٠٨٧ م .



كان الخليفة فى « سر من رأى » من الضعف والهوان بحيث كان بلاطه مسرحا تحاك فيه المؤامرات علانية .. فلم يكن الامن مستتبا وكان من السهل الهين أن يقوم ذووا الجرأة من مماليكه الاتراك على القتل ، غير عابئين بالسلطنة ، مستهينين بالأرواح ..

ولقد حدث خلال احدى المؤامرات العديدة التى شهدتها دار الخلافة ، أن استقر الرأى ببعض مماليك المتوكل العباسى ، على التخلص من الأمير الطيب «بقيق» زوج أم احمد ابن طولون ، لحقدهم عليه وكراهيتهم له ، ولطمع فئة منهم فى منصبه ومخصصاته .. فكان أن تكالبوا عليه وقتلوه !

ولما كان الخليفة يكره اقحام نفسه فى أمثال هذا العبث الرهيب ؛ اذ كان يعتبره لونا من ألوان المنازعات الشخصية بين طبقة خدمه ومماليكه ـ فقد راح دم الامير « بقيق » هدرا ، وختمت حياته على تلك الصورة الدامية الكريهة ..

وبموت « بقيق » التعس .. وهو يومها والى مصر وحاكمها الاصلى ـ سقطت نيابة الحكم عن ابن زوجته احمد بن طولون ..

« مئذنة سلارو سنجر الجاولى »

واذا كانت عائلة «بقيق» فى «سر من رأى» قد روعتها قتلته ، وقضت على أحلامها وأمانيها ، فان هذه القتلة المفاجئة كانت أقسى وقعا على احمد بن طولون ، اذ كان فيها ما يعنى القضاء على شتى أحلامه وأمانيه ..

كان على ابن طولون أمام ماحدث أن يدفن آماله وأحلامه فى احناء صدره ، ويقضى عليها

بأن تموت حبيسة وهى فى ريعان فتوتها ، وألا تحاول التطلع مرة ثانية الى النور !

وتلقى احمد الصدمة فى ثبات وهدوء كانا يخفيـان تحتهما بركانا متأججا بالحمم .. وراح خلال لحظات صمته يسائل نفسه : أيسلم بما حدث ؟!

أيترك تلك الأرض الطيبة التى أحبها وأحس أن أمانيه وأحلامه ومستقبله مرتبطة بها وأن سوادها العنبرى سوف يخرج ذات يوم زهور أمله ناضرة يفوح فى الوادى شذاها ، ويستمتع به كل مصرى أحب أبا العباس وأخلص له ؟!

وعز على الشاب الطموح أن تبيد أحلامه ، وأن تتبدد أصداء أمانيه الحلوة فى قفر رهيب .. ونقل باصرتيه فى الوادى الأمين الذى أحبه ، وقد احتبس فيهما الدمع الهتون ولم يجد غير أن يرفع رأسه الى السماء وينذر للرحمن نذرا ، ان هو بقى فى مكانه ـ ليبنين لله مسجدا ، لم تشهد مصر له شبيها فى الفخامة والعظمة والجلال .. وأن يلحق به « بيمارستانا » يعالج فيه المرضى ، ويلحق به بيتا للغرباء ..

كان ابن طولون قد رسم خطوط مستقبله على أرض مصر ، واعتبرها ميدان جهاده ؛ لهذا .. عز عليه أن يتركها وتزول صفته الرسمية بموت «بقيق» المسكين .. ولم يجد وهو رجل الجد والعمل المستمر غير أن يتوجه الى الله بقلب خالص ليكون الى جانبه ويحقق له امانيه ..

واستجاب الله له ؛ فمنح الخليفة ولاية مصر للأمير « برقوق » .. و « برقوق » هذا هو والد زوج أبى العباس احمد بن طولون ... ولم يكن « برقوق » من هواة ترك دار الخلافة للتعلق بالحكم أو ممارسة السلطان، وقد أسعده أن كان صهره أحمد لم يزل فى مصر ، وأسعده أكثر أن الشاب فرح بأن يكون نائب « برقوق » على مصر ، كما كان نائب بقيق ..

وهكذا .. ثبتت ولاية احمد .. وقوى مركزه وعظم سلطانه وعلا نجمـه الذى ظن الحاسدون أنه قد أوشك على الافول ..

وهـكذا ... وأمام عامل المصادفة المفاجئـة ، زاد استقرار احمـد فى مصر ، وتوطد سلطـانه وتزايد نفوذه ، وتراجعت عن طريقه الافاعى البشرية التى لاتعرف غير السعى فى الفساد ...

وأسعد ابن طولون ذلك الولاء الشعبى الذى أبدته شتى الطبقات من المصريين وحدهم .. وأحب مرة أخرى أن يجعل من هذا الحب المتدفق تكئة يصل بها الى مزيد من القوة والجاه ..

واستعرض الشاب الطموح أمام عينيه شتى الامور ، وجميع الاحتمالات ..

لقد كانت ولايته على مصر مجرد مصادفة ، منحة من منح الحظ ! التى قد تقبل فى أشد الساعات حلوكة .. وانها بعد اقبالها هذا قد تدبر وتتنكر ان لم يتخذ للاحتفاظ بهـا

حيطته ويعرف كيف يحافظ على نوبة المد ويحسن استغلالها ، لتسير به قدما الى حيث يريد ٠٠

وانتقل ابن طولون بفكره عبر البلاد والامصار ، فرآها كلها تستظل بعلم مهلهل ، في يد قائد ماجن ضعيف كان يجهل أن احترام رغبات الشعوب وتوفير الحياة الكريمة لها سر بقاء الخلافة ودوام السلطان !

وامتدت عين احمد بن طولون فوصلت الى « سر من رأى » حيث الخليفة ومن حوله ٠٠ حيث الرأس الفاسد والفئة الضالة المضلة .. وما لبث أن عقد المقارنة بينه وبين أمير المؤمنين ٠٠

لقد كاد موت « بقيق » يقضي على أحلامه وأمانيه ، وهو صاحب القلب الكبير ، الذى يفضل في طموحه وتوثبه وحبه للنجدة والاصلاح ــ ذلك العابث الجالس على عرش بني العباس ٠٠ والذى لم تقدمه كفاءة ولا مقدرة ، ولم يسوده نبوغ ولا توثب ، بل خدمته ظروف رتيبة وراثية أورثته ملكا وجاها كانا لأبيه ، ومن قبل أبيه كانا لجده الذى ورثهما هو الآخر ، وورث معهما ولاء الشعوب !!

أى حظ هذا الذى يحرم الكادح الكفء ٠٠ ويسرف في العطاء للعابث العاطل من كل كفاءة !!..

وراح ابن طولون في غمرة أحلامه وطموحه يستعرض شتى أحوال الدولة العباسية ؛ ففكر ٠٠ ورأى أنه ليس هناك غير القوة ، هى التى سوف تحسم كل خلاف ينشأ بينه وبين الطامعين الذين يتاجرون بمصائر الشعوب !! وهى التى ستحقق أمانيه وتبقيه حيث يريد سيدا ، فردا ، حاكما على الوادى الخصيب دون اعتراف بتبعية لأحد ، أو أقرار لحاكم آخر بظل من سلطان على مصر ٠٠

كان الاحتفاظ بمصر أغلى أمنية يرجوها أبو العباس ، ولو انقلبت « سر من رأى » من أجل ذلك رأسا على عقب !

انه يرى فيها جنته ومستقبله ومعقل آماله العظام ٠٠ ولقد أرادها لنفسه وأقسم أنه لن يتخلى عنها طوال حياته ليسلمها لبنيه من بعده ٠٠ ولو اضطرته الظروف الى الوقوف في وجه أمير المؤمنين واعلان الخروج عليه !!

وكان احمد واثقا مما يقول ، مؤمنا بقدرته على تنفيذ مايريد ، لان المال كان لديه موفورا ٠٠ والمال هو الأداة السحرية التى تستطيع أن تفعل ماتشاء ٠٠

وراح ابن طولون يبذل المال لتوطيد الملك باظهار الولاء وتقديم الهدايا من ناحية ، في حين راح من الناحية الاخرى يشترى آلاف المماليك من العرب والديلم والعبيد ٠٠ حتى استطاع أن يكون لنفسه الجيش الأمين الذى لايعرف سيدا غيره ٠٠ وقرر أن يثب به الى حيث يريد ، ويوجهه كيفما شاء ، ليعزز به أمانيه ، ويقوى مركزه ويذود عن ملكه ٠٠

وتغافل المصلح الشاب بعض الشيء عن الوفاء بنذره ؛ ليعبد الطريق أولا لاستكمال سلطانه ..

ولما كان العلويون قد استولوا على الاسكندرية وعزلوها عن بقية البلاد ، وأصبحت في أيديهم وتحت امرتهم ، فقد سارع ابن طولون باستردادها ، وضمها الى سلطانه .. وراح يطارد العلويين حيث كانوا فى الصعيد ، فقضى على حركتهم وقلم أظافيرهم .. وأثبت أنه القائد الماهر الذى يعرف كيف يسود الميدان ويتحكم فى زمامه ..

وحدثت عندئذ هزة أخرى ..

لقد خلع الخليفة برقوقا عن ولاية مصر ، وأهداها لاخيه ، « الموفق» العباسى !

وأسرع ابن طولون يسترضى بالمال والهدايا أخ الخليفة الماجن الباحث عن المال .. فسكت عنه.. وترك له مصر ؛ لقاء خراج معين حدده وارتضاه ابن طولون مبدئيا كى لايثير « الموفق » عليه ..

وأحس ابن طولون ــ بعد ان احسن بذل المال لتوطيد مركزه ، أنه من اللازم أن يرسى دعائم سلطانه المظهرية ويثبتها على أساس متين .. فرأى أن يبدأ أول مايبدأ بمظاهرة تشعر الجميع بمدى سطوته وما يملك من مقدرة .. وذلك بأن يقيم له مدينة ، خاصة به وبمماليكه وخلصاء رجاله ، الذين أصبحوا كثرة مدربة معتدة تخيف العدو .. فكان أن أعد فضاء رحبا كبير السعة ، خططه ومسحه ووضع عليه أساس عاصمته مقسمة الى « قطائع » ، يشبه كل منها حيا مستقلا ، أقطعها لرجاله لتتجمع كل فئة منهم فى«قطاع» خاص .. واختار للمدينة « جبل يشكر »

ولم يكد يتم بناء « القطائع » على جبل « يشكر » وتقوم فيها أسباب العمران ، وتدب فيها الحياة ويصبح وجود رجال أبى العباس فيها متجمعين أشبه بعرض عسكرى لقوة متحفزة ــ حتى تذكر ابن طولون نذره القديم ــ وهو بناء المسجد الجامع ؛ لتكمل ببنائه صفة «القطائع» من الوجهة الرسمية فتنتقل اليها دواوين حكومته من « العسكر » .. ويكون فى هذا الانتقال الرمزى مايعنى تبدل أساليب الحكم وشخوصه وانتقاله من اليد العباسية الى يد أخرى .. تكاد تكون مصرية ، وان كان صاحبها من « نجارى » الا أنه تأقلم بأرض مصر ، وأصبح مصريا يعمل مخلصا من أجل البلاد التى رفعته ليرد اليها جميلها الخالد باسعاد شعبها الأمين ..

وشغلت فكرة اقامة المسجد الجامع نفس احمد بن طولون ، وراح يفكر فى طريقة بنائه وطرازه وزينته وكيف يكون ..

كان قد تخير الأرض وأعد المكان الصالح ..

ولكن .. الخطة المدروسة كانت تعوزه ، والاعداد الفنى كان ينقصه ، والرأى الموحد لم يكن له وجود بعد ..

لقد تكلم الجميع . . وأشار البعض بكذا وكيت . . وقال كل من استطاع الكلام ماشاء له تطفله أن يقول ، فهذا يطلب رحبة فسيحة ٠٠ وذاك يحبذ مسجدا مسقوفا ٠٠ وذلك يوصى بأن يكون ذا عمد سامقة وباحات وابهاء ٠٠

مجرد أوصاف يتخيلها القائلون ٠٠ أما كيف يمكن أن تصبح حقيقة قائمة ، فذلك مالم يفكر فيه أحد ٠٠

ولما كان المشيرون قد أسهبوا فى وصف محاسن المسجد المنتظر اقامته ـ لو أكثر الأمير من اقامة الأعمدة فى أبهائه الفسيحة ، فقد راقت الفكرة له ٠٠ ولكنه تردد أمام العدد الذى كان يتطلبه اتمام البناء ٠٠

كانوا فى حاجة الى ثلثمائة عمود رخامى !

وحار الامير ولم يدر من أين يمكن له استحضارها واعدادها ٠٠

ومرة أخرى أشار الخاصة بأن يأتى بها من الكنائس والبيع والمعابد القديمة ٠٠

وأبى ابن طولون أن ينساق الى هذا الرأى مع القــائلين به ، فهو لايريد أن يذكر التاريخ عنه أنه أقدم على تلك الفعلة ٠٠ وأنه خرب بيوت العبادة ، ليعمر مسجده ٠٠ وهو الراعى المسلم ، الذى احترم دينه سائر الديانات ، ولم يتعرض لحرياتها أو أنيقال عنه أنه استغل مركزه فى ذلك ٠٠ وأحب ابن طولون أن يتم البناء ولو دون أعمدة على الاطلاق ٠٠

ومرة أخرى أشار بعض خاصة الامير ، بأن يستعين « بمعمــارى » مصرى سبق أن قام بخدمته ٠٠

وتذكر ابن طولون الرجل ٠٠ لقد كان مبعدا مغضوبا عليه بأمره ، مضطهدا من أجل « مظنة » داخلت الامير فى شأنه ، يوم شاد له سقاية فى مكان قفر للشراب ، وخانه الحظ فقصر بعض الشىء فى اكمالها بما يليق !

وفكر الامير فى الامر ٠٠ وراجع نفسه فوجد أن المعمارى المصرى أنبه الجميع وأعلاهم فى الفن كعبا ٠٠ فأرسل فى طلبه وأمنه على نفسه ٠٠

وجاء المعمارى المصرى وكله رغبة فى أن ينال رضاء الامير ، وأن يمحو من نفسه ماعلق بها من سوء الظن به ٠٠

كان احمد بن طولون قد كره فكرة الاستعانة بالأعمدة ٠٠ وذكر ذلك للفنان المصرى ، فتصدى هذا للأمر ٠٠ وأخذ على عاتقه أن يبنى المسجد دون أعمدة ، اللهم الا عمودين فقط على جانبى محراب المسجد ٠٠

وحمل الرجل خطته الى أبى العباس ـ وقد صور هيئة المسجد على ورق من الجلد ـ وراح يشرح له نظريته فى العمارة ٠٠

ان الثلثمائة عمود التى قرر الجميع بضرورة وجودها لاتمام البنــاء ، لن يكون لشىء

منها وجود مادام الأمير يكره نقلها من المعابد الى مسجده ؛ فيخرب مكانا ليعمر آخر ٠٠

وأصغى الامير الى المهندس الجرىء الذى تعهد باستنباط وسيلة معمارية تغنيه عن الاعمدة وتقوم مقامها ، وراح يشرح نظرية « العقد المخموس » ٠٠ وكيف يفاجىء بها دنيا العمارة لاول مرة فى الوجود ، فينشئها فى المسجد الجامع ٠٠ ويقيمها على أعمدة من الآجر المدعم ٠٠

وراقت الطريقة للأمير المشوق الى اتمام مسجده الجامع ، وأمر المهندس المصرى أن يسرع فى التنفيذ ليفرغ من بناء المسجد فى أقرب وقت مستطاع ٠٠

ووضع تحت تصرفه مائة ألف دينار ــ كدفعة أولى ــ ليتولى الانفاق على جميع مستلزمات البناء ٠٠

وبدأ العمل فى بناء مسجد احمد بن طولون فى السنة السادسة والخمسين بعدالمائتين من الهجرة ــ بهمة لاتعرف الكلل ٠٠ حتى لقد حدث أن زار الامير العمال فى منطقة العمل خلال شهر رمضان ، فراعه أنهم كانوا يعملون حتى بعد غروب الشمس ٠٠ فسأل :
ــ وكيف اذن يعدون افطارهم وافطار أهليهم اذا كانوا يعملون الى هذا الوقت ؟!

ثم أمر بأن يبدأ العمل مبكرا ، وأن ينصرف العمال قبل الغروب بزمن كاف ، ليكون فى استطاعتهم اعداد مايلزمهم ويلزم أهليهم فى ذلك الشهر الكريم ٠٠

وكان المهندس المصرى الذى أشرف على تنفيذ البناء بعد وضع تصميمه ــ من الدقة ، بحيث وزع الوقت على العمل توزيعا يكفل له ولعماله الراحة مع حسن سير العمل وسرعة انجازه ٠٠ وراح ينشر الحجر من جبل « يشكر » فيرسله الى «الافران» ، ليصنع منه الجير الذى كان يقيم به البناء أولا بأول ٠٠

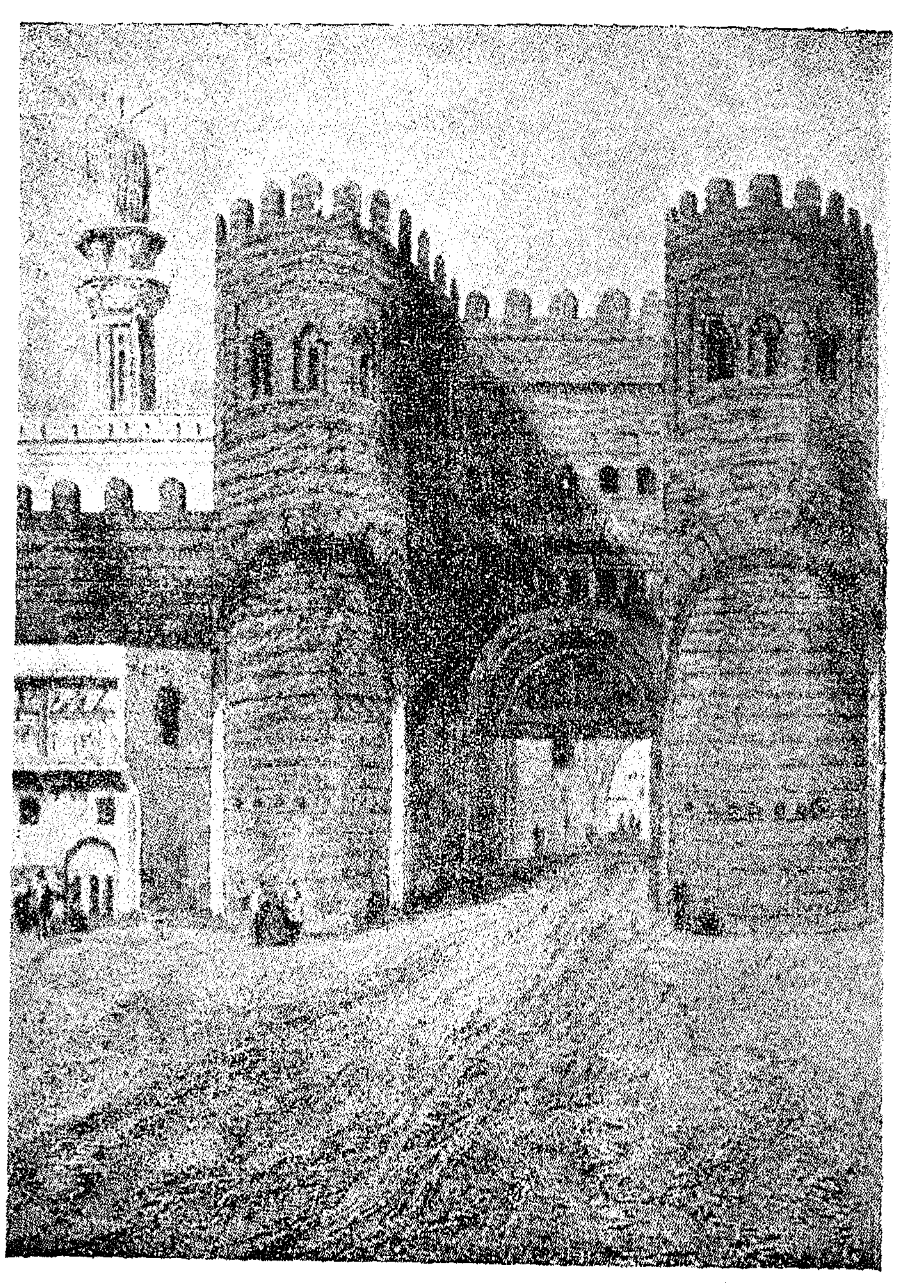
وأخذت معالم المسجد تظهر فوق مساحته الشاسعة ، وراحت جدرانه ترتفع فى سرعة واتقان ؛ مؤكدة فطنة المهندس المصرى الذكى وتمكنه من فن البناء ٠٠

وقد تم بناء مسجد ابن طولون الجامع من « الآجر المجصص » ودعائمه التى بها النواصى الأربع عمد فى بناء قواعدها على نسق القواعد القديمة ، وتيجانها على شكل نواقيس ، والزخارف التى تتحلى بها تلك التيجان على هيئة ورق النبات المسمى «شوك اليهود » ــ التى تشاهد على العمد القديمة ، وباطن العقود مشبك كثير الزوايا تحلى بنقش عربى مفرغ فى الجص ٠٠٠ (١)

ورأى المهندس المصرى ، ألا تقوم الحوائط مصمطة ، بل من الواجب أن يتم تزيينها وفق قواعد معمارية جديدة ، ابتكرها ونفذها فى هيئة « مناور » بلغ عددها مائةوثلاثين «منورا» من الجص ، أقيمت فى كل من الجانبين : الشرقى والغربى للمسجد ٠٠ وقد احيط كل « منور » من هذه « المناور » باطار نقشت فيه بالكوفية آيات من الذكر الحكيم ٠

---

(١) من تقارير هرقس باشا احد قدامى مفتشى الآثار العربية الانجليز بوزارة الاوقاف ٠٠٠



باب الفتوح

احد أبواب القاهرة بشارع أبو الفتوح أنشأه جوهر الصقلى عام ٤٨٠هـ ـ ١٠٨٧م . وجدده بدر الدين الجمالى .

وبالغ المهندس فى تنميق هذه المناور وزخرفتها ، وأراد لجمالها ألا يطغى على شيء من أعماله التى كانت بالمسجد ، فجعل بينها شبهفاصل ـ يعطيها فرصةللظهور ، وللأعمال الاخرى نفس الفرصة ٠٠ وجعل المناور متداخلة من سطح الحائط ، لتظهر بذلك هيئـــة العمد التى أقيمت وتبدو عقودها الزخرفية البديعة الصنع واضحة للعيان ٠٠

وكان طبيعيا أن تفطى أبهاء العمد المخموسة بأسقف تتمشى وجمال البناء ، فقطعت جذوع النخل بكثرة ، وانشىء منها سقف المسجد ٠٠ ثم كسيت هــذه الجذوع من أوجهها الثلاثة بألواح خشبية مزخرفة ، كانت آية من آيات الدقة فى الصناعة المصرية ٠٠

وكان صحن الجامع من السعة ؛ بحيث كان من اللازم أن يتحول اليه الاهتمام لتجميله بأية طريقة من الطرق المعمارية ٠٠ فكان أن أنشىء فيه زخرف رائع على هيئة قبة مذهبـة تتوسطه ، وقد شبكت من جميع نواحيها ، وأقيمت فوق عشرة أعمدة رخامية ، وأحيطت جوانبها بستة عشر عمودا أخرى مكسوة بالرخام ٠٠

والقبة فى ذاتها كانت شبه مظلة فوق حوض من الرخام الثمين ، قطره أربع أذرع **تتوسطه نافورة ماء بديعة ، فى وسطها قبة مزخرفة ـ يؤذن فيها ، وفى أخرى على سلمها وعلى سطحها علامات الزوال لتبيان الوقت ٠٠ وبأعلاها سياج ٠٠ (١)**

ورؤى بعد هذا الجمال الفنى الذى استكمل أسباب وجوده وآيات ظهوره ، أن تكون للمسجد منارة فريدة فى كل شيء ٠٠ فكان أن وضع لها تصـميم غريب ، لم تشهد له المساجد فى مصر ولا شتى البلاد الاسلامية ، مثيلا له على الاطلاق ٠٠ ويقال أن الأمير هو الذى وضع خطوطه الاولى وأمر بتنفيذه ، وبأن تكون المنارة بعيدة عن صحن المسجد وعلى هيئة عمود سامق الطول يرقى اليه بدرجات حجرية ٠٠

ونفذ المشرفون على بناء المسجد ما أمر به الأمير ابن طولون ٠٠ وأقيم بناء المنارة من الحجر المجلوب من منطقة البساتين ، وراحوا يرتفعون بها حتى بلغ علوها حوالى أربعين مترا ٠٠ وكونت من شبه طابقين أو مصطبتين ، الأولى يصل اليها الصـــاعد بعـد مائة وسبعين مرقاة ٠٠ والثانية بعد ست عشرة مرقاة فوقها ٠٠

وتقوم المئذنة على مساحة تقرب من مائة متر مربع ، وهى من الضخامة والقوةوروعة الفن المعمارى بحيث تعتبر آية فريدة من آيات الفن الاسلامى العظيم فى مصر ٠٠

أما المحراب فروعيت فيه الدقة ٠٠ ورأى الامير أن يكون على نمط المحاريب الاسلامية فأرسل رسله ليأخذوا سمت محراب مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالطرق الهندسية ، بنحو عشر درجات الى جهة الجنوب فكان أن وضع المحراب مائلا الى الجنوب ٠٠

وسرت الأقاويل عن هذا الميل ، وشاعت روايات تناقلها النـــاس فى ذلك العهـد ،

---

(١) المقريزى وابن لقمان

أطرفها أن الأمير احمد بن طولون رأى فى منامه النبى صلى الله عليـه وسلم يخط له بيده الطاهرة على أرض المسجد الجديد مكان القبلة ..

فلما أصبح الصبح وذهب الى المسجد ، وجد صفا طويلا من النمل يسير فى خط مستقيم حيث أشار رسول الله فى الرؤيا ، فأمر ابن طولون مهندسه بأن يحدد مكان القبلة فى ذلك المكان بالذات .. حتى لقد أطلق على المحراب من ساعتها « محراب النمل » .

ولما كانت سنة التقاليد أن تقام فى المساجد الجامعة « مقاصير » خاصة ، يصـلى فيها الأمير ويكون بمنجاة من الغير ، اتقاء للمضايقة أو احتمال الاعتداء عليه من عدو له ، فقد بنى الامير احمد بن طولون لنفسه مقصورة خاصة بمسجده الجامع قريبة من المنبر ، يصل اليها من باب موصل بمنزله مباشرة ؛ فسار بذلك على نهج معاوية ــ أول من أنشأ المقاصير فى المساجد ..

واستكمالا لتهيئة المسجد بعد هذا كله أراد ابن طولون أن يجعل فيه شيئا جديدا لم يفعله وال قبله ، فأنشأ فيه ولأول مرة فى تاريخ المساجد الاسلامية «صيدلية» .. كانت نواة « البيمارستانات » التى تسابق الولاة على انشائها فى مساجدهم بعد ذلك لتكون المساجد مكان « تطبيب » مادى ومعنوى ..

وقد استكمل الأمير بناء « صيدليته » هذه ، وزودها بشتى أصـناف الدواء اللازم لكثير من العلل .. وأقام لها طبيبا خاصا ، كان لايبرحها وخاصة فى أيام الجمعـة عند الصلاة وبعدها خشية أن يحدث حادث مفاجىء لاحد المصلين ..

وفرغ العمال بعد سنوات قاربت العشر من بناء مسجد احمد بن طولون بمايتفق ومكانة صاحبه وعظيم ثرائه ، وسرعان ما اتجهت النية الى استكمال زخرفته وتأثيثه ورصفه فى اقرب وقت ممكن ليتم افتتاحه للناس لصلاة الجماعة ...

وبنفس الهمة التى باشر بها المهندس المصرى أعمال البناء الاولى ، أشرف على «الانتهاء» من أعداده للصلاة .. فأتم المنبر والمحراب ، وقام بنقش سور وآيات من الذكر الحكيم على ايزار السقف ، وعلق فيه السلاسل والقناديل .. ثم حملت اليه المصاحف الغالية ، وتم فرشه وتأثيثه وأصبح معدا للصلاة ..

ورأى المهندس المصرى النابه أن يؤرخ لاتمام بناء مسـجد الامير احمد بن طولون ، فأنشأ لوحة تذكارية كانت الاولى من نوعها فى المساجد الاسلامية ونقش عليها مايلى :

((بسم الله الرحمن الرحيم ، الملك الحق المبين ، الله لا اله الا هو الحي القيـوم ، لاتأخذه سـنة ولانوم ، له مافى السـموات ومافى الارض ، من ذا الذى يشفع عنـده الا باذنه ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والارض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ..

محمـد رسـول الله والذين معـه أشـداء على الكفـار رحماء بينهـم تراهم ركعـا سـجدا يبتغـون فضـلا من الله ورضـوانا سـيماهم فى وجوههـم من أثر

السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فىالانجيـــل ، كـزرع أخــرج شـــطاه فآزره فاستغلظ فاســتوى على سوقه ، يعجبالزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعــد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراعظيما .. كنتم خير أمــة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنونبالله،ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم .. انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليومالآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولميخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »

« أمر الأمير أبو العباس احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدام الله له العز والكرامة والنعمة .. فى الآخرة والاولى ــ ببناء هذا المسجد المبارك الميمون، من خالص ماأفاء الله عليه ، وطيبه لجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة ، وايثارا لما فيــه تسنية الدين ، والفة المؤمنين ، ورغبة فى عمارة بيت الله ، وأداء فروضه وتلاوة كتابه ومداومة ذكره ، اذ يقول الله تقدس وتعالى « **فىبيوت أذنالله أن ترفع ويذكر فيهــا اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لاتلهيهم تجــارة ولا بيــع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ، ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »**

فى شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين « ســبحان ربك رب العــزة عمــا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»

« اللهم صــل على محمد وعلى آل محمــد ، كأفضل ماصليت وترحمت وباركت عــلى ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين ، انك حميد مجيد »

* * *

وفتح ابن طولون أبواب مسجده للناس ليروا تلك الآية الاسلامية الناهقة ، وذلكم الأثر الجليل ، واستمع لما يقال فى المســجد من عيوب .. فقال بعضــهم : ان محرابه صغير ، وقال آخرون . ليست به « ميضاة » ، وقال غيرهم : ليس فيه أعمدة !!

وأمر ابن طولون بجمع الناس .. وخطب فيهم ، فقال :

« أما المحراب فانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطه لى ، فأصبحت فرأيت النمل قد أطاف بالمكان الذى خطه ، فبنيت المحراب على خط النمل » !!

أما « الميضاة » فقد أقامهـــا فى مؤخرة المسـجد . . ثم أعلن عن افتتاحه رسميا للصلاة ناقلا بذلك الصلاة الجامعة من جامع العسكر ، وابقائهــا فى جامع عمرو وفى مسجده الجديد .

ولكن حدث حدث مفاجىء وغريب ، فقد أحجم الشعب عن دخول المسجد وامتنع عن اقامة الصلاة الجامعة فيه !!

وبهت الامير لاحجام عامة الناس عن دخول مسجده للصلاة ، وتقصى الأمر ، فعرف أن فخامة البنــاء روعتهم ، وأن عظمته التى لم يشهدوا لهــا مثيلا أخذت بألبــابهم ، وبلبلت أفكارهم وجعلتهم يتساءلون : من أين لأحمد بن طولون الذى جاء مصر معدما لا يملك شروى نقير ــ هذا المال الجم الذى لا يحصــيه عد ، والذى مكنه من بنــاء

السقاية قبلا ، ثم هذا الجامع العظيم !! انه ولاشك مال مغتصب من أقوات المسلمين وأرزاقهم ! !

وعلى هذا فالصلاة محرمة فى هذا المكان الذى بنى من دماء الشعب !!

* * *

وعجب أحمد للدعاية الرهيبة ، وكره أن تستقر فى أذهان الناس وتنتشر بينهم بالباطل .. وأحب أن يحاربها ويقضى عليها . فكان أن جمع الناس ، وخطب فيهم ليبدد ذلك الاعتقاد ويقضى عليه ، فأقسم بالله أنه قد بنى مسجده الجامع العظيم من حر ماله ، كما قرر ذلك صراحة على اللوحة التذكارية المعلقة فيه .. وأن هذا المال الذى أتم به البناء قد وجده بطريق المصادفة فى كنز أثرى كان فى حفرة عثر عليها صدفة ودون تقدمة ، وهو يجتاز بجواده منطقة الصحراء .. وأنه وجد فى تلك الحفرة من الدنانير اليوسفية الذهبية ما لا يحصيه عد ، فحملها الى داره ، وبنى منها هذا المسجد الجامع الذى أراد به عز الدين وخير المسلمين !!

وكانت القصة من براعة السرد والسبك بحيث لم تجد صعوبة فى الوصول الى قلوب الناس فصدقوها ، وراق لهم أن يؤمنوا بها ، خاصة وأن أحاديث الخرافات عن كنوز مصر القديمة وذهب ملوكها الأوائل وفراعينها ، كانت شغل الناس الشاغل فى تلك الآونة .. وكان الادعاء بوجودها أمرا سهل التصديق ، لا يحتاج الى جدل ولا يتطلب برهانا للاثبات ..

وهكذا أزال أحمد بن طولون عن نفسه شبهة اغتصاب أموال المسلمين ، وتفرده وحده بخراج مصر ، وأنه لم يشيد مسجده الا من مال حلال مبارك فيه ، فأعجب الشعب بروايته وأقبل على ارتياد المسجد الجامع الذى تم بناؤه من مال فرعون اللعين عدو الله ! !

وأصبح من السهل الهين بعد هذا ان يحدد موعدا جديدا لافتتاح المسجد للصلاة الجامعة أن يضمن الامير اقبال الناس عليه ..

وتحدد الموعد الجديد ، وافتتح المسجد رسميا للصلاة فى حفل رائع يليق بثراء ابن طولون ومكانته .. وتوافد الناس حتى ضاقت بهم رحاب الجامع .. وامتلأت بهم باحاته وصحنه .

وارتقى المنبر الخطيب « أبو يعقوب البلخى » ، فخطب الخطبة التقليدية المعروفة فى أمثال هذه المناسبات ، فدعى للمعتضد العباسى امير المؤمنين ولولده بالعز والبقاء ودوام السلطان .. واستمر فى خطابته وقد نسى الدعاء للأمير أحمد بن طولون ، الذى كره ذلك النسيان من خطيب لم يقدر المركز ولا المناسبة .. فلم يكد ينتهى من خطبته التقليدية تلك ويفكر فى النزول عن المنبر ، حتى أشار الأمير الى غلامه أن يسرع الى ذلك الخطيب الغبى فيلهب بالسوط جسده لانه تجاهل وجود ابن طولون وكاد ينكر جهده فى بناء المسجد !!

وحدث والخطيب يترك منبره ، أن تذكر مانسيه ، فارتج عليه وخشى على نفسه مغبة ماحدث فعاد وارتقى المنبر من جديد وقال :

ـ الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد .. « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى، ولم نجد له عزما » !!

« اللهم واصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين .. اللهم واصلحه.. »

وزاد فى الشكر والدعاء ، مما استقرت له نفس أحمد الثائرة ورضى عنه ، ونسى اساءة الرجل، وغفر له زلته ، فنادى الغلام الذى وكل اليه ضرب البلخى خمسمائة سوط ، فأمره ان يستبدل عدد السياط بدنانير !!

ثم أم الناس للصلاة « بكار بن قتيبة » فلما قضيت الصلاة الجامعة الأولى ، أمر له ابن طولون بجائزة تليق بمقامه ..

وتجمع الناس بعد ذلك فى صحن المسجد لسماع أول حديث دينى يلقى فيه ..

وتقدم الربيع بن سليمان ليلقى الدرس الأول .. وجلس أحمد بن طولون فى مقصورته ، ووقف وراءه وحواليه غلمانه ومماليكه .. وتكلم الربيع فى الحديث الشريف :

« من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا فى الجنة » .

وحدث الربيع وأطنب ، وذكر بالخير عمارة أبى العباس ومسجده العظيم الذى لا يشابهه مسجد على الاطلاق ، ورفعه وأعلا من قدره وبشره بالمغفرة والرضوان وبقصر سامق عظيم فى جنات الله .. ثم دعى له بالعز والبقاء ولبنيه من بعده بالملك العريض ..

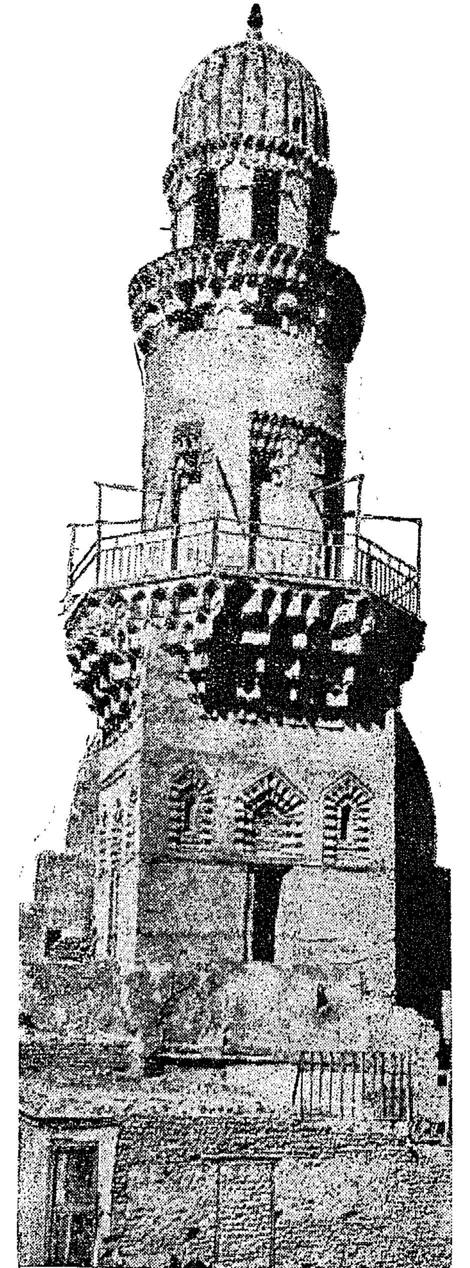
ولم يكد الربيع يفرغ من حديثه القيم الجامع ، حتى قام ابن طولون وأسرع من باب المسجد القبلى الموصل الى قصره ، فدخله بعد أن أمر لصاحب الحديث بكيس فيه ألف دينار من الذهب ، ومثلها لابنه طاهر .. وتصدق بعد ذلك على فقراء المسلمين .. ثم أمر بأن يظل المسجد وصيدليته مفتوحين على الدوام ..

وخرج الناس من مسجد أميرهم أحمد بن طولون يتحدثون عن الفخامة والجلال والكرم والبذخ .. ويروون فى ذلك أقاصيص ونوادر بلغ معظمها حد الخرافات ..

وبافتتاح مسجد أحمد بن طولون ، أصبح فى مصر ثلاث مساجد جامعة .. هى : عمرو بن العاص ، والعسكر ، وابن طولون ..

ولما كان الامير قد ألغى اقامة الصلاة الجامعة فى العسكر ، فقد أصبح هناك مسجدان .. جامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، الذى لم يقطع صلته بالمسجد العتيق واعتاد أن يصلى فيه الجماعة كثيرا مع حاشيته ورجال امارته ..

الفاطميون



«مئذنة السلطان بيبرس الجاشنكير»

لم يكن الادعاء بوجود كنز عثر عليه أبو العباس أحمد بن طولون أثناء تجواله فى الصحراء ، غير أكذوبة سياسية ، أراد بها أن يشغل الناس ويصرفهم عن التفكير فى أمر بذخه الطائل واسرافه لاتمام بناء مسجده الذى كاد يستنزف مال الدولة ويقوض اقتصادها !!

ولو كانت القصة حقيقية ، وكان لدى ابن طولون فائض من أكداس الدنانير اليوسيفية التى وجدها ــ كما ادعى ــ لاستطاع أن يرسل بعضها الى دار الخلافة ليسكت « الموفق » العباسى صاحب مصر، وحاكمها الأصيل المولى عليها من قبل أخيه الخليفة . .

ولكن العمائر والاصلاحات والبذخ والعطايا التى وهبت لرجال العلم ولانشاء جيش خاص ، استنزفت موارد الدولة وخراجها الوفير ، حتى لقد عجزت عن أن تسد مطالب رجلين فى وقت واحد .. أحدهما الأمير ابن طولون ، وثانيهما « الموفق » . . الجشع الذى لم يكفا عن مطالبة نائبه أحمد بالمال الوفير ..

وهكذا تبدت الحقائق سافرة وأثبتت الشواهد غير ما أشاع ابن طولون . .

وكان ان قام الجفاء بين الرجلين . .ولم يلبث أن تطور تطورا خطيرا وصل الى حد التهديد بالعزل وحشد الجيوش لطردأحمد من مصر !!

لقد أقسم «الموفق» أن يطرد أبا العباس من مصر ويجره فى الأغلال الى دار الخلافة

ليناقشه الحساب ؛ وينزل به أقصى عقوبة يمكن أن تنال نائبا تنكر لسيده وغصبه حقوقه كلها ؛ ولم يدفع له خراج البلدة التى يحكمها باسمه !!

وسخر أبو العباس علانية من تهديد « الموفق » .. وبقى حيث هو ينتظر مقدم الجيش العباسى المزعوم الذى سيخرجه من جنة الله فى أرضه ، ليبرهن للموفق ولأخيه أمير المؤمنين نفسه ، أنهما أعجز من أن يقدما على تلك المغامرة ـ وأنهما لو ركبا رأسيهما وأقدما عليها فانه يعرف كيف يرد لهما الصاع صاعين بما لديه من رجال وعتاد ..

ولما طال انتظار ابن طولون للجيش القادم .. الذى حال عجز « الموفق » المالى دون خروجه ، أحب الامير الجرىء ان يرهب الدولة نفسها ، ويخيف أعوان الخليفة ويستعرض قواته علانية . ليعرفوا أى رجل أصبح صاحبهم .. فكان أن خرج هو بجيشه اللجب المدرب الى الشام ، ليستولى عليها ويعين نفسه حاكما لها بعد موت حاكمها «ماجور» ؛ مدعيا فى ذلك أن أمير المؤمنين المعتضد العباسى قد وعده بولايتها ..

ولم يكد ابن طولون يقترب من دمشق حتى خرجت على بكرة أبيها تستقبله مرحبة فاتحة أبوابها ، اذ سبقته اليها أنباء كرمه وشجاعته وحبه للنجدة ومعرفته بأقدار الرجال .. فولى نفسه على الشام برغم دار الخلافة .. وبقى هناك قريبا منهم ، متحفزا ينتظر أن يحاول جرىء من رجال أمير المؤمنين أن يقدم على مغامرة..

ولكنهم جميعا وفى جملتهم « الموفق » الرهيب ، آثروا السلامة وتركوا الشام لأحمد بن طولون ! !

وبقى أحمد فى الشام حتى سمع أن الشيطان قد غرر بولده العباس ، فخرج على طاعة أبيه وسلطانه ، واغتصب الحكم وقرر عزل أبيه العظيم ـ واذ ذاك غادر الأب الذى فجع فى اكبر أبنائه ، بلاد الشام بعد أن ترك حاميات فى « الرقة » و « حران » و « دمشق » ، لتعزز سلطانه هناك .. وعاد مسرعا الى مصر ، ليؤدب ابنه العاصى الذى فر الى « برقة » ، وظل بها قرابة عامين يناوىء والده العظيم الذى تمكن فى النهاية من اخماد ثورة ولده وقبض عليه وزج به فى السجن حتى مات !!

وكانت قوة جيش أحمد بن طولون مشجعة له على الاستمرار فى مزيد من الفتح ، ليوسع رقعة ملكه.. فتحدى الروم بعد أن تحدى الخلافة ، وخرج بجيشه ليلقاهم.. واستطاع أن يضربهم فى « طرسوس » ضربة رهيبة ، قضت على قوتهم وسلطانهم ومكنته منهم ومن أموالهم الوفيرة وأعلت صيته وجعلت اسمه مصدر رهبة للجميع..

وكان أحمد خلال هذه الانتصارات المتتالية قد أجهد نفسه ، اذ لم يعرف الراحة منذ قدم الى مصر ، ووهب نفسه وحياته وجهاده لخدمتها وتحريرها واعلان استقلالها .. فغلبته العلة ، ودهمه مرض كان من القسوة بحيث لم يحتمله المحارب

الشجاع الذى لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره .. فكان أن حمله رجاله على محفة من «طرسوس» التى سلمت واستسلمت ، الى « القطائع » مدينته وعاصمته ، عساه هناك يستطيع أن يلقى الراحة ويساعده الأطباء على أن يهزم العلة الرهيبة ..

واضطربت مصر لمرض أبى العباس .. وخرج الشعب بشتى طبقاته وملله ونحله ، هذا يحمل قرآنه ، وهذا انجيله ، وذاك توراته .. وكلهم يدعون الله أن يمن على أحمد بالشفاء ..

وصلى الجميع صلاة جامعة للتوسل والرجاء ..

ولكن الأجل كان قد حان .. وكانت الارادة قد سبقت الرجاء .. فمات ابن طولون تاركا الأحدوثة الطيبة ، والذكر الحسن ، والملك العريض لوريثه « أبى الجيش خمارويه » الذى كان نعم « الشبل » فملأ مكان الأسد ، وعزز ذكرى أمجاد أبيه الحربية ، وقضى على مؤامرات رجال الخليفة وخرج اليهم فطاردهم حتى قرب « سر من رأى » ..

ثم ، واعترافا منه بفضل أمير المؤمنين ومكانته ، أبى أن يتقدم وعاد ، فولاه الخليفة مصر والشام وشتى عواصم الأمصار الواقعة على الحدود الرومانية لمدة ثلاثين عاما..

ولما أراد المعتضد العباسى أن يتزوج لم يجد بين الرجال من يعدله ويستحق شرف مصاهرته ، غير « أبى الجيش خمارويه » .. فبعث يخطب ابنته « قطر الندى » ويعين يوم زفافها ..

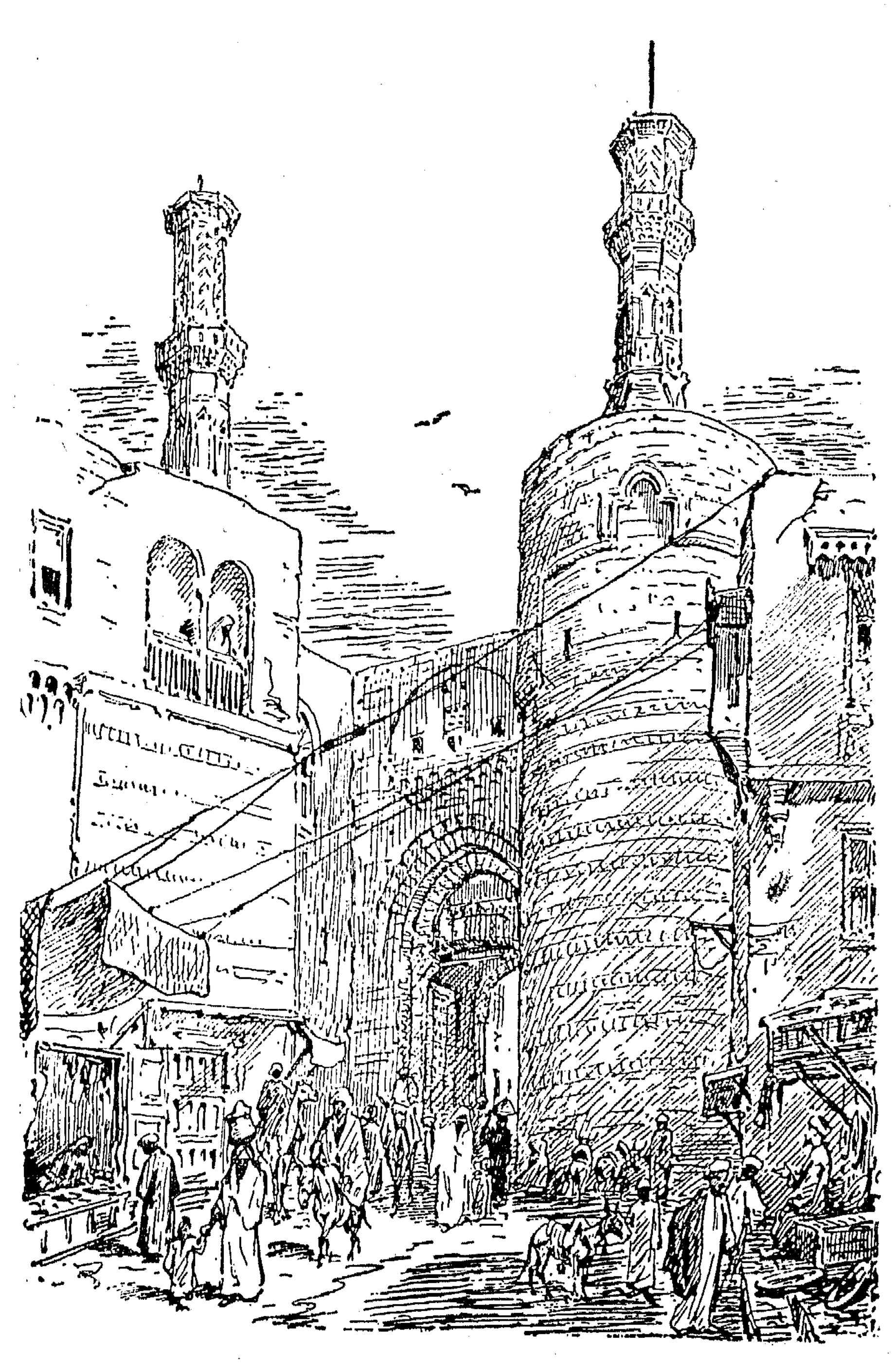
* * *

وسافرت « قطر الندى » الى دار الخلافة فى موكب خيالى .. وأقام لها أبوها عند كل مبيت ليلة ، قصرا مشابها لقصره فى كل شىء !! ونثر الذهب وتغالى فى نثره وحمل الخزانة ماكادت تنوء به .. وكأنما حلا له أن يوصف بالبذخ والثراء ، فاستمر على سياسته هذه : يبنى وينشىء ، ويقيم العمارات ، ويخطط الحدائق ، ويكسو سوق الأشجار بأغطية من نحاس مذهب ! !

ولم يقتصر اهتمام خمارويه على الانشاءات الخاصة ، بل بذل للمساجد بعض عنايته ..

ولم يكد يسمع بوقوع حريق فى مؤخرة جامع عمرو بن العاص أتى على مساحة عظيمة من بنائه ــ شملت معظم الزيادة التى أنشأها عبد الله بن طاهر ــ حتى أسرع يعمر ماتخرب ويعيد ماتهدم من البناء المقدس الجليل ..

وكلف «خمارويه» أحد رجاله المسمى « أحمد بن محمد العجيفى » أن يشرف على العمارة الحديدة التى أراد اجراءها فى جامع عمرو ، وطالبه بأن يتم البناء فى أسرع وقت ممكن حتى لا تتعطل شعائر الصلاة الجامعة فيه .. فقام الرجل بالعمل



باب زويلة

أحد أبواب القاهرة بشارع تحت الربع أنشأه جوهر الصقلى عام ٤٨٤ هـ ، ١٠٩٩ م .

الموكول اليه على خير وجه ، حتى أعاد الحنايا الثلاث التى تهدمت من باب النحاسين الى رحبة الحارث ــ الى ماكانت عليه قبل الحريق ..

واكتمل لجامع عمرو بذلك بهاؤه القديم .. وأعيدت اليه مراسيم العبادة وتم افتتاحه للصلاة من جديد ، وبلغ ماأنفقه «خمارويه» السخى الكريم فى هذه العمارة والاصلاحات ستة آلاف وأربعمائة دينار ، أتم بها انشاء «رواق» عظيم السعة ، نسب اليه وكتب عليه اسمه . وكان ذلك فى السنة الخامسة والسبعين بعد المائتين من الهجرة ..

واستمر «خمارويه» على حاله من البذخ .. وأفرغ همه بعد ذلك فى تنميق حدائقه وتزويدها بأعجب الازهار وأندرها .. وملأ «قصره الذهبى» بتماثيل صنعها لزوجاته وقيانه وجواريه وأقامها فى أبهاء القصر وباحاته ..

وكان من جراء افراطه فى اللهو ، أن أصيب بأرق مزمن .. فأنشأوا له بحيرة من الزئبق فى حديقة القصر ، تحف بها أعمدة من الفضة ، شد اليها سريره بخيوط من حرير ، ليستطيع النوم ! !

ومات خمارويه مسموما بتحريض بعض جواريه وهو فى طريقه الى دمشق ..

وخلفه ابنه الأكبر « أبو العساكر جيش » ، وكان طفلا فى الرابعةعشرة من عمره.. لاهيا ، عابثا ، منصرفا الى لذائذه .. فخلعه جنده بعد أشهر قلائل من ولايته ! !

وأخذ أمراء بيت ابن طولون يتنافسون على الولاية .. وكانوا من الضعف بحيث لم يستطع أحد منهم أن يحتفظ بالعرش الذى شيده أحمد بن طولون بقائم سيفه ومضاء عزيمته ، فتحركت المؤامرات من دار الخلافة وهبت ريح الانتقام .. وأطمع ضعف الولاة الخليفة العباسى فى مصر مرة ثانية ، وأراد أن يريح نفسه من بيت أحمد بن طولون الى الأبد .. فكان أن أرسل الى مصر جيشا عباسيا يقوده «محمد ابن سليمان» ، هزم الطولونيين وبدد ملكهم الذى استمر قرابة الاربعين عاما كانت مصر خلالها شبه مستقلة عن الخلافة فى كل شىء ..

ونكل القائد العباسى بأعدائه تنكيلا رهيبا ــ لم يصل الى حد ابادتهم بعد الهزيمة فحسب ، بل تعداه بأن أمر باحراق « القطائع » الحديثة البناء وهدمها بما حوت من قصور ودور ومبان .. ولم يسلم من شره جامع أحمد بن طولون !!

ومرت السنون .. وضربت الفوضى أطنابها فى ربوع الوادى الذى أعاد اليه أحمد بن طولون شبابه ..

ثم شاءت ارادة أمير المؤمنين أن يرتد أسفل سافلين .. حتى المسجد الجامع الذى بناه أحمد العظيم ، وكان مصدر فخر وآية جلال . عدا عليه العدوان فتخرب !!

أجل .. لقد تخرب جامع أحمد بن طولون ، وفقد بهاءه ، وأصبح أطلالا دارسة

يثير مرآها الشجون ، ولما يكمل له من الوجود نصف قرن من الزمان !!

وبلغ المسجد الجامع الذى صرف أبو العباس فى عمارته دنانير لا يحصرها عد ، حدا من الهوان لم يبلغه مسجد قبله ، اذ أصبح مناخا للابل ومأوى للمشردين !!

* * *

ثلاثون عاما مرت على ذلك الانحطاط الرهيب .. حتى تمكن فى النهاية مغامر اسمه «محمد الخالنجى» من جمع جيش دخل به مصر ، وأعاد الخطبة الى بيت « طولون » وحكم مصر باسمهم ثمانية أشهر ..

وجاء الخليفة « الراضى » ــ ومصر نهب مشــاع لأجناد الدولة ، ومثل رهيب من أمثلة الفــوضى والاضطراب : جيوش الفاطميين الطامعين تنــاوش حدودها ، وتصل جموعها الىمقربة من الفيوم .. والخليفة العباسى وجنده أعجز من أن يطردوا هؤلاء الفاطميين .. فلم يجد «الراضى» غير أن يولى على مصر حاكما جريئا هو «محمد بنطفج الاخشيد» من أبناء أسرة ملكية كانت تحكم فرغانة ذات يوم ..

وكان الأخشيد جريئا شجاعا محاربا من الطراز الاول ، وان كان من عادته ايثــار السلم على الحروب ..

وبوصوله الى مصر استتب الأمن وعاد الهدوء ينشر ألويته على ربوعهــا ، ودخلت فى طور جديد وحكم جديد ..

لم يوجه الأخشيد اهتمامه لشىء قدر اهتمامه بأن يعزز مركزه ويمد سلطانه على الشام ويتفرد بحكم مصر ، على النسق الذى اتبعه أحمد بن طولون ، وقد فعل حتى صارت مصر والشام فى عهده شبه مستقلة عن الخلافة الضعيفة فى كل شىء ..

ولما كان مسجد العسكر ومسجد ابن طولون قد تخربا وأهملا ، فقد اتجه النــاس بكليتهم الى جامع عمرو ، الذى زاد رواده ، واتسعت دائرته .. وكثرت حلقــات العلم فيه وزادت زيادة ملحوظة ..

وكان المجلس الذى اعتاد التدريس فيه الامام الشافعى ، أشهر زوايا العلم فى جامع عمرو بن العاص .. وكانت لأتباع المذهب الشافعى حوالى خمسة عشر مجلسا ، ومثلها لأتباع مذهب الامام مالك . ولم يكن لأصحاب أبى حنيفــة وأتباع مذهبــه أكثر من ثلاثة مجالس ..

ولطالما حدثت معارك جدلية بينأتباع مالك والشافعى، كانتتتطور فى صحن المسجد الى معارك دامية يستعر خلالها القتال بين الطائفتين ! !

ولقد حدث ابان حكم الأخشيد أن استفحل أمر هذا الخلاف المذهبى بينالطائفتين، فنشب بينهما قتال طال أمده ، ورأى الأخشيد أن خير علاج لحسم هــذا النزاع هو اغلاق جامع عمرو بن العاص دون طلاب العلم ــ وخاصــة أتباع الشافعى ومالك ، فكان أن نزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع الا فى أوقات الصلاة !!

وكانت هذه الزجرة من جانب الأخشيد كافية لردع المتخاصمين من الطائفتين المالكية والشافعية .. فاستتب الأمر ، وشعر طلاب العلم والمعرفة بهول الهوة التى حفرتها حماقاتهم وتحزبهم ، فأرسلوا الى الأخشيد من يسأله العفو ، والأمر باعادة حلقات المدارسة الى ما كانت عليه .. فاستجاب لهم بعد أن وعدوه باحترام بيت الله من اللغو والمشاحنات ..

وعاد الهدوء ينشر على جامع عمرو ظله الوارف، فكثرت فيه مجالس العلم والمدارسة فى الفقه والشريعة وقواعد اللغة وعلم العروض .. ونبغ فيه علماء مجتهدون ، وتوافد عليه الناس من كل حدب وصوب للتبرك والصلاة وتحصيل العلم ..

واذا كان الولاة من بنى الأخشيد فى ذلك الوقت قد أهملوا عمارة المساجد ، فان القضاة المعينين من قبل الخليفة العباسى ، أظهروا بحكم مراكزهم الدينية ، اهتماما بالغا بجامع عمرو بن العاص ..

وكان ((أبو حفص عمر بن الحسن)) الذى ولى القضاء سنة ست وثلاثين بعد الثلاثمائة من الهجرة ـ أكثر القضاة اهتماما به .. وكان من آثاره الباقية . بناؤه الحجرة التى كان يؤذن فيها المؤذنون فوق سطح المسجد ..

وكانت آخر زيادة ألحقت بجامع عمرو بعد ذلك ، هى الزيادة التى بدأها « الخازن أبوبكر محمد بن عبد الله» الذى أقام فى المسجد ، سنة سبع وخمسين بعد الثلاثمائة ـ عمارة عظيمة ، كان الغرض منها انشاء رواق واحد متسع هو « الرواق ذو المحراب » و « الشباكان » ، المتصل برحبة « الحارث » ومساحته تسعة أذرع ..

ولم يمهل الموت أبابكر ليرى الرواق الفخم الذى بدأ عمارته.. فمات قبل أن يتمه..

ولكن ولده « عليا » كان من البر بذكرى أبيه بحيث أخذ على عاتقه مهمة اتمام بناء ذلك الرواق .. وراح يعمل فيه بجد ونشاط حتى فرغ من بنائه فى رمضان من العام التالى لتاريخ بدء أبيه فى عمارته ..

وشغلت الاضطرابات السياسية والفتن الفكرية الناس وحكامهم عن العناية بأمر المساجد فى مصر ..

ومات الأخشيد بعد أن أخذ البيعة بالولاية لابنه من قادة الجند وأشراف القوم وكبار أعيانهم ..

وتولى «أبو القاسم أنجور» مكان أبيه ، وظل يحكم مصر أكثر من خمسة عشر عاما..

ثم مات .. وجاء من بعده أخوه « أبوالحسن على » ، فحكم مصر أربع سنوات..

وكان كلا الحاكمين حدثا صغيرا فحكم تحت وصاية العبد الحبشى أبى المسك «كافور»..

ومات أبو الحسن .. وخلصت مصر من بعده لوصيه كافور ، الذى نسب نفسه الى الاخشيد واعتلى العرش بموافقة الخليفة العباسى ..

ولما كان كافور عبدا رقيقا ، فقد كان مصابا بعقدة نفسية خطيرة هى الشعور بالنقص لوضاعة أصله ! !

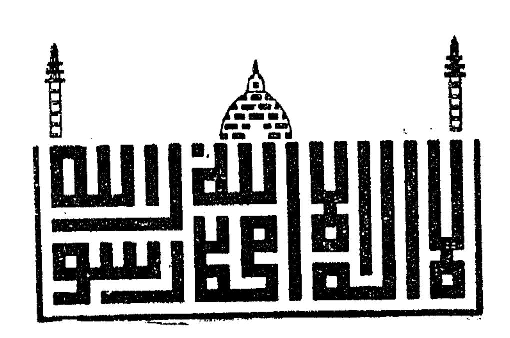
فصرف عنايته واهتمامه الى محاولة شراء الذمم وتجميع الناس حوله ، وخاصة الشعراء ليمدحوه ، ويحاولوا بأكاذيبهم واسرافهم فى الخيال أن يصوروه فى الصورة التى كان يحب أن تكون له ! !

وهكذا انصرف «كافور» هو الآخر عن تعمير المساجد ، ولم يهتم بأمرها من تعمير أو انشاء أو حبس أموال عليها ، اذ وجه جل اهتمامه الى اللهو والبذخ .. ثم السهر على حراسة الحدود المصرية من مطامع الفاطميين ، الذين كان جواسيسهم وعيونهم يعملون فى مصر ، يمهدون لغزو ـ آخر موعده وجود كافور على عرش البلاد .

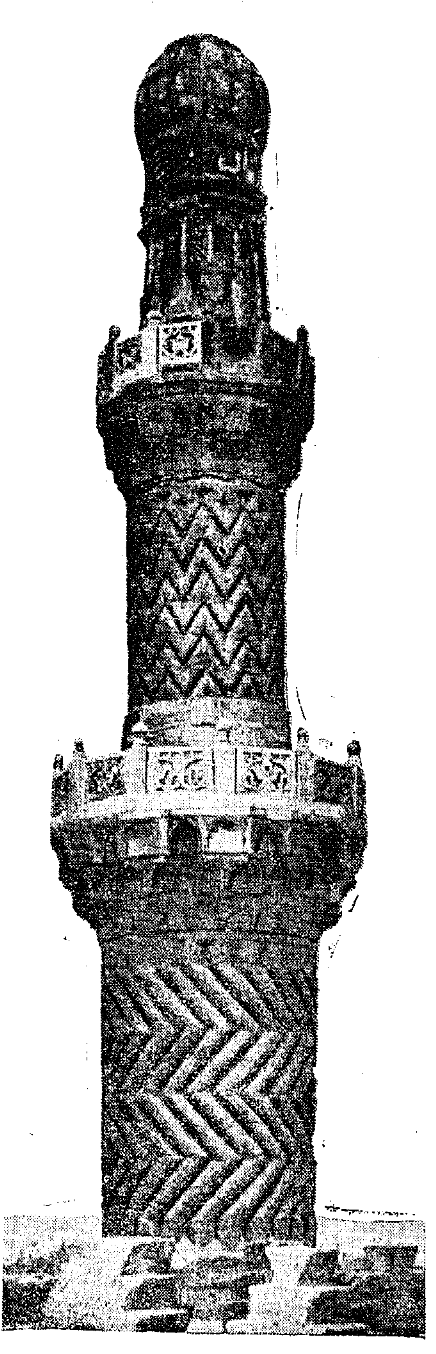
وظل كافور الأخشيدى يحكم مصر شبه مستقل عن الخلافة قرابة اثنين وعشرين عاما ، يدير شئونها ويتصرف فيها وفى أموالها وخراجها تصرف المالك الذى لا يسأل عما يفعل ، حتى مات .. فاضطرب ميزان الأمور واختلت أحوال البلاد .. واجتمع رجال البلاط من تلقاء أنفسهم امعانا منهم فى الفوضى ، وعينوا من بنى الأخشيد حاكما لمصر دون الرجوع الى الخليفة العباسى ، كما انتخبوا له وليا للعهد ..

وسمع المعز لدين الله الفاطمى وهو فى عاصمته بما حدث .. وقيل له يومها : « ان الحجر الأسود » قد زال .. وقصد بالحجر الاسود « كافور » العبد !!

فكان أن أمر الخليفة قائده جوهر الصقلى بأن يتحرك بالجيش لفتح مصر .. وارساء قواعد الخلافة الفاطمية فى أرضها الخصيبة وفتح أبوابها لحكم ودولة جديدين ..



قاهرة الدنيا



((مئذنة السلطان الناصر محمد بالقلعة))

دخل جوهر الصقلي مصر باسم سيده المعز لدين الله ، فاتحا ومبشرا بمذهب غريب لم تسمع به البلاد من قبل ..

وتم لجوهر الفتح المنشود ، الذى كان يحلم به الفاطميون — دون قتال ولا مقاومة ، اذ مهدت الدعاية لمقدم الغزاة ، وجعلت الشعب الذى برم بالفوضى وسوء الأحوال ، يرجو على أيدى الفاتحين الجدد استقرارا هو فى حاجة اليه ..

وسر الشعب ، لأن الفاتح صاحب الجيش اللجب ، لم يرهب الناس .. ولم يفرض على الأهلين قوانين استثنائية ، ولم يقيد لهم حرية أو يحد من رغبة .. بل أذاع فيهم ((مرسوم أمان)) ، أصبح المصريون بمقتضاه آمنين على أموالهم وأنفسهم ودياناتهم وكل مايملكون ..

ووضع «جوهر» أساس القاهرة العاصمة الفاطمية ، وأخذ فى بنائها .. مما أشعر الناس أن القادمين يرغبون فى الاستقرار والسلام ، فزادت طمأنينة الشعب واستشعر أمنا فقده سنين طوالا .. وتطلع الى مستقبل مرموق بدت فى الافق طلائعه اذ انتقلت مصر نفسها من طور الى طور وتغيرت الأوضاع السياسية فيها ، وبعد أن كانت ولاية تتبع الدولة العباسية أصبحت دار خلافة شابة يرجى على يديها الخير الكثير ..

وفى الوقت الذى راح الشعب يتحدث فيه عن التطور الوضعى الذى تم ، سارع جوهر الداهية فخرج الى الصلاة الجامعة فى جامع عمرو بن العاص ، ليعلن عن طريق

«خطبة الجمعة» منهاج الدولة الجديدة وطرفا من سياستها العامة ، وماسوف تحدثه من تغيير بعد أن قطعت الخطبة عن العباسيين ..

لم يكن الشعب فى مصر حتى تلك اللحظة يعرف من هم « الفاطميون » .. كما لم يكن أحد بين الناس يتصور أن هؤلاء القوم الذين راسلوا « أشراف مصر » ولقبوهم بأبناء عمومتهم — لهم مذهب دينى فيه خروج على ما عرفه المصريون من تقاليد الاسلام ..

لهذا .. لم يكد الشعب الذى امتلأ به صحن جامع عمرو يرى «هبة الله بن أحمد» خطيب المسجد يخرج من جيبه طرسا مطويا ، وقد راح يقرأ منه نص الدعاء — حتى تولتهم الدهشة وراحوا ينصتون مستنكرين ماكانوا يسمعون.. وراح الرجل يقول :

« اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهدية عبد الله الامام معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين ..

« اللهم ارفع درجته ، وأعل كلمته ، وأوضح حجته ، وأجمع الأمة على طاعته ، والقلوب على موالاته ومحبته ، واجعل الرشاد فى موافقته ، وورثه مشارق الارض ومغاربها ، واحمده مبادىء الأمور وعواقبها ، فانك تقول وقولك الحق « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون .. »

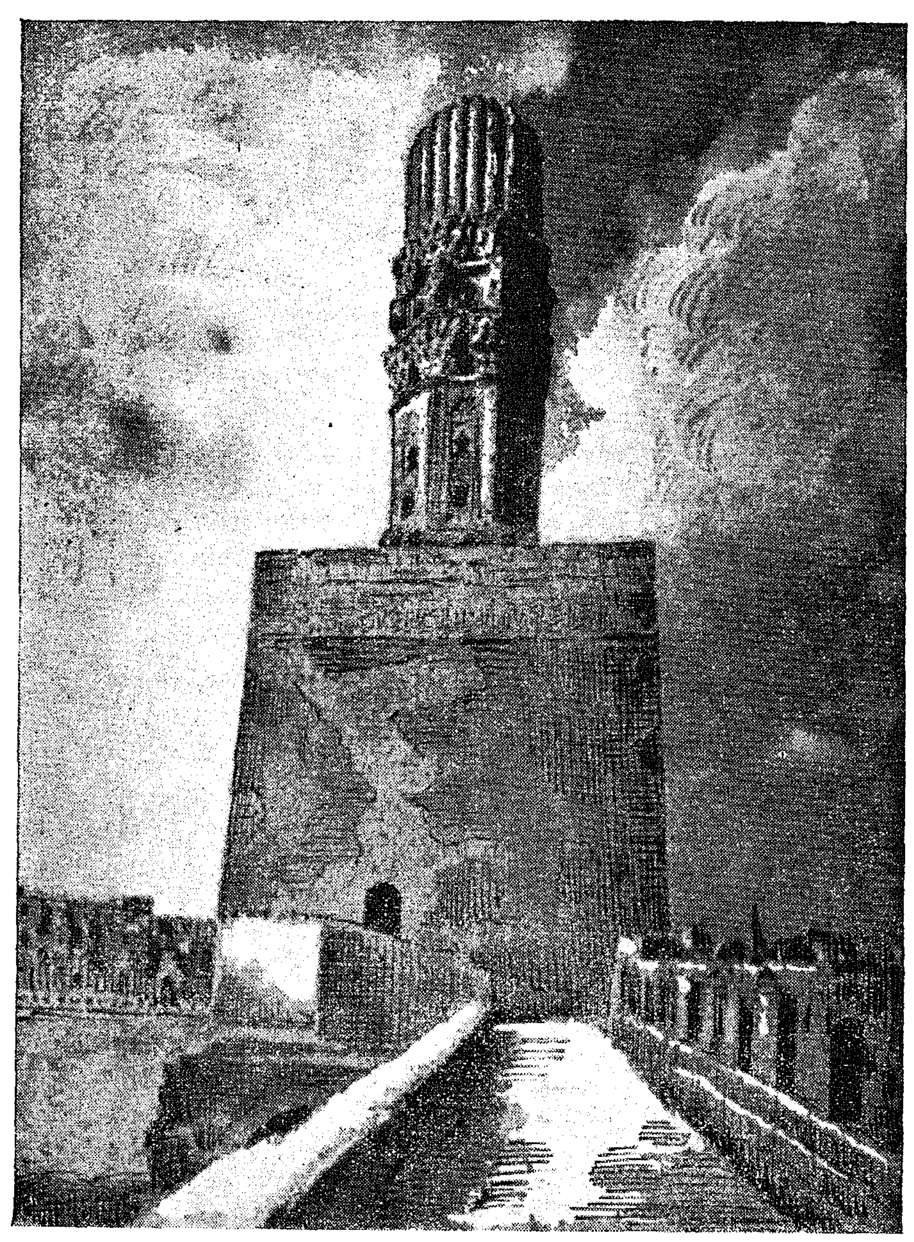
* * *

وقبل أن يستفيق المصريون من دهشتهم ، سمعوا أمرا آخر أكثر غرابة .. لقد أمر جوهر أن يمتنع المسلمون فى يوم الجمعة عن قراءة « سبح اسم ربك الأعلى » !! وحرم التكبير بعد صلاتها .. وهدد بالويل من يلبسون السواد !!

وخرج الناس بعد اتمامهم صلاة الجمعة ذات الطقوس الغريبة ، يتساءلون عن الاباحة والتحريم .. وكلهم يود لو يعرف شيئا عن تلك الغوامض التى تبدت فى الدعاء ، وكان أغربها الصلاة على « **الامام** » معد أبى تميم وعلى « **آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين** » .. وأقبل بعضهم على بعض يتهامسون ليعرفوا شيئا عن هذه « الامامة » المستحدثة .. **ومن يكون أولئك الأئمة الراشدون !!**

وطال بالمصريين التساؤل .. وتملكهم العجب .. ولم يجدوا المرشد الهادى الذى يجلو لهم هذه الغوامض التى أذهلتهم وحيرتهم .. واذا بهم ذات مرة وهم فى صلاة الجمعة أيضا يفاجأون بدعاء آخر غريب ، راح الخطيب يردده من طرس مكتوب أيضا ويقول :

« اللهم صل على محمد النبى المصطفى .. وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ..



المنارة البحرية لجامع الحاكم

بدأ فى بنائه الخليفة العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨٠ هـ ، ٩٩٠ م واتمه ابنه الحاكم بأمر الله ثالث الخلفاء الفاطميين بمصر سنة ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م وسمى باسمه وهو ثانى الجوامع الفاطمية بالقاهرة بشارع المعز لدين الله

« اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين .. »

***

ووقف المصريون ثانية فى دهشة وعجب أمام أولئك ((الأئمة)) الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين .. وتساءلوا : من يكونون ؟! من هم ؟! من أين لهم صفة الامامة هذه ؟ !

ولم يطل بالقوم تساؤلهم اذ جاءهم الجواب.. ووافتهم المعرفة.. وانكشف الستر عن حقيقة الأئمة الهادين الذين يبدأون بعلي المرتضى ، الذى انتقلت امامته الى ولده الحسن المجتبى ، ومنه الى شقيقه الحسين الشهيد ، ومنه الى ولده على زين العابدين السجاد ومن بعده محمد الباقر ، ثم جعفر الصادق يتلوه موسى الكاظم ، ثم على الرضى ، ومحمد التقى ، وعلى النقى يتلوه الحسن العسكرى الزكى .. وأخيرا **«محمد المهدى»** الذى اختفى !! والذى سيظهر فى آخر الزمان معلنا قيام الساعة فيملأ الارض عدلا ونورا!! .

أولئك كانوا الأئمة الاثنى عشر ...

ولكن .. أين مكان آباء أمير المؤمنين منهم ؟!!

ان الفاطميين يقفون عند جعفر الصادق.. ويبدأون من عند ولده اسماعيل بن جعفر، حتى يصلوا الى المهدى المنتظر ، الذى سيملأ الدنيا عدلا .. وهو الرضا من آل محمد الذى دعا الدعاة له فى كل مكان أيام عز الدولة العباسية وسلطانها ..

فالمهدى المنتظر اذن ، هو جد الفاطميين المباشر الذى دعا له أبو عبيد الله الشيعى فى المغرب .. ومهد له الأرض ، وبذر بذور الدعوة لمقدمه .. فكان أن جازاه بالذبح !!

أولئك كانوا هم الأئمة .. واليهم نسب المهدى نفسه رغم الشكوك التى حامت حول أصله اليهودى .. أو ملته الثنوية .. أو لب دعوته الباطنية المنسوبة زورا الى اسماعيل بن جعفر .. والتى يدعى أنها تنكر أول ماتنكر صفات الله جل وعلا ، قائلة : **انه فوق متناول العقل العاجز عن ادراك كنهه، المقر بأنه لم يخلق العالم خلقا مباشرا ، وانما أبدع العقل الكلى بعمل من أعمال الارادة وهو « الأمر » فأصبح هذا «العقل الكلى» محلا لجميع الصفات الالهية .. بل هو الاله ممثلا فى مظاهره الخارجية !!**

« وصارت للعقل تبعا لهذه الصفات عدة أسماء منها « المحل » و « الحجاب » و « الصلة » و « النفس » و « الاول » ..

« وأن هذا العقل الذى أبدع النفس الكلية ، وخاصيتها الرئيسية هى الحياة ، وأن العلم خاصية العقل .. فاذا كان العقل غير كامل فى علمه فهو يحاول بلوغ الكمال .. وبهذا تحدث حركة مضادة لحركة الصدور ..

« وهناك بعد هذا ، كائنان واجبان ، هما المكان والزمان .. وأن اتحاد هذه الوجودات فى العقل تحدث عنه تحركات الأفلاك والطبائع ..

« أما ظهور الانسان فيعللونه بحاجة « النفس الكلية » الى بلوغ « العلم الكامل »

حتى تسمو الى مرتبة « العقل الكلى » .. فاذا ماوصلت الى تلك الدرجة تبطل كل حركة ..

« ولبلوغ السعادة فرض على الانسان أن يحصل العلم .. وأنه لايستطيع تحصيل ذلك الا بحلول العقل فيه ..

« والعقل لايحل الا فى « نبى » ، وفى « الأئمة » الذى يخلفونه .. وهم الذين يطلقون على العقل « الحال » اسم « الناطق »الذى يكون « أساسه » النفس « الحالة » ..

« والأول » هو « النبى » الذى يبلغ الكلام المنزل .. والثانى هو الذى يفسر هذا الكلام اعتمادا على التأويل ..

« وأركان الدعوة ثلاثة : « الامام » و « الحجة » و « الداعى » ..

ويقولون بعد هذا كله : ان « عليا » هو « الأساس » ، وأن « محمدا » هو الناطق !!

« ولهم بعد هذا فى الامام تأويلات وصفات ومزايا ترفعه الى مصاف المنزه عن الأخطاء ، المعصوم من الخطايا .. الذى يفعل مايريد ولا يسأل عما يفعل !! وأن طاعته واجبة دون نقاش .. وأن روح الله التى انتقلت الى آدم ، حلت بعده فى « على » ! ! ثم سكنت جسد هذا الامام !!

فهو والحالة هذه شبه رب معبود قادر ، يعيش بين الناس لهدايتهم والخروج بهم من الضلالات الى الهدى ، ومن الظلمات الى النور » ! !

* * *

أولئك كانوا هم الأئمة .. وعلى هذه الصورة من التردى الفكرى ، كان مذهبهم « الرافضى » الباطل .. دعوة جريئة ظاهرهاالغيرة لدين الله ، وباطنها الرغبة فى تقويض أسسه وتأليه العبد !! وهى أمور نفر المصريون منها وكرهوها ، لأنهم طالما كانوا أهل دين وايمان .. وكان من الصعب أن يتحولوا عن مذهبهم أو عقيدتهم الى هذا المذهب الجديد الخطير ، الذى يرفع بشرياقد يكون دونهم عقلا وايمانا .. الى درجة الامامة القريبة من الربوبية !!

وهكذا عرف المصريون عن أولئك القادمين من المغربأشياء كثيرة أرابتهم فى نواياهم، وبعدت بهم عنهم وعن مجالسهم وسماع آرائهم ..

وبالرغم من هذا البعد ، راح المصريون يرقبون أعمال جوهر القائد فى شىء من الاكبار والاعجاب..

لقد شيد العاصمة الفاطمية وأسماها « القاهرة » .. قاهرة الزمان .. وبنى فيها مسجدا فخما يتناسب وعظمتها وينطق بثراء أصحابها ..

ولما كان جوهر القائد رجل حرب وجلاد ، فقد كان من الطبيعى أن يقيم حول « القاهرة » سورا منيعا ، ويحفر فى جهتها الشرقية خندقا ليحمى القصرين الكبير

.والصغير .. وأن يقيم بين القصرين ميدانا فسيحا يكون مكان عرض للجنود فى الاعياد.

***

وتم بنـاء القاهرة .. وكمل مسجدها الجامع .. وقسمت العاصمة الى حارات متعددة ، حملت أسماء من سكنوها من وحدات الجيش الفاطمى ، مثل « الروم » و « زويلة » و « البرقية » وغيرها .. ودبت الحياة فى العاصمة العظيمة .. وغصت أول ماغصت بالغرباء الذين جاء بهم جوهر .. وكانوا من الكثرة بحيث لا يحصرهم عد على الاطلاق !!..

وأرسل القائد الى سيده وامامه ومولاه المعز لدين الله ، يطلب منه ــ بعد أن بشره قبلا بالفتح والاستقرار ــ القدوم الى عاصمته الجـديدة ، التى أصبحت بما حوت ، أليق مكان لنزوله ، وأخصب تربة لنشر دعوته ..

وحضر المعز الى « القاهرة » .. قاهرة الدنيا .. فلم يرقه موقعها على الاطلاق !! ولام جوهرا على سوء اختياره لها ، اذ كان يريدها قريبة من شاطىء النيل .. ولكنه دخلها دخول الظافر .. وأسرع الى قصره الكبير ليستقبل وجوه البلاد وأشرافها .. وليتسلم من قائده جوهر مقاليد السلطة التى ظل يمارسها أربعة أعوام كاملة ..

وكان حضور المعز الى عاصمته معناه انتقال السلطة الزمنية اليها .. وهو أمر لم يكن يعنى الرجل فى شىء قدر مايعنيـه القيـام بمظاهرة سلمية ، تكون دليـل انتقال السلطة الروحية الى القاهرة ..

وأعد المسئولون فى الدولة الجديدة حفلا لافتتاح المسجد الجامع ، يؤم فيـه المعز الناس فى صلاة جامعة ، ويدعوهم الى وليمة فاخرة ، يكون انتهاؤها اعـلان بداية لانتقال السلطة الروحية والدينية الى القاهرة .. واستقرارها فى جامع القاهرة بالذات باعتباره مسجد الدولة الرسمى ، ومقر صلاة الجماعة فيها ..

كانت أيام شهر رمضان تتناقص .. وكان عيـد الفطر يقترب ، فرؤي أن يكون مقدم العيـد موعدا لافتتاح المسجد الجامع ، وأن تكون صـلاة العيد الجامعة ، أول صلاة « جماعة » تقام فيـه ، وأن يكون الامام المعز أمير المؤمنين امام « الجماعة » فى هذه الصلاة ..

ونودى بذلك فى القاهرة .. وعرف الناس أن صلاة العيد ستكون بمثابة استقبال رسـمى للامام الجـديد ، فأسرعوا الى هنـاك ، ليروه ويسـمعوه ، ويشـاهدوا أمجاده وصفاته ..

* * *

وضاقت القاهرة على سعتها بالناس .. واحتشد الخلق فى المسجد بكثرة هائلة ..

ووصل موكب أمير المؤمنين .. فكان فى هذا اعلان لبداية سلطان « جامع القاهرة » وتفرده بالزعامة على المساجد كلها فى مصر ، بل فى العالم الاسلامى الذى كان يستظل بالراية الفاطمية فى ذلك الوقت ..

وصلى المعز لدين الله بالناس اماما فى ذلك اليوم .. وكانت صلاته طويلة ، فقرأ فى الركعة الاولى أم الكتاب «الفاتحة» ثم «الغاشية» ثم كبر بعد القراءة وركع فأطال وسجد فأطال ..

وفى الثانية « بالفاتحة » و « الضحى » وكان يطيل الركوع والسجود والجلوس .. وكان يبلغ عنه التكبير « النعمان بن محمد القاضى » الذى جاء معه من المغرب..

ولما تمت الصلاة ، صعد المعز الى المنبر ــ ومعه جوهر القائد ، وعمار بن جعفر ، وشفيع حامل المظلة .. وسلم الامام على الحضور يمينا ويسارا ونشر الرايتين على جانبي المنبر ، وابتدأ مستفتحا وراءهما خطبته الاولى ببسم الله الرحمن الرحيم .. ثم كبر مرتين وراح بعدهما يتكلم ..

وكان بليغا فى عباراته ، خاشعا فىنطقها ،فأثر فى الناس وأبكاهم ..

وعاد الامام بعد الخطبة الى قصره تاركا للناس حرية الكلام عنه ..

والواقع أنهم لم يجدوا مايقولون عن المعز الخطيب المفوه والمتحدث البليغ ، الذى لم يكد يصعد درجات المنبر حتى استطاع فى يسر ودون عناء أن يتملك زمام القلوب، ويبهر ببلاغته الألباب ، كما بهرهم فى صلاته وخشوعه !!

وتحفظ النــاس فى حديثهم عن الامام الذى لم يأتهم بجديد .. وكان من الحكمة وبعد النظر بحيث لم يفاجىء العامة بتطور مذهبى أو دعوة الى اتباع سنة جديدة.. ذلك لانه رأى بثاقب بصره أن يعد « الدعاة » للعمل فى الارض الخصيبة ، راجيا أن يتمكنوا من اقناع المصريين باتباع مذهب «الامامية» ويستبدلون به مذاهبهم «السنية» التى علمهم اياها أئمة عظام وأعلام أجــلاء ، يتبعــون مذاهب ، مالك وأبى حنيفــة ، والشافعى ..

كان المصريون أهل علم .. وكانت لهم ثقافة دينية معروفة .. وكانت عقلياتهم من الاستنارة بحيث لا تتقبل الدعوة «الامامية» ، وتنكرها بشدة .. لهذا كان على المعز أن يعد « جيشا » من دعاته ورجاله ، ليمهد للفتح المذهبى الذى يرجوه ..

لم يكن هذا الامر سهلا فقد كان واجبه الأول هو الاعداد .. وحشــد القوى ، استعدادا للغزو الفكرى الجديد ..

لقد كان تغيير « الأذان » وطريقته .. والتعديلات التى أدخلهــا جوهر قبــلا ، لا شىء بالنسبة لما كان يعده الخليفة.. لهذا ــ وخشية احداث هزة فكرية ، أو ثورة دينية ــ ترك الناس على ماهم عليه ليفاجئهم بعد ذلك بما كان يريد ..

كان المعز يعرف أن ماتقبله الناس فى الشمال الافريقى ، لايمكن أن يرضاه المصريون لاختلاف الثقافات والمعرفة ولتباين درجات العلم .. ففتح أبواب جامع القاهرة أول مافتح لرجاله ، ليجعلوا منه مكانا لدراسة الدعوة الغامضة ، ومجالا لدراسة مذهبهم

الخطير ، حتى يعظم شأنه وينتشر شيئا فشيئا بين شتى طبقات الشعب فى مصر ..

* * *

وهكذا ثبتت لجامع القاهرة من أول أمره صفته التى أرادها له بانيه بأمر سيده .. وقدر له بعد افتتاحه مباشرة أن يلبس مسوح الداعية ، وأن يكون مجال نقاش مذهبى ودعوة خاصة ، لا مسجدا جامعا يأتيه الناس للصلاة دون تعرض لمذهب ، او جدال فى رأي ..

وأوحى الامام المعز الى قاضيه النعمان بن محمد القيروانى المعروف « بابن جبون » ، أن يعقد حلقات للدرس فى صحن الازهر ، يدعو اليها الخاصة ليسمعوه وهو يحدثهم عن أسرار مذهبهم ويعرفهم به على نمط جديد .. ليعتنقوه عن اقتناع وايمان ..

ولم يقتصر منصب الأستاذية فى المسجد الجامع على القاضى النعمان فقط ، اذ كان هناك ولده الحسن .. والحسن يومها قطب من أقطاب المذهب ومن أشد غلاته والمستمسكين به ، فكان أن تصدر هو الآخر احدى الحلقات .. وراح يقرأ لمريديه من أهل المغرب ومواليهم كتاب « الاختصار » ، الذى وضعه أبوه فى الفقه الشيعى ، وأورد فيه أسرار المذهب الفاطمى ومراميه وأغراضه ، وما تهدف اليه هذه المرامى والأغراض ..

وهكذا ، ولثلاثة أعوام تلت مقدم المعز الى القاهرة ، أصبح مسجدها الجامع مدرسة خاصة للفقه الفاطمى .. لأولئك القادمين من المغرب مع امامهم ، الطالبين مزيدا من المعرفة . الراغبين فى الاستزادة من بحور العلم .. ثم التطوع بعد ذلك للتبليغ والارشاد ..

ولم يكن غريبا أمام هذا السياج المذهبى الذى فرض على المسجد ، أن يتباعد المصريون عنه تباعدا ملحوظا ، سيما وقد خاض القوم بالاقوال فى أصل المعز ونسبه.. حتى لقد تبدت صورته الحقيقية للناس فى هيئة من يريد بالاسلام شرا مستطيرا !!

لقد عرفه المصريون عن طريق دعاته الاوائل ، وأعدائه الحاليين الذين عرفوا باسم « القرامطة » ، والذين وجدوا منه تنكرا للدعوة التى بثها فيهم آباؤه وأئمة الدعوة ، فجاءوا الى مصر بجيوشهم ليناقشوه الحساب ويثبتوا كفرانه وتنكره وخروجه عن المذهب الرافضى الخطير ..

وثبت المعز للحملات المزدوجة ، داخلية وخارجية .. ونثر ذهبه ليسكت القالين، وسل سيفه من غمده ، ليرهب الخارجين.. واستمر فى دعوته وجهاده على طريقته..

وخرج المعز للقرامطة ، فهزمهم جدليا وهزمهم حربيا .. ثم أجلاهم عن ثغور مصر ، وطردهم بعيدا .. ولكن بعد أن أحدثوا له حدثا رهيبا ، وبعد أن جعلوا حقيقة الفاطميين تتكشف للناس ..

لقد عز على الامام أن يسكت عن ابلاغ الدعوة ، وكبر فى عينيه ألا تنتشر فى مصر

منذ اليوم الأول .. ولكنه أمام اصرار الشعب على البعـد عنه ، واجتناب دعوته ، سكت على مضض ، وراح يتلمس الوسيلة ، ويروج للدعوة فى الخفاء ..

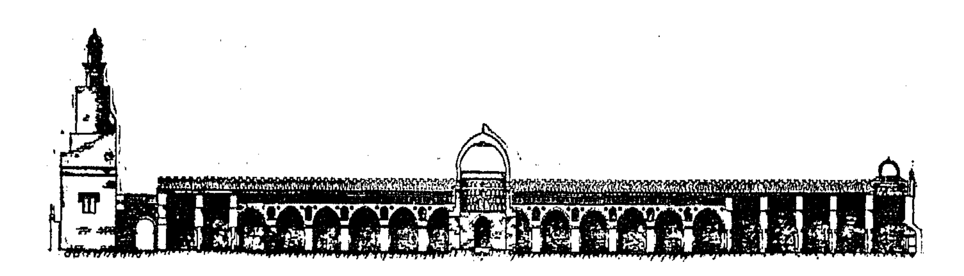
* * *

واستمر المسجد الجامع فى أداء رسالته الدينية ، وتكاثر الدعاة فى حلقاته ، وتزايد المريدون .. ولم يكن بينهم مصرى واحد ، بل كان « الطـلاب » من جيش المعـز نفسه ، وقد أحبوا أن يزدادوا معرفة بالامامية .. فيتعاظم ايمانهم بالأئمة الطاهرين، ويكونوا بعد ذلك عونا وألسنة ناطقة بأمجاد الامام الحالى المعز لدين الله ..

وحصر المعز كل اهتمامه بالدين والدعوة فى مسجده الكبير .. ولم يظهر من ناحيته أي اهتمام بغيره من المساجد.. واكتفى بأن يظل مسجده هو المسجد الرسمى للدولة.. حتى الجامع العتيق فى الفسطاط ، لم يفكر فى زيارته أو الصلاة فيه ، لأن سياسته كانت سياسة التعالى والتفرد والبعد عن الناس ، اكتسابا للقداسة التى كان يتطلبها مركزه الدينى للدعوة ، باعتباره « اماما » قبل أن يكون أميرا للمؤمنين .. وللامام فى صلب الدعوة اعتباره الدينى ومكانته العالية ، التى تتقارب ودرجة الألوهيـة فى نظر الفاطميين ! !

وعلى هـذا النحو .. واعتمادا على التخصص الذى أراده المعز لمسجد القـاهرة الجامع — أصبح هـذا الاخير بالنسبة للمصريين ، وبالنسـبة لجامع عمرو نفسـه هو « مسجد ضرار » !!

وكانت هـذه الاشارة وحدها كافيـة لصرف النـاس عنه الى الفسطاط .. الى الجامع العتيق ..



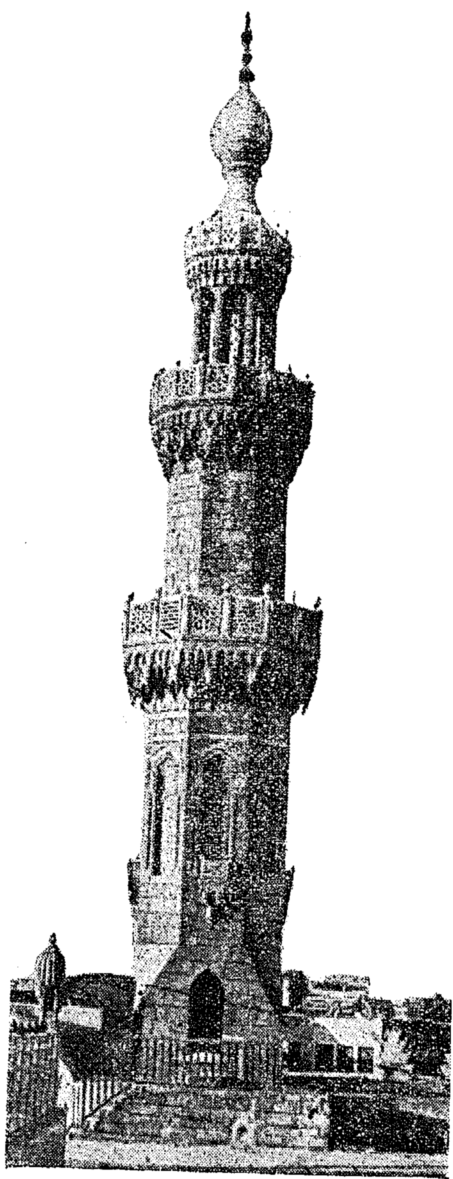
قطاع رأسى بالريشة لجامع أحمد بن طولون

مسجد الجيوشى

انشا هذا الجامع الوزير الفاطمى بدرالدين الجمالى امير الجيوش سنة ٤٧٨ هـ ، ١٠٨٥ م على قمة جبل المقطم ، وفيه مئذنة تعتبر من اقدم المآذن الفاطمية .

يشرف هذا الجامع على القاهرة كلها ، وهو رغم صغر مساحته ذو اهمية عمارية .

الأزهر



« مئذنة الطنبغا الماردانى »

عندما هرب اليهودى الحاقد يعقوب بن كلس من مصر ، حتى لا يظفر به أعداؤه فى بلاط كافور الاخشيدى ، ووصل الى المغرب مركزالدعوةالفاطمية ، ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت من قدره ، لم يكن يبغى الا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية الى مصر وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانته ، فيصبح من المقدمين فى الدولة الجديدة ..

ودخل المعز مصر فاتحا .. ووطد فيها دعائم خلافته ، وفشل فى تثبيت امامته.. وبقي يعقوب حيث هو .. مقربا عزيزا ولكن بلا عمل ..

ومات المعز .. وجاء ابنه العزيز من بعده اماما للدعوة ، وخليفة على البلاد .. وجاء معه فى مكان الصدارة والقيادة يعقوب بن كلس فظفر ببغيته ونال أبعد مما كان يريد

لقد وجد اليهودى الطامع فى الدعوة الامامية بغيته .. وكان نطقه بالشهادتين يوم أشهر اسلامه ، معبرا الى التمكن والسيادة ، ووسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة .. حتى لقد تمكن ، وهو حديث العهد بالدين والدعوة ، من وضع مصنفات فى فقه الشيعة ، وشتى أهدافها السرية التى لا يصل الى معرفتها والعلم بها غير أصحاب الحظوة من المقدمين القريبين من الامام !!

لقد حالت بعض الظروف المذهبية الخاصة دون يعقوب والظهور فى حلبة الحكم أيام المعز .. وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه ، بل تصاغر وتراجع واعتزل،

واعتبر تلك الفترة فترة استجمام ورغبة فى الاستفادة الـكلية من ذلك الاعتزاز بأن راح ينقب ويبحث ويدرس ..

واستطاع يعقوب فى عزلته تلك أن يدرس اتجاهات الحكم الفاطمى الجديد وأسسه ، ويعرف مرامى خططه الهـادفة الى تعميم المذهب ونشر الدعوة .. ليضـع على ضوئها خططا وبرامج يقوم هـو على تنفيذها اذا ماواتته الفرصة ذات يوم وأصبح من أهل الحل والربط فى البلاد ..

فلما دانت الفرصة للرجل .. ووصل الى بغيته ، وتحققت أمانيه ، وتقـدم الرجال فى زمن العزيز بالله ، راح يستلهم تجاريب المـاضى فى تعبيـد المستقبل .. ورجع الى خططه القديمة التى لم تخرج فى مجموعها عن ضرورة تعزيزأداة الحكم ودعم الصلة بين الامام وشعبه الجديد ..

انه يريد ان يفرق بين شخصيتين .. أولهما تولت ، والثانية أمامها المستقبل ، هى شخصية العزيز ، عليه أن يقدمها للشعب فى صورة جديدة ومحبوبة ..

لقد كان المعز لدين الله رجل طقوس دينية غريبة ، والغاز وغموض واطلاق شائعات عن الربوبية والقدرة والصعود الى السماء والحياة بين السحب !!

وهى أمور ان كان أهل المغرب قد آمنوا بها وارتضوها وسجدوا لصاحبها القـادر المقتدر .. فانها أحدثت بين عامة شعب مصر تأثيرا عكسيا ، جعل الناس ينصرفون عن الخليفة الاله ويجدون فى الابتعاد عن مجالسه مغنما وحفاظا لأصول الدين .

هذه الشخصية القاتمة المخيفة ، أحب يعقوب أن يجلوها للشعب ، وأن يصل بينها وبينه بروابط من البساطة تحفظ علىالامامهيبته المذهبية ، ومكانته الدينيةالخطيرة .. وفى نفس الوقت تقربه الى قلوب الشعب ..

❋ ❋ ❋

وبدأ أبو الفرج يعقوب بن كلس خطته ، بأن فكر فى تغيير بعض الشكليـات حتى يشعر الشعب بأن ثمة تغييرا شاملا فى طريقه الى الظهور ، وهذه طلائعه فعلا ..

ورأى الرجل أن يغير أول مايغير اسم مسجد القـاهرة ، لان تخصيصه للعاصمة وحدها واطلاق اسمها عليه يجعله محدود الرسالة ..

وأحب يعقوب أن يطلق علىالمسجد الجامعاسما محببا الىالعامةوالخاصة علىالسواء .. وكان أن اختار له اسم « الجامع الأزهر » !!

وقصد ابن كلس من هذه التسمية أن يصيب هدفين ويرضى طائفتين ، « فالأزهر » فى عرف العـامة وشتى طبقات الشعب منسوب الى الزهراء البتول ، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاطمـة » الأثيرة المحبوبة ، زوج الامام الأكبر على المرتضى ، وأم

الامامين : الحســن المجتبى ، والحســين الشهيد ؛ وجدة الامام على زين العابدين السجاد ؛ ثم جـدة الائمة الطاهرين آباء العزيز وأجداده !!

و « الأزهر » فى عرف الخاصة وعلى رأسهم الامام العزيز بالله ، منسوب الى «القصور الزاهرة » التى كان يسكنها الامام ، ويحيا فى مغانيها حياة الترف والبذخ.. وان فى انتساب المسجد اليها ما يصل بينه والقصور من ناحية السياسة والمذهب ، وما يؤكد لساكن هذه القصور وصاحبها أنه هو المتحكم فى سياسة المسجد التقليدية الخطيرة التى سوف تسترها مخادعات وادعاءات ذات لون جديد ...

ولم يكد يعقوب يسر برغبته هذه الى سيده ، شارحا له سياسته وأهدافه من التغيير البسيط .. حتى أقره العزيز عليها وباركها ..

وهـكذا أصبح اسم مسجد القاهرة الجامع الذى بنـاه جوهر القـائد هو « الجامع الأزهر » ..!

وكما لقيت هذه التسمية الجديدة هوى فى نفوس الخاصة ، كذلك كان وقعهـا طيبا فى نفوس عامة الشعب ، اذ أثارت كوامن الذكريات وهيجت حب الناس وتحنانهم الى أهل البيت ، وخاصة فاطمة الزهراء ـ أحب خلق الله الى رسول الله ..

وبقيت بعد هـذه الخطوة التمهيدية الأولى ، الخطوة العملية الثانية ، وهى فتح باب الأزهر نفسه للجميع على السواء دون تمييز عنصرى أو طبقى ..

لقد رأى أبو الفرج يعقوب أن الخطة التى اتبعها المعز لدين الله بجعل مسجده الجامع مدرسـة خاصة بفئة معينة من أهل المغرب الذين جاءوا معـه ليدرسوا أسرار المذهب الفاطمى ، خطة قد استنفذت أغراضها وأصبحت مع مطلع العهد الجديد وولاية الخليفة الجديد ، غير ذات موضوع . ذلك لان الخاصة قد تعلموا » وتفقهوا.. ثم ولما لم تكن قد أعدت لهم ميادين نشاط ومجال عمل مثمر ومفيد ، فقد تعطلوا وتكاثرت جموعهم . وكان من المؤسف أن تقف جهودهم عند حدود الانتظار ..

لقد كان من واجب الامام ومستشاريه اذن ، أن يجد عملا لهؤلاء الدعاة .. ولكن الحذر كان يتحكم فى مفكرى الدولة الجديدة ، وكان ينقصهم جرىء يرتب الأمر ويعـد العدة للهجوم الفكرى المنتظر فى صورة منظمة لا تثير ريبة ولا شكا ولا امتعاضا ، ولا تبعد الناس عن الفاطميين كما حدث وأبعدتهم من قبل ..

ووضع أبوالفرج خطته ، وأعد العدة للكتائب كى تتحرك وتنفذ فى شتى الطبقات .. فبـدأ بازالة الفوارق التى أسدلهـا المعز .. ورفع عن الأزهر حجاب التخصيص الذى أقامه ، ليشعر الناس جميعا أن المسجد لهم دون تمييز ..

وفتحت الأبواب .. وأعدت مجالس العلم للجميع .. وكان فى اباحتها هذه تشجيع لكثيرين من مثقفى الشعب كى يرتادوها فى يسر وينهلوا من مواردها فى سماحة ..

واتسعت الحلقات .. وكثر الرواد .. ووفدت على الجامع الأزهر وفود من شتى الطبقات

والاجناس لتتثقف وتتعلم.. فوجد الدعاة عملا .. ووجدت الشريعة الفاطمية طريقا ممهدا لظهورها وانتشارها بين الجميع ..

ورأى الداهية الحصيف بعد ذلك أن هذه الحلقات يجب أن ترتبط بسياسة توجيهية ثابتة ، ونظم مدعمة تربط المدرسين والعلماء بنظام خاص ، فكان أن قرر لهم رواتب ثابتة وحقوقا معلومة ، تضمن حضورهم ومداومة مدارستهم وتثقيفهم للناس ، وتكفيهم مؤونة البحث عن الرزق فى مكان آخر ..

وانتشرت فى طول البلاد وعرضها ، بل فى كثير من الاقطار المجاورة المستظلة بالراية الفاطمية ، شائعة تقول أنه قد أفردت بالجامع الازهر دراسات تثقيفية لاعداد طائفة من الدعاة المتنورين وأصحاب الرأي والمكانة العلمية .. وان الدولة قد كفلت لهم الارزاق أثناء الدراسة ، وبعدها ..

وكان مجرد اجراء الرواتب على الدعاة والمتحدثين من العلماء كافيا وحده لان يخلق طبقة من الراغبين فى أن يكون لهم مثل هذا الحق .. ومن هنا كثرت طائفة الطلاب الذين يمموا وجوههم شطر الازهر للدراسة والبحث ..

وأصبح من الضرورى أمام هذا الاقبال المنقطع النظير على الأزهر ، أن يفكر المسئولون فى انشاء « أروقة » متعددة بصحنه الفسيح ، تكون بمثابة منازل لجموع هؤلاء الطلاب الوافدين عليه من كل البقاع ـ قريبها والبعيد ـ وأن تخصص لكل فئة منهم أروقة وايوانات خاصة بهم ، فلا يحسون اغترابا ولا لوعة ، ويشعرون بأنهم يعيشون فى قطعة حية من بلادهم التى تركوها فى سبيل العلم ..

❋ ❋ ❋

لقد أراد رءوس الفاطميين أن يكون الجامع الازهر مقر دعوتهم المذهبية. وعلى هذا الأساس وضع يعقوب بن كلس خطته مع المسئولين.. ولكن الأزهر أصبح شبه جامعة غصت بالطلاب .. الذين كان الواجب ـ تمشيا مع الخطة التى رسمها يعقوب ـ يقضى بحسن اختيارهم أولا لدراسة المذهب السرى ..

ومن هنا سنت القوانين ، ورتبت المجالس .. وروعى فيها اختيار طبقات الطلاب ومدى استعدادهم للفهم وتقبل المذهب الجديد ..

ولكن المصريين أقبلوا على الدراسة العامة .. وانصرفوا عن البحث فى الدراسات الخاصة المذهبية التى توفر عليها الطلاب من البلاد البعيدة ، كالمغرب وفارس وغيرها .

وهكذا تحولت الانظار الى القاهرة المعزية .. وأصبح جامعها الازهر العظيم قبلة العلماء وطلاب المعرفة من شتى البقاع الاسلامية ، فكثرت الحلقات فى صحنه وأروقته ، وعظم خطرها .. وبدأت تعد العقول والافهام لدور خطير من أدوار الرقى العقلى فى عصر زاهر من أرقى وأزهى عصور الاسلام ..

ولما كان العزيز بالله سخيا بطبعه كريما بفطرته ، فقد وجه الى طلاب العلم وأساتذتهم

جل اهتمامه ، فكان اذا حل «الأضحى» مثلا بعث اليهم «الأضــاحى» ، ليحسوا بفرحة العيد وجميل الرعاية الخليفيــة ، التى كانت تتعــداهم ــ بعد أن ينــالوا كفايتهم ــ الى الغير من فقراء الشعب ..

ورأى العزيز بالله أن سياسة « فتح الأبواب » هى خير ما يجـذب الناس اليه والى خلافته .. ولما كانت سياســة فتح أبواب الجامع الازهر قد آتت أكلها وأثمرت ، فقد رأى أن يفتح مزيدا من الأبواب التى تقرب بين وجهات النظر ، وتجمع الناس كلهم على شيء واحد ، وتشعرهم بالحب والمساواة وزوال نظام الطبقات .. فكان أن أوحى لكبار رجاله بأن يفتحوا للشعب أبوابهم .. وأن يقووا صلاتهم بالأفراد ..

وكان يعقوب بن كلس وراء هذه الحركة الأخيرة .. وكان هوأول منفتح أبواب بيته للناس ومد لهم موائده العامرة .. ثم ساقهم عن رغبةوحب الى «المناظرات الفقهية» و « المجادلات المذهبية » .. وقرأ عليهم آخر ما كتب فى فقه الشيعة وأصول الدعوة !

وعلى هذه الصورة من صور التطور فى أساليبالحكم والفكر ، أصبحت القاهرة دار دعاية فاطمية مركزها الجامع الازهر ، ودعاتها أســاتذته وعلماؤه ، و « الأغراب » من طلابه بصفة خاصة ، اذ أهلهم عدم الاستقرار وانعدام الرخاء فى بلادهم الى تقبل كل غريب فيه ثورة .. أى ثورة ، حتى ولو كانت على الافكار المتوارثة

* * *

ولم يرد يعقوب بن كلس ، وقد حولشتى مجال النشاط الدينى والفكرى الى الجامع الازهر ، أن يقال عن امامه وسيده ومولاه العزيز : انه اتبع سياسة تحويل الناس الى مسجده الرسمى ، حتى لقد أهمل مساجد أخرى لها خطرها وماضيها ، وأهمها جامع عمرو بن العاص ، فوجه اليه بعض العناية الفاطميه ..

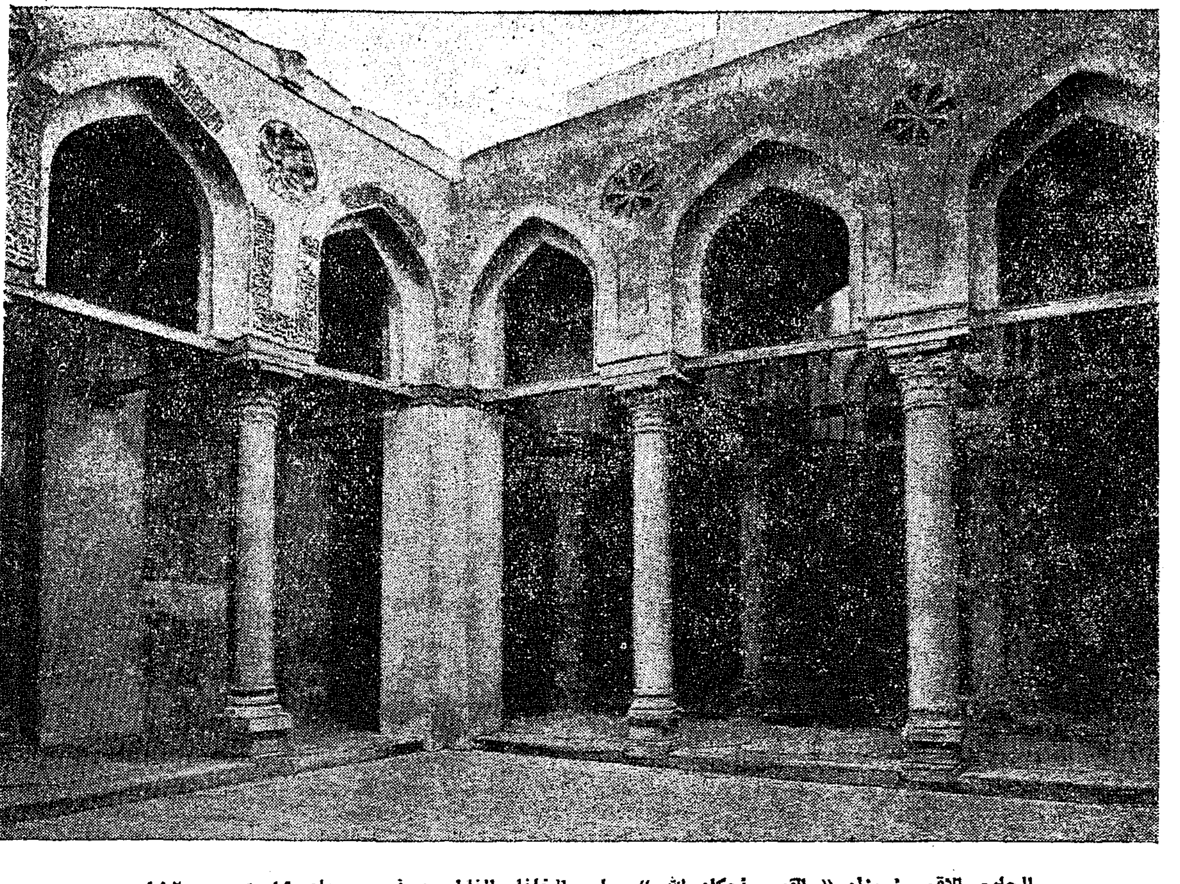
كان الفاطميون يذكرون أن جامع عمرو هو أول مسجـد جامع أنشىء فى مصر .. وأنه أول مسجد استقبلهم عند قدومهم .. وفيهأقيمت أولصلاة جامعة مذهبية ، فاجأ جوهر القائد الناس فيها ببعض مبادىء المذهب الفاطمى ..

لهــذا .. ولمكانة جامع عمرو فى النفوس .. اتجهت الخلافة اليه ببعض اهتمامهــا المعمارى الذى أرادت من ورائه أن تسترشتى مجالى نشاطها ..

وبأمر العزيز بالله الفاطمى ، ذهب أبو الفرج يعقوب بنكلس الىجامع عمرو ، ليرى ماذا يمكن أن يزيد فيه أو ينشئه الفاطميون من عمارة ..

كان المسجد على حاله من الجلال والروعة ، فسيحا رحبــا ، متعدد الأعمدة ، كثــير الابهاء . واسع الصحن .. تأخذ روعته بمجامع القــلوب » وقد أكسبته الزيادات المتعددة فخامة وأبهة ، حتى لقد حار ابنكلس ، لانه لم يجد فيه مكانا لجديد !

ولكن ابن كلس كان يريد أن ينشىء فىجامع عمرو ما يخلد به ذكر سيده وذكره هو الآخر الى جانب امامه العظيم ..



الجامع الاقمر : بناه « الآمر بأحكام الله » سابع الخلفاء الفاطميين فى مصر عام ٥١٩هـ ـ ١١٢٥م . اشتهر بتناسب أجزائه وكثرة زخارفه ـ جدده الوزير يلبغا السالمى فى عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٦م وقد ظل هذا الجامع محافظا على بعض سيمات فاطمية تتجلى فيه ...

ولم تطل الحيرة بأبى الفرج .. اذ اهتدى الى عمارة جديدة .. ان لم تكن ستضيف الى المسجد الجامع جديدا فانهاستكون ذات جمال وروعة كفيلين بتخليد الذكرى لمنشئها ..

لقد رأى يعقوب أن يقيم تحت قبة بيت المال « فوارة » ..

انها شيءجديد بالنسبة للجامع العتيق .. وستكونملفتة للنظربصورة واضحةجلية

وتم بناء « الفوارة » الفخمة ذات الشكل الهندسى البديع .. ثم رأى يعقوب بعد ذلك أن يتغالى فى تنميقها ، فزاد الاسقف الخشبية المحيطة بها والتى تعلوها . وكلف المقدسى الاطروش ان يقوم بهذا العمل وان يشرف على اتمامه ..

ولما كان للمقدسى خبرة بهذا اللون من الفن ، اكتسبها من تجاريبه السابقة فى بيت المقدس ــ فقد جاءت «المساقف» تحفة فنية رائعة .. وصارت «الفوارة» بعد ذلك معدة للاستعمال ووضعت فيها « آلجرار » الرخامية المليئة بالماء ، لتكون مشربا للمطشى ..

وهكذا استطاع يعقوب بن كلس بهذا العملالعمارى المتواضع ، أن يوجه الى امامه والى نفسه الأنظار ، وأن يزيد أعجاب الناس بشخصه فجعلهم يتحدثون عنه وعن جهوده الموفقة التى قربت بين الخليفة والناس ..

ولم يكد العزيز بالله يفرغ من اتمام هذه الخطوة التى أظهرت اهتمامه بجامع عمرو ــ حتى ولى وجهه ثانية شطر الجامع الأزهر ، وقد أحب أن يزيد فى تبعاته العامة تبعة أخرى ، تزيد الرابطة بين الخلافة والشعب قوة ، وتجعل من هذا الجامع العظيم ، فوق كونه مقرا للدعوة فى لبها ــ مكانا لاحتفالات دينية خطيرة الشأن ، ترتبط بمناسبات مرموقة لها أثرها فى كيان «الفاطميين» وفى نفوس الشعب ذاته .. وأهمها بل وأولها الاحتفال بالمولد النبوى ..

* * *

وسرت فى الشعب هزة عارمة من هزات الفرح ، اذ سيقدر لهم أن يحتفلوا بمولد الرسول .. ورأوا فى هذه السنة الجديدة التى استنتها الفاطميون ، دليل خير جديد ، يقرب بين الشعب والحاكم العزيز بالله الذى عرف كيف يجذب الشعب اليه ، وكيف يثير فى نفسه أقدس الذكريات وأجملها !!

ان الاحتفال بذكرى مولد سيد الخلق ، محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، أمر لم يكن معروفا فى العالم الاسلامى قبل الخلافة الفاطمية .. ولا شك أن استنانهم له يقوى من مركزهم الدينى ، ويعطيهم صفة حبيبة مقربة الى شتى القلوب .. فوق ما فى الاحتفال من فوائد جمة وأثر جليل يجنيه الناس فى العبرة بالماضى العظيم، حين يستذكرون حياة رسول الله وما حفلت به من جهاد شريف ومثل عليا وقدوة حسنة ، لتكون نبراسا لأمته ، وهدى للمسلمين على كر العصور !!

واستن العزيز بالله تقاليد الاحتفالبالذكرىالعطرة.. ورأى أنيبدأ فىاليوم المتعارف

عليه ، وهو الثانى عشر من ربيع الاول ـ بعد صلاة العصر مباشرة ، فيخرج الموكب متجها الى الجامع الازهر ـ وعلى رأسه القاضى .. وما أن يصل الى هناك حتى يأخذ رجال الدولة مجلسهم التقليدى فى صحن الازهر حول القراء الذين يأخذون فى ترتيل آيات الذكر الحكيم ..

ويامر العزيز بالله ، وقد انتظم الجمع فى المسجد الجامع ـ بأن توزع عليهم الحلوى الخليفية الفاخرة .. فيأكلون منها ما يأكلون ، ويحملون مايستطيعون حمله الى بيوتهم ليشعر أولادهم وأهلهم بنفس الفرحة التى أحسوا بها هم ، ويلمسوا كرم الخليفة الامام العزيز فى مناسبة الاحتفال بذكرى مولد جده العظيم» أبى الزهراء البتول!!

وبعد أن تتم قراءة القرآن والتهام الحلوى ، يصطف الموكب ثانية ليخرج من الجامع الازهر الى دار الخلافة ، وفيه القاضى الاكبر ، وداعى الدعاة ، والقراء ، والخطباء .. فيقفون تحت «المنظرة» الخليفية ، حيث يجلس العزيز وخاصته .. فتفتح احدى النوافذ باذنه ويهل على الموكب ومن فيه بطلعته ، فى اللحظة التى يخرج فيها أحد رجاله ، يده من النافذة ، مشيرا الى الحشود المتراصه بأن مولاهم السعيد بولائهم ، يرد عليهم التحية والسلام !

ولما كان الجامع الازهر مكانا للاحتفال بذكرى المولد النبوى ، فانه أيضا أصبح كعبة الشعب فى احتفالاته الموسمية المتعددة التى ابتكرها الفاطميون ومنها « ليالى الوفود الاربع » وهى : مطلع هلالى رجب وشعبان ، ومنتصف كل منهما ..

وكانت كلما أهلت مناسبة من هذه المناسبات امتلأت الطرقبالناس وذهبت الجموع الى الازهر الذى يضاء بالمشاعل على واجهته ومداخله وصحنه والطرق المؤدية اليه.. « وتوضع حول صحنه التنانير والقناديل والشموع والاطعمة والحلوى والبخور فى مجامر من الذهب والفضة .. ويطاف بها على الحضور ، وفيهم قاضى القضاة وشهوده ووجوه البلاد ، حيث تقدم لهم سلال الحلوى والطعام . ويبدأ القراء والمنشدون قراءاتهم وأناشيدهم ويستمرون فىسمرهم واحتفالهم هذا حتى منتصفالليل.» (١)

وكما حظى الازهر بمكان الصدارة فى هذه المناسبات الموسمية ، فكذلك كان حاله فى أيام رمضان ـ فقد كره العزيز بالله الاسراف فى احتفالات مواكب الرؤيا وغيرها ـ واستن سنة خروج الخليفة لصلاة الجمعة فى الازهر كتقليد واجب الاتباع فى البلاد .

« واعتاد العزيز بالله أن يخرج فى موكبه العظيم لصلاة الجمعة فى الجامع الازهر من باب الذهب ، وعلى رأسه المظلة وهو فى ثياب حريرية بيضاء بسيطة ، فيعبر الدروب السبعة الى رحبة الجامع ، وحواليه الجند و « الركابية » .. ويدخل من الباب البحرى مجتازا ممرا صغيرا الى القاعة المغلقة الخاصة به ..

« ويقرأ المقرئون .. وتفتح أبواب الجامع حينئذ للناس بعد غلقها ووضع الحجاب

---

(١) المقريزى

عليها قبل مقدم الخليفة ، وتتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله ..

« ويأتى صاحب بيت المال وبين يديه الفرش الخاص بالخليفة بأيدى الفراشين المميزين ، ملفوفا فى « العراضى الديبقية » فيفرش فى المحراب ثلاث « طراحات » فاخرات واحدة فوق الأخرى .. ويعلق ستران يمنة ويسرة مكتوب على أولهما بالحرير الاحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، وفى الستر الثانى سورة المنافقين كتابة واضحة.

« **فاذا حان وقت الصلاة أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة وعندئذ يصعد قاضى القضاة الى المنبر ، وفى يده مدخنة لطيفة من الخيزران يقدمها صاحب بيت المال وفيها ند خاص بالخليفة ويبخر بها أعلا المنبر وهو يقبل درجاته ثم يدخل مقصورة الخليفة مسلما بقوله « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ، ورحمة الله وبركاته .. الصلاة يرحمك الله .. »**

« فيخرج الخليفة وحوله الاساتذة المحنكون والوزراء والامراء والحرس المسلح ويصعد الى أعلا المنبر ووجهه اليه ، فاذا جلس أشار الى الوزير بالصعود فيصعد اليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ثم تزر القبة حتى تصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلا الخليفة ويقف ضابطا المنبر ..

« وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الانشاء . فيها آية من القرآن الكريم ثم يصلى على أبيه على بن أبى طالب وجده النبى عليه الصلاة والسلام ويعظ الناس وعظا بليغا موجزا ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل الى نفسه فيتوسل بدعوات تليق به ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ثم يختم بقوله « أذكروا الله يذكركم ... » فيصعد اليه الوزير ويفك ازار القبة ويعود القهقرى وينزل الخليفة ويقف للصلاة فوق الطراحات المذكورة فى المحراب وحده اماما ، وخلفه الوزير والقاضى ، ومن ورائهما الاساتذة والامراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ..

« فاذا سمع الوزير ، أسمع القاضى ، وأسمع القاضى المؤذنين ، فأسمعوا الناس ، ويقرأ الخليفة فى الركعة الاولى ما هو مكتوب على الستر الايمن وفى الركعة الثانية ماهو مكتوب على الستر الأيسر .. فاذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تباعا .. ثم يعود الخليفة بموكبه الى القصر والبوقات تضرب ذهابا وايابا » (١) ..

* * *

وهكذا .. بتغيير اسم جامع القاهرة الى الجامع «الأزهر» ، وبفتح أبواب «الأزهر» لشتى طبقات الشعب ، واباحة الجلوس الى حلقات الدرس فى صحنه ..

وبهذه السلسلة من الاحتفالات الموسمية زاد التقارب بين الشعب والامام العزيز ،

---

(١) **المقريزى**

وقويت بينهما الصلة وأصبح من السهل الهين ، أن تنفـــذ مع ذلك الود ومضـــات من الرسالة الغامضة .. فتستقر فى أحناء القلوب ..

ومع ذلك ..

هل اكتفى العزيز بهذا ؟! أم تراه كان يطلب المزيد ! !

لئن قيل ان الدعاية المذهبية فى مصر قد وجدت الجو الصالح لتنمو بعض الشىء ، مما أسعد أمير المؤمنين وأقر عينيه ، فان مايقال عن يعقوب بن كلس كان العكس تماما ..

لقد كان اليهودى القديم الذى تظاهر بالاسلام ووجد فيه متنفسه وذريعته الى المطامع مازال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم : « لتجدن أشــد النـــاس عداوة للذين آمنوا اليهود » ! !

ومن المؤسف أن الرجل وجد سلاحه البتار فى الدعوة الغامضة ، فأراد أن يشحذه .. وأن يوجهه الى أهداف أقرب ، ليصيب ويدمى ويقتــل .. ويشفى غليل العــداوة من المسلمين الذين آووه وأكرموه !

كان ـ يعقوب الداهية ـ هو من أشار باتباع سياسة التقرب تلك .. وقد نجحت خطته نجاحا أكبر مما توقع !!

وانه اليوم ليوحى بضرورة اتباع سياسة جديدة أخرى ، يشــد بهـــا أزر الجامع الازهر ويعينه على أداء الرسالة ويهبه مزيدا من القوة والتقدم . وذلك بانشاء مسجد جامع جديد ، يطلق عليه اسم جامع العزيز بالله .. ويكون دارا خاصة يدرس فيهـــا نوابغ طلاب المعرفة الفاطميــة أسرار الدعوة ، ويرقون فى مدارجهـــا السرية الى أعلا المراتب والدرجات ..

***

وكما راقت أفكار أبى الفرج لسيده العزيز مرات ومرات سابقة من قبل ، فانه لم يكد يسمع منه مشروع اقامة المسجد الجامع الجديد ، حتى سارع بالموافقـــة وطالب بالاسراع فى التنفيذ ..

واستطاع أبو الفرج فى يسر أن يجــد مكان الجامع الجـــديد .. وسرعان ما اعدت خطوط بنائه وشتى صفاته وهيئته ..

ولما كان المال موفورا والصناع على قدم الاستعداد للعمل ، فقد بدأ العزيز فى اقامة معالم مسجده العظيم ..

وسار العمل فى همة ونشاط .. وارتفعت الجدران ، وكان ارتفاعها مثار أحاديث الناس واعجابهم بهؤلاء الفاطميين الذين وفدوا على مصر فاتحين بانين ، جالبين معهم كل غريب وطريف ..

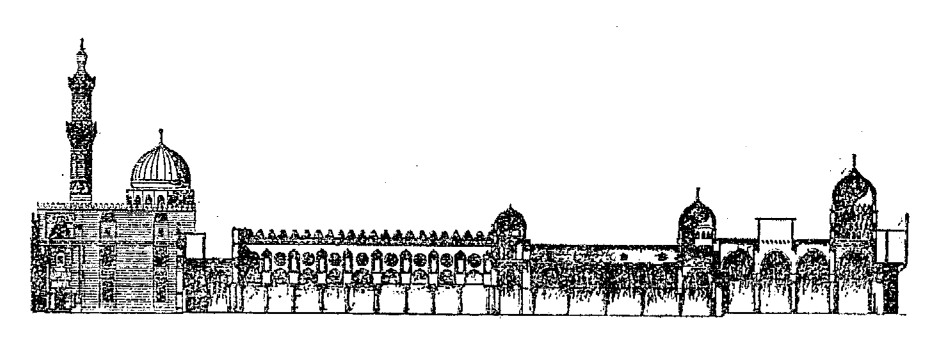
وكاد المسجد الجديد يستكمل وجوده ، حين فوجيء الناس ذات صباح بنبأ مثير !

لقد قيل ان أبا الفرج يعقوب بن كلس قد مات !! وطويت صحائف أعماله وأصبح فى ذمة التاريخ ! !

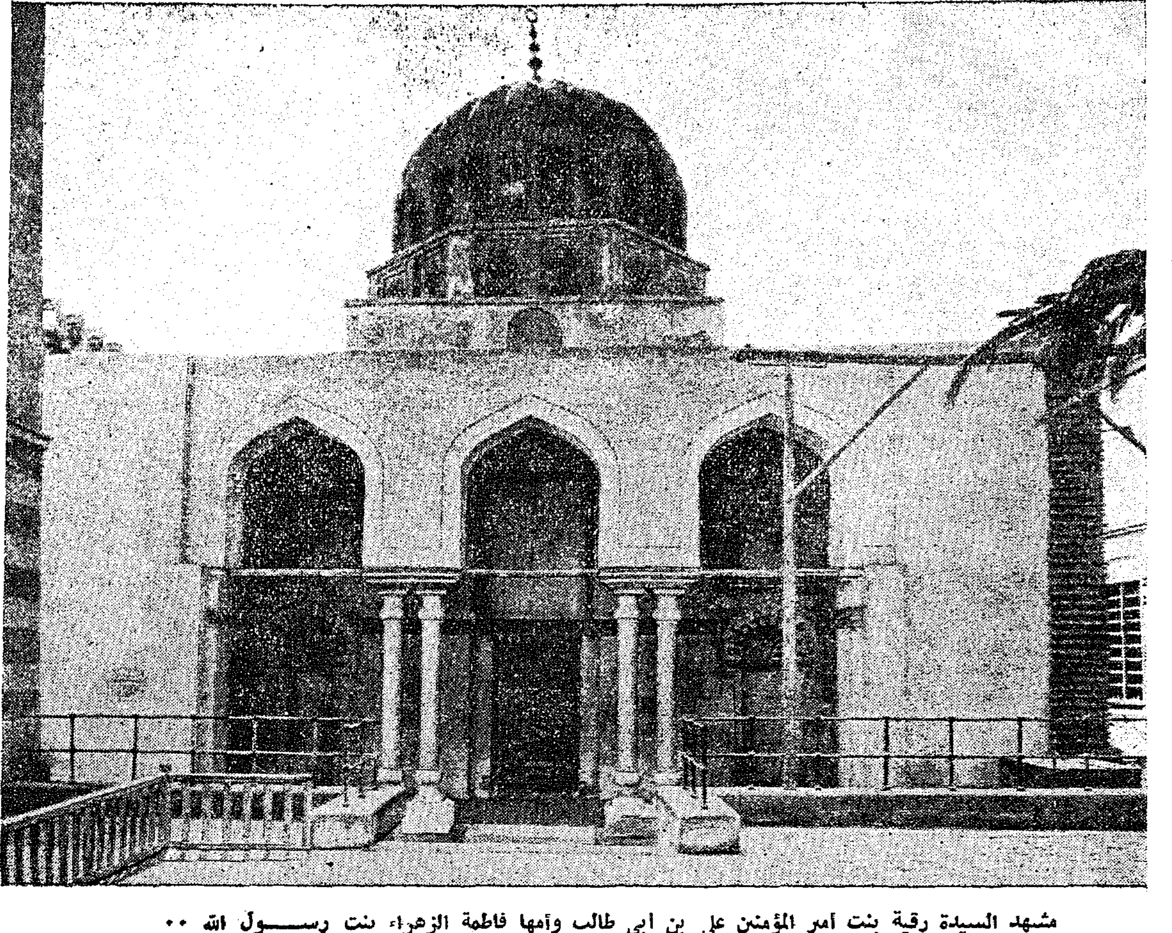
فتوقف العمل فى المسجد بعض الشيء .. وعم البلاد حزن شامل ! !

وكان العزيز بالله أشد الناس حزنا على داعيته ووزيره ومشيره وساعده الايمن ، فلم يكد يعود الى قصره بعد أن واراه التراب ، حتى احتجب واعتزل شئون الحكم .. فكان لايرى أحدا ولا يراه أحد طوال ثلاثة أيام !!

ومر الزمن .. بل مرت أيام قلائل ، وكأنى بالقدر عندما ربط بين الرجلين فى ميادين الجهاد والعمل ، أراد أن يربط بينهما الى الأبد ، فكان موت يعقوب يحمل فى طياته نذير موت العزيز بالله ، الذى قضى هو الآخر وهو فى مدينة بلبيس ، وحمل جثمانه الى القاهرة .. ونودى بولده ووريثه خليفة للمسلمين واماما للدعوة باسم « الحاكم بأمر الله » ..



« قطاع رأسى للجامع الأزهر »



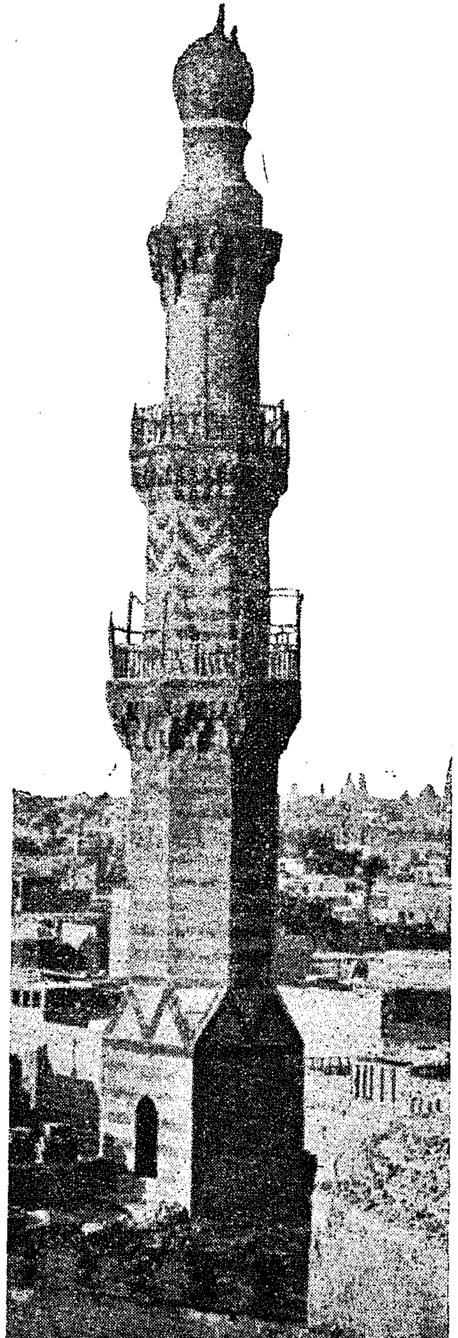
مشهد السيدة رقية بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمها فاطمة الزهراء بنت رسول الله ..
انشيء عام ٥٢٧ هـ ، ١١٣٣ م أيام الحافظ لدين الله ثامن الخلفاء الفاطميين بمصر ..

مسجد وجامعة

دعت الظروف ، لصغر سن أبى على المنصور الذى نودى به أميرا للمؤمنين باسم « الحاكم بأمر الله » ـ الى أن يوضع تحت وصاية أستاذ الدولة « برجوان المغربى » ، الذى راح يباشر شئون الحكم وتبعات الامامة نيابة عن الخليفة الصغير المرهف الحس ، الشديد الذكاء .. الذى لم يمنعه صغر سنه عن تعرف دقائق الامور فى دولته المترامية الأطراف .. وغوامض أسرار الدعوة التى نودى به اماما لها ..

وقد كان مجرد احساس الحاكم بأمر الله ، بأنه أصبح اماما للدعوة .. وأن الامام له العصمة ، وله السلطة النافذة على الأرواح قبل الاجساد ـ كان هذا كافيا لأن يضيف الى سنه أعواما ، تشعره بكثير من الاحساس بالجبروت والفتوة والجلال ، وتدفع به الى محاولة الاستزادة من ذلك المنهل المقدس ، الذى علا به فوق رقاب البشر ووصل به الى مرتبة .. كان آباؤه يخافون أن يقولوا أنها مرتبة الاله !

وهكذا قضى الامام الصغير سنى الوصاية عليه فى دراسة الرموز ، ومحاولة اكتساب خبرة ومقدرة .. فلم يكن الوريث العابث ، ولا الشاب الماجن ، بل كان رغم صغره .. الامام الخطير ، الذى يعد نفسه لتحمل التبعات الجسام ..


« مئذنة الامير صرغتمش »

ولقد كان جميلا من « برجوان » خلال وصايته على سيده الحاكم بأمر الله ، أن يوجه عنايته الانشائية أول مايوجهها ـ لا الى الازهر مسجد الامامة الرسمى ومستقر

نشاطها العظيم وموجهه ؟! ولا الى اتمام المسجد الجامع الذى بدأه مولاه العزيز بالله ومات قبل أن يتمـه ؟! ـ بل وجههـا الىمسجد آخر ٠٠هو مسجد الفسطاط العتيق المنسـوب الى الصحابى الجليل عمـرو بنالعاص ٠ ٠

وراح «برجوان» الذكى يجدد فى جامع عمرو باسم سيده وامامه الحاكم بأمر الله ، فأمر بطلاء جدرانه كلها وتجديدها .. وخلع بعض « الفسيفساء » التى كانت تزين جدران بعض أروقة المسجد ، وغطى مكانها بالطلاء ، استكمالا للوحدة التى أرادها فى تزيين المسجد بهذا التجديد ..

ثم اتجه الى تجميل أبواب المسجد الخمسة الشرقية ، فأصلحهـا وطلاها ، وجدد ماكان فى حاجة الى التجديد ٠٠ ثم أعد خمسـة ألواح ، نقشت كلها وزخرفت وطليت بالذهب ، وزينت بها الابواب الخمسة المذكورة ..

ولم تفت برجوان فرصة اشباع غروره ٠٠ فكان أن نقش اسمه على هذه الالواح الخمسة المذهبة تخليدا لذكراه فى هـذا الأثر الجليـل واشارة الى مافعل فيـه من تجديد وتجميل ٠٠

وكان الخليفة الصغير ، ينظر الى أعمال وصيه فى صمت ، وكأنما غر العبـد بعـد هذا سكوت سيده الصـغير وتغاضيه على الكثير من تصرفاته ، فاشـتط ، وتطاول وتمادى فى تنفيذ رغباته دون أن يقيم وزنا لولى الامر ولا للرعية ٠٠

ولما بلغ به الطمع مداه ٠٠ كان الامام أمير المؤمنين اليقظ العارف أسرار وصيه قد أعد عدته للتخلص منه ٠٠

وما هى الا أيام حتى ذهب الوصى ضحية تطاوله وأطماعه ٠٠

وترك المسرح خاليـا من كل الشخوص ، الا سـيده وصاحبه ومالكه امام الدعوة الخطير ، الحاكم بأمر الله الفـاطمى ثالث ثلاثة حكموا مصر ، أولهم بالغموض والرهبوت والثانى بالسماحة فى مراعاة رغبات الشعب ..

ولم يكد الامام الشاب ينفرد بالسلطان والحكم وحده ، حتى شغله الفكر واحتواه الصمت ، كمن راح يسترجع الماضى ليسـتهدى به فى حاضره ٠٠ وأحب أن يتخذ من أبيه مثلا يحتذيه فى سياسته الهادفة دائما الى الجديد من الاعمال ٠٠

ان الجامع الازهر ـ مقر النشاط ، ومركز الدعوة والدعاة ـ أخذ مكانه اللائق ، ومكانته المرموقة ٠٠ وأما المسجد الذى بدأه أبوه وأراد له اسم « الجـامع الانور » لم يكتمل بناؤه بعد ..

وان من أبسط حقوق الأب على ابنـه أن يكمل مابدأه الأب ، وأن يحسن ويجمل فى ذلك الأثر الجليل ليكون جديرا بالانتساب الى والده العظيم ..

وأمر الحاكم المشرفين على الاعمال الانشائية والعمارات فى دولته أن يولوا اهتمامهم بالجامع الأنور ، وأن يحشدوا له العمال وأهل الكفاءات المعمارية لاتمام بنائه فى أقصر

وقت ممكن .. وأن تفرغ خلاصــة العبقرية والخبرة ليــكون آية من آيات الصنع وليظهر فى أروع صورة عرفتها المساجد فى الدولة الاسلامية .

***

ولم يقصر الحاكم بأمر الله ــ خلال فترة اتمام الجامع الأنور ــ اهتمامه على اتمام جامع أبيه ، بل وجه عنايته أيضا الى المكتبة الملحقة بالجامع الازهر ، اعترافا منه بخطورتها ومكانتها وعظم الدور الذى تقوم به فى ذلك الانقلاب الفكرى الذى بدأه أبوه الراحل .. فزودها بالمصنفات الفريدة ، والمخطوطات النادرة ، والكتب الجامعــة ، والأسفار الشهيرة .. حتى غدت بما حوت وما جمعت من أمهات التواليف ــ أغنى وأعظم مكتبة فى العالم الاسلامى بعد مكتبة قرطبة ، التى أنشئت قبلها بعدة سنين..

واتجه الحاكم خلال هذه الفترة أيضا الى جامع عمرو بن العاص .. فكان أن أمر بأن يمحى اسم «برجوان» !! المنقوش فوق كل لوح من الالواح الخمسة المذهبة ، كي لا يذكره الناس بعد أن قتله أمير المؤمنين ! !

ولم يكد الاسم البغيض يمحى من الالواح ، حتى تنفس أمير المؤمنين الصــــعداء .. ووجد الفرصة أمامه متسعة للتفكير من جديد فى عمارة المسجد العتيق ..

* * *

كان ذلك فى سنة ست بعد الاربعمائة من الهجرة عندما أمرالحاكم باقامة رواقين رحيبين فى صحن المســجد .. ولم يكد يتم بنــاءهما ، حتى أحب أن يستكمل زينة المــكان كله بطلاء العمد الخشبية ، التى أمر احمد بن طولون باقامتها لتكون فوقها الستائر التى تحمى الناس شر حرارة الصيــف ..

وأراد الحاكم أن تلون هذه العمد الكثيرة باللونين : الاحمر والاخضر .. ولكنها كانت من القــدم والبلى بحيث كان من الصعب أن يثبت فوقهــا الطلاء .. فامر الحــاكم بخلعها من أماكنهــا ، وتوجيه العنــاية الى الرواقين الجديدين وتجميلهما حتى يكونا لائقين بمقام أمير المؤمنين ..

وباقامة هذين الرواقين أصــبح جامع عمرو يحتوى حتى الآن على أربعة وعشرين رواقا .. سبعة فى مقدمته يتكون منها « الايوان الشرقى » ، وســبعة فى مؤخرته يتكون منها « الايوان الغربى » ، وخمسة فى شرقيه هى « الايوانالبحرى » ، وخمســة أخرى فى غربيه ومنها يتكون « الايوان القبلى » .

ورأى الحاكم بعد هذا ألا يقصر اهتمامه على مكتبة الجامع الازهر ، وأن ينقل الى جامع عمرو بعض نفائس من مكتبة الازهر ..

وهكذا حمل رجال الحاكم ــ بأمر منــه الى جامع عمرو ١٢٩٨ مصحفــا ما بين «ربعات» و «ختمات» قيمة ، منها ماهو مزخرف ، ومنها ماهو مكتوب بالذهب .. وأباح للناس جميعا أن يقرأوا فيها بجامع عمرو ..

وبهـذا اكتملت زينة جامع عمرو ، ماديا ومعنويا ، واستكمل بهاءه .. وأصبح غاصا بالأروقة والأبهاء والاعمدة ، والحنايا المتعددة التى تشبه النوافذ الحصينة التى تقام بأعلى جدران الجامع ، وقد صار عددها فى ذلك الوقت ثمانى وسبعين حنيـة موزعة على الوجه التالى :

سبع عشرة حنية فى الجدار القبلى.. ومثل هذا العدد فى الجدار البحرى ، بعضها كان مستورا بجدار سلم السطح وديوان استيفاء الاحباس ..

واثنتين وعشرين فى الجدار الشرقى ، يستر بعضها أيضا ديوان الاحباس .. ومثل هذا العدد موجود فى الجدار الغربى ، يستر بعضه مدار السلم ، وفى كل حنية من حناياه عمودان ..

وخلال فترات العمل التوجيهى والانشائى هذه ، كان « الجامع الأنور » قد كمل بنيانه .. وبدا شامخ البناء كالطود العظيم ، جليلا مهيبـا ، رائع المدخل ، متعـدد الابواب ، كثير الأبهاء ، واسع الصحن ، جميل المنارة .. فراق فى عيون النـاس ، بدرجة لم ترق لهم معها تسميته « الجامع الأنور » فأسموه « جامع الحاكم » !!

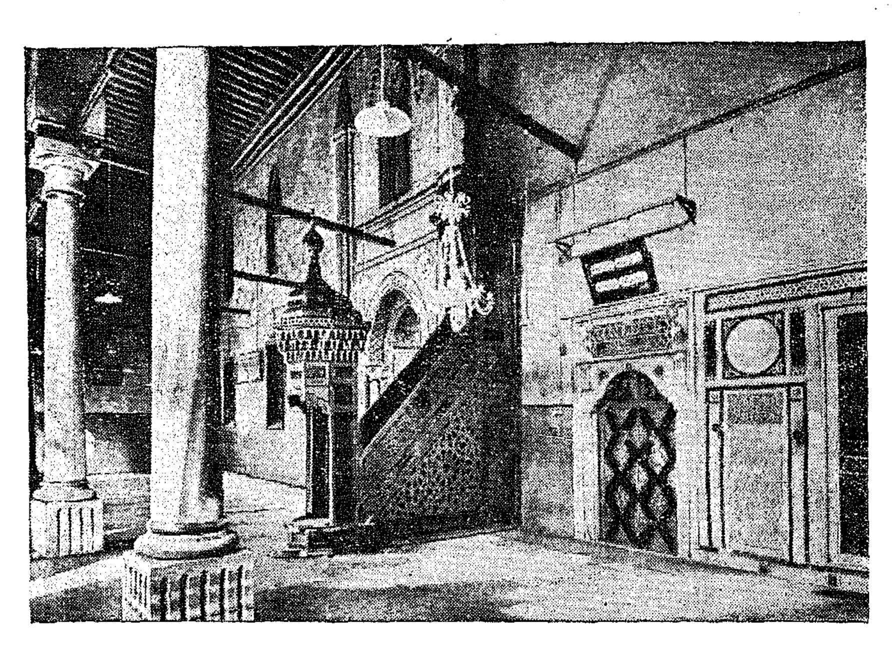
وافتتح الامام أمير المؤمنين الحـاكم بأمر الله ، مسجد أبيـه العزيز بالله فى حفل عظيم .. كان محور أحاديث الشعب فى القاهرة وما جاورها من ضواحى وبلدان ، حتى لقد قيل : ان المسجد الجديد سيكون مسجد الدولة الجامع .. وأنه ان لم ينتزع الزعامة الدينية من الجامع الأزهر اليوم ، فسوف ينتزعها مع الغد القريب !!

والواقع أن فكرة انتزاع مقود الزعامة من الجامع الازهر ونقلها الى « الجامع الانور » لم تخطر ببال الحاكم أصلا.. بقدر ماخطرت بباله فكرة « التخصيص » بين المسجدين، وذلك بأن يفتح المسجد « الأنور » للصـلاة العـامة ، ويخصص « الأزهر » لحلقات الدراسة واعداد دعاة المذهب الفاطمى ، وتقام فيه الى جانب هذا الصلاة الجامعة فى مناسباتها المعروفة أيام الجمع والأعياد ..

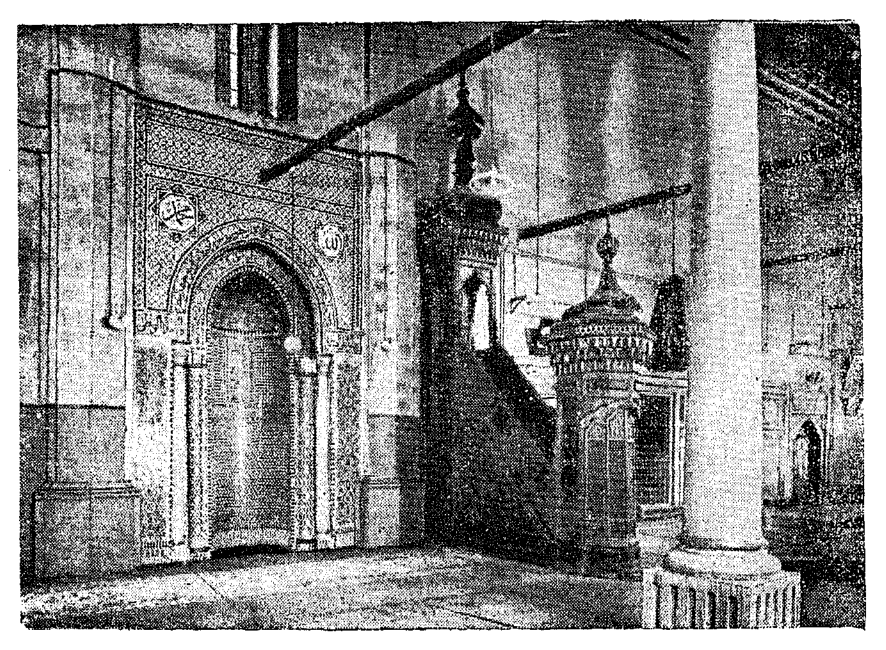
وعاد الحاكم بأمر الله يفـكر فى شىء جديد .. شىء دعت الضرورة الى وجوده ، وقصر الجامع الازهر عن أدائه ..

انه « دار الحكمة المذهبية » ، لتقام فيها حلقات الدراسة الخاصـة ، التى كان يعقدها قاضى قضاة الشيعة فى القصر الخليفى لـ « خاصة الخاصة » وكانت تسمى « المجالس الفلسفية الحكيمة » ..

وأنشئت « دار الحكمة » .. وخصصت لها الدراسات الجديدة .. المغايرة لتلك التى عرف بهـا « الجامع الازهر » فكانت « دار الحكمة » منافسـا خطيرا للأزهر ، فقد استطاعت أن تجذب اليها الكثيرين من هواة المعرفة وطلاب العـلم ، ليتعلموا هناك « الرياضيات » و « علم الفلك « و « الطب » وتحركات النجوم .



المشهد الحسينى من الداخل : انشىء سنة ٥٤٩ هـ ، ١١٥٤/٥٥ م لينقل اليه رأس الحسين بن على بن أبى طالب ، نقله الى مصر طلائع بن رزيق وزيرالخليفة الفاطمى « الفائز بنصر الله »



محراب المسجد الحسينى

وزود الحاكم دار الحكمة بكل مايمكن أن تحتاج اليه منمؤلفات وأسانيد ومراجع.. وأباح الدراسة فيها للجميع ، دون التقييد بالقيد المذهبى الذى فرض على رواد حلقات « الأزهر » ..

وأشرف « قاضى القضاة » على سير الدراسة فى دار الحكمة ، وعين لها رئيس ، أطلقوا عليه اسم « داعى الدعاة » .. وكان له ولدار الحكمة بين وظائف الدولة ديوان خاص ، لان الدراسة انما كانت على النفقة الخليفية ، وكذلك نفقات الطلبة وأهل البحث ، الذين أخذوا يفدون على الدار من كل فجاج الارض — وكأنهم جموع الحجيج فى كثرتهم وتشوقهم الى الدراسات الميسرة ! !

ولما كان الحاكم بأمر الله — خليفة عرفت عنه الجرأة ، وحب التجديد واحداث المفاجآت ، فقد كانت مفاجآته التى أرادها لدار الحكمة ألا تكونالدراسة فيها مقصورة على الرجال وحدهم .. بل هى مباحة أيضا لمن يريد طلب العلم من النساء !!

وأولى الحاكم بأمر الله الجامع الازهر اهتماما كبيرا ، فرصد له الأحباس «العينية» وأوقف عليه دخل عقارات معينة فى أول «وقفية» عرفها التاريخ الاسلامى ، جاء فيها :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع مانسب اليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحي المغرب وسائر أعمالهم وما فتحه الله وما يفتحه لأمير المؤمنين والشرق والغرب بمحضر رجل متكلم ان صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب أنها كانت من أملاك الحاكم الى أنحبسها على الجامع الازهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشده والجامع بالمقس اللذين أمر بانشائهما وتأسيس بنائهما وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب منها مايخص الجامع الازهر والجامع براشده ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا ذلك غير مقسوم .. »

وحدد بعد ذلك الهبة التى أوقفها على الجامع الازهر وحده وهى : « جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الحزق الجديدة الذى كله بفسطاط مصر .. »

وكما حبس الحاكم على الجامع الازهر ماذكرنا من احباس عينية محددة ، كذلك أوقف على «دار الحكمة» وغيرها أحباسا أخرى ، تعينها على أداء رسالتها التى تطورت واتسعت رقعتها ، وتحولت مع مرور الزمن وتوفر الطلاب فيها من دائرة «العمومية»

الى «التخصص» المريب فى دقائق المذهب الفاطمى نفسه ، وأسرار «الامامة» ذاتها .. وما يجب أن يعرفه المريدون عن « الامام » وصفاته ومكانته المقدسة !!

أما هذه الاحباس فكانت كما وردت فى « الحجة الرسمية »

وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة « محبوسة » ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها .. باقية على شروطها ، جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ، ولا تتغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتبادل ، ولا يستغنى بتجديد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الارض والسموات على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى اليه ولايتها ويرجع اليه أمرها بعد مراقبة الله واجتلاب مايوفر منفعتها من اشهارها عند ذوى الرغبة فى اجارة أمثالها ..

وحددت « الحجة » بعد ذلك كيفية صرف « ريع » هذه الاوقاف فى وجوهها التى حددت لها ..

* * *

ومرت مواكب الزمن ..

واذا باتجاه الرياح ينعكس ودورات الفلك تتحول فى غير الاتجاه ، ويحدث ــ بعد مرور خمسة وثلاثين عاما على انشاء « الجامع الازهر » ، مسجد الدولة الفاطمية الرسمى ومنبر دعاياتها العظيم ــ أن يجد الى جانبه منافسين خطيرين ، ينازعانه الزعامة والصدارة ــ هما « دار الحكمة » و « الجامع الحاكمى .. »

أما دار الحكمة فكانت قد استأثرت بطبقة النوابغ من الطلاب .. وأما الجامع الحاكمى ، فقد شاءت ارادة الحاكم ذات يوم من أيام الجمعة من شهر رمضان ، أن يتحول من مسجد عادى الى مسجد جامع ، اذ اتجه اليه موكب أمير المؤمنين لأداء الصلاة الجامعة .. فكان هذا الحدث ايذانا ببدء التحول ، واعلانا بأن « الأزهر » قد أصبح له شريكان فى الصدارة والصلاة الجامعة ، هما : جامع عمرو ، والجامع الحاكمى ! !

ولقد سارع الحاكم فاقر هذا التقليد فى صلاة الجماعة ، فاصدر أمره بأن توزع صلاة الجمع الثلاث فى رمضان من كل عام على المساجد الجامعة الثلاثة ، حسب الترتيب التالى : الحاكمى ، فالازهر ، فجامع عمرو ..

واعتاد الحاكم ، خضوعا لهذا التقليد المستحدث الذى استنه ــ أن يفتتح أول صلاة للجمعة من رمضان فى المسجد الحاكمى ، فيخرج للصلاة فى موكبه وهو فى ثوب خليفى كامل مطرز بالذهب .. أما الجمعة الثانية فيصليها فى « الجامع الازهر » وعليه ثوب خليفى عظيم من المخمل الشعرى الفاخر ، وعليه المنديل والطيلسان .. وتبقى

بعد ذلك الجمعة الاخيرة من رمضان ، وهى المسماة « الجمعة اليتيمة » ، وهذه كان يصليها فى « جامع عمرو » وعليه ثياب بيضاء ناصعة من خالص الحرير !

ولما كان « الحاكم بأمر الله » أجرأ أئمة المذهب الفاطمى ، وأقواهم شكيمة وأشدهم مراسا .. فقد أبى أن ينكر لب مذهبه كما أنكره جده ولم يصارح به العامة ، وان احاط بالتقديس نفسه ..

وفى ذات مرة كره الابن أن ينزل الى ترضى الشعب كما كان يفعل أبوه ..

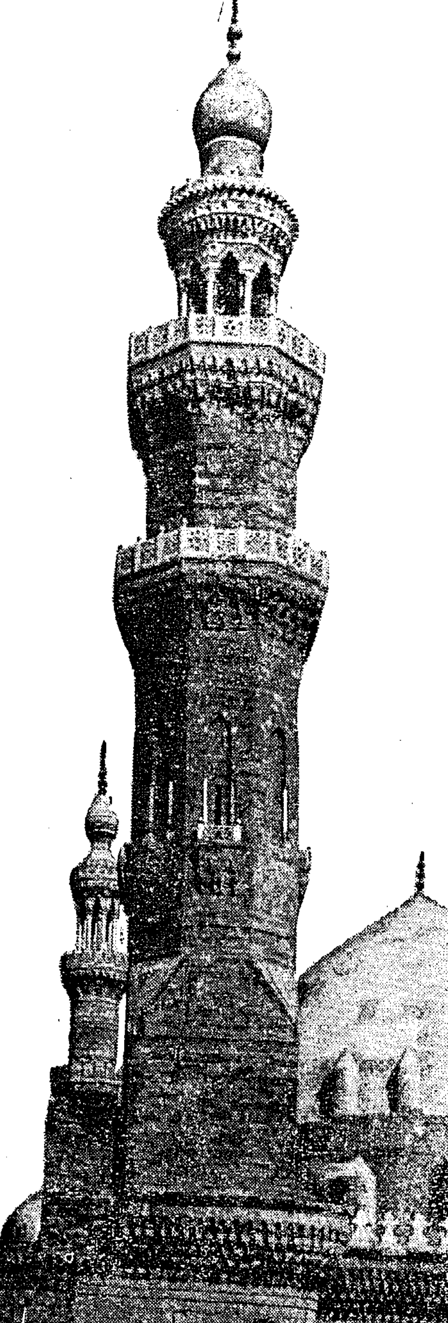
فكان أن جاهر بالحقيقة ، وأطلق دعاته فى كل مكان يتحدثون عنه .. عن الامام المعصوم ، الذى حلت فى جسده روح الله ، منتقلة من «آدم» الى «على» ثم اليه .. دون البشر أجمعين ! !

وكانت جرأة الحاكم هذه سببا فى قيام نزاع رهيب بينه وبين الشعب ـ الذى انفض عنه ، ليخلص بدينه من الأوشاب .. ثم وقف موقف المتوثب ليدافع عن جلال الدين أمام من ادعى الربوبية علانية ولم يكن له صمت جده ولا دهاء أبيه !!



احدى مشكاوات مسجد الناصر محمد

أسوار القاهرة



« مئذنة السلطان حسن »

ذهب الحاكم ..

وفى أمر ذهابه تبلبلت الأفهام ..

قيل : مات !! وقيل : قتل !! وقيل : اختفى.. الى يوم معلوم .. يعود فيه الى الظهور ثانية ليملأ الارض عدلا ونورا !!

ألم يكن اماما ، حلت فيه روح الله ؟!

فكيف يكتب عليه الموت.. ويكون كغيره من البشر ، سواء بسواء !!

ذهب الرجل الجرىء ، الذى أبى عليه وفاؤه لعقيدته ومذهبه ، أن يكون مثل جده وأبيه .. فجاهر برأيه ، واستعمل سلطانه فى اجبار الناس على الايمان بما كان يؤمن به .. فكتب بذلك خطوط نهايته الغامضة !!

وجاء « الظاهر » من بعده ، وهو لما يزل بعد فى طفولته .. فتولت الوصاية عليه عمته « ست الملك » الفاطمية ، التى كان لها ولابن دواس معها ، أكبر ضلع فى القضاء على الحاكم والتخلص منه !!

ومرت السنون .. وشب الظاهر .. وراح يمارس سلطانه بنفسه دون وصى أو رقيب ..

وتقلد منصب « الامامة » ، وعرف الكثير عن جراة أبيه وصراحته واستمساكه بحرية رايه .. فسار على نفس المنهج ..

وبلغ من تشيعه للمذهب الغامض أن أصدر أمرا خليفيا **بأن تقتصر الدراسة فى « الجامع الازهر » وفى « دار الحكمة » على كتابين وحيدين ، أولهما : « دعائم الاسلام فى الحلال والحرام ، والقضايا والاحكام ،**

من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله » لمؤلفه « قاضى قضاة الشيعة الأول النعمان القيروانى »

وثانيهما : « الرسالة الوزيرية » ، التى كتبها « يعقوب بن كلس » ..

وبلغ من تحمس « الظاهر » لهذين المؤلفين الغامضين أن رصد المال على المهتمين بدراستهما .. بل لقد خصص رواتب ثابتة ومغرية لمن يحفظ أحد الكتابين أو كليهما من طلاب « الجامع الازهر » أو « دار الحكمة » !!

وتولت أيام الظاهر ومضت سنى حكمه .. وذهب كما ذهب الحاكم أبوه .. ولكن دون أن تذهب فى أمر موته الظنون ..

وتولى الخلافة والامامة من بعده ولده « المستنصر »

* * *

وجاء المستنصر بالله الفاطمى وكأنما جاءت معه السنون السبع العجاف ، التى أكلت الزرع والضرع .. ولم تبق على يابس ولا أخضر .. حتى لقد كاد الناس يأكل بعضهم بعضا فى أيامه .. ولم يتعففوا عن أكل الكلاب والقطط ، والدواب على شتى أنواعها ،

وزاد الطين بلة فى تلك الايام السود أن اضطرب حبل الأمن ، ودب الخلاف بين جنود المستنصر ، وكانت فتنة خطيرة قاست البلاد من شرها الشيء الكثير ، اذ اتحد مماليكه المغاربة والترك ، وطاردوا السودان الى الوجه القبلى .. فانقسمت الدولة بذلك الى قسمين .. شمالها فى أيدى الترك وحلفائهم ، والجنوب فى يد السودان !!

واستمر طغيان الجنود الترك بعد ذلك فى كل مكان .. حتى لقد اجترأوا على المستنصر نفسه ، فهاجموا قصره وسرقوا مافيه من النفائس ومنها مكتبة القصر التى كانت عامرة بالنادر والطريف من التصانيف والأسفار !!

وزاد القحط .. وعمت الشدة .. وتضاعفت سطوة الجند وطغيانهم ، فلم يجد المستنصر غير أن يستعين بمملوك أرمنى ، أعلن اسلامه وتسمى باسم « بدر الدين الجمالى » ـ وكان وقتها يحكم « عكا » ـ فأمر أن يأتى بعسكره الى مصر .. وأن يتصرف فى أمورها بما يراه ، ليعيد الأمن الى نصابه ويقضى على حركات المتمردين..

وأعاد بدر الدين الجمالى للدولة هيبتها ، وللخلافة الفاطمية سلطانها القديم ..

واستطاع أن يعيد للخليفة سابق أمجاده .. حتى النفائس التى سرقت من قصره عادت اليه وعوقب اللصوص الخونة ! !

وكأنما كان مقدم بدر الجمالى بشرى عودة الخير والخصب الى مصر من جديد ، فتحسن الحال .. وعلت مناسيب النيل التى ظلت منخفضة سنين طوالا .. فاخضر الزرع .. وأينع الثمر .. وسمن الضرع .. ورفرفت السعادة على الوادى من جديد ..

وراح بدر الجمالى يفكر ويعمل بعقلية القائد المحنك الذى يرى أبعد من يومه .. فكان أن حصن القاهرة التى كانت مفتوحة الجنبات ، فبنى أسوارها الشامخة على نمط الحصون « البيزنطية » ، وشيد بواباتها الضخمة الشهيرة ، «الفتح» و «النصر» و « زويلة » ..

* * *

وصفا وجه الزمن للمستنصر بالله الفاطمى .. وبدأ بعد المحنة والشدة ، يستشعر الراحة والنعمة .. ويرى أكداس الذهب تمتلىء بها خزائنه من جديد ، فاستيقظت فيه سجية آبائه ، واتجه الى الاصلاح والتعمير ..

وكان المستنصر بالله أول حاكم لمصر بعد زوال الدولة الطولونية يهتم بالمسجد الجامع الكبير الذى بناه احمد بن طولون ..

وكان اهتمامه بهذا المسجد بمثابة اعلان للبعث الجديد ، واثباتا لوجوده ، وايذانا بزوال الشدة وعودة الرخاء ..

ولم يجد المستنصر فى جامع ابن طولون مايحتاج الى التجديد أو العمارة ، لهذا استقر رأيه على انشاء «محراب» يليق بمكانته فى التاريخ .. فوكل الى متولى شئون العمائر فى دولته بأن ينشىء المحراب ..

واختير للمحراب المستنصرى مكان رحب فى منتصف البائكة الشرقية من جهة الصحن بجامع ابن طولون .. ووضع صانعه فيه خلاصة مهارته الفنية الدقيقة ونقش عليه بالخط الكوفى آيات من القرآن الكريم ، قسمت الى ثلاثة أقسام لكل منها مكانه وصفاته ..

القسم الاول داخل اطار كبير كتب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذا المحراب خليفة فتى مولانا أمير المؤمنين(١) الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين السيد الأجل الأفضل سيف الامام ، جلال الاسلام شرف الانام ناصر الدين » ..

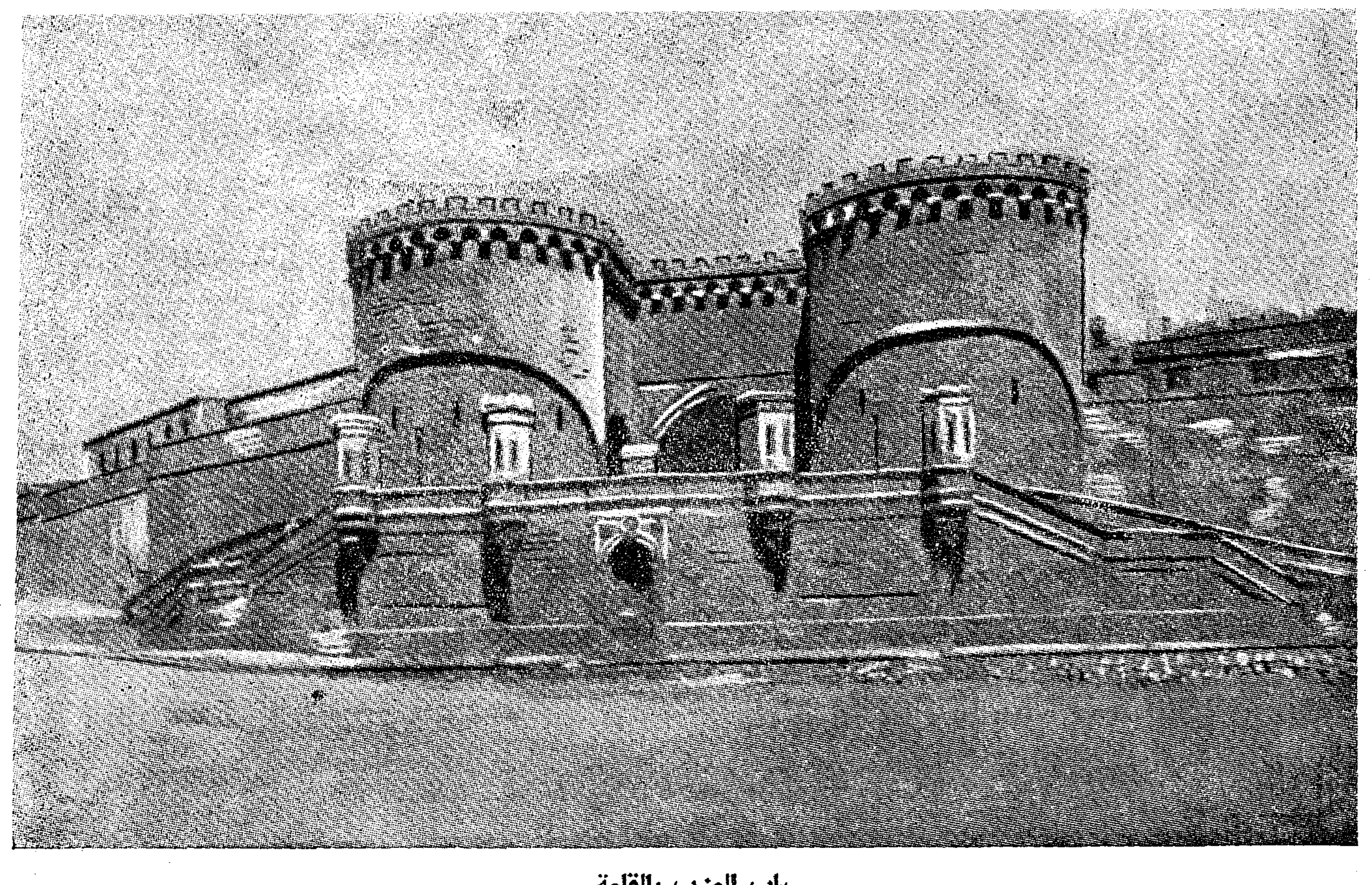
أما القسم الثانى فكان فوق المخموس ، وقد كتب فيه :

« الله أوحى اليه من الكتاب : « وأقم الصلاة ، انالصلاة تنهى عنالفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ماتصنعون » ..

والقسم الثالث فيه كتابة تحت المخموس جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور ، الذى أحلنا دار المقامة من فضله » صدق الله العظيم ..

(١) كان فتى امير المؤمنين هو بدرالجمالى ، وخليفته هو ولده الافضل شاهنشاه



باب العزب بالقلعة

قلعة الجبل : اقيمت على جبل المقطم وأراد « صلاح الدين يوسف بن أيوب » ان يجعل منهـــا حصنا له فأمر وزيره قراقوش في البدء في بنائها سنة٥٧٢هـ، ١١٧٦ م ، كما أمر ببناء ســـور يحيط بالقاهرة وبالقلعة وبمصر ولكنه مات قبل أن يتم القلعة والسور فلما تولى « الملك الكامل » أكمل بناء القلعة سنة ٦١٤هـ ، ١٢٠٧ م وأنشأ بها قصورا لمقر ملكه .

ولم يكد المستنصر يقيم هذا المحراب الرائع الدقيق الصنع فى الجـامع الطولونى ، حتى رأى أن يوجه كثيرا من اهتمامه المعمارى الى المسجد العتيق .. وكان أن اتجه الى جامع عمرو ..

كانت زيادات **العـزيز بالله ، وابن كلس ، والحـاكم بأمر الله** ــ لم تزل قشيبة رائعة .. فأحب الحفيد أن يخلد ذكره الى جانب جديه ، فكان أن أمر باقامة الحجرات المقابلة للمحراب .. ثم رأى أن يوسع المقصورة ، فزادها من ناحيتى الشرق والغرب، حتى اتصلت بالحذائين فى جانبها ..

وأولى المستنصر اهتمامه بعد ذلك لمحراب جامع عمرو ــ وهو مقدر لما له من مقام تاريخى جليل ومكانة عظيمة ، **اذ أشرف على اقامتـه ثمانون صحابيا جليـلا ..** فركب فى صدره منطقة من الفضة ، وطوق عموديه بطوقين من الفضـة أيضا وكتب اسمه على المنطقة المرقومة ..

وبعد عامين من قيام المستنصر بهذه الاعمال ، كلف نفس الرجل الذى أشرف على الاعمـال الاولى ــ وهو « عبد الله محمد بن عبـدون » ــ بأن يقـوم بالاشراف على تجديد الخزانة ، الواقعة فى مواجهة ظهر المحراب الكبير .. فقام بتنفيذ ماطلب منه على أسرع وجه وأحسنه ..

ثم عاد المستنصر بعد هذا فأمر الرجل بأن يشرف على طلاء بقيـة الجـدار القبلى بالذهب ، وأن يمد الطلاء من جدار الخزانة التى جددها الى نفس المنبر ..

ونفذ الرجل أمر مولاه ، وتم الطـلاء فأضفى على المحراب الـكبير بجامع عمرو ابن العاص رواء وروعة ..

ومر عام .. واذا بالمستنصر يكلف القـاضى « أبا عبد الله أحمد بن زكريا » بأن يشرف على تعمير غرفة المؤذنين الكائنة بأعلا المسجد ويقوم بتجميلها وتحسينها بأن يفتح لها بابا يوصل الى «مشربية» تشرف على صحن الجامع ، لتكون وسيلة تجميل، وتستعمل فى نفس الوقت ممرا يصل الى بيت المال ، ويجعل أعلا المســجد مرقاة من الخزانة الجديدة الواقعة خلف المحراب الكبير ..

وبعد ثلاث سنوات من اتمام هذه العمارة فى جامع عمرو ، أمر ببناء مئذنة تتوسط المئذنة الكبيرة ومئذنة عرفه ..

ووجه المستنصر بعد هـذا اهتمامه الى « الجامع الأزهر » ، و « دار الحكمة » بالذات .. ولم يكن هـذا الاهتمام ، خاصـا بزيادات أو انشـاءات جديدة ، بل بالدراسة نفسها فى المعهدين الفاطميين الخطيرين ..

* * *

ومرت السنون .. والبلاد ترفل فى حلل من الرخاء ..

وأرسل المستنصر بالله عرب بنى هلال الى المغرب ، ليستردوه من غاصبيه ويعيدوه الى الخلافة الفاطمية ..

ونجح فرسان بنى هلال : الحسن بن سرحان ، وأبو زيد ، ودياب .. وغيرهم ـ فى الوصول الى قلب المغرب وردوه الى المستنصر .. وكانت لهم فيه وقائع أسطورية يشيب لهولها الولدان ! !

ونودى باسم المستنصر على منابر الشام .. ومكن له الدعاة فى « مكة » وعلا صيته فى كل مكان ..

واستطاع « الازهر » و « دار الحكمة » فى أيام المستنصر ، أن ينجبا أعاظم العلماء ، فكان من بينهم الفقيه « الحوفى أبى الحسن على بن ابراهيم » الذى تصدر مجالس الدراسة فى « الازهر » ، وكانت له فى علوم اللغة والنحو والصرف مصنفات عظيمة وباع طويل ، ومن بينها كتابه الفريد « اعراب القرآن » ..

وفى عهد المستنصر ظهر على العالم بتواريخ الامم « الامير المختار عز الملك المرانى » الذى عرف باسم « المسبحى » .. وقد أخرج كتاب « أخبار مصر » ، متضمنا تاريخ الوادى الخصيب من فجر التاريخ حتى خلافة الفاطميين ..

وفى « الأزهر » تخرج « أبو الحسن طاهر » الذى عرف باسم « ابن باشا » .. وقد بلغ من تقدير المستنصر له أن جعله على ديوان الانشاء .. كما كانت للرجل فى علوم اللغة ونحوها وصرفها جولات وآراء وفتوح ..

ونبغ فى الحديث والفقه ، وخاصة مذهب الشافعى ـ العلامة « القضاعى » صاحب « الشهاب » و « مناقب الامام الشافعى » و « أنباء الانبياء » و « عيون المعارف » و « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ..

وبلغ من اعزاز المستنصر للقضاعى واعجابه به ، أن أخذه من مجلس الدراسة من صحن الأزهر الى مقعد القضاء ، اعترافا منه بفضله ودقته وتحريه للحقائق وابتغائه وجه العدالة .. **ثم عاد وجعل منه سفيرا ، أرسله الى « تيودورا » امبراطورة الدولة الرومانية الشرقية ، ليتفاوض معها على ابرام تحالف بينها وبين المسلمين لاقرار السلام واجتناب الحروب ..**

وكما اهتم المستنصر بالانشاء والتعمير ، فقد أحب وزيره الاكبر « بدر الجمالى » أن يترك مؤقتا بناء الحصون والاستحكامات ، وينشىء له فى دنيا المساجد أثرا يتحدث عنه من بعده ، ويذكرصلتهالطيبة بالدين ومدى اعزازه للكرام البررة من أهل البيت ..

وبدر الجمالى هو الذى أدخل الجامع الحاكمى فى حدود القاهرة عندما بنى سورها العظيم ، وكان قبلا خارجها .. وقد جعل السور ملاصقا له من ناحيته الشمالية وأزال ماحوله من أبنية ، فتبدى منظره الرائع وظهرت منارتاه العظيمتان..

واتجه بدر الجمالى بعد هذا الى المشهد النفيسى ، الذى دفنت فيه نفيسة العلم عالية المقدار ، جليلة الشأن ، الطاهرة بنت المطهرين السيدة الصوامة القوامة **« نفيسة ابنة الامام الحسن الأنور بن الامام زيد بن الامام الحسن المجتبى بن الامام أمير المؤمنين علي بن أبى طالب » ..**

وكانت السيدة نفيسة قد وفدت الى مصر مع زوجها « اسحق المؤتمن بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن السجاد على زين العابدين بن الحسين الشهيد » .. ومكثت بمصر حياتها كلها ، وكان بيتها كعبة القصاد وطلاب الحديث ..

ولما توفيت نفيسة بمصر ، أنشأ لها « السري بن الحكم » مشهدا يليق بها دفنت فيه ..

ثم مرت السنون .. وبلي المشهد ولم يعد يليق بالطاهرة التقية ، فكان أن تولى الوزير الخطير بدر الجمالى أمير الجيوش انشاء هذا المشهد من جديد ..

وقام بدر الجمالى بعد ذلك بمظاهرة مذهبية ، هزت القلوب والأفئدة .. وأعادت من جديد ذكرى حادث كربلاء الرهيب .. فاشاع بين الناس أن أمير المؤمنين قد رأى أن ينقل الى مصر « الرأس الطاهر » ــ رأس الامام الحسين الشهيد ، الموجود بالمشهد المعروف ــ فى عسقلان ، خشية أن يعدو عليه جند الصليبيين !

وقيل بعد هذا أن المواكب أعدت لاتمام هذه المظاهرة الخطيرة .. ولكن الظروف أخرتها لبضعة أعوام قادمة ..

وطال الزمن بالمستنصر .. وظل فى دست الخلافة قرابة الستين عاما ، اذ وليها وهو ابن سبع سنوات.. وكأنما كان حظه واقبال دولته رهينا بحياة «بدر الجمالى» ، اذ لم يكد الوزير الخطير يلبى نداء ربه ، حتى لحق به المستنصر .. فشابه فى هذا جده الأكبر العزيز بالله يوم لحق بوزيره الخطير ابن كلس بعد موته بقليل !!

وتولى امامة المذهب بعد المستنصر ولده المستعلى بالله ، ونودى به أميرا للمؤمنين ..

وسارت حياته وحكمه رتيبين .. حتى ذهب ..

وتولى بعده ولده الذى تسمى باسم « الآمر بأحكام الله » ..

والآمر بأحكام الله هذا ، لم يكن له من الخلافة الا التحلى بشاراتها فقط .. ففى عهده دالت دولة « دار الحكمة » وأغلقت أبوابها ، بعد أن استطاعت فى زمن جده المستنصر أن تخرج عباقرة مخلصين للمذهب ، أظهرهم « ناصرى خسرو » والداعية الخطير « الحسن الصباح » ..

وبالرغم من أن دار الحكمة أغلقت أبوابها فى زمن « الآمر » ، الا أنه وجه اهتمامه بعدها الى الجامع الازهر .. وكان أن أقدم على توسيع بنائه الرحب وأنشأ الى جانب بابه الغربى مقصورة فخمة بالغة الروعة ، **أسماها مقصورة «فاطمة الزهراء» ..**

وعلل هذه التسمية بأنه رأى « الزهراء البتول » فى منام له وهى جالسة تصلى فى ذلك

المكان ، فأسرع يكرم المنسبة الشريفة ، تعظيما لابنة سيد الخلق أجمعين ، فأقام هـذه المقصورة ، وأطلق عليها اسمها الشريف ..

ولم يتجه الآمر بعد اهتمامه بأمر الجامع الازهر الى أي مسجد جامع آخر ، حتى لقد تضاءلت بل اختفت فى زمنه بعض الاحتفالات الموسمية ، مثل « ليالى الوفود » التى أعادها وزيره « المأمون البطايحى » ، الذى كان من الاخلاص لسيده الآمر بحيث أعاد له الكثير من سلطانه الذى زال ، ومكنه من مباشرة سلطات الخلافة ، وتبعات الامامة .. وسار المأمون فى الشعب بسيرة التقريب والارضاء حتى أحبه الناس

وقد أحب المأمون أن يضفى على جامع عمرو مسحة مذهبية من الدعوة الفاطمية ، فأعد له ذات يوم موكبا عظيما ، ذهب به لزيارة الجامع العتيق ، حيث قدم له القاضى « المكين بن حيدرة » مصحفا قيل فيه أنه مكتوب بخط الامام المرتضى على بن أبى طالب ، ليضاف الى جملة المصاحف النادرة التى كانت موجودة بجامع عمرو (١) ..

وتقبل المأمون البطائحى المصحف فى شىء من الاكبار الشديد .. ووهب الى من قدمه اليه من ماله الخاص ألف دينار !!

وراح الوزير الامين يجمع لسيده مقاليد السلطة ، ويضعها فى يديه .. ثم كان جزاؤه القتل ! !

وفرغ « الآمر » بعد ذلك الى نفسه ، واتجه الى العمارة والانشاء .. ورأى أن يقيم له هو الآخر مسجدا ، فكان أن بدأ ، عام اثنى عشر وخمسمائة هجرية ـ فى **بناء « المسجد الأقمر » .. وأنفق فى بنائه مائتى ألف دينار .. وكان المسجد وقت بنائه صهريج يمتلىء من مسارب الجامع الحاكمى ..**

والجامع « الأقمر » كان طرازا فريدا من المساجد الفاطمية يوم انشائه ، اذ لم تكن له ضخامة الجامع الحاكمى ولا جلال الجامع الازهر .. ولكنه كان من الدقة والروعة وحسن البناء ، بحيث تميز بالجمال ، وخاصة واجهته الحجرية الفريدة ، التى أفرغ الصناع فيها أبعد مايمكن أن يفرغ فى زخرفة بناء من ضروب التحسين والتجميل والعبقرية الفنية ! !

وقد حوت الواجهة كتابات دقيقة بالكوفية ، ونقوشا وزخارف ليس فيها التكرار الرتيب ، بل الاختلاف الواضح الدال على التمكن والقدرة ..

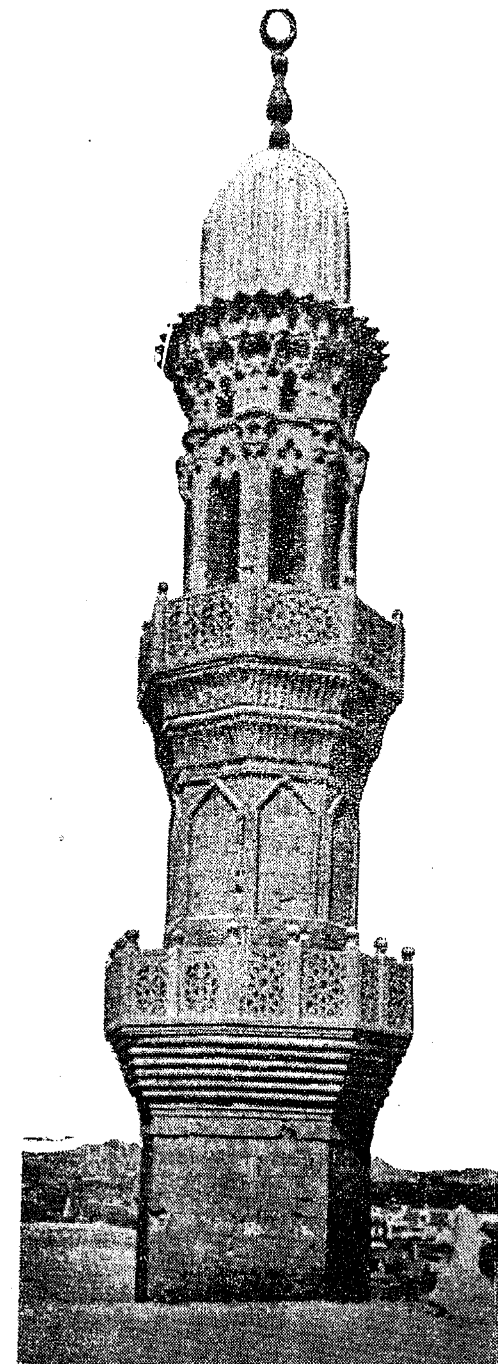
وبقى الآمر بالله فى مركزه الخطير ، حتى وثب عليه بعض عبيده ذات ليلة وهو عائد من احدى نزهاته ... فقتلوه ! !

وفتحوا باب الحظ لواحد من أبناء المستنصر تولى الامامة والخلافة باسم « أبى الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله » !!

---

(١) هذا المصحف والآخر المنسوب الى الشهيد عثمان بن عفان ، موجودان بخزانة المحفوظات بالمسجد الحسينى

غروب



« مئذنة منجك اليوسفى »

لم يكن « ابو الميمون الحافظ لدين الله » أسعد حظا من الآمر بأحكام الله ، اذ لم يكن للرجل من الخلافة الا شاراتها وشعارها .. اما السلطة فكانت فى يد الغير ، وأما « الامامة » وزعامة المذهب فقد ذهبت هى الأخرى الى غير رجعة ..

لقد فقد الخليفة الفاطمى التعس كل شيء كان له ولأجداده وآبائه من قبل .. وغدت الصفة الزمنية رمزا .. كذلك تلاشت الصفة الروحية .. وانهارت هى الأخرى ، ولم يستطع أن يرفع من شأنها سلطان الحافظ باعتباره خليفة وزعيم دعوة ، لها دعاة ومريدون وأنصار وأعوان !!

وبلغ من ضعة الحافظ وهوانه أن امتنع الشعب عن دفع الخراج ، وتحزبت ضد الخليفة كل القوى ، وأصبح وجوده لا قيمة له .. وكأنه لاشيء !!

وكان طبيعيا أن ينصرف هذا الضعيف التعس الذى لا مال له ولانفوذ ، عن التعمير والاصلاح .. ولكنه رغم هذا لم يستطع أن يحول دون نفسه وحب أهل البيت الذين كان يدعى أنه منهم ، فكان أن وجه اهتمامه الى شخصية لها قداستها ، فبنى لها مشهدا قريبا من المشهد النفيسى ..

لقد ادعى الفاطميون أنهم أبناء الزهراء البتول «فاطمة» .. ووصلوا نسبهم اليها باسماعيل بن جعفر الصادق .. وظل هذا الادعاء قائما حتى جاء الحافظ فوجه اهتمامه الى « رقية بنت الامام على » من زوجه الزهراء .. وقال الحافظ لدين الله فى تفسير اهتمامه بها : انها هى جدة الفاطميين ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومشهد السيدة رقية يمثل بصغر مساحته ودقة بنيانه شيئين هامين ـ أولهما تناقص الثراء الفاحش عند الخليفة الفاطمى وضيق ذات يده ضيقا لم يمكنه من بناء مشهد مماثل للمشاهد ، أو المساجد الضخمة التى عرف بها هذا العصر .. وثانيهما الدقة المعمارية وجمال رونقها عند الفاطميين ..

والمشهد كان فضاء رحبا ، يهبط اليه القادم ببضع درجات ، ليجد أمامه ايوانا ذا عقود دقيقة محمولة على أعمدة رخامية مزدوجة ، وصدره على جانبيه شبه محرابين مزخرفين ، وبوسطه باب يؤدى الى الضريح . والقائم الخشبى الذى فوقه مطعم بالأصداف ومنقوش نقشا جميلا ..

وفوق المشهد الذى نسبه الحافظ لدين الله الى السيدة رقية ، قبة فريدة فى هندستها ، مما يدل على التمكن والقدرة المعمارية ، فهى مضلعة ، يحملها قائم مثمن الاضلاع ، بكل ضلع من أضلاعه الثمانية نافذتان مطليتان بالجص ، وراء كل منهما دلافة من الخشب المتداخل الدقيق الصنع ..

أما المحراب الكبير الموجود فى صدر المشهد ، فهو مطلى بالجص ، وصناعته وزخرفته تدلان على طول الباع والتمكن الرائع من فن هذه الصناعة بما يقطع بتفوق معمارى رائع ..

والحافظ لدين الله الفاطمى عندما أنشأ هذا المشهد الجليل ، ونسبه الى السيدة رقية بنت على بن أبى طالب ، قد جانب الصواب فى الاختيار .. وأراد أن يضيف الى التاريخ أكذوبة كبرى ، فالطاهرة رقية بنت الزهراء لم تطأ أرض مصر فى يوم من الأيام ..

والأشد من هذا غرابة أن اسم رقية نفسه ، لم يرد على لسان أحد طوال عصر الفاطميين بالذات .. ولا حتى على لسان مؤرخى العصور التى سبقت خلافتهم هذه !!

والادعاء بوجود قبر رقية بنت الزهراء البتول فى مصر ، يحدد ولا شك تاريخا سابقا لحكم الفاطميين بزمن بعيد ، أعنى أنه كان من اللازم أن يشار الى وجود هذا ابان الخلافة الأموية أو العباسية أثناء حكمهما لمصر ـ ولكن شيئا من هذا لم يحدث على الاطلاق ..

ولو أن قبر رقية كان موجودا بمصر فعلا ، يوم دخلها جوهر الصقلى فاتحا باسم مولاه الامام المعز ، لكان من أبسط مبادىء الوفاء لجدة سيده الكبرى ، أن يتوجه الى مشهدها ليؤدى واجب الزيارة ، ويصل بزيارته هذه بين الخليفة الذى لم يأت مصر بعد ، وجدته المستقرة فى رمسها منذ مئات السنين !!

والمعز ، والعزيز ، والحاكم ـ على مالهم من ثراء خيالى ، وعلى حبهم للعمارة الضخمة ـ أكان يرضيهم أن يتركوا مشهد جدتهم مجهولا فى بقعة مهجورة مجاورة

لخرائب الطولونيين ، حتى يأتى الحافظ لدين الله فيقيم لها هذا المشهد المتواضع ؟!

* * *

وخلال الفترات الذهبيـة فى عصر الفاطميين بالذات ، وخـلال فترات الصراع المذهبى التى كانت تحدث بين أهل السـنة وأتبـاع المذهب الفاطمى من المتشيعين لـ «على» والأئمة المنحدرين من صلبه ــ لم يعرف الناس ، خاصتهم ولا عامتهم وأهل العلم فيهم ، غير مشهدين اثنين هما : مشهد السيدة « نفيسة » ومشهد « كلثم » ، لانه طالما حدثت عند باب هذين المشهدين مذابح كان يتعرض لها كل من يرفض من الشيعة أن يعترف بأن معاوية بن أبى سفيان هو «خال» المسلمين و .. أيضا خال علي بن أبى طالب ! !

ولكن الحافظ لدين الله أراد لصاحبة هذا المشهد الصغير الرائع ، أن تكون رقية .. بنت الامام على بن أبى طالب من الزهراء فاطمة .. وجدة الفاطميين .. فكانت كما اراد .. واصبحت حقيقة أحنى لها التاريخ رأسه وسجلها !!

فصدق الناس ماقيل وتوارثت الاجيال هذا الادعاء الجرىء الغريب ..

ولكن ، من هى «رقية» هذه ؟! وهل تمت المظاهرة « الحافظية » ومرت بسلام .. وأقر بها التاريخ معترفا بصحة حوادثها وصدقها الناس ! !

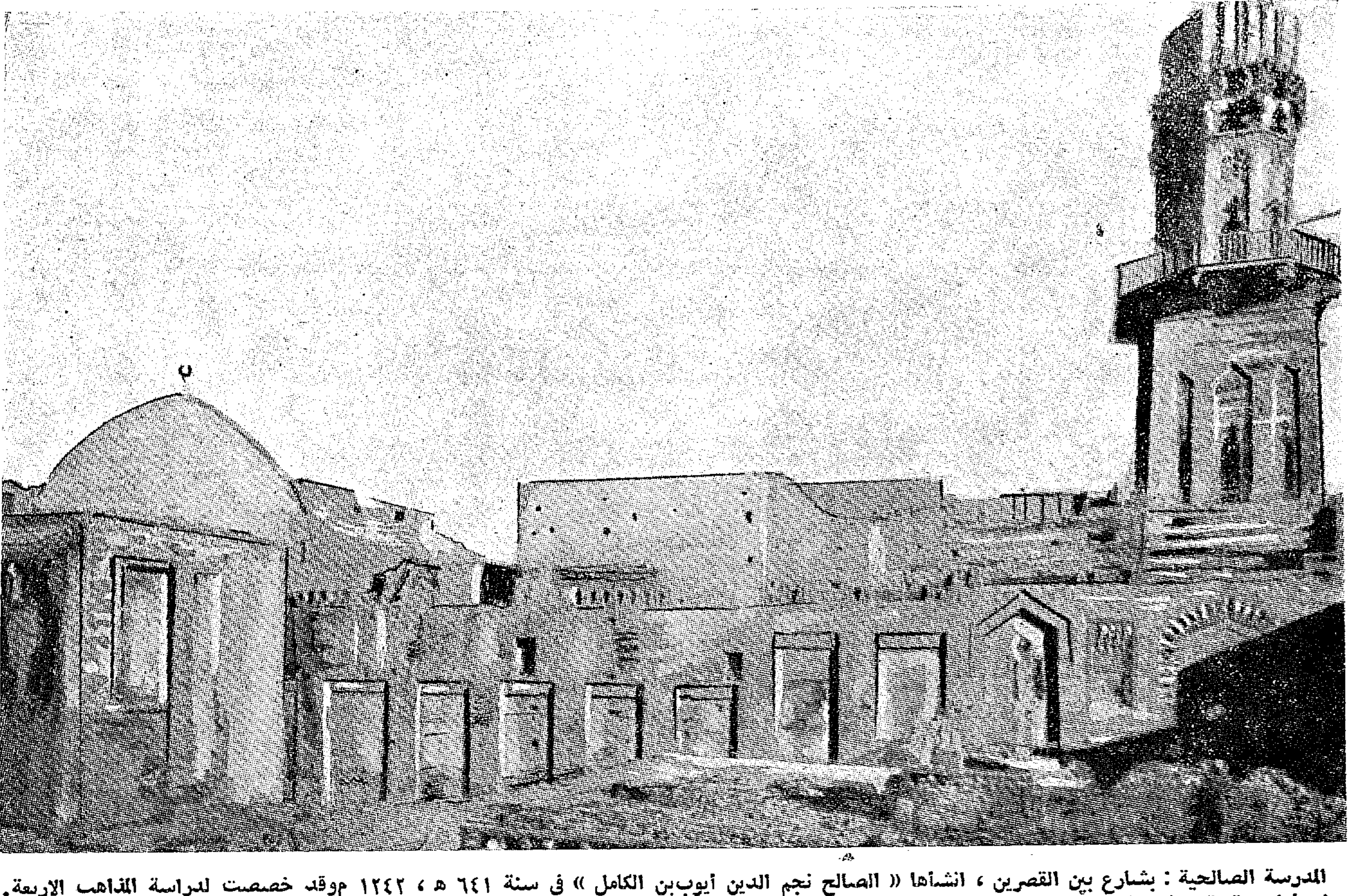
عندما قتل الامام على بن أبى طالب مات عن ثلاثين ولدا وبنتا ، منهم رقية هذه .. وتلقب بـ « رقية الصغرى » لأن رقية الكبرى كانت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج عثمان بن عفان ، وماتت وهى فى عصمته خلال غزوة بدر الكبرى ..

ورقية الصغرى لم تكن بنت فاطمة الزهراء ، بل بنت « أم حبيب الصهباء التغلبية » وكانت فى جملة سبايا « الردة » ، فاشتراها الامام «على» فكانت جاريته ..

ونسبت رقية الى أم أخرى هى « أسماء بنت عميس » ولكن الراجح أنهـا كانت بنت الصهباء ..

ورقية الصغرى لم تكن بنت فاطمة الزهراء ، بل بنت « أم حبيب الصهباء التغلبية » وسبب اقامة المشهد لهـا أن « الحافظ » أرسـل ذات ليـلة فى طلب « عبيد الله ابن سعيد » أحد الثقاة المقربين فى عصره ، وقال له : انه رأى فى نومه سيدة تلتف بإزار ، فسألهـا من تكون ؟! فقالت : أنا رقية ، بنت الامام على بن أبى طالب .. وأنها أرشدته الى موضع معين فقام الخليفة ومن معه وأمروا بحفر ذلك المـكان فلم يجدوا به قبرا ، فأحب أن يسجل هذه الرؤيا الطيبـة ، فأمر ببنـاء ذلك المشـهد المعـروف الذى نسب الى رقيـة بنت على من زوجه الصـهباء ، لا من فاطمـة الزهراء البتول ! !

ومشهد السيدة رقية المقول بانشائه فى السنة السابعة والعشرين بعد الخمسمائة



المدرسة الصالحية : بشارع بين القصرين ، انشأها « الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل » فى سنة ٦٤١ هـ ، ١٢٤٢ م وقد خصصت لدراسة المذاهب الاربعة. وهذه أول مرة يقرر فيها ذلك فى مدرسة واحدة. ومنذ سنة ٦٤٨ هـ ، ١٢٥٠ م اتخذت المدرسة مقرا لنواب العدل «محكمة شرعية» للفصل فى القضايا والمظالم

من الهجرة ، كان أهم وأعظم عمل ظاهر تم طوال خلافة الحافظ لدين الله ــ التى كانت بداية المنحدر الذى انزلقت عليه خلافة الفاطميين وسارت منه الى الزوال ٠٠

* * *

وذهب الحافظ لدين الله .. وورث الخلافة وامامة المذهب من بعده ابنه ، الذى تسمى باسم « **الظافر بالله أبى المنصور اسماعيل** » ٠٠ والذى بلغ من مجونه وتهوره أن ترك الخلافة وتصريف شئونها الخطيرة ، وانصرف الى اللهو ، مع «نصر» ابن وزيره عباس ، الذى كان قد استبد بالأمور واستأثر بكل شيء فى الخلافة .. واكتفى بأن ترك لأمير المؤمنين ولده الأثير المحبوب !!

وكان طبيعيا والحالة هذه ، أن تتفشى المظالم ويخيم الجهل ، وتنتشر الخرافات الى حد القول بأن أحد خدم قصر الظافر شاهد من كوة تشرف على حظيرة للماشية جزارا يذبح أحد خرافه ، فلما انتهى من الذبح ترك الذبيحة وذهب لبعض شئونه وترك السكين الى جانب تلك الذبيحة ليذبح بها كبشا آخر عندما يعود ..

والغريب الذى حدث بعد هذا أن «رأس» الذبيحة قد انتقلت من مكانها وأمسكت بالسكين فى فمها وذهبت فألقت بها فى بالوعة قريبة ثم عادت مكانها !

فعجب خادم القصر لما رأى ، وتزايدت دهشته وظل مكانه ليرى ماذا سيحدث بعد ذلك .. حتى جاء الجزار ، وعبثا حاول أن يجد السكين ، وبالتالى لم يذبح الكبش الآخر ! !

ونقل الخادم مارآه الى سادة القصر ٠٠ واعتبر السذج الذين كانوا يحكمون ويتحكمون أن ماحدث كان « كرامة » واجبة التسجيل والاشهار ، فكان أن أمروا « الجزار » بأن يترك « الحظيرة » وما حوت ويذهب الى مكان آخر ٠٠ وفعلا حدث هذا !!

ورؤي أن يقام مكان الحظيرة مسجد فخم ٠٠

ولقد كان من الغريب أن يهتم الظافر الضليل ببعض شئون الدين ، وأن يفكر فى مسايرة سنة آبائه فى اهتمامهم بالعمارة وتشييد المساجد العظيمة ، فكان أن بنى له هو الآخر مسجدا سمى وقتها باسم « **المسجد الافخم** » ٠٠ ولكن الله المنتقم قد أبى ، جلت ارادته ، أن ينسب هذا البيت الطاهر الى بانيه الماجن ، فكان أن نسب الى مجهول لا جاه له ولا سلطان ، وسمى من وقتها باسم « **مسجد الفكهانى** » ، وأوقفت عليه الحوانيت الواقعة أسفله ..

وكان من آيات غضب الله على الظافر ، أن تآمر عليه وزيره عباس وولده نصر الأثير المقرب من الخليفة الماجن ٠٠ **فاستدرجاه وهو خارج من أحد أماكن لهوه فى قصرهما وقتلاه ، والقيا بجثته فى بئر ٠٠ ثم أشاعا بعد ذلك أنه ركب مركبا غرق به ٠٠ ونادنا بوريثه أميرا للمؤمنين واماما للمذهب الفاطمى باسم « الفائز بنصر الله » !**



مسجد الصالح طلائع بن رزيق وزير الفائز بنصر الله الفاطمي وهو آخر جامع أنشئ في عهد الدولة الفاطمية سنة ٥٥٥ هـ ، ١١٦٠ م وهو على رأس تقاطع شارع الدرب الاحمر ..

وشب الفائز بنصر الله ، وكابوس عباس وولده نصر يجثمان على صدره ، ويملآن أحلامه بالرعب والفزع ، ويشعرانه بأنه ليس أكثر من ألعوبة تافهة فى أيديهما القوية .. وأنهما اللذان غمراه بفضل منهما واحسان يوم رفعاه الى سرير الخليفة وأعطياه ملك أبيه .. تكرما منهما ولم يرسلاه الى حيث ذهب الماجن العربيد أبوه !!

* * *

ولقد مرت السنون و « الفائز » مستسلم الى طغيان عباس وولده ، وقد أرغماه على الاعتقاد بأن واجب الوفاء لصنيعهما أن يسكت ، وأن يرضى بالتسليم ويطلق أيديهما الملوثة بدم أبيه تتصرف فى شتى الأمور !!

ولكن .. لم يكن سليل الفاطميين بهذه البساطة التى تصورها كل من الغاصبين السفاكين ، اللذين نسيا أن الحية لا تلد غير الحية .. وأن حفيد المهدى الذى قتل داعيته ، لا بد وأن ينتقم ، وبنفس الوسيلة .. وأن الدم الذى جرى فى عروق الحاكم برجوان ، والآخر الذى غدر بالأفضل ، وتلاه بالمأمون البطايحى ــ هو نفسه الدم الذى يجرى فى عروق الفائز ، دم الغدر والتوثب وحب الاغتيال !!

وهكذا أخذ الفائز يتربص الدوائر بقاتلى أبيه ، وعرف كيف يتخير الأداة القاطعة التى وجدها فى شخص حاكم اقليم « المنيا » طلائع بن رزيق ، فأرسل فى استدعائه هو ورجاله وعبيده ، ليقوض سلطان عباس الخائن ، وينتقم للدم المسفوك !!

وحضر « طلائع » الى القاهرة .. وما أن دخلها حتى فر عباس وولده .. وصفا الجو للفائز ووزيره الجديد ، الذى كوفىء أعظم مكافأة ، وقدمه أمير المؤمنين على شتى رجال الدولة وأضفى عليه الرتب والألقاب وسمح له بأن يسمى نفسه « الملك الصالح » فارس المسلمين « نصير الدين طلائع بن رزيق » ..

وأخلص « طلائع » لسيده .. واستطاع بصبره وجلده أن يطعم الدولة المحتضرة بدم جديد ، كفل بقاءها لبضع سنوات .. فراح يعمل ويوطد ، ويرسى دعائم العرش القلق المضطرب ، حتى ضمن للفائز أن يستقر فى سلام ، وأن يفكر فى التعمير .. فى الوقت الذى كانت فيه البلاد المقدسة مسرحا لتطاحن دينى رهيب ، أثارته أوروبا وحركة تعصب « باباوات » روما ضد سماحة الدين الاسلامى ، فدفعوا الفرسان والمتحمسين من الملوك والامراء الى ما أسموه « الحرب الصليبية » لاستخلاص قبر السيد المسيح ! !

وكانت «عسقلان» فى تلك الفترة بالذات مهددة بالسقوط فى أيدى الصليبيين الذين استولت قواتهم المحاربة على بيت المقدس ، وأسسوا لهم هناك ملكا ، أحاطوه بأمارات متعددة فى البلاد التى سقطت فى أيديهم ..

و «عسقلان» التى كان الخطر الصليبى يتقدم منها ، كانت مدينة لها قداستها عند

المسلمين بصـفة عامة ، والفاطميين بصفة خاصـة ، اذ كان بهـا مزار يحوى راس الامام الحسين ..

وكان مجرد تقدم الصليبيين الى هذه المدينة ذات الصفة الخطيرة ، رغبة فى احتلالها وتكوين امارة صليبية بهـا ــ كافيا لأن يثير الذعر من أجل المشـهد الطاهر والرأس الشريف الموجـود فيـه .. واذن فمن الحكمة القيـام بعمـل حاسم وسريع والا وقعت الواقعة !!

وكان طلائع بن رزيق فى هذه الآونة قد وصل الى أعلا مراتب المذهب الفاطمى ، ووصل الى درجة خطيرة من درجات « الارتقاء » المذهبى .. ولهذا فقد أثاره أن يسمع بتقدم الصليبيين من عسقلان ، **وفيهـا مزار الامام العظيم الحسـين بن على .. وخاف أن تقع المدينة فى أيدى العـدو المهاجم فتحـدث الطامة ، ويسـتولون على المشهد والرأس الشريف !!**

ورأى طلائع بن رزيق أن يعرض الأمر على الخليفة « الفائز » ، ناصحا بأن يسرع بالأمر لنقل الرأس الشريف الى القاهرة ، لما فى هذا من دعاية مذهبية له ، واكتساب لعطف المسلمين ..

وبارك الفائز الفكرة .. وأسرع طلائع فنقـل الرأس الطاهر فى موكب فخم ، أثار الشجون ، وجدد ذكريات « مناحة عاشوراء » حتى وصل الى القـاهرة فى تابوت من الفضة ، حيث دفن أول مادفن فى « قصر الزمرد » وفى سرداب سرى فيه ..

وقد أراد الصالح ، تحمسا منه لمذهب الامامية الفاطمى ، أن يقيم للرأس الطاهر مسجدا يليق بمكانة صاحبه الشهيد سبط الرسول ، فكان أن رصد له المال اللازم ، وأمر بالاسراع فى اقامته .. فتم ذلك فى عام خمسة وخمسـين بعد الخمسـمائة من الهجرة .. وافتتح لأداء الشعائر ، وجلس فيه للوعظ والارشاد والدراسة أول من جلس الفقيه « **زين الدين الواعظ** » وقد اعتـاد الصالح طلائع أن يحضر مجلسه ..

* * *

ومسجد الصالح طلائع بن رزيق يمتاز عن شتى المسـاجد التى أنشئت فى العصر الفاطمى بدقته وبكثرة « العقود » التى تزين واجهاته الثلاث. والمسجد مبنى بالحجر، وبابه الرئيسى فى الجهة الغربية ويوصـل الى «رواق» محمول على أربعـة أعمدة من الرخام تعلوها «عقود» مزخرفة ، وعلى « أفاريزه » كتبت آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى ..

وعلى الواجهة البحرية كتب اسم الملك الصالح طلائع منشىء المسجد ، وألقابه التى كان يتسمى بها وتاريخ الانشاء ..

والمسجد يتكون من « ايوانات » أربعة يتوسطها صحن كبير به « صهريج » كان يمتلىء من ماء « الخليج » أيام الفيضان ..

ولما كان الصالح طلائع من غلاة المتشيعين للمذهب الفاطمى ، فلابد وأنه قد جلس فى مسجده هذا للدراسة فى كتابه الفقهى « **الاعتماد فى الرد على أهل العناد** » ، ليجادل الناس فى امامة سيدنا على المرتضى والاحاديث الواردة المثبتة لهذه الامامة..

والغريب بعد هذا أن الرأس الشريف لم يدفن بهذا المسجد ،، ولعل الخليفة الفائز رأى لبعض اعتبارات تتعلق بمكانته ، أن يقوم هو ببناء مشهد خاص ينقل اليه الرأس من قبر « قصر الزمرد » بدلا من المسجد الذى أنشأه الوزير طلائع ..

فقد بدأت الخلافة تدرس اقامة « **المشهد الحسينى** » **حيث هو .. ونقل اليه رأس الامام الشهيد فى موكب حافل جديد** ، حيث استقر فى مكان حوى الجمال ودقة الصنع ، حتى لكأنه روضة من رياض الجنة !!

وغير المشهد الحسينى ، ومسجد الصالح طلائع ، لم نسمع بوجود نهضة معمارية فى عهد « الفائز » .. الذى ما أن مات حتى جاء بعده ولده العاضد .. وكان وزيره ومشيره هو الصالح طلائع ، الذى لم يعرف الخليفة الجديد كيف يحتفظ به ، ليكون دعامة لبقاء ملكه .. فكان أن حاك مؤامرة للقضاء عليه ، ثم كمن له فى بعض « دهاليز » القصر عدد من عبيد العاضد ، وثبوا عليه وقتلوه !!

قتل الصالح طلائع والصليبيون يتقدمون .. كانت عسقلان قد سقطت فى أيديهم .. وكان الطريق قد انفتح أمامهم لغزو مصر والاستيلاء عليها وهى يومئذ سهلة ، اذ لا خليفة قوى ، ولا وزير محنك ، ولا جيش منظم موحد القيادة !!

وكان أبسط مايمكن أن يترضى به العاضد ، ابن وزيره طلائع – هو أن يجعل الابن فى مكان أبيه ..

وهكذا تولى « العادل رزيق » الوزارة ..

ولكن .. هل سكتت عنه مؤامرات الخليفة الضعيف المستسلم الى أهل الكيد وصناع المؤامرات ؟ !

لقد استعان العاضد برجل من حاشيته امتاز بالدهاء وعرف بسرعة الوثوب على ضحيته ، هو « **شادر بن مجير السعدى** » ، فجعله ينازع العادل رزيق الوزارة .. حتى تغلب «شادر» فى النهاية وقتل العادل ! !

ولكن الله كان بالمرصاد للقاتل ومن حرضه على ارتكاب جريمة القتل وسفك الدم الزكى ، الذى عرف صاحبه كما عرف أبوه بالوفاء والأمانة والاخلاص ، وسرعان ماظهر لشادر خصم رهيب هو « **ضرغام** » حاجب الخليفة !

واستبد النزاع بين «شادر» و «ضرغام» الذى استطاع فى النهاية أن يزيح منافسه من طريقه ، وقضى على آماله فى الحكم .. فكان أن أقسم « شادر » المغلوب ، على الانتقام ، وأسرع فاحتمى بالسلطان « **نور الدين محمود** » صاحب حلب .. وتوسل اليه أن يمده بحملة قوية تعزل «ضرغام» المغتصب وتعيد اليه مركزه المفقود ..

وأثار عمل «شادر» حنق ضرغام .. وأسرع دون الرجوع الى مشورة الخليفة ، فاستنجد بالصليبى « أمورى » حاكم بيت المقـــدس المنتظــر فى عســقلان والطامع فى غزو مصر ..

وتحرك الصليبيون نحو الهدف .. وأسرعت قوات السلطان نور الدين لتلحق بهم تحت قيادة أسد الدين شيركوه .. فهزمت الصليبيين وقوات ضرغام الموالية لهم ..

وقتل ضرغام .. وخلا الجو لشادر من جديد .. ولكن طبيعـــة الغــدر سرعان ما عاودته ، فأراد التخلص ممن أنقـــذوه وأعادوه الى السلطان ، فكاتب الصليبيين ليعودوا من جديد ! !

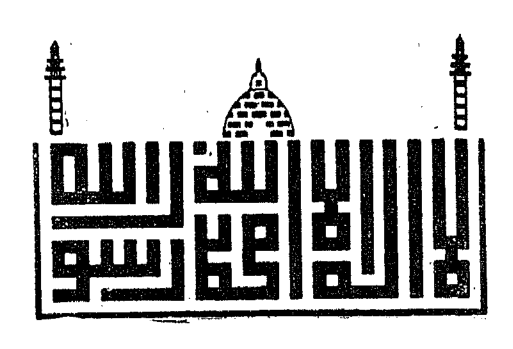
واستمرت المناورات .. وتطور النزاع .. وعاد الصليبيون الى مصر غازين بعــد أن هزمتهم قبلا قوات شيركوه .. وخشى شادر من تقدمهم الذى اقترن بالفظائع .. ولما كانوا قد وصلوا فى زحفهم الى الفسطاط أمر باحراقها .. فأحرقهــا زبانيته ، وظلت النيران مشتعلة بها خمسة وأربعين يوما ! !

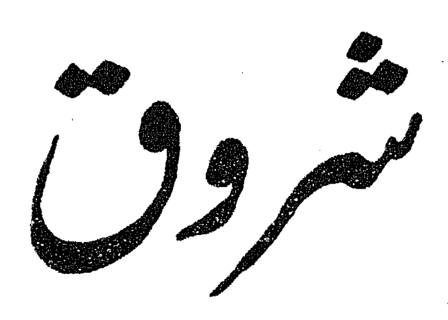
وأكلت النيران الفسطاط ، المدينة المصرية العربية الحبيبة .. ولم يسلم من شرها مسجدها الجامع العظيم الذى أنشـــأه عمرو بن العاص وخصـــه الولاة والخلفاء بكل اهتمام فى شتى العصور التى تلت الفتح الاسلامى ..

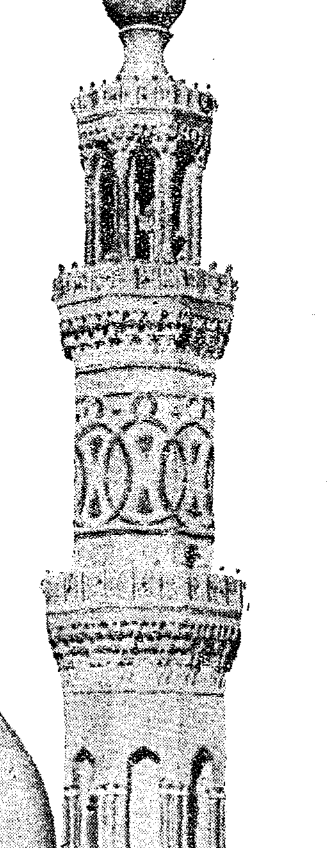
لقد خشى مؤتمن الخلافة جوهر أن تعود فيه الخطبة لبنى العباس ، فأقسم ليتركنه قاعا صفصفا .. فأمر « **ابن سماقة** » أحد أتباعه بأن يشعل فيه النار ففعل !.

واستنجد الخليفة العاضد بالسلطان نور الدين محمود .. فعـــاد شيركوه ودخل بقواته مصر وكان فى بطانته ابن أخيه صلاح الدين ..

وعلى هذه الصورة من صور الصراع ، بدأت شمس الفاطميين تغرب ، ويتلاشى شعاعها الى الأبد ..






« مئذنة السلطان برقوق »

عندما نودى بالحاكم أميرا للمؤمنين بعد أبيه العزيز بالله ، سأله بعض خاصته أن يمن عليهم بتسمية ، وأن يحرر لهم مكتوبا يحوى عدة نعوت وصفات تضفى على الخلفاء الفاطميين فى مصر على كر الدهور..

فراقت الفكرة للحاكم وراح يملى على تابعه عدة ألقاب كثيرة ، كان فيها « الظاهر » و «المستنصر» و «الآمر» وغيرهم .. حتى وصل فى النهاية الى «العاضد» ثم توقف !!

وعاد التابع يسأل مولاه مزيدا من ألقاب الخلفاء .. ولكن قريحة الحاكم لم تسعفه بشيء بعد « العاضد » فقال : ان هذا يكفى وكأنما كانت تلك الكلمة نبوءة من الخليفة ، سرعان ماحققتها الظروف نفسها ، لأن « العاضد » فعلا كان آخر أمير للمؤمنين من نسل الفاطميين ..

لقد كانت حياة العاضد حياة مضطربة قلقة .. وكانت خلافته فترة من فترات الاصطراع الرهيب على الجاه والتسابق على السلطة بين خاصته وأتباعه ، الذين صغر أمير المؤمنين فى أعينهم فلم يحسبوا لوجوده أي حساب .. وبلغت منهم الجرأة أن فاوضوا « الغير » على دخول مصر .. وأباحوا لهم تملكها والخليفة على قيد الحياة !!

وقتل ضرغام .. ولحق به « شادر » الطامع الذى باع مصر للصليبيين .. وقفز

الى مكان الصدارة « أسد الدين شيركوه »قائد السلطان « نور الدين » ، فأصبح ، وهو التابع لصاحب حلب وزيرا للعاضدالفاطمى ..

ومر عام .. ومات شيركوه ، وسرعان مافتح المجد أبوابه لصلاح الدين ابن أخيه ، فأصبح بين يوم وليلة قائد الجيش السلجوقى التابع لسلطان حلب ·· ووزير الخليفة الفاطمى العاضد ..

وكان العاضد من الهوان بحيث لم يحفل به أحد .. واتفق وزيره الكبير صلاح الدين مع سيده الأول الأصيل «نور الدين» على الحكم باعدامه « أدبيا » .. وذلك بأن تقطع « الخطبة » عنه ·· وتكون للسلطان نور الدين التابع للخليفة العباسى فى بغداد ··

وتريث صلاح الدين ·· وراح يعمل فى حكمة وحذر ليرضى كلا الطرفين ، ودون أن يثير أحدهما عليه ·· فذكر اسم العاضد فى الخطبة أولا ، وأمر بالدعاء بعده للسلطان نور الدين ــ مع بعد الفارق بين مذهبى الرجلين ، فأولهما فاطمى شيعى ، وثانيهما « سنى » يعتبر الاول من الروافض !

وسار صلاح الدين سيرة العدل ، ولكنه أحس بأن أفعى المؤامرات بدأت ترفع رأسها فى القصر من جديد ، فأخذ حذره وهو الشاب الفطن الذى لم يكن قد تخطى الثلاثين من عمره وقتها ، والذى علمته الحروب التى خاضها كيف يتقى الهجوم المفاجىء .. وكيف يفاجىء عدوه ويقضى عليه ..

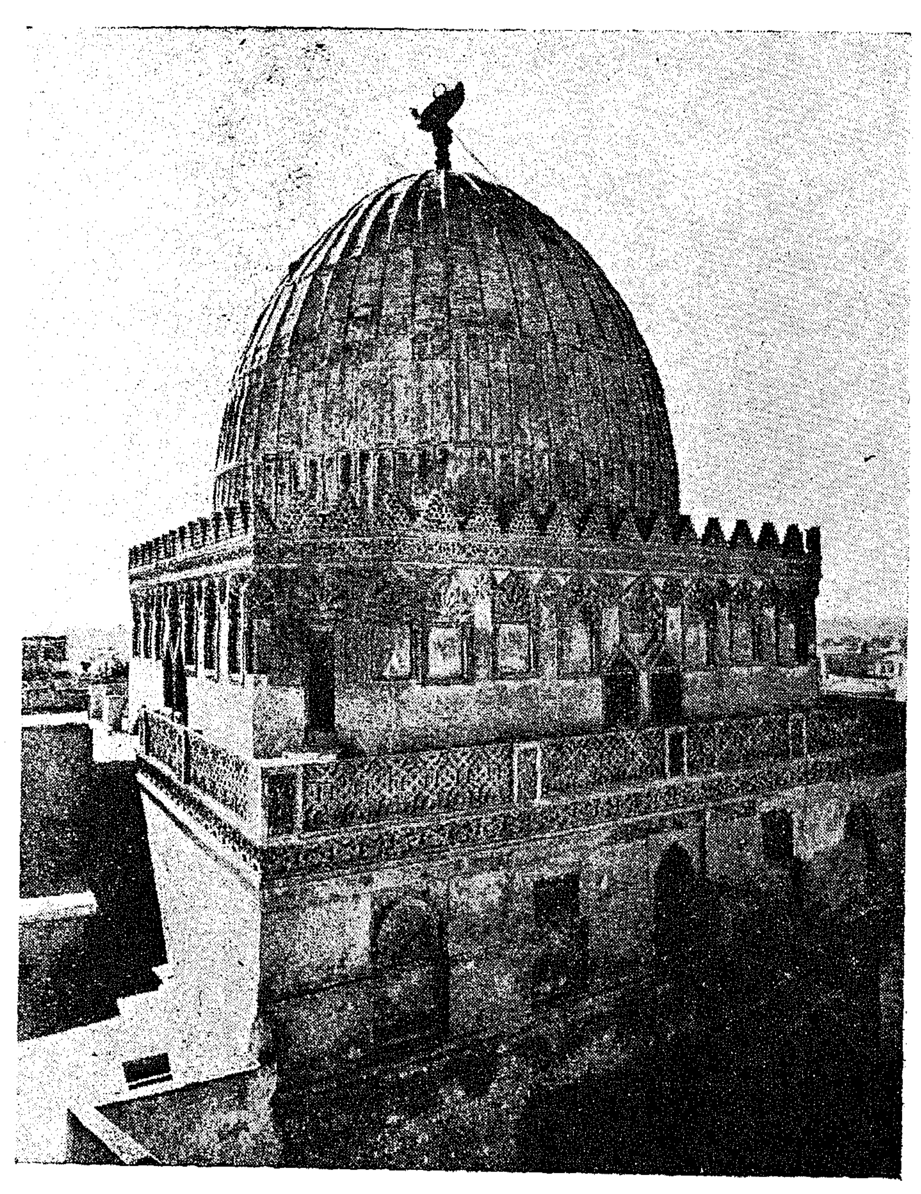
ولما كان « جوهر » مؤتمن الخلافة ورئيس حرس الخليفة الذى أمر قبلا باحراق جامع عمرو أيام حريق الفسطاط ــ هو الذى يقود الفتنة ضد صلاح الدين ، وينسج شباكها لاغتياله ، فقد عجل الشاب « فتغدى بالعبد الخائن قبل أن يتعشى هو به » !

ورأى صلاح الدين بعد هذا أن يسفر عن وجهه ووجه سياسته ، وأن يترك جانب مجاملة العاضد الضعيف الخائن الذى لا يعرف غير المؤامرات ولا يستمع لغير الخونة .. فكان أن استجاب لمشورة سيده الأول « نور الدين » فقطع الخطبة عن العاضد ·· وكان قطعها بمثابة المناداة بخلعه وتجريده من سلطانه ··

ولم يعمر العاضد بعد قطع الخطبة عنه واعادتها الى الخليفة العباسى ، غير يوم أو بعض يوم ..

❊ ❊ ❊

ولقد قيل انه مات ، وقيل انهم دسوا له السم ، وقيل انه انتحر حزنا وألما .. وأبى القائلون بانتحاره الا أن يكون انتحارا فخما ، لايشبه انتحار العاديين من الناس بالسم أو السلاح ، بل قالوا : انه انتحر بابتلاع قطعة كبيرة من الماس تقدر بمئات الالوف من الدنانير ! !



قبة الامام الشافعي : انشأها الملك الكامل المظفر في الدولة الايوبية سنة ٦٠٨هـ ،وانشأ بجوارها السلطان صلاح الدين الايوبي المدرسة الصلاحية لتدريس الفقه ـ والامام الشافعي هو الامام أبو عبـــد الله محمد ابن ادريس الشافعي القرشي يجتمع نسبه لأبيه مع رسول الله في « عبد مناف » وأمه فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وسواء مات العاضد أو انتحر ، فان ذهابه كان ايذانا بذهاب دولة الفاطميين ، التى حكمت مصر والشرق أكثر من قرنين ونصف قرن.. وايذانا باشراق مجد صلاح الدين المحارب الشاب الذى أحس أن فى مصر مجده ، فراح منذ اللحظة الاولى لتوليه السلطان يعمل على استتباب مركزه وتقويته بشتى الأسباب ..

وهكذا ، ومع مطلع هذا العهد الجديد فقدت مصر مركزها كدار خلافة وعادت الى مركزها الاول ، ولاية محكومة تدين بالطاعة لسلطان الخليفة العباسى الذى كان يتحكم فى أقداره السلاطين السلاجقة التابعين له ، والذين كانوا يحكمون باسمه سائر أمصار الدولة الاسلامية ..

وتبدى لصلاح الدين حرج مركزه فى مصر من اللحظة الاولى ..

كان سنيا ، وكانت مصر فاطمية شيعية ..

وكان عليه – كرجل حرب – أن يدحر القوى الفكرية والمذاهب الدينية التى تخالف مذهبه ..

ولكن .. ماذا كان عليه أن يفعل ؟ !

أكان يستطيع فى لحظة واحدة أن يقضى على آثار غرسها الفاطميون فى أرض مصر طوال قرنين ونصف قرن ؟ !

أكان بوسعه فى كلمة واحدة يصدرها أن يحرك العقول والأفكار ، ويعلن زوال المذهب بعد زوال سلطان أصحابه ؟ !

كل شىء فى مصر كان فاطميا صرفا : العاصمة .. مساجدها الجامعة .. جلسات العلم فيها .. آراء الناس .. معتقداتهم !!

وظل صلاح الدين يفكر .. وراح يسائل نفسه من جديد : أيترك «القاهرة» ليبحث له عن مكان جديد ينشىء فيه عاصمة جديدة ومسجدا جامعا هو الآخر !!

لم تكن الظروف تسمح بمثل هذا العمل اطلاقا .. كان التغيير الجديد يتطلب الثبات والاستعداد ، فالدولة الجديدة دولة حربية ، ان لم تكن قد دخلت فى ميدان حرب فهى انما تستعد لخوضها فى القريب ضد قوات الصليبيين ..

اذن ، فالواجب هو القضاء على المذهب الفاطمى نفسه شيئا فشيئا ، ارضاء للخليفة العباسى وللسلطان نور الدين .. وفى ذات الوقت لعدم ازعاج شعب مصر واجباره على اتباع مذهب جديد ..

لقد أحس صلاح الدين بعجزه أمام القاهرة ، فلا هو استطاع أن يهجرها ، ولا هو استطاع أن يغير مذهبها الفاطمى .. فتركها على حالها وراح يبحث عن أخطر عدو له ليحاربه .. وأى شىء كان أخطر من الجامع الازهر فى حلبة الصراع ؟!

كان الأزهر مركز الدعاية الفاطمية ومدرستها الخطيرة ، التى كان يتخرج فيها الدعاة ، ويتعلم الناس منه أسرار المذهب .. فالضربة اذن يجب أن توجه من صلاح الدين الى هذا الجامع الخطير ! !

وبدأ صلاح الدين بالأذان الفاطمى ، فأصدر أمرا بالغائه .. ثم ألغى من بعده جميع الشارات والشعائر والطقوس التى استنها الفاطميون .. ثم ألغى منصب داعى الدعاة ، وأسند منصب قاضى القضاة الى فقيه شافعى ، هو « عبد الملك بن درباس » .. فكان فى هذه الأعمال مجتمعة مايعنى اعلان بطلان المذهب الفاطمى وطقوسه .. وفيه أيضا دعوة تلميحية للناس أن يتبعوا السياسة الجديدة ، والمذهب السنى الجديد.. ولا بأس من أن يتبعوا مذهب الامام الشافعى بالذات ، لانه معروف لهم جميعا كامام مجتهد كانت له آراء وتعاليم ودراسات فى مصر نفسها .. ثم انه مدفون فى أرضها الطاهرة ..

وظن صلاح الدين أنه استطاع أن يكسب الجولة الاولى ..

ولكن خاب ظنه ، اذ لم تكد احدى المناسبات الموسمية تقبل ، حتى اتجه الشعب بجميع طبقاته الى الجامع الأزهر للاحتفال بها ، جريا على العادة المتبعة ، فخرجت المواكب وأضيىء الجامع الشامخ العتيد وتألقت أنواره ، واضيئت الطرق المؤدية اليه ، وامتلأت باحاته وصحنه بالناس .. بل واتجهت مواكبهم بعد هذا الى قصر الخليفة الذى كان قد مات .. فأبوا فى حفلهم التقليدى الا أن يبعثوا ذكراه من جديد ! !

* * *

وتبدى الجامع الأزهر فى صورة العدو العملاق الذى عز نيله على صلاح الدين !!

ما العمل اذن ؟ !

أيكون حاكم مصر سنىالمذهب ، وسيده السلطان نور الدين سنيا أيضا ، وخليفته عباس يكره الشيعة ويحرم اتباعها ، ثم تكون مصر فاطمية شيعية ، حتى بعد زوال الخلافة وشخوص الخلفاء ؟ !

ولئن كانت القوى المادية قد عجزت عن الوقوف أمام سلطان الأزهر المتمكن فى النفوس ، فلم لايستنجد صلاح الدين بسلطان الشريعة نفسها ويلجأ الى حكم الدين ، فقد يجد فيه منفذا الى تحطيم هذه الدعوة التى لا سند لها من الدين ! !

ولم يجد حاكم مصر الشاب من يلجأ اليه فى حيرته تلك غير قاضى قضاته الشافعى عبد الملك بندرباس ، فبعثاليه وشرح له الأمر وسأله فيه المشورة.. وحكم الدين !!

كان ابن درباس يعرف مدى خطورة الدور الروحى الذى يقوم به الجامع الأزهر فى الحياة العامة .. وكان يعرف ماكان يرمى اليه الحاكم السنى من رغبة فى تقويض

سلطان الأزهر باعتباره منارة المذهب الشيعي المناوىء لمذهب الدولة الرسمى ..

فكان أن نصح صلاح الدين بأن يتحول الى الجامع الحاكمى فيؤدى فيه صلاة الجماعة فى المناسبات وأيام الجمعة ..

وأطاع صلاح الدين وتحول الى الجامع الحاكمى .. وتحولت معه الدولة بالتبعية من كبار الاعيان والشخصيات وجماهير العامة .. ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبح الجامع الحاكمى هو مسجد الدولة الرسمى ..

وسأل صلاح الدين صاحبه الفقيه القاضى ابن درباس أن يخطو خطوته الثانية نحو هدفه الاصيل ..

ووجدها الرجل فرصته بعد التمهيد الأول ، فكان أن أصدر فتوى على المذهب الشافعى تقضى بعدم جواز اقامة خطبتين للجمعة فى مسجدين يقعان فى بلد واحد !!

وكانت هذه الفتوى بمثابة صك حرمان للأزهر ، وتجريد من النفوذ ، وابطال لصلاة الجماعة فيه ، مادام الجامع الحاكمى قد أصبح المسجد الرسمى للدولة !!

واتجه صلاح الدين ــ بعد أن أغلق أبواب الأزهر دون صلاة الجماعة ــ الى مسجد آخر ، وقد استقر عزمه على أن يبعثه من جديد وأن يجعل الحياة تدب فيه..

كان هذا المسجد هو جامع عمرو بن العاص الذى احترق يوم حريق الفسطاط وهو يومها امام المساجد وأشهرها .. أما اليوم فانه خراب بلقع معطل عن أداء الشعائر كلها بما فيها حلقات الدراسة التى اشتهر بها وعرفت عنه ..

ولقد كان اتجاه صلاح الدين الأيوبى الى جامع عمرو بالذات لتعميره واعادة سابق عزه اليه ، ضربة سياسية موفقة ، وكافية لأن ترد عنه ماكان يستطيع قلاته أن يرددوه من افك وضلال .. وادعاء بأن رجل الحرب الطامع ، لم يكتف بأن قوض عرش الفاطميين وأذهب عنهم ملكهم .. بل راح يحارب أعظم مساجدهم وهو الجامع الأزهر ، ليقضى على سمعته ويهدم مكانته بتحريم أداء صلاة الجمعة فيه وتحويلها الى مسجد آخر لا يدانيه مرتبة ولا يقف الى جانبه فى مجالى الشهرة وبعد الصيت ! !

* * *

وبدأ صلاح الدين أول مابدأ من اصلاح فى جامع عمرو بن العاص ، فأعاد بناء الصدر والمحراب الكبير وكساه بالرخام وزينه ونقش عليه اسمه والمناسبة التى دعت الى هذا التجديد ..

وفى «سقاية» قاعة الخطابة ، أوصل صلاح الدين قصبة تصل الى أعلا المسجد ، ليعم الانتفاع بها هناك ..

وكانت تحت المئذنة الكبيرة «منظرة» تهدمت ، فعمرها أيضا وجعل فيها سقاية..

وكذلك جدد فى كتف دار عمرو بن العاص الصغرى من ناحيتها البحرية ، وزاد فيها قصبة اخرى حتى وصلت الى محاذاة السطح ، وجعل لها مرفقا يوصل اليها ..

ووجه عنايته بعد ذلك الى المكان الذى كانت تحفظ فيه المزاول ، فعمره وحسنه وأصلح المزاول نفسها ، وضبط مواقيتها واتجاهاتها الشمسية وأعادها الى العمل من جديد ..

وأمر صلاح الدين فنزعت المناطق الفضية التى كان المستنصر الفاطمى قد جمل بها صدر المحراب الكبير والعمودين المحيطين به .. ثم أمر بأن تنزع هذه المناطق أيضا عن جميع أعمدة المساجد فى القاهرة ..

وهكذا .. وبعد أن أعاد صلاح الدين لجامع عمرو سابق روائه ، وبعث فيه الحيوية من جديد ـ أمر بطلاء جدرانه كلها وتجديدها .. وعمد الى تنظيف أعمدته الكثيرة وأصلح رخامها واستبدل المهدم منه بآخر جديد ..

ورأى أن يعم التجميل كل شىء فيه .. حتى أرضه ، فقد أشار بأن تفرش كلها بالرخام الناصع ..

وبدا الجامع وكأنه الشىء حديثا .. وأقبل عليه الناس فرحين داعين للحاكم الشاب الجديد ، الذى أضفى على الجامع العتيق روعة وجلالا ..

وأصبح لجامع عمرو بن العاص بعد اتمام هذه الزيادة الايوبية عدة أبواب ، هى :

الباب المعروف بباب « الزير لحته » فى الجانب ، وهو الباب الذى اعتاد أن يدخل منه الخطيب ..

وثلاثة أبواب فى ناحيته الغربية ، أولها ناحية الزيادة الشرقية ، وثانيها فى الزيادة الغربية ـ وهو الموصل الى مجلس الحكم الشافعى ، وثالثها فى بقية الزيادة الغربية ..

وخمسة أبواب فى الجانب البحرى على صف الطريق العام ـ وهى :

باب الشرابيين ، وباب زاوية فاطمة ، وباب عمرو ـ وهو المقابل لداره الصغرى ، وباب الحلوانيين ، والباب الجنائزى ـ الذى تدخل منه الجنائز ، ويعرف أيضا بباب الكحل ..

وأربعة أبواب فى جانبه الغربى ، اثنان منها فى زيادته الغربية ، والثالث باب سوق الغزل ، والرابع باب الاكفانيين ..

* * *

وفتح المسجد بعد هذا للصلاة .. وعادت اليه حلقات الدراسة التى اشتهر بها .. واستعاد عزه وقديم مجده على يد صلاح الدين .

ثم راى السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، بعد أن شجع على اعادة الدراسة فى جامع عمرو ـ أن يستمر فى محاربة الجامع الازهر ، لا بتحريم جلوس العلماء فى

باحاته وصحنه ، ولا بحظر الدراسة فيه ، ولا باغلاقه نهائيــا فى وجوه الطلاب .. بل بسلاح العلم نفسه ..

لقد أفتى ابن درباس بتحريم الصلاة الجامعة فى الجامع الازهر ... فلم لا يقوم العلم بدوره الىجانب الدين فى محاولة تجريد الجامع الازهر من جلاله العلمى كمدرسة عظيمة الشأن ، لها صيتها فى شتى جوانب العالم الاسلامى .. واليهـا يفد الطلاب وراغبو المعرفة من شتى الجهات والبقاع !!

واستقر الرأي على انشاء عدد من المدارس ، تقوم المناهج الدراسـية فيهـا على انقاض المذهب الفاطمى .. وتقضى على كل أثر لدعوة الشيعة .. حتى تحررت مصر من كل أثر يتصـل بالفـاطميين وتقاليدهم وأعيـادهم وعاداتهم التى اسـتحدثوها فى المجتمع المصرى ، واستطاعوا مع الزمن أن يغرسوها فى النفوس ، فأصبحت بضعة من كيان الشعب ..

* * *

وهكذا أخذت المدارس « السنية » تنتشر فى مصر ..

وكان صلاح الدين عمليا الى حد بعيد ، فانشأ المدرسة « الناصرية » وكان مركزها مدينة « الفسطاط » على مقربة من « جامع عمرو » وقرر على الطلاب فيها دراسة مذهب الامام الشافعى ..

ولما رأى صلاح الدين أن الاقتصـار على فقه الشافعى ومذهبه كمادة للدراسـة لا يفى بالغرض الذى أراده ، عمل على توسيع اختصاص المدرسة والحق بها مدرسة أخرى ، قرر علىالطلاب فيها دراسة مذهب الامام مالك.. وحبس لهاتين المدرستين أحباسـا كثيرة من أرض زراعيـة وعقـار ، ومنح طلابهما فى سخاء أكثر مما كانوا ينتظرون ، الى حد أنهم أطلقـوا على الدار التى كانوا يدرسـون فيهـا فقـه مالك « المدرسة القمحية » ، لانها اعتادت أن توزع القمح على أساتذتها وطلابها مما كانت تغله الأرض الزراعية الموقوفة عليها فى اقليم الفيوم ..

واتجه السلطان الجديد ، بعد أن أغلق الازهر وأنشأ المدارس ، ليتحول الطلاب اليها — الى أمهات الكتب والمصنفات التى أخرجها كبار فقهاء الشيعة وائمة المذهب الفاطمى ، فقضى عليها ، اما بالاحراق أو الاخفاء فارتكببذلك خطأ تاريخيا جسيما ، اذ سد الباب أمام الباحثين عن حقيقة المذهب الفاطمى الذى نشأ غامضا ، واستمر غامضا .. وقضى وهو أشد مايكون احتفاظا بغموضه !!

ولكن ، هل أفلحت القوة ووسائلها فى صرف الناس عن الجامع الازهر ومجالس العلم التى ظلت قائمة فى صحنه برغم كل ماحدث ؟!

كلا ؛ فقـد عاد للازهر مكانه العلمى ، بعد أن خلع عنه رداء « المذهبيـة الشيعية » وظل مفتوح الأبواب لاستقبال طلاب العلم الذين لم تنقطع به صلتهم وظلوا يفدون

عليه من شتى بقاع العالم الاسلامى ، على الرغم من اهمال الدولة له ، واغتصابها الأحباس العديدة التى أوقفها الخلفاء الفاطميون عليه !!

* * *

وبالرغم من وجود المدارس الجديدة التى افتتحها السلطان صلاح الدين .. وقيمتها الرسمية وخطورة الدور الذى كان عليها أن تقوم به — فانها لم تستطع أن تنافس الازهر فى مكانته العلمية فى العالم الاسلامى ، أو تدانيه شهرة ..

ولقد وفد على مصر فى تلك الحقبة بالذات علماء أجلاء .. كان التقليد الرسمى يوجب ذهابهم الى تلك المدارس والجلوس فى قاعات العلم بها لمحاضرة الطلاب ..

ولكن هذا لم يحدث ، اذ انصرفوا عنها بطبيعتهم واتجهوا الى الجامع الازهر وجلسوا فى صحنه العتيد ، وحواليهم الطلاب ، يغترفون من بحور العلم ويصغون الى روائع الآيات ..

ومن أشهر من وفد على مصر فى تلك الآونة وجلس فى صحن الجامع الازهر للمدارسة ومحاضرة الطلاب ، العالم الأشهر « أبو القاسم الرعينى » الذى عرف باسم « الشاطبى الضرير » ، وكان حجة فى علوم القرآن وسندا فى أصول القراءات ، ومقرئا فحلا له خطره ..

واعتاد الطلاب أن يتجمعوا حول الرجل العلامة ، وفيهم كثيرون من طلاب مدرستى صلاح الدين أنفسهم ، ليتعملوا ما لم يكونوا يعلمون ، وما لم يكن مقدرا لهم أن يعرفوه لو لم يجلسوا الى « الشاطبى الضرير » الذى جعل منهم رسل وصل لعلمه وخبرته للأجيال القادمة ، حيث ترك لهم قصيدته الشهيرة فى علم القراءات، والمعروفة باسم « **حرز الامانى ووجه التهانى** »

وفى هذه الحقبة بالذات أيضا ، وبرغم انصراف الدولة عن « الجامع الازهر » جلس فيه للمدارسة والقاء المحاضرات العلمية المؤرخ العظيم « **ابن خلدون** » .. كما التف الطلاب فى هذه الاثناء أيضا حول عالم النحو والصرف « **ابن الدماميتى** » وحول حلقة أستاذهم وسيد أهل زمانه من أهل القراءات « **الفخر البلبيسى الضرير** » ..

ومن الغريب أن الجامع الازهر الذى حاربته الدولة من أجل المذهب الشيعى ، فاخر بوجود جهابذة العلم وأئمة البلاغة فيه .. وتحدى الدنيا قاطبة بأسمائهم ، فى الوقت الذى لم تستطع فيه المدرسة الناصرية بقسميها : الشافعى والمالكى — أن تتقدم باسم واحد شهير من أساتذتها وعلمائها !!

***

وابى « الازهر » فى مطلع عصر صلاح الدين الايوبى ، الا ان يساير سنة التقدم والتطور برغم الركود الذى فرض عليه ، اذ أخذ فيه باتباع نظام جديد مع طلابه النوابغ الاوفياء الذين كانت تنتهى دراساتهم على خير وجه ، فمنحهم المشرفون على

الدراسة اجازات علمية . تبيح لهم أن يتصـــدروا حلقات العلم ، وأن يتولوا تدريس المواد التى تخصصوا فيها لمن يقصدهم فى مجالسهم الجديدة من الطلاب ..

وكانت « الشهادات » الدراسية التى اعتاد الازهر أن يمنحها لنوابغ طلابه ، آية صدق ودليل نبوغ لمن كانوا يحملونها فى العلم الذى تخصصوا فيه .. وكانت هذه الشهادات من الندرة بمكان بحيث لم تمنح الا لمن كان يستحقها عن جدارة ..

وكان غريبا من الدولة التى تعمدت صرف الناس عن مجالس الدراسة فى الازهر ، أن تهتم « بخريجيه وحملة شهاداته » فكانت تتلقاهم بالتمجيد ـ وتتلقفهم بالاعجاب .. وتسارع بأخذهم فى صفها لتستفيد فى مدارسها من علمهم وخبرتهم وما اكتسبوه طوال فترة دراساتهم هناك ..

و « **القلقشندى** » صاحب « **صبح الأعشى** » كان من نوابغ خريجى « الازهر » وابر طلابه به ، وقد تتلمذ على يد العلامة **سراج الدين أبى حفص الشهير بابن الملقن ..**

ومن العجيب أن القلقشندى تخصص فى دراسة فقه « الشافعى » ونال اجازته العلمية فيه .. ولكنه لم يجلس فى الأزهر ولم يحاول أن يكون من علمائه ، اذ أغرته الدولة على الانضمام الى مدارسها ، فكان من أنبغ أساتذتها واخطر محاضريها ..

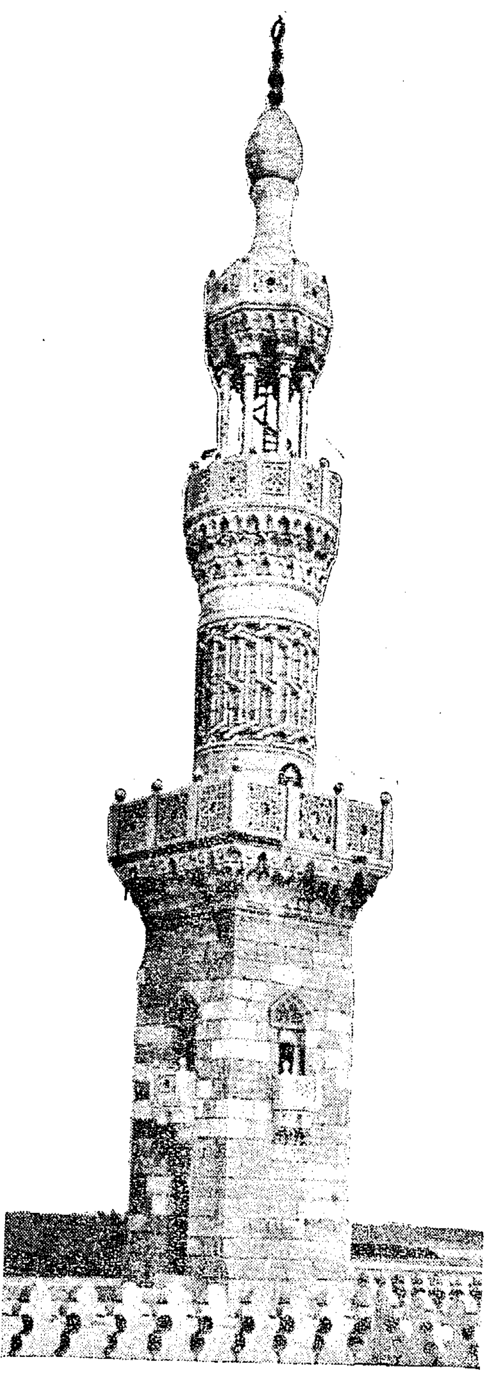
وقد تخرج فى الازهر خلال هذه الفترة أيضا « المقريزى » و «بدر الدين العينى» و «شرف الدين المنادى» و « جلال الدين السيوطى » و « سراج الدين البلقينى » و « شمس الدين السخاوى » ..

وكما فعل القلقشندى فعل هؤلاء ، فتركوا الأزهر الى مدرستى صلاح الدين الايوبى ، ومعهم زميل لهم هو « ابن حجر » الذى تولى لفترة ما وظيفة الخطابة فى الأزهر ..

لقد أراد صلاح الدين الأيوبى أن يقضى على المذهب الشيعى ، فحارب الازهر بالمدارس .. حتى شاء الله فاختفت المذهبية التى كان يحاربها فى الازهر ، وصار عهده عهد شروق وانتعاش لعلوم الدين التى بعدت عن المذهبية والتحيز ، واختطت طريقا قويما ، كفل للأزهر البقاء على كر العصور ..



حروب وحصون



« مئذنة السلطان الأشرف برسباى »

مضى موكب الزمان فى مسيره الرتيب ، ودارت عجلة الحوادث بين اسراع وابطاء .. واستطاع صلاح الدين أن يستشف الغيب ويصل ببصيرته النفاذة الى ماكان يفكر فيه سيده صاحب حلب ، السلطان نور الدين.

لقد أحس السلطان أن تابعه الشاب قد قفز الى مكان الصدارة ، وأنه أصبح من المنعة والقوة بحيث يستطيع أن يتزعم الشرق كله !! فلديه القوة والمال ، وهو يملك الأرض الخصيبة ، ذات الموقع الممتاز والمكانة التى لا تعدلها مكانة ..

وشعر صلاح الدين أن سيده انما قد سكت عليه مرغما ، ولم يرد أن يتورط معه فى نزاع يوم يصدر أمرا باستدعائه من مصر ، فقد لا يطيع الشاب الطموح أوامره ، وقد يشتد بينهما النزاع وينقلب الى عداء صريح لا يفيد منه غير العدو المترقب الذى يتمنى وجود ثلمة ينفذ منها الى الكتلة الاسلامية المتراصة التى تجمعت وقامت لتدفع عن العروبة والاسلام عدوان من أسموا أنفسهم صليبيين !!

ولقد حمد صلاح الدين لسيده سكوته عليه وتركه اياه فى مصر برغم توتر العلاقات بينهما ، ليقوى نفسه ويحصن مركزه ، ويبنى لغده المأمول الذى أحكم ارساء قواعده لتكون مصر الغنية له وحده ومن بعده لبنيه ، فجعل يتودد الى سيده القديم متبعا سياسة الدهاء والتظاهربالخضوع ، فى الوقت الذى راح فيه يدعم ملكه ويوسع رقعته ويمكن لسلطانه ، لا فى مصر وحدها بل فى بلادالنوبة واليمن أيضا !

لقد تفانى صلاح الدين فى ارضاء سيده السلطان نور الدين .. أعلن زوال الخلافة الفاطمية ، وحارب المذهب الشيعى الفاطمى ، وأغلق الازهر دون صلاة الجماعة ، وأعلن الحرب على حلقاته الدراسية المذهبية بانشاء مدارس جديدة فى برامجها ونظمها.

وها هو ذا اليوم وقد نفذ سياسة نور الدين التى أشار بها ، يتجه الى سياسة جديدة ، هى سياسة التقرب من الشعب وارضاء كافة طبقاته ..

وبدأ السلطان الملك الناصر صلاح الدين فى سياسته الجديدة بالغاء المكوس العديدة التى كانت مفروضة على الناس ، فجذب اليه قلوب الشعب وروضهم على حبه والتفوا حواليه وقد زادوا به عزا ومجدا لهم ولوطنهم العظيم ..

ولم يكد صلاح الدين يضمن لنفسه ولاء الشعب وحبه حتى اتجه الى تقوية مركزه كرجل حرب وكفاح ، بأن رسم خطة لتحصين القاهرة نفسها ، واعزاز مركزه الحربى فيها ، لأن فى هذا التعزيز ما يؤيد بقاءه وصد أي عدوان عنه ..

وأسرع صلاح الدين يبنى سور القاهرة كاملا .. ويقويه من بعض جهاته ، متبعا نفس السياسة الاستراتيجية التى اتبعها قبله بدر الدين الجمالى أمير الجيوش .. ورأى بعد أن أقيم السور وتعززت مراكز المراقبة فيه ، وسلحت بواباته بالحديد — أن يبنى لنفسه قلعة تكون مقر حكمه .. وفى نفس الوقت تتحكم فى القاهرة كلها وما حولها من الضواحى ، وتكون من المناعة والقوة بحيث تصمد لأي هجوم خارجى عليها ..

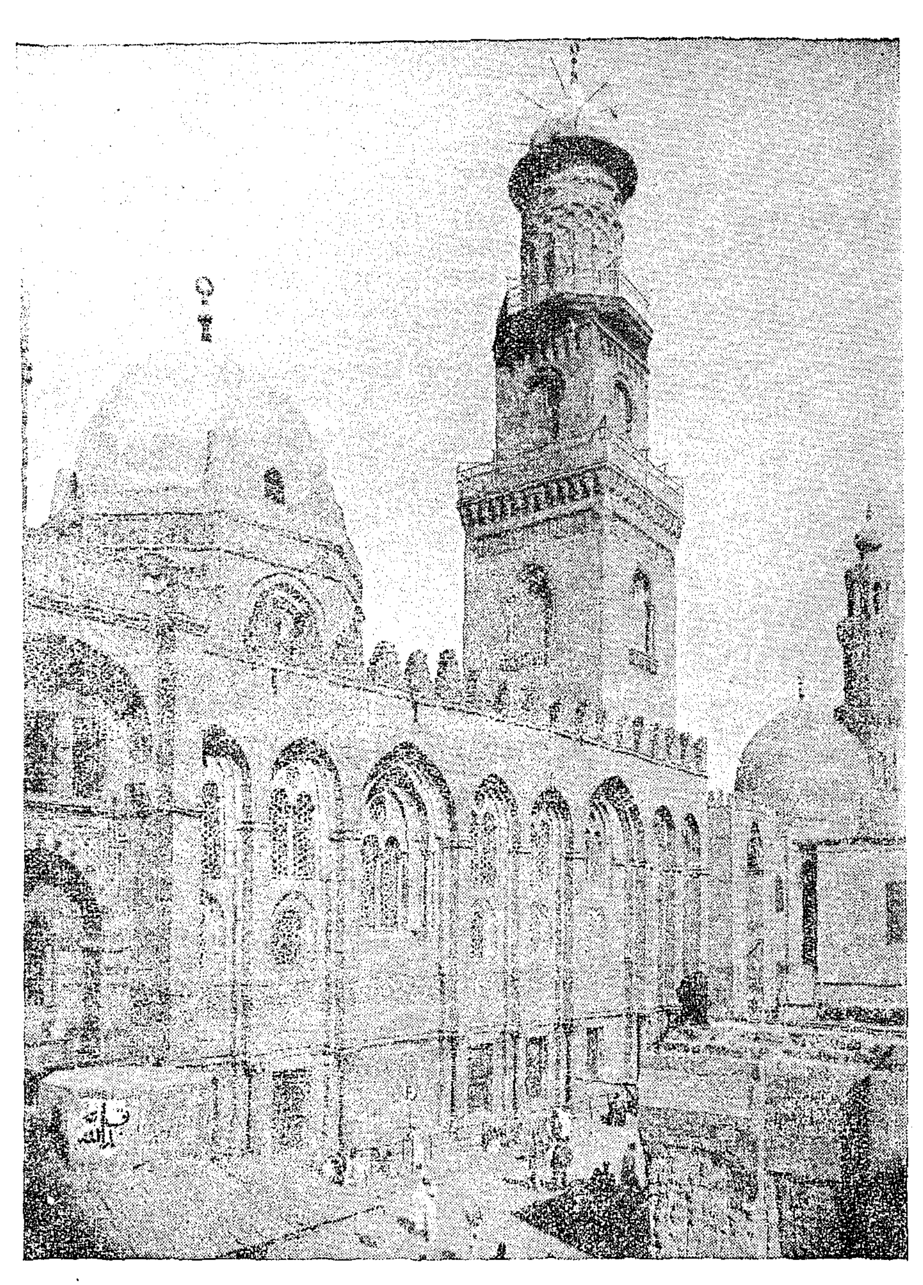
***

واتخذ صلاح الدين « النسر » شعارا له وللكه .. والنسر ملك الطيور وسيدها الذى يميزه حبه للعلا ، وغرامه الدائم فى أن يبنى عشه على القمم العالية فلا تصل اليه يد .. ويستطيع أن يشرف من مكانه الأشم على كل من تحته من الكائنات ، اشراف السيد العظيم ..

لقد كان النسر الآدمى من الحذر واليقظة بحيث لم يفته شيء مما كان يحدث فى رقعة العالم الفسيح المنبسط أمام عينيه الحادتين .. فعرف .. وأخذ حذره .. بل واستعد لكل الاحتمالات ..

لقد كان صلاح الدين يعرف أن دولته الجديدة التى قامت على أنقاض الخلافة الفاطمية ، انما هى دولة حرب ، وحصون وقلاع .. فأتم انشاء الحصون ، وأحكم بناء القلاع ووقف ينتظر الحرب — وهو مستعد لها ، سواء هبت من المعسكر الصليبى ، أم من ناحية سيده نور الدين ..

والواقع أن السلطان نور الدين كان يتمنى لو يقضى على ذلك التابع الصغير الذى أصبح نسرا جارحا يهدد سلطانه ، ولكنه كان أضعف من أن يقدم على مجاهرته بالعداء ، أو حتى اعلان عزله عن قيادة الجيش المرابط فى مصر ، لان الجيش لم يعد جيش نور الدين ، بل جبهة من الاكراد قوية لا تعرف لها سيدا غير صلاح الدين !!



مسجد ومدرسة السلطان قلاوون بشارع القصرين انشأها سنة ٦٨٤ هـ ، ١٢٨٥ م السلطان الملك ((المنصور سيف الدين قلاوون)) كان مملوكا للأمير علاء الدين ((آق سنقر)) اشتراه صغيرا بألف دينار ، ولقب بالالفى من أجل ذلك ــ ثم مملوكا للملك ((الصالح نجم الدين ايوب)) فى سنة ٦٤٧ هـ ، ١٢٧٩ م وقد ترقى فى جملة وظائف حتى تولى ملك مصر ولقب بالملك المنصور ، وكان عهده عهد رخاء وانتصارات على التتار .. وقد ضم الى بناء المسجد بيمارستانا ((مستشفى)) ومدرسة لتدريس الفقه على المذاهب الاربعة ودروسا فى الطب ، وكان المستشفى معدا للجراحة والرمد ومختلف الامراض . وهو حاليا مستشفى لامراض العيون فقط .. دفن بمسجده هذا سنة ٦٩٠ هجرية .

ومرت فترة خيم فيها الصمت الرهيب الذى يسبق هبوب الاعصار .. فلا الصليبيون تحركوا ، ولا نور الدين تجاسر وأقدم على عمل .. ولكن صلاح الدين اليقظ كان يرقب ويتعرف اتجاهات الرياح وهو على أتم استعداد للنضال ..

ومات نور الدين .. وتولى العرش ابنه الملك الصالح ..

***

وكان الصالح من الضعف وفساد الرأى بحيث تحكمت فيه الحاشية ووجهته أسوأ توجيه ، فكان أن اتسعت الهوة بينه وبين صلاح الدين ، وكان من اللازم للقضاء على خطورة هذا الاتساع المفاجىء ، أن يختفى من الوجود أحد الرجلين !!

وضرب النسر بجناحيه فى الفضاء الرحب ، وقد تملكته رغبة فى أن يكون وحده السيد بلا منازع ، ولو كان ذلك المنازع هو الملك الصالح بن سيده نور الدين ..

ولم يلبث أن صرخ صرخة الحرب .. وخرج على رأس كتائبه وجيشه ليؤدب الملك الصالح وأولئك الأشرار الذين أغروه وجعلوه يمسك بالمعول ليهدم وحدة المسلمين !!

لقد أراد صلاح الدين أن تظل العلاقة بينه وبين الملك الصالح قائمة ، كما كانت أيام نور الدين .. ولكن السلطان الشاب ركب رأسه ، فكانت الحرب التى توقاها أبوه .. ثم الهزيمة النكراء التى لم يتوقع نزولها بجيشه .. ثم استيلاء تابعه صلاح الدين على دمشق واعلانه نفسه سلطانا وحاكما بلا منازع ولا شريك ، لا على مصر فقط ، بل على الشام أيضا .. وبموافقة الخليفة العباسى الضعيف الذى أقر ماحدث وباركه !!

بل لقد حدث بعد هذا أن مات الملك الصالح نفسه ، فخلا الجو لصلاح الدين ولم يجد صعوبة فى ضم «حلب» الى ممتلكاته وفرض سلطانه عليها وادخالها فى حوزته .. ثم أخذ بعدها « الموصل » وأصبح السيد المطاع فى تلك البقاع جمعاء ، والأمير الخطير المتحكم فى سياسة الشرق كله .. وبهذا حقق السياسة التى طالما عمل نور الدين على تحقيقها ، وهى تقوية الكتلة الاسلامية وتوحيدها وانتظامها جميعها فى كتلة واحدة ، تحصر ممتلكات الصليبيين بينها !!

وهكذا أفلحت سياسة القلاع والحصون والحروب ، وبسط النسر جناحيه على الشرق ، ووقف وهو على أتم الاستعداد للانقضاض على العدو الاجنبى الخطير ..

وواتت صلاح الدين فرصة .. وهيأت له الظروف أن يحتك بالصليبيين ، يوم تعرض « ريجنولد » صاحب حصن « الكرك » لقافلة من حجاج المسلمين كانت فيها أخت صلاح الدين ، وما لبث النسر أن ضرب بجناحيه فى سرعة وانطلق نحو الفريسة .. وكان اللقاء فى « حطين » ، حيث حطم الصليبيين وقضى عليهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف محارب !!

وسقط « ريجنولد » في يد صلاح الدين أسيرا .. وضلت أحلامه الطائشة يوم ادعى أنه سيعد خطة لتدمير مكة والقضاء على المدينة .. وسيق في الأغلال ذليلا مع حليفه « جي دي لوزينان » ملك بيت المقدس !!

وانفتح الطريق بعد هذا أمام قوات النسر الظافر .. وسلمت له عكا ، ونابلس ، وقيسارية ، ويافا ، وبيروت ـ وكلها حصون كان لها خطرها ، ولكنها سلمت لصلاح الدين دون مقاومة ، فتملكها وسار منها الى بيت المقدس ، ففتحه وتملكه.. وأظهر روح التسامح الاسلامى مع غلاة الصليبيين ، فأعطاهم مهلة أربعين يوما لاخلاء « بيت المقدس » ، وفرض على القادرين منهم جزية كان يدفع بعضها عن كثيرين منهم ..

وتمادى صلاح الدين في كرمه ، فأطلق سراح أسيره « جي دي لوزنيان » ـ بعد أن أقسم أنه لن يحارب المسلمين ..

وعلا نجم السلطان المنتصر الذى طهر الأراضى المقدسة كلها من دنس الاحتلال الصليبي الذى لم يبق تحت سلطانه غير مدينة « صور » ..

وهز نصر «حطين» أوروبا كلها .. وجمع سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين ملوكها ، وجعل امبراطور ألمانيا « فردريك باريروس » وملك فرنسا «فيليب أغسطس » و « ريتشارد قلب الاسد » ملك الانجليز ـ يكونون جبهة واحدة ، غرضها استرداد الارض المقدسة من صلاح الدين وانزال الهزيمة بجيوشه الظافرة .

وشاء القدر أن يهلك الامبراطور الألمانى غرقا ، وأن يختلف فيليب وريتشارد ، فعاد الاول الى فرنسا ، وبقى الثانى ليغامر فى الارض المقدسة أمام السلطان صلاح الدين ..

وطالت الحرب ولم تقع فيها معارك فاصلة .. ورأى ريتشارد الذى تغيب عن بلاده أن يعود ، فأبرم مع صلاح الدين الشهم الكريم صلح « الرملة » ، وبمقتضاه أبرمت هدنة بين المسلمين والصليبيين كانت مدتها ثلاث سنوات وثمانية أشهر !!

ومات صلاح الدين بعد صلح الرملة بعام واحد .. وتنازع الملك أولاده الثلاثة الذين ورثوه وجلسوا بالتتابع على عرشه .. ولكن ، كان هيهات لاحدهم أن يملأ مكان أبيه !!

***

ومرت السنون .. وتولت عهود ورثة صلاح الدين من بنيه ، واستقر الملك فى بيت اخيه وقائده الظافر « سيف الدين » فأعاد الهيبة للبيت الايوبى ، وعرف كيف يوحد الجبهة التى تفتتت ، لتستطيع أن تصمد للصليبيين الذين خرجوا على المعاهدات وعادوا يكونون الجيوش لحرب المسلمين ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت الخطة الجديدة التى اتبعها الصليبيون ، أن يتركوا الارض المقدسة ذاتها ، ويهاجموا السلطان الأيوبى فى مصر .. ففى زعزعة مكانته واحراز أي نصر عليه ، نصر لهم ، وخطوة فى سبيل استرداد بيت المقدس ..

وفى أواخر حكم سيف الدين هاجم الصليبيون بقيادة « جان دى برين » ـ ثغر دمياط .. فسقط فى أيديهم ، وارتكبوا هناك من الفظائع مايشيب من هوله الولدان !!

وأخذوا الأهبة بعد ذلك للزحف الى القاهرة نفسها ..

ومات سيف الدين خلال هذه الأزمة .. وتولى العرش ابنه « السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد » .. فواجه الموقف بثبات ، وبعث يفاوض الغزاة فى الصلح .. فأبوا الا التقدم ، فخرج ليصدهم ومعه قوات جاءت لنجدته من شتى بقاع العالم الاسلامى .

وشاء الحظ أن يضل « الصليبيون » طريقهم .. كما أن الفيضان كان قد جاء أوانه ، فقطع المصريون عليهم الجسور ، وحاصرتهم المياه من كل جانب .. وقضى على حملتهم بالفشل ، فبعثوا يطلبون الصلح ، الذى مالبثوا أن نقضوه سريعا فى هيئة حملة جديدة جاءت بقيادة الامبراطور الالمانى «فردريك الثانى» ، صهر جان دى برين ، والذى كان محروما من الكنيسة ..

واستطاع السلطان الكامل أن يتفادى الحرب وصالح الامبراطور ، وعقدا معاهدة ، تنازل الكامل بمقتضاها عن بيت المقدس ، مقابل تعهد فردريك بأن يكون حليفه ومساعده اذا نشبت بينه وبين الغير أي حرب ، ولو كان أعداؤه هم الصليبيين أنفسهم !!

وأغضبت شروط الاتفاق المسلمين والصليبيين على السواء .. ولكنه نفذ فى أمانة ودقة بين الجانبين ..

ولعله مما يذكر للكامل أنه هو الذى اختط مدينة « المنصورة » وبناها وعمرها ، وجعل بها أسواقا ومتاجر عظيمة ..

***

ولما كانت الحروب المستمرة قد شغلت بنى أيوب عن اقامة العمائر الضخمة والمساجد العظيمة ، ووجهتهم الى اقامة الحصون والقلاع والاستحكامات ـ فان فترة السلام التى تلت المعاهدة التى تمت بين **السلطان الملك الكامل ، والامبراطور فردريك** جعلت السلطان يفكر فى بناء أثر دينى يذكر له ويقرن باسمه ..

ولما كان بنو أيوب فى حربهم التى شنوها على المذهب الفاطمى الغامض ، قد تعمدوا احياء فقه الشافعى ومذهبه ـ فقد كان طبيعيا أن يتجه السلطان الكامل الى « مقام الامام » بتفكيره ، ليقيم فوقه بناء فخما يليق بمقام صاحبه ومكانة بانيه ، خاصة وأن كرام أهليه قد دفنوا هناك بالذات فى رحاب الشافعى ، وكان منهم السلطان الملك

العزيز عثمان بن صلاح الدين ، والملكة « شمسة » أم الملك الكامل نفسه ..

والامام محمد بن ادريس الشافعى مات بالفسطاط ، وحمل على الاعناق بعد موته الى حيث كانت السيدة نفيسة ، فصلت عليه .. ثم حملت جثمانه الطاهر الى مقابر بنى زهره ــ حفدة عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف ــ فدفن هناك ..

ورأى الملك الكامل أن يكرم الامام العظيم ، وأن يرفع من قدر أهليه من الايوبيين الذين دفنوا فى رحابه .. فكان أن أمر بانشاء قبة ضخمة فخمة فوق قبر الشافعى والقبور الأيوبية المجاورة له ..

ورصد الكامل لبناء قبة الامام الشافعى مبلغ خمسين ألف دينار ، وأمر بأن يتم البناء سريعا ، وأن تخلى الارض المجاورة للقبر الطاهر والقبور الايوبية ، وأن تنقل منها رفات الموتى الى مكان آخر فى المقابر القريبة ..

وارتفع البنـــاء .. وتم كما أراد السلطان الملك الـكامل .. وأقيمت القبة ، التى جاءت آية من آيات البناء .. وأنشئت هناك أكثر من «خلوة» لجماعات المتصوفين ، وأقيم حمام كامل تصل اليه المياه عن طريق قناة متصلة ببركة « الحبش » ، التى كانت تمتلىء فى أيام الفيضان ، ثم ترتفع مياهها بعد ذلك عن طريق «سواقى» لتصل الى قبة الشافعى ..

وأنشأ الكامل بعد هذا حوضا على الطريق للسابلة ، ووضع فوق القبـــة قاربا له هيئة الهلال ، كان يملأ باحبوب لغذاء الطير !

وجاء بعد الكامل ابنه العادل ، فحاربه أبوه الصالح نجم الدين وسجنه .. وتولى الملك بدلا منه باسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ..

***

وعلى نفس النهج الذى سارت عليه السلطنة فى أيام الملوك السابقين من بنى أيوب ، سار الصالح : حرب وجهاد ، وطموح وتوثب ..

ولقد توج الملك الصالح جهاده بأن استرد بيت المقـــدس من الصليبيين وأعاده الى المسلمين ..

وقد كان هذا العمل وحده كافيا لأن تتحرك حملة جديدة لتنتقم من الصالح فى عقر داره .. فى عاصمته نفسها !!

ووصل لويس التاسع وحملته الى دمياط .. وكانت حملة ارتجالية ، وقعت فى نفس الخطأ الذى وقع فيه من قبل جان دى برين ، فضلت الطريق بعد أن استولت على دمياط .. ووقفت قبالة « المنصورة » .. ثم كانت الحرب ، التى انتهت بهزيمة الصليبيين وسجن ملكهم الأبله لويس !!

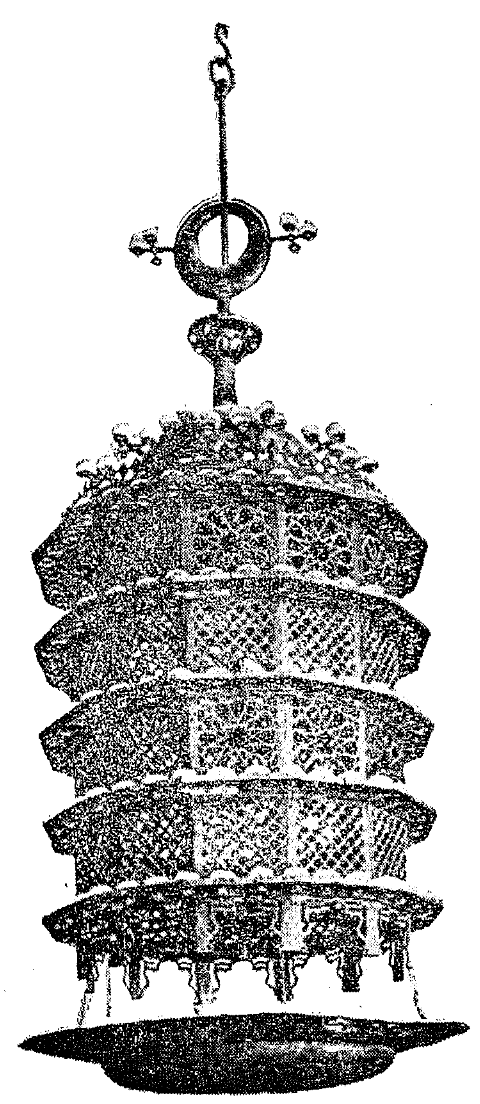
وأسرف السلطان الملك الصالح فى شراء المماليك ، ليكون منهم جيشا لا يدين لغيره بطاعة أو ولاء ..

واشتهر فى زمانه فوارس مغاوير من أولئك المماليك ، منهم « أقطاى » و « بلباى » و « بيبرس » و « لاجين » و « ايبك » و « سنقر الرومى » ..

وعلى يد هؤلاء تم النصر على الفرنسيين بعد موت الصالح ..

وعلى يدهم تم قتل ابنه ووريثه طوران شاه ..

وعلى يدهم زالت شارات الملك عن بنى أيوب ، وانتهى عهد الحصون والقلاع والحروب !!



« احدى ثريات مسجد قوصون »

الناصر صلاح الدين

لئن كانت الدولة الأيوبية لم تهتم بالعمائر الفخمة الجليلة ، قدر اهتمامها بتشييد الحصون .. ولم يوجه سلاطينها عنايتهم الى بناء المساجد قدر ماعنوا بتحصين البلاد وتكوين الجيوش — فانه يكفى هذه الدولة العظيمة فخرا أنها حمت الاسلام وبيوته ومقدساته ومساجده من الاعصار الصليبى المدمر .. فردته وكسرت حدته ، وحفظت للشرق هيبته وجلاله ولقنت العادين الطغاة درسا لم ينسوه على كر السنين ..

وبالرغم من اهتمام الايوبيين بالحرب وتتبع فلول العدو والقضاء على محاولاته ، فانهم لم يغفلوا شئون الأمن ، ووجهوا عنايتهم الى رفاهية الشعب، ماديا ومعنويا .. فاهتموا بالتجارة ، ولم ينسوا انشاء المدارس وترغيب الناس فى العلم ، مبينين فائدة المعرفة ، وكيف أنها السبيل الوحيد الى الرقي والوصول الى أعلا مناصب الدولة ..

لقد كان للايوبيين فضل تذكير المسلمين بسابق أمجادهم ، فعرفوا أن الاتحاد قوة ، وأن الاستمساك بعروة العروبة ورابطة الدين ، أقوى من ترديد الأدعيات والاستسلام الى القدر .. وأن القوة يجب أن تدفعها القوة ، وأن الأهواء والصوالح الشخصية يجب أن تزول أمام الصالح العام الذى يعود بالنفع على الجميع ..

« مئذنة السلطان المؤيد »

ولقد كان من المؤسف أن يرث أمجاد الايوبيين فى النهاية وريث عابث كطوران

شاه ، أشاع الفرقة ، وكاد يقضى على الوحـدة •• لولا يقظة الفوارس وغيرة المحاربين الجرآء الذين خشوا أن تنهار الصفوف المتراصـة ، فتقـدموا وأبعدوا الوريث الماجن ، وأخذوا مكانه ليسيروا بالموكب الزاحف نحو الوحدة والمجد الى الامام ••

ومارست السلطة بعد مقتل » طوران شاه « زوج أبيه الملك الصالح « شجرة الدر» ، ذات الدهاء والفطنة والمقدرة •• فقد اســتطاعت أن تقود معركة المنصـورة وتوجـه الفرسان للقضـاء على حملة لويس التاسـع ، التى انتهت بأسره وطرد الصليبيين من مصر نهائيا !

ولقد أخطأت شجرة الدر يوم قبلت أن تشرك معها فى تحمل أعباء الملك « أتابك » ، زوجها عز الدين ايبك التركمانى •• وضاعفت من خطئها هـذا ساعة أن قبلت الزواج منه ، اذ سرعان ماجنت ثمرة هذه المشاركة غيرة وتحسرا ، وانصرافا عن شئون الملك الى شئون الهوى والتربص بالزوج والتآمر عليه وقتله !!

وكما قتلت شجرة الدر صاحبها أيبك ، فقـد انتقمت « أم على » زوج أيبك الاولى ، من ضرتها ، فكادت لها وأغرت بها من قتلها فتخلصت منها ••

وخلص عرش الايوبيين لابنها « على » الذى تسمى باسم الملك المنصور نور الدين ••

وكان الملك المنصور عابثا مستهترا ، فخلعه مماليـكه واختـاروا من بينهم سلطانهم الجديد المملوك « قطز » ، الذى اتخذ لنفسه لقب الملك المظفر !!

***

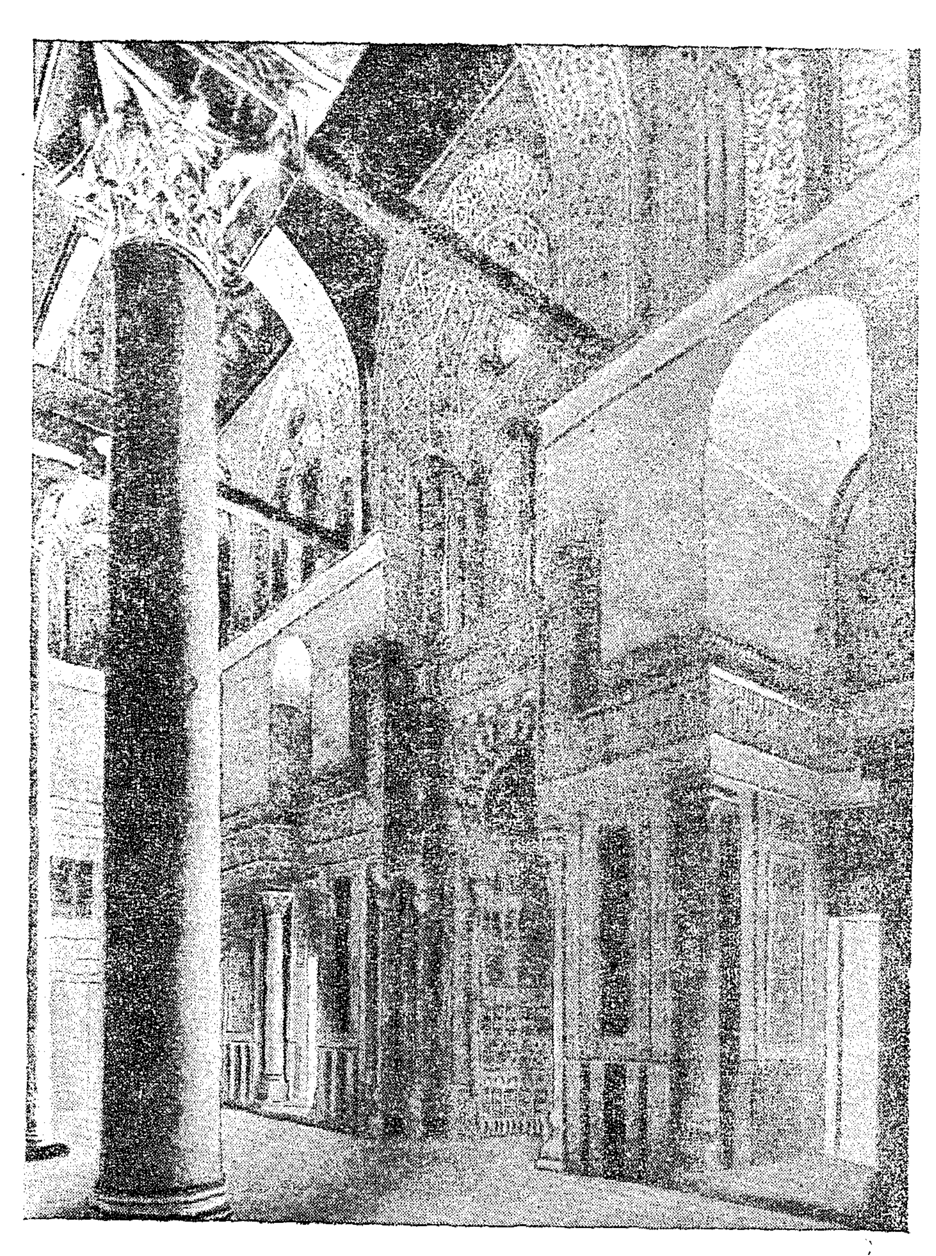
وعرف قطز كيف يسود مصر بدهائه ، فتفادى التيارات المتعددة •• ووحـد الجهود •• وقوى الجبهة ودانت له الظروف القلقة ، وخضع المماليك المتمردون ، واستسلم له أمراؤهم الدهاقين الاشداء والتفوا حول رايته ، فعرف الهدوء طريقه الى البلاد ، واطمأن الناس على أموالهم وأعراضهم ورفرفت السـكينة ، وخيـم السلام على مصر للمرة الاولى بعد زوال ملك الايوبيين ••

وفى الوقت الذى نعمت فيه مصر بالسلام والامن والطمأنينـة ، هب على الشرق اعصار مغولى من أواسط آسيا ، ظلت قواته الرهيبة تزحف ، مكتسحة فى طريقها كل شىء ، فلم تعبأ بحضارات ولا علم ولا تمدن ، ولم يوقفها دين ولا عرف ولا حضارة •• واستمرت فى زحفها البربرى الغاشم وكأنها قضاء الله ••

وسقطت بغداد .. بل أحرقت !! ودالت البقية الباقية للخلافة العباسية ..

وزحف الاعصار المغولى بعد سقوط « بغداد » الى « الشام » الآمنة ، ليـكون له فيها ما كان فى أختها عاصمة الرشيد !!

وقامت مصر لتدفع العدوان •• لا عن بغداد ولا عن الشـام ، بل عن الدين الاسلامى والملة المحمدية ••



قبة السلطان المنصور قلاوون

أقيم فى وســـط هذه القبة قبر الملك المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد ـ وقد كتب عليه اسم السلطان قلاوون وبعض آيات قرآنية • ويحيط بهذا القبر مقصـــورة من الخشـــب من أعمال النـاصر محمـــد ســـنة ٦٨٣ ـ ٦٨٤ هـ ، ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ م

وخرج السـلطان الملك المظفر « قطز » .. ليرد على اهانة « هولاكو » الجرىء .. وليكيل له بنفس الصاع الذى كال به للحضارة الاسلامية ، ويحاربه بنفس سلاحه قبل أن يتقدم نحو مصر ..

وعرف « قطز » كيف يواجه « التتار » .. بل وحاربهم بسلاح السرعة العاصفة فى الكر والفر واحداث الثغرات وشطر الفرق وتمزيقها .. فهزمهم ومزق جموعهم اللجبة فى « عين جالوت » فقضى عليهم وأعطاهم درسا لن ينسوه !!

وفر لصوص الحضارات وطغاتها ناجين بمن تبقى من معسكرهم الكثيف ..

وعاد « قطز » الى مصر ظافرا منصورا ، وقد حمى الاسلام وحفظ على المسلمين هيبتهم

وكأنى بامراء المماليك بعد هذا الانتصار الذى حققه « قطز » ، قد كرهوا أن تضفر له قلائد المجد ، وأن يحقق ما يشبه المعجزة ، وأن يقال عنه انه طارد التتار، وقضىعلى أحلام « هولاكو » .. واذا بصاحبه وصفيه ومشيره وقائده «بيبرس» ، يهاجمه وهو يطارد أرنبا بريا فى بلدة « القرين » .. فاحتز رأسه !

***

وقتل « قطز » . وجاء السـلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البنـدقدارى العلائى النجمى » الى العرش ..

وبيبرس كان له من اسمه صفات « الفهد » وجرأته وبطشه .. وسرعانماقبض على ناصية الملك ، وأعاد كل شىء الى وضـعه الطبيعى .. فخيم السـلام من جـديد وبدأ الناس يشعرون مؤمنين بأن صلاح الدين الايوبى قد بعث من جديد ، وأنه قد عاد الى مصر فى اهاب الظاهر بيبرس ، فتنفست مصر الصعداء وهى تشهد مطلع عهد جديد ..

ولم تكد الامور تستقر فىمصر ، حتى هبت من الغرب أعاصير أخرى !!

لقد تكتلت القوات المسيحية فى الاندلس ، واتحد الامراء الاسـبان .. وراحوا ينتزعون منهم عواصمهم العنيدة ، الواحدة تلو الاخرى ، غير عابئين بمرور السنين التى كانت تزيدهم منعة ، وتزيد العرب المتخاصمين هناك ضعفا ووهنا !!

والى مصر الآمنة ـ كنانة الله فى أرضه ـ اتجهت أبصار العالم الاسلامى ..

لقد سقطت « بغداد » ..

وان قواعد الملك العربى فى الاندلس لتنهار شيئا فشيئا ..

فلا ملاذ للهاربين من « بغداد » أو الفارين من « الأندلس » غير مصر.. المضيافة التى تعرف حق الاخوة فى اللغة والدين !

***

احترقت بغداد .. وسقطت الاندلس .. ومالت موازين القوى فى الشرق والغرب

.. وأمام طوفان الغزو الرهيب والدمار وآيات القسوة ، فر الناس هاربين هنا وهناك يتساءلون الى أين المفر ؟!

ان مصر هى الملجأ الامين حين تضيق الارض بالأحرار .. وانهـا لقلب العروبة النابض واليها يجب أن تنتقل زعامة الشرق المادية والروحية !

وهكذا فتحت مصر خلال تلك المحنة الرهيبة أبوابها للوافدين عليها من القطرين العزيزين .. وفيهم كبار العلماء ، ودهاقين السياسة وأهل الصدارة والنبوغ الفكرى، الذين كانوا يعرفون الجامع « الازهر » بالاسم ، ويسمعون به ، فلما وفدوا على القاهرة وعاينوه ، اتجهوا اليه ، واعتبروه قبلتهم العلمية وميدانهم الدراسى ..

وكان طبيعيا أمام هذا الوضع الجديد الذى نشأ عن هجرة أهل العلم وأصحاب الثقافات الى مصر ، أن تكون مصر مركز عرفان مدعم بالكفايات ، التى بعثت فى الجامع الازهر حياة جديدة جعلته ينبض بالشباب والحركة ويستشعر هزة النشور التى مشت فى أوصاله ، فهب مرة أخرى ليأخذ مكانه القديم ..

لقد كانت تلك الهجرة المباركة نقطة تحول خطيرة فى الحياة المصرية ذاتها ، ومن الغريب أنه لم يحس بخطورتها الواقعية أحد فى مصر غير شاب واحد ، هو نائب السلطنة « عز الدين ايدمر » الذى كان قصره يجاور الجامع الازهر .. فاستطاع أن يستشف وجه الخطورة فى ذلك الاقبال من ناحية العلماء الضيوف من جهة .. واقبال جماهير الشعب على حلقاتهم من جهة أخرى ..

انها صلة مباركة ، يجب أن تدعم .. وانهـا لقوة يجب أن تؤيد ، لتكون درعا للمسلمين جميعا .. وان هذا التطور فى ذاته ليدل على أن مصر قد أصبحت مركز الثقافات الاسلامية وكعبة العلم فى هذا الشرق العظيم ؟!

وراح نائب السلطنة الظاهرية يطلب الامر على وجوهه ، ويستعرض هذا الاقبال ـ ويدرسه ، ويضع له المقدمات والنتائج .. ويعتبره تيارا من تيـارات المد الواجب استغلاله فى تسيير سفينة الصدارة المصرية الى القـدمة ، لتعود الى مصر امجادها القديمة ، والى الازهر عزته ..

لقد رأى عز الدين أيدمر فى اقبال العلماء المهاجرين على الازهر دون غيره من بيوت العلم ، اعترافا بمكانة هذا المعهد الجليل ، ورغبة فى وصل ما انقطع بأحياء تراث قديم ، فى أصلح مكان للاجتماع بطلاب العلم والمعرفة وممن لايحبون التقيد بالتوقيت الدورى أو النظام الدراسى المفروض فى المدارس ..

***

وأمام تلك الحقائق التى تبدت لعينى عز الدين ايدمر ، راح يتذكر ماضى الازهر ، خاصة وقد درست معالم المذهب الفاطمى ولم يعد أحد يذكره من المصريين ، اذ تولت أجياله وانقضى عهده ..

وآمن نائب السلطنة بأن الدولة فى أشخاصها شىء ، والعقيدة فى ذاتها شىء آخر ..
وان الدولة تفنى ، أما الدين ، فهو الذى يبقى على كر العصـــور ، وهو الذى يجمع بين
القلوب ويوحد الافراد ..

ووجد الرجل الواسع الافق ، ان الواجب يقضى بأعادة النظر فى الفتوى القديمة التى أصدرها ابن درباس ، والعمل على ابطالها بفتوى مشابهة ، تعيد للازهر سـابق مجده وتفتح للعلم والصلاة الجامعة أبوابه ..

وتحمس عز الدين ايدمر لفكرته ، ولم يلبث أن وجد نفسه يعرضها على سيده « الظاهر بيبرس » ، راجيا منه أن يرد الى الجامع الازهر اعتباره .. فلم يكن السيد أقل تحمسا للفكرة من نائبه ، ولكنه توقف .. حتى لا يصطدم بالسلطة العليا ، وهى سلطة رجال الدين ..

وأكد الظاهر لنائبه أنه يسعده أن ينفذ رغبته .. ولكن يجب أولا وقبل كل شىء أن يجد فتوى جديدة تلغى الفتوى التى أصدرها ابن درباس منذ مائة عام .. !!

وراح الامير يمهد لخطته .. واتصل سرا بكثيرين من العلماء ، ولمح لهم بما انتواه .. وأخذ يعد العدة فعلا لتنفيذ ما اعتزمه ، بأن التفت الى الجامع الازهر نفسه ..

كانت أبنية المسجد العتيد قد هدمها الزمن وعامل الاهمـال ، فوجه اليها عز الدين ايدمر همته ونشـاطه فأزال الجدر القديمة المتداعيـة وأقام غيرها وأصلح « الأسقف » وزاد فى « علوها » اذ كانت منخفضة بعض الشىء ..

ولم تكد تتم « العمارة » التجديدية ، حتى التفت الامير الى زخرفة المسجد وتنميقه وفرشه ، فأتم هذا كله على خير وجه وأكمله ..

ونظر فى أحباس الازهر من العقارات الوفيرة ، التى أوقفها عليه الفاطميون الاسخياء .. فوجد أن كثيرين من النـاس قد اغتصـبوها لانفسهم ، فكان أن أمر بردها الى « الأصل » وأعادها لتدر الخير على المسجد الأشهر ومن يعملون فيه ..

وأبى الامير الا أن يترك لنفسه أثرا ظاهرا فى المسجد فكلف كبار المعمارين بتصميم « مقصورة » رائعة ، ومنبر فخم .. ونفذت رغبته ، وبنيت المقصورة والمنبر .

ولما كان عز الدين ايدمر رجل حرب وجلاد ، فقد أحب أن ينفذ الى غرضه بعد أن تمت المناورة الأولى ، وذلك بتنظيم « طلائع » لاستكشاف الطريق ، ودراسة معالمه .. وفى ذات الوقت يجس نبض السادة الشافعية ، أصحاب فتوى « تحريم اقامة خطبة للجمعة فى مسجدين داخل مدينة واحدة » !!

وآمر عز الدين ايدمر بأن يرتب فى صحن الجامع الأزهر درس للفقه الشـافعى ، وعين لهذه المهمة بعض كبار علماء الشافعيـة .. كما اختـار الى جانبهم محدثا من السادة العلماء المتمكنين من الحديث النبوى ، ليرويه للحاضرين من الطلاب وغيرهم

ممن اعتادوا التردد على حلقات الدراسة فى الازهر ..

واشعارا من نائب السلطنة بالخطة التى أقرها الظاهر بيبرس لاحياء أمجاد الازهر ، أصدر أمرا بتعيين سبعة من مشاهير القراء ، يتولون قراءة القرآن فى صحن المسجد، وتحفيظه للراغبين من الطلاب ..

***

وأحب أيدمر بعد هذا أن يستصدر الفتوى باباحة الصلاة الجامعة فى الجامع الازهر .. وفى الجامع الحاكمى فى وقت واحد !!

وأقر السادة علماء الحنفية اقامة الصلاة فى المسجدين .. ولكن تاج الدين ابن بنت الأعز قاضى قضاة الشافعية ، عارض فى صحة الفتوى ، وأصر على قيام البطلان الذى قال به ابن درباس منذ مائة عام .. واستمسك برأيه وجاهر به الى حد أغضب منه السلطان الظاهر ، فصمم فى نفسه على عزل تاج الدين من منصبه ..

وأبى عز الدين أن يتراجع أمام فتوى ابن بنت الأعز .. وأخذ بفتوى السادة الحنفية باجازة اقامة الصلاة وخطبة الجمعة فى الجامع الازهر .. وتم تنفيذ هذه الاجازة فى يوم من أيام الجمعة من شهر ربيع الأول سنة ٦٦٥ فى حفل عظيم ، كان موضع حديث الناس وحماستهم ، مع المأدبة الفخمة التى أقامها الأمير بعد الصلاة مباشرة ، بمناسبة نجاح مساعيه فى رد اعتبار الجامع الازهر اليه !!

وبالرغم من أن بيبرس ، كان يقف خلف الاصلاح الذى تم ، والافتتاح الذى تحققت معه فتوى اعادة الصلاة الجامعة الى الازهر — فانه لم يشهد صلاة الجمعة الأولى فيه ، خشية أن يقال أن السلطان سخر من فتوى قاضيه ابن بنت الأعز — وهو يضمر له العزل !!

ولما كان السلطان قد أسرها فى نفسه لرجل الدين ، الذى عارض نائبه وتحداه — فلم تكد تمر بضعة أسابيع حتى كان قد صدر أمر بعزل القاضى الشافعى الأكبر من منصبه !!

ولئن كان « بيبرس » قد حقد فى نفسه على ابن بنت الأعز ، الا أن آثار هذا الحقد لم تلبث أن زالت بعد أيام من عزله ، فأعاده الى منصبه ومباشرة شئون السادة الشافعية فى مصر ..

ولما كان للشافعية مجلس معلوم فى صحن جامع عمرو ، فقد كان طبيعيا أن يتجه قاضى القضاة الشافعى بكل اهتمامه الى المسجد العتيق ، بوصفه ناظرا لأوقافه ، والمشرف على تنفيذ الأوقاف المحبوسة على عمارة الجامع واصلاحه ..

ورأى ابن بنت الأعز أن جدران جامع عمرو من ناحيته البحرية قد تهدمت ، كما تداعت مؤخرته ومالت حوائطها ، مما جعلها معرضة للسقوط بين لحظة وأخرى !!

ولاحظ قاضى القضاة أن « سطح » المسجد قد امتلأ بحجرات عديدة ، بعضها

منقوش ومعتنى به .. فكبر لديه أن يبلغ استهتار الناس بجلال المسجد الى هذا الحد ، فكان أن أمر بهدم هذه الحجرات كلها ، والقى ماوجده فيها من أثاث وثياب فى صحن المسجد .. ولم يسمح بأن يبقى على « السطح » سوى حجرة المؤذنين القديمة ، وثلاث غرف أخرى مجاورة لها ، كان يستعملها المؤذنون أيضا ..

وبدأ ابن بنت الأعز يستغل مال الاوقاف الذى كان تحت يده فى اصلاح جدران المسجد المتداعية ، فشد بعضها وقوى البعض الآخر .. وأمر بسد نافذتين كانتا فى الجدار البحرى ، زيادة فى التقوية ..

ثم رأى أن تعمل « صلبات » فى بعض الاماكن ، وخاصة فى ناحية الزيادة البحرية ، لتقوية الجدار البحرى.. وزاد بعد ذلك فى عدد الأعمدة ليقوى هذه « الصلبات » ..

واستعان بكبار المعماريين فى عصره لمعرفة أسباب ضعف جدران المسجد وتشققها وميلها ؛ فاجتمع رأيهم على سد القناة التى كانت توصل مياه النيل الى « الفوارة » ، فعمل برأيهم وأمر بسد القناة .. فاستطاع بعمارته هذه أن يحفظ جدران جامع عمرو من الانهيار لبعض الوقت ..

***

ومرت الشهور .. وعاد قاضى القضاة يتفحص جدران المسجد ، فاذا به يكتشف أن ثمة اصلاحات أخرى يجب أن تتم على الفور ، والا تداعى المسجد العتيق وانمحى من الوجود أثر من أعظم الآثار الاسلامية ..

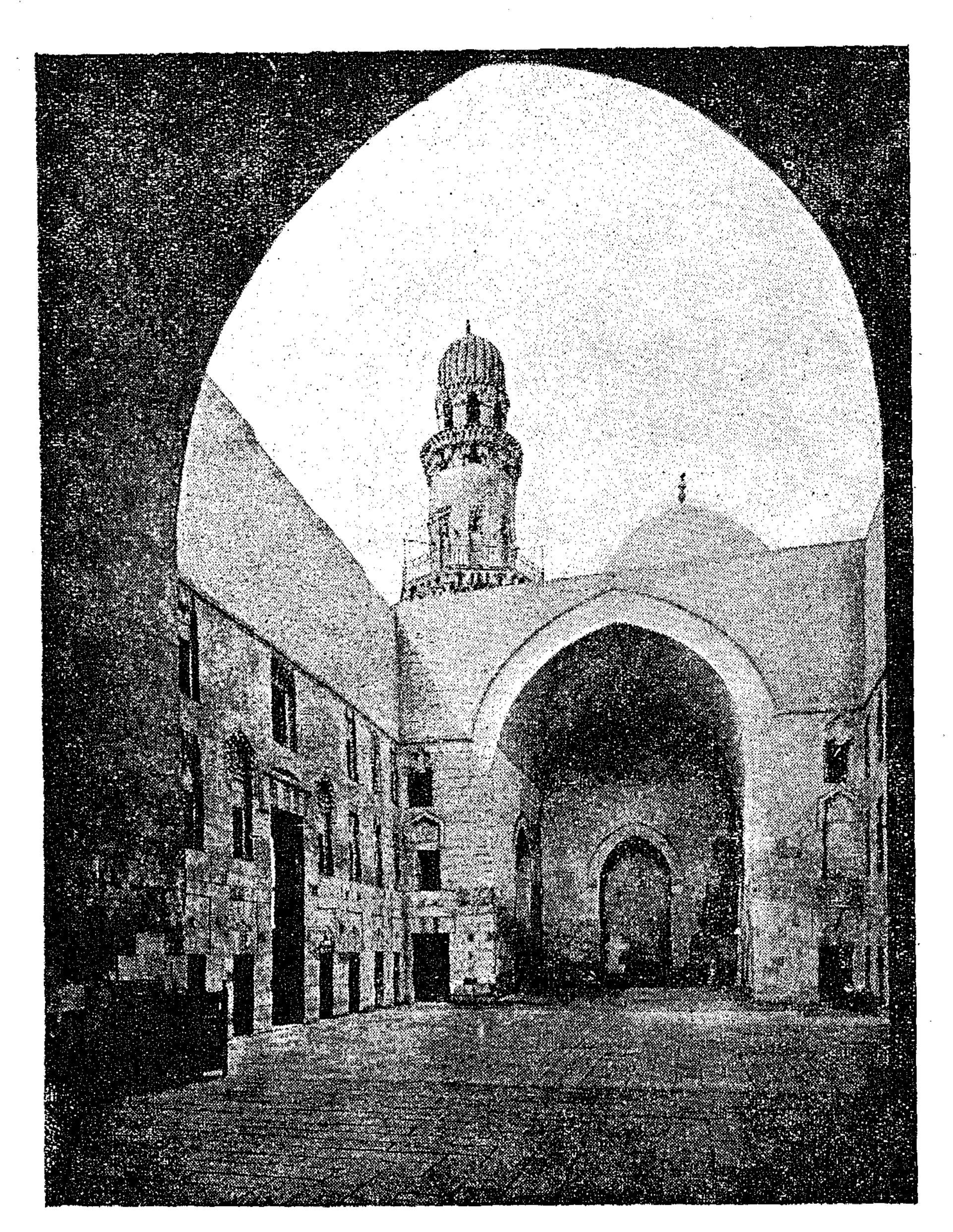
وأحب ابن بنت الأعز أن يبدأ عمارة جديدة بالمسجد مما لديه من أموال الأوقاف.. ولكنه وجد المال من القلة ، والعمارة من السعة ، بحيث يستحيل عليه أن يتمها ، فشاور صديقه وزميله « **الصاحب بهاء الدين على** » فى الامر .. واستقر بهما الرأى على مخاطبة السلطان الملك الظاهر فيه ..

وأصغى بيبرس الى قاضى قضاته .. وأسعده أن يولى جامع عمرو بمثل هذا الاهتمام ، وأحب فى الرجل غيرته على الأثر النفيس، فما أسرع مااستجاب له ، وأمر بعمارة المسجد على نفقته الخاصة ..

وتنفيذا لسياسة الاصلاح الجديدة التى أمر بها بيبرس ، هدم الجدار البحرى للمسجد كله ، وازيلت الأعمدة و « القواصر » العشر التى كانت قائمة ، كما رفع « اللوح الاخضر » .. وبدأ المعماريون يقيمون الجدار من جديد مرة أخرى ، ثم أعادوا الاعمدة و « القواصر » العشر واللوح الاخضر ..

ورفعوا اللوح المرقوم ووضعوا مكانه آخر جديدا ، طلى بماء الذهب وكتب عليه اسم « السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى » ..

واستكمالا لسنة تجميل الجامع كله ، طليت جميع العمد التى كان يحتويها حتى بدت براقة زاهية ، ثم تم طلاء المسجد كله .. وأقيمت فيه شعائر الصلاة فى



خانقاه ومسجد السلطان بيبرس الجاشنكير كان أحد مماليك المنصور قلاوون انشأ مسجده هذا عام ٧٠٦ هـ ، ١٣٠٦ م ليكون «خانقاه» للصوفية . لقب بالملك المظفر وبدأ أول عمل له بأن عين سلار نائبا له . . ولم يدم ملكه طويلا حيث قتل فى سنة ٧٠٩ هـ ، ١٣١٠ م

ثم لم يلبث ان تورط فى عدة مطالب وجهها اليه سيده السابق الناصر محمد فى هيئة انذار وتهديد . . فكان ان خلع نفسه وترك « القلعة » ـ دار الحكم ـ فى الوقت الذى كان يتقدم فيه « الناصر » فى طريق عودته الى السلطان من جديد . . .

شهر رمضان .. ثم استمرت بعد ذلك كالمعتاد ، وقد أصبح جامع عمرو فى هيئة وشكل جديدين ..

***

وبالرغم من أن « الدراسة » كانت قد استؤنفت فى صحن الجامع الأزهر الذى جلس فيه العلماء الأجلاء ، وتولاه السلطان ونائبه عز الدين بالعناية والرعاية ـ فان جامع عمرو ظل كما هو ، مفتوح الأبواب لطلاب العلم ، عامر الحلقات ، كثير « الزوايا » للطلاب ، وقد بلغ عددها فى عهد بيبرس ثمانى :

الاولى ـ « زاوية الامام الشافعى » ، التى ظلت محتفظة بطابعها القديم منذ جلس فيها الامام الشافعى للدراسة أول مرة حين وفد على مصر ..

الثانية ـ « الزاوية المجدية » وهى فى الصدر وتجاور المحراب الكبير ، وقد رتبها للعلم والمدارسة « مجد الدين أبو الاشبال الحارث » ، وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر الايوبى ..

الثالثة ـ « الزاوية الصاحبية » وهى حول مئذنة « عرفة » ..

الرابعة ـ « الزاوية الكمالية » المجاورة لباب سوق الغزليين ..

الخامسة ـ « الزاوية التاجية » وهى امام المحراب ..

السادسة ـ « الزاوية المعينية » وهى فى الجانب الشرقى ..

السابعة ـ « الزاوية العلائية » ..

الثامنة ـ « الزاوية الزينية » ، وهى كسابقتها لقراءة « ميعاد » ..

***

واستمر بيبرس بعد ذلك فى اصلاحاته وانشاءاته العظيمة ، من داخل البلاد ، فى نفس الوقت الذى كان فيه رجل الحرب والجهاد من الخارج ، فضرب التتار وفرق شملهم وشتت قواهم ، وجمع شمل المسلمين وجعلهم جبهة قوية متحدة ..

ولم يهمل المحارب الباسل أمر القلاع والحصون ، فقوى حصون القاهرة وزاد فيها .. وبنى كثيرا من الحصون فى سوريا وقواها وجعلها على أتم استعداد للدفاع واللقاء ..

وأدى بيبرس فريضة الحج وجدد فى بناء المسجد النبوى الشريف ، وجدد عمارة قبة الصخرة فى بيت المقدس ، وزاد فى الأوقاف الخاصة بخليل الله ابراهيم عليه السلام ..

واتبع بيبرس سياسة الأيوبيين ، فأنشأ باسمه مدرسة بين القصرين الى جانب المدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب ..

وقد حفل عصر الظاهر بيبرس بكبار أهل العلم ومشـاهيرهم ، ففى أيامه وجد « عز الدين بن عبد السلام » من كبار فقهاء الشافعية ، وكان يسمى « سلطان أهل العلم » .. وكان هناك الامام « **أبو شامة** » و « **مجد الدين بن دقيق العيـد** » و « **الامام القرطبى** » **صاحب التفسير الشهير** ، و « **ناصر الدين الطوسى** » ، و « **اللورقى** » .. وغيرهم كثيرين ممن دوت أصواتهم فى صحن الجامع الازهر وجامع عمرو والمدارس التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ..

وأحب بيبرس ـ بعد أن شيد ماشيد وعمر ما عمر ، وبعد أن أرجع المجد والعز الى مصر ـ أن يقيم باسمه مسـجدا ، يكون أثرا من بعده وذكرى طيبـة له .. فكان أن سأل كبار رجال دولته أن يبحثوا له الأمر ويقيموا هذا المسجد ..

واقيم « جامع الظاهر بيبرس » فى ميدان كان يعرف باسم ميدان «قراقوش» .. وقد كان قبل اختياره لاقامة المسجد بستانا خاصا لبيبرس ، وملعبا كان يمارس فيه لعبة الكرة والعاب الفروسية ، التى كان يتقنها واشتهر بها منذ كان مملوكا شابا مع مماليك السلطان الملك الصالح « نجم الدين الايوبى » ـ سيده الاول وأستاذه ..

« **وقد رسم بيبرس الجامع فى ركن من الميـدان ، وأوقف بقيته « حكرا » على المسجد .. وفحص بنفسه « تخطيط » الجـامع قبل اقامته ، فاشـار بأن يكون بابه مثل باب المدرسـة الظاهرية ، وأن يكون على محرابه قبة عظيمة مشابهة لقبـة الامام الشافعى ..**

***

« وكتب بيبرس من وقته الكتب الى البلاد ، باحضـار العمد الرخامية والآلات الحديدية والاخشاب النقية ، لتصنع منها أبواب المسجد وسقفه ..

وشرع فى البناء والعمارة سنة ٦٦٥ هجرية ..

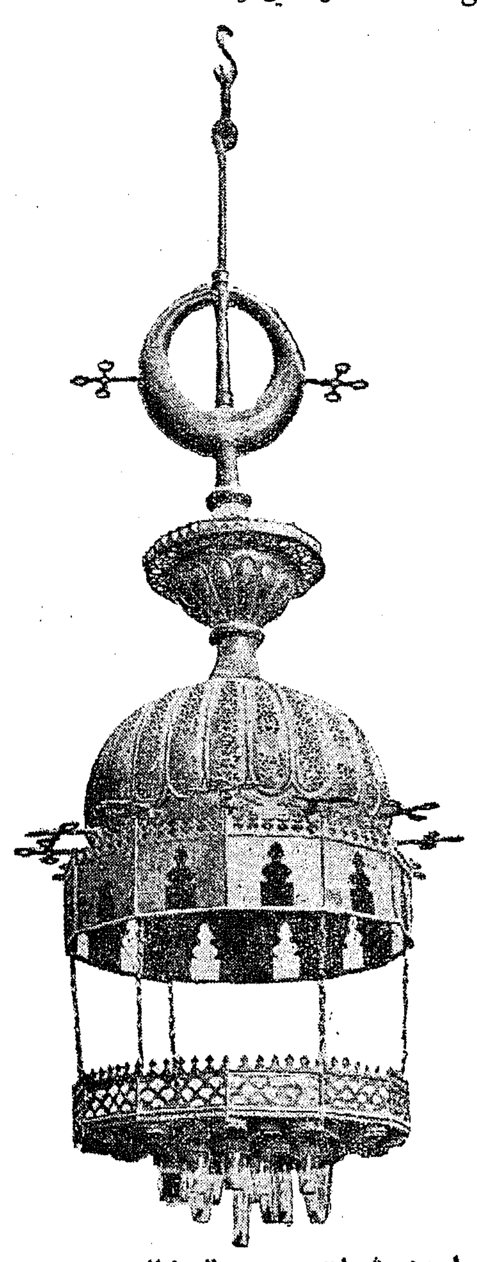
ثم سافر بعد ذلك بعام واحد الىمدينة يافا ، ليتسلمها من « الفرنجة » .. فهدم قلعتها وقسم ابراجها على الأمراء .. واخذ من اخشابهـا ومن الواح الرخام التى وجدت فيها وملأ منها مركبا الى القاهرة ..

وشيد بيبرس من خشب قلعة يافا مقصورة مسجده ، ومن رخامها بنى محرابه .. ولما تم بناء المسجد الفخم رتب له خطيبا من السادة الحنفية ..

وقد بنى المسجد من الحجر ، وكانت واجهتـه آية من آيات الاتقـان وحسن الصنعة وجمال الزخرفة ..

أما محرابه فقد كان مثلا من أمثلة الدقة ، وقد علقت فوقه تحت القبة لوحة رخامية كتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم — أمر بانشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى ، قسيم أمير المؤمنين فى سنة ست وستين وستمائة » ..



احدى ثريات مسجد السلطان حسن

عمائر قلاوون

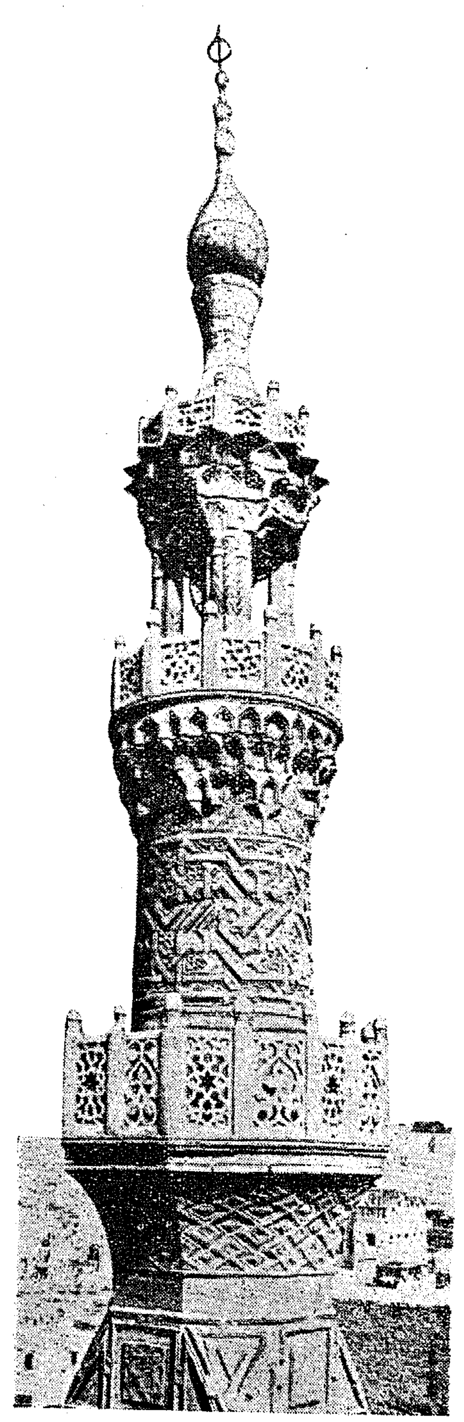
تولى ملك مصر بعد بيبرس ابنه الأكبر « بركة خان » ، الذى تسمى باسم « الملك السعيد أبى المعالى » ..

وكان شابا ، ليس فيه من والده المصلح المحارب شيء على الاطلاق ، فلقد نشأ فى أحضان النعمة ، فلم يمر بفترات عصيبة كتلك التى مر بها أبوه .. ثم ورث ملكا ممهدا ، وسلطانا باذخا وثراء لا حصر له ، فركبه الغرور .. وظن أنه وحده السيد ، والناس جميعا عبيد !!

وتجبر السعيد ابو المعالى وظلم ، وقسا على الرعية واستبد ، وأبعد الثقاة المخلصين الذين كانوا عون أبيه وبناة ملكه وشركاءه فى كل انتصاراته .. وراح يرمى بالاحرار فى أعماق السجون لمجرد الشك ، أو الرغبة فى التخلص من أصحاب النفوس الأبية !!

وسار الوريث الشاب فى السلطنة أسوأ سيرة ، حتى شاء حسن الحظ أن تتخلص البلاد من طيشه ونزقه ، يوم سقط عن جواده وهو يعدو به فى أحد ميادين قلعة الكرك ، فمات لساعته ..

وورثه أخوه الملك العادل «سيف الدين سلامش » الذى عرف باسم « ابن البدوية»



« مئذنة قايتباي بقلعة الكبش »

وعلى النقيض من السعيد أبى المعالى ، كان سلامش أخوه : رضى الطباع ، سمح الخلق ، لطيف المعشر .. يميزه عن الملوك هدوء وادع ، وطيبة قلب نادرة ، جعلته ينفض يديه من شئون السلطان ، مكتفيا من الحكم بلقبه ، تاركا تصريف الأمور كلها الى حكمة مملوكه الذى اختاره ووثق فيه ..

وكان المملوك « قلاوون » على عكس ماظنه سيده سلامش الطيب ..
كان طموحا أنانيا ، فراح يبنى لنفسه ويجمع مقاليد السلطان فى يديه .. حتى لقد استبد بشتى أمور الملك ، وأصبح سلامش لا شيء الى جانبه ، مما جعله يتمادى فى طغيانه ، فيقدم على خلع سيده المسكين ، ويصدر أمرا بنفيه هو وعائلته .. بل وان يسجنوا أجمعين !!

وتولى قلاوون مقاليد السلطة بعد خلع سلامش ونودى به سيدا للبلاد باسم « السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون أبى المعالى الصالحى النجعى » !!

وافتتح قلاوون عهده الجديد بالتقرب الى الشعب ، فألغى بعض الضرائب ، ورفع كثيرا من الالتزامات التى كان الشعب يئن منها ، وأشعره بالأمن والرخاء ..
ثم التفت الى الحدود فحصنها .. وسرعان ماوجد نفسه يتبع سياسة القلاع والحصون ..

كان الخطر التترى مازال جاثما على الشرق .. وكان هؤلاء القوم المحاربون بفطرتهم ، يجوسون خلال الديار بالشر والفزع والتقتيل .. فلم يجد المنصور قلاوون ، الا أن يخرج على رأس جيشه لردهم ومحاولة القضاء عليهم .. فأسعده حظه وانتصر على التتار بفضل الخبرة التى اكتسبها هو وجنوده أثناء عملهم تحت قيادة المحارب المحنك « الظاهر بيبرس » ..

وكما فرت جيوش التتار أمام المنصور قلاوون فى « حمص » ، تفرقت صفوف الصليبيين فى عديد من المواقف .. فاستتب بذلك الأمن ، وبدأ السلام يرفرف على الشرق جميعا ، ويخيم على مصر بوجه خاص ..

ولقد كفل الرخاء العام والامن المستتب لقلاوون ، أن يفكر فى الاصلاح الداخلى للبلاد ، وأن يتجه ناحية الانشاء والتعمير ويبنى لنفسه أمجادا خالدة تحمل اسمه على كر السنين ..
وتذكر حادثا وقع له ذات مرة وهو فى « دمشق » أثناء وجوده مع عسكر سيده الظاهر بيبرس ..

كان قد وقع فريسة مرض عضال ، نقل من أجله الى « بيمارستان » ـ أنشأه السلطان نور الدين محمود ـ حيث عولج هناك حتى أبل من مرضه وأصبح صحيحا معافى ..

وتصور حالته كمريض وهذا « البيمارستان » غير موجود !!

ورأى فيه يدا حانية تأسو جراح الانسانية وتخفف من الآلام بتقديم العون ..

وأكبر قلاوون فى نفسه منشيء ذلك المصح .. واقتنع بأن انشاء مثله يعود بالنفع على كثيرين حيث يمنحهم الشفاء والعافية ويطلق ألسنتهم بالدعاء .. ثم يكون بعد ذلك ذكرى طيبة خالدة .. وتمنى لو كانت له الاسباب التى تمكنه من اقامة مثل

هذا الاثر الجليل.. ثم نذر بينه وبين نفسه أنه لو أسعده حظه وكان له سلطان مصر وأصبح ملكا عليها .. فسوف ينشىء بيمارستانا يشابه بيمارستان « نور الدين » — يكون مباحا للجميع دون تمييز ، ومزود بكل مايحتاج اليه المرضى من أدوية وعقاقير وأطباء ..

وابتسم الحظ ذات يوم للمملوك قلاوون ، وواتاه بما كان يحلم ، واصبح سلطان مصر ، وسيد مماليكها .. فتذكر نذره وصمم على بناء « البيمارستان » فى أقرب وقت ..

ولما كان ميدان التنافس فى البناء فى تلك العصور المضطربة ، يدور حول اقامة المساجد الجامعة ، فقد أحب قلاوون أن تكون « عمارته » الجديدة حاوية جامعة بين الدين والدنيا ، وأن يكون فيها طب القلوب والابدان ..

وهكذا رسم المنصور قلاوون خطته الرائعة ، فقرر أن يشيد بناء عظيما ، يجمع بين « البيمارستان » و « المدرسة » و « القبة » التى تظلل قبره ، ثم « المسجد » الذى تؤدى فيه شعائر الصلاة ..

ولم يطل به البحث عن المكان ؛ اذ وجده فى دار كانت معروفة ب « دار فخر الدين جهاركس » ، ثم سميت بعد ذلك باسم « دار موسك » ثم نسبت الى الملك المفضل بن العادل أيوب وأطلق عليها اسم « الدار القطبية » — وكانت قبل هؤلاء جميعا ، قاعة خاصة **بابنة العزيز بالله الفاطمى** « **ست الملك** » !!

واستولى المنصور قلاوون على الدار وعوض صاحبتها « القبطية » بجزء من قصر « الزمرد » ، الذى درست معالمه ، وأهملته الدول المتعاقبة بعد دولة الفاطميين ، وخصوصا بعد أن نقل صلاح الدين الايوبى « دار الحكم » منه الى قلعة الجبل

وهدمت دار القبطية .. وتولى الامير « علم الدين سنجر الشجاعى » الاشراف على اقامة البناء الجديد بتكليف من سيده المنصور « قلاوون » ..

وسار العمل بهمة لاتعرف الكلل ، حتى تمت المجموعة الانشائية الضخمة العظيمة بعد وفاة منشئها بقليل ، فدفن بجامع القلعة حتى تم بناء قبره هناك تحت القبة الباذخة الفخمة ، فنقل اليها فى المحرم سنة ٦٩٠ هـ ..

ومسجد « البيمارستان » القلاوونى ، عمل من أجل الاعمال الانشائية وأفخمها ، **لا فى دولة المماليك البحرية فحسب ، بل فى شتى العصور التى سبقتها . وهو بفخامته وشدة اتساعه وتنوع الأغراض التى أنشىء من أجلها ؛ يدل على ماكانت عليه مصر من ثراء ، شجع السلاطين على الاسراف فى البناء ، اسرافا جعلهم يقيمون مثل هذا الصرح العظيم الذى كان فى مجموعه وتفصيله آية للدقة والروعة والفن الأصيل ..**

والعمارة القلاوونية الضخمة ذات واجهة عظيمة : جزؤها البحرى هو القبة ، ومدفن قلاوون ، ومنارته الفريدة . وجزؤها الثانى القبلى هو المدرسة . وفيما بين القسمين المميزين الباب الكبير الذى يوصل الى « البيمارستان » ، والى القبة والمدرسة أيضا ..

ومنارة المسجد طريفة دقيقة ، تتميز بأنها لا شبيه لها بين منائر مصر .. وهى فى تفردها الصناعى هذا تشبه منارة الجامع الطولونى .. بناء حجرى ضخم مكون من ثلاث طبقات ..

وقبة مدفن قلاوون هى الاخرى تحفة جميلة ، لا شبيه لها بين القباب فى مصر على الاطلاق .. وترجع فى أصلها المعمارى الى قبة الصخرة فى بيت المقدس ، وهى مكسوة الجوانب بالرخام الدقيق المطعم بالصدف ، وبسقفها نقوش ذهبية ، وبها منافذ عديدة من شتى جوانبها ذات عقود وزخارف ، يحليها الزجاج الملون ..

ومحراب القبة هو الآخر فريد فى صنعه لا نظير له بين محاريب مساجد القاهرة ، يكسوه الرخام المطعم بالأصداف ، وله عدة أفاريز خشبية عليها كتابات مذهبة بالخط الكوفى ..

وقد رتب فيها الملك المنصور دروسا فى المذاهب الأربعة ، ودرسا للطب ، ودرسا للحديث ، ودرسا للتفسير ، فيه مدرس ومعيدان وثلاثون طالبا .. وجعل بها خزانة للكتب ..

وحبس المنصور على هذه المجموعة الانشائية العظيمة أموالا طائلة ، يقرب ايرادها السنوى من عشرة آلاف دينار ..

وقد شهد المنصور قلاوون تحقيق حلمه العزيز ووفائه بنذره ، يوم افتتاح مجموعته الرابعة هذه ..

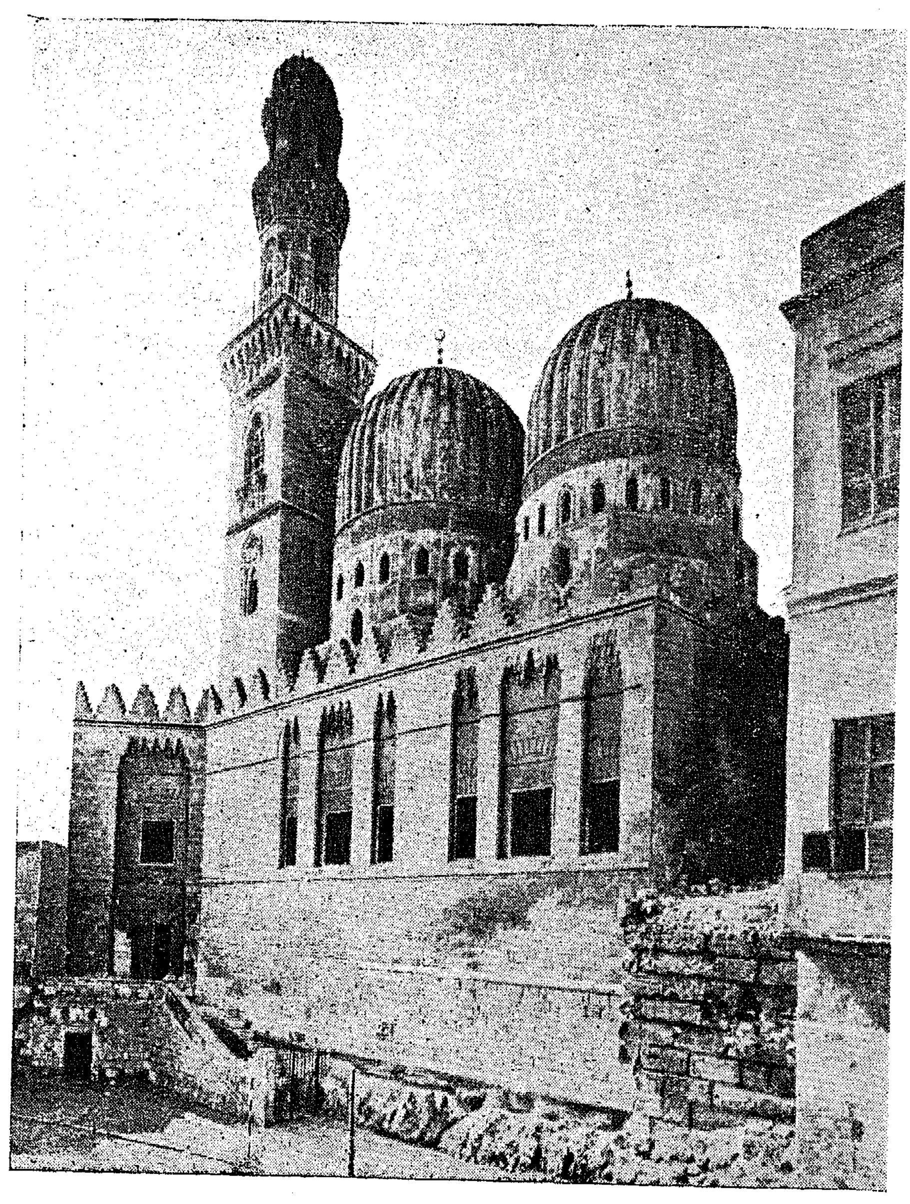
وأمر يومها بأن يحضروا له قدحا من شراب يقدمونه للمرضى المترددين على البيمارستان ، فشربه .. ثم قال :

« قد وقفت هذا على مثلى ، فمن دونى .. وجعلته وقفا على الملك والمملوك ، والجندى والامير ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكور والأناث » ..

ثم رتب فيه العقاقير والأطباء ، ومكانا لتركيب المعاجين والادوية ونحوها ، ومكانا للخزن ، ومكانا لتوزيع الادوية ، ومكانا لدراسة الطب ..

وجعل النظر لنفسه ، ثم لأولاده ، ثم لحاكم المسلمين الشافعى ..

وضمن وقفه كتابا تاريخه « يوم الثلاثاء ، ثالث عشر من صفر سنة ثمانين وستمائة» وبلغ مصروف الشراب منه فى كل يوم خمسمائة رطل ، سوى السكر .. ورتب فيه عددا من العاملين ، مابين أمناء ومباشرين للادارة واستخراج مال الوقف والمطبخ وعمارة الأوقاف ..



مسجد ومدرسة سلار وسنجر الجاولى أنشاه الامير علم الدين سنجر الجاولى سنة ٧٠٣ هـ ، ١٣٠٣م كان مملوكا لاحد أمراء الظاهر بيبرس ، وانتقل بعد موت صاحبه الى بيت قلاوون وظل به حتى وصل الى مرتبة الامراء وكان صديقا حميما للامير سلار أحد مماليك المنصور قلاوون الذى اعتقله الملك الناصر ـ اثر فتنة ـ مدة ثماني سنوات ومات يوم أفرج عنه .. وقد نسب هذا المسجد الى «سنجر» دون « سلار » مع أن سلار كان اعظم جاها وأوفر مالا . ولكن ظروفه حالت دون تأييد نسبته اليه . الكتابات الموجودة بالمسجد .

وعين فى القبة خمسين مقرئا ــ يتناوبون القراءة ليلا ونهارا ، واماما راتبا ، ورئيسا للمؤذنين ..

وعين بمكتب السبيل معلمين يقرئان الأيتام ، وجعل لكل يتيم رطلين من الخبز يوميا ، وكسوة الشتاء والصيف » (١)

وبالرغم من عظم التبعات التى تحملها المنصور قلاوون ؛ لاتمـام مجموعته البنائية الخالدة هـذه ــ فان الرجل لم يقصر فى رعاية ماكان فى حاجة الى رعاية من مساجد القاهرة الاخرى ، فأولاها عنايته ، لاسيما جامع عمرو بن العاص ، الذى كان قد ساء حاله فى تلك الاثناء ، وعدت عليه يد البلى ؛ فتداعت جدرانه حتى كادت تتساقط ؛ لان المشرفين عليه أهملوا رعايته ، وتهـاونوا فى تحصيل ايراد أوقافه الـكثيرة ، وتركوا الأحباس نفسها فى يد مغتصبيها من الناس ..

حتى تقـدم تقى الدين أبو القاسم بن عبد الوهاب ابن بنت الاعز ، قاضى قضـاة الشافعية وناظر أحباسها والمشرف على جامع عمرو ــ بشكوى الى السلطان المنصور ، عرض فيها لكل شيء : المبانى المتداعية ، والاهمال الشـنيع ، والاحباس المغتصبة .. وطالب بنجدة سريعة لانقاذ جامع عمرو ..

وعين القاضى للمسئولين مكانا خصيبا ، اغتصبه الناس وهو موقوف على «الشافعية» ومدرستهم التى كان مقرها « جامع عمرو » .. وطالب برد هـذه الاعيان المغتصـبة ، وكانت أرضا زراعية شاسعة فى « جزيرة الفيل » ..

فأسرع المسئولون باجابته الى طلبه وردوا اليه تلك الأعيان ..

وعاد تقى الدين مرة ثانية يطالب بأموال متجمدة من أحباس مسجد عمرو ، قدرها ثلاثون ألف درهم ، فتصرف فى اصلاحه .. فلم يجبه أحد الى طلبه ..

ثم حدث بعد هذا أن أصدر قلاوون أمرا الى أحد نوابه ، المسمى « عز الدين الاقرم » ليقوم باصلاح جامع عمرو على النفقة السلطانيـة .. فأسرع المملوك الى تنفيـذ أمر سيده ــ ولكن فى غير مراعاة لواجب الذمة والأمانة ، اذ رسم بينه وبين نفسه أن يراعى فائدته هو أولا ، وما سوف يعود عليه من ربح عن طريق مباشرة هذه العمارة أولا وقبل كل شيء ..

وبدأ عز الدين الأقرم عمله أول مابدأ بجرد الاحباس الموقوفة على المسـجد ، وقام بحصر ايراداتها .. ثم أمر بجمعهـا ليغتصب معظمهـا ، ويجود بالبقية التافهـة على الاصلاح الذى أمر باجرائه !!

---

(١) ظل هذا « البيمارستان » يؤدى وظيفته الانسانية الحقة على كر العصور ، مستعينا فى ذلك بايراد أوقافه حتى تسلمته وزارة الاوقاف ، وبدأت اشرافهـا عليه ، فاستمر يؤدى وظيفتـه التى انشىء من أجلها .. ثم خصصته فى النهـاية وجعلته حتى يومنا هـذا مستشفى لامراض العيون

ولقد كان غريبا أن ينصرف المملوك الشره عن ترميم الجدران الآيلة للسقوط ، ويعمد الى طلائها من الخارج بالملاط ، وحشو الصدوع والشقوق ، وتزيينها بعد الطلاء بما يخدع البصر ويوهم بتمام « الترميم » !!

وأمر عز الدين الأفرم بأن تطلى واجهة حجرة « المزاولى » ..

ثم طلب من العمال أن يعملوا على اعادة جريان الماء من البئر والساقيةالواقعتينبزقاق الاقفال ــ الى المسجد مرة أخرى ..

ولما رأى عمد المسجد كثيرة .. واصلاحها يكلف غاليا ــ أمر العمال بتنظيف هذه العمد حتى منتصفها .. فبدت فى منظر ينبو عنه الذوق السليم !!

واكتفى المملوك من اصلاح المسجد بما أفسد وزور .. وأمر برفع الأتربة التى تخلفت عن الاصلاح الصورى ، ثم أزال أتربة أخرى كانت باقية ببعض الزيادات ..

وعاد الى مولاه السلطان المنصور ؛ ليرفع اليه تقريرا بأنه أصلح جامع عمرو وجدده حتى أصبح تحفة تسر الناظرين !!

ولم يقصر الملك المنصور فى عنايته بالجامع الأزهر ، فأمر نائبه « الامير طرنطاى » ، بأن يوليه عنايته وأن يقوم باصلاح مايحتاج الى الاصلاح من مبانيه .. فأقدم الأمير على التنفيذ فى سرعة ، وبروح غير تلك التى سادت أعمال « أيبك » الذى باشر اصلاح جامع عمرو ..

ومرض المنصور .. فعهد بشئون السلطنة الى ولده الاشرف خليل ، الذى تولى بعد أبيه باسم « الملك الاشرف صلاح الدين خليل » ..

وكان من المؤسف أن يبدأ ابن المنصور عهده بخلع من كانوا مقربين من أبيه وزجهم فى السجون !

ثم ينقض على الأمير « طرنطاى » نائب أبيه فيسجنه ، ثم يأمر بقتله والاستيلاء على أمواله .. متناسيا كل فضيلة ، حتى فضيلة الوفاء فى رد الجميل للرجل الأمين ، الذى أبى أن يطيع المماليك ــ والمنصور على فراش الموت ــ فيأمر بالقبض على خليل !

لقد حذروه من ابن المنصور فأبى أن يخون سيده ، واحتسب نفسه فى الشهداء ، وهو يعلم أنه سيموت بيد خليل، فآثر أن يقال : **انه قتل، على أن يقال : انه خان !**

وباشر خليل شئون الملك بروح فارس وقلب محارب .. فجهز الجيوش وأعد العدد ولم ينس سياسة القلاع والحصون .. وخرج على رأس الجيش فحاصر « عكا » ــ وكانت فى يد « الصليبيين » ــ فاستولى عليها وهدم أسوارها وحصونها .. وسار منها الى « بيروت » ، فاستولى عليها هى الاخرى ، وهدم أسوارها وحصونها ..

وأمر « الأشرف » أن ينقل من بيروت ما كان فى أسوارها وحصونها التى سقطت من رخام مختلف الالوان ، ليستعمله فى أعماله الانشائية ..

ولما عاد الملك الأشرف الى القاهرة ، عاودته سياسة البطش من جديد ٠٠ فراح يتلمس الأسباب للقضاء على أمراء المماليك ، ليتخلص منهم ويفسح المجال لبعض خاصته فكان أن تجمعوا عليه ، واتحدت كلمتهم على البطش به والتخلص منه ٠

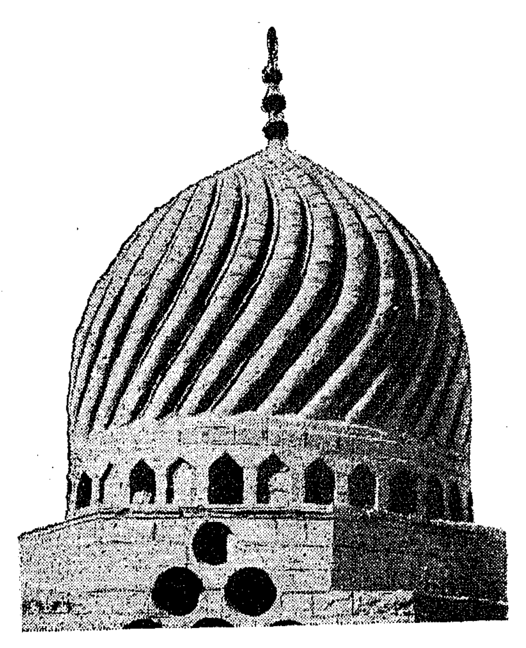
وظلوا يتحينون الفرصة ، حتى واتتهم ذات يوم وهو فى رحلة صيد باقليم « البحيرة » ، فانقض عليه « **بيدر** » و « **لاجين** » و « **بهادر** » و « **آق سنقر** » ، وغيرهم ، وحاصروه ثم انهالوا عليه بسيوفهم حتى مات !

ولما مات الأشرف خليل ، بقى ملقى حيث هو ، لان الفتنة شملت البلاد ، وأحب المتآمرون تولية « بيدر » باسم الملك الأمجد ، ولكن مماليك الأشرف خليل قضوا على الفتنة وقتلوا « بيدر » فهرب من معه !

وحملت جثة خليل بعد هذا لتدفن فى « المدرسة الأشرفية » التى بناها الى جوار المشهد النفيسى ، وعلى مقربة من مشهد « **رقية** » ٠٠ وبنى له فيها قبة رائعة جميلة النقوش جعل تحتها مقبرته ٠٠

والمدرسة الأشرفية ٠٠ أو « الجامع الاشرف » عمارة من أجمل العمارات القلاوونية ٠٠ بناها الأشرف خليل تمشيا مع سنة عصره فى اقامة المساجد الملحق بها مدارس لتربية الناشئة ورعايتهم ليكونوا مواطنين صالحين ٠٠

وواجهة المدرسة الأشرفية مبنية بالحجر الضخم ، وعليها قبة جليلة رائعة الصنع ، وعلى الجدران كتابات مهيبة ٠٠



« قبة الجاي اليوسفى »

مؤامرات المماليك

ما كاد مماليك الاشرف خليل وخاصته يفرغون من الانتقام لمقتل سيدهم ومطاردة بقية العصبة الشريرة التى ظاهرت « بيدر » الخائن قاتله ، حتى استقر الرأي على تولية محمد بن المنصور قلاوون سلطانا على البلاد باسم « الناصر محمد » ..

وكان الملك الناصر عندما تولى العرش حدثا صغيرا ؛ فترك تصريف أمور الدولة الى « الشجاعى » ، الذى استبد وقسا ، وأغضب المماليك كلهم .. فراح يقتل ويشنق ويرسل الى السجون باسم الانتقام لمقتل الاشرف !

وهرب فيمن هرب من أمراء المماليك « حسام الدين لاجين » ..

لقد شهد الناس ذات يوم مملوكا ملأه الذعر يرقى درج مئذنة جامع أحمد ابن طولون المهجور .. فثارت فيه الأقاويل وكثرت الروايات ..

لقد قيل يومها : ان أحد طغاة المماليك الاشرار تجاسر على حرمة المسجد ؛ فصعد سلم مئذنته وهو على ظهر جواده ، ولكن القدر أبى أن تصل الجرأة بمملوك الى هذا الحد من الاستهتار بحرمة بيوت الله ، فلم يكد يصل الى قمة المئذنة حتى اختفى من الوجود .. ولم يعلم أحد من ساعتها الى أين ذهب ذلك المملوك !

« مئذنة القاضى يحيى »

أما الحقيقة فكانت بعيدة كل البعد عن تقولات العوام ..

لقد تسلل فعلا الى داخل مسجد طولون مملوك خائف ؛ ليختفى عن عيون مطارديه

القساة ؛ ليحاسبوه على اشتراكه فى قتل سيده ٠٠

وظل ذلك المملوك يتنقل متسترا فى أرجاء المسجد الفسيح ، حتى وصل الى مؤخرة المسجد ـ حيث المئذنة البعيدة المنعزلة ، فوجد أن الطريق قد سدت فى وجهه وضاقت به السبل ، وخشى أن يعود من حيث أتى فيقع فى أيدى مطارديه أعوان السلطان ٠٠ فلم يجد غير أن يغامر ويصعد الدرج الحلزونى فى حذر ، عساه يجد ملجأ يستره عن العيون ٠٠

وهكذا وصل حسام الدين لاجين الى أعلا منارة المسجد الطولونى ٠٠ واذا به يجد هناك خزانة ، اختفى فيها طوال عام بأسره ٠٠ حتى تشفع له الامير « كتبغا » نائب السلطنة لدى سيده الملك الناصر محمد ، فقبل الشفاعة وعفا عن المملوك الهارب ورد عليه أمواله ، وأعاده الى مكانة الصدارة فى قصره ٠٠

أما الشجاعى الذى لم يرقه كرم « الناصر » ولا حبه للمسالمة ، فقد استمر على خطته العدائية للجميع ؛ حتى حول القلوب عن السلطان الشاب ، وجعل المماليك يعقدون النية على القيام بمغامرة ، يختفى بعدها الشجاعى من الوجود ويبقى الناصر ، أو يختفى الاثنان معا ٠٠

وأحس الناصر بما كان يدبر ضده ٠٠ ووجد نفسه يستدعى الشجاعى ليعرف منه سر غضب المماليك والامراء ٠٠ وكان الناصر صغيرا ضعيفا ، فأغلظ له الشجاعى فى القول ، بل وهدده ٠٠ فتركه وهو عاجز عنه الى عدالة القدر ٠٠

وسرعان ماسلط القدر على الشجاعى مملوكا جريئا فتربص به وحز رأسه وحملها الى أمراء المماليك ، الذين تجمعوا بملابس الحرب ، ليضعوا نهاية لذلك التعسف الرهيب !

ورأى أمراء المماليك بعد مقتل الشجاعى أن السلطان الملك الناصر ، حدث صغير ٠٠ وهم فى حاجة الى رجل قوى الشكيمة ، يستطيع أن يسوس الملك ويجرى العدالة بين الناس ٠٠

وكان أن استقر رأيهم فى النهاية على خلع الملك الناصر ، وتولية الامير « كتبغا » سلطانا باسم « الملك العادل كتبغا عبد الله المنصورى » ٠٠

وهكذا تملك « العادل » عرش سيده ابن قلاوون ودانت له مصر ٠٠ فى الوقت الذى رحل فيه الملك الناصر محمد الى « الكرك » بعد أن حكم مصر حوالى أحد عشر شهرا ٠٠

وكان العادل كتبغا ، رجلا طيب القلب نقي السريرة .. لم يكد يتسلم مقاليد الملك ، حتى جعل « حسام الدين لاجين » نائبه على السلطنة ٠٠ وأطلق يده ويد الكثيرين من زملائه القدامى فى شئون الحكم ، حتى مكن لهم وزاد من نفوذهم .. ولم يدر بخلده أن **لاجين الرهيب كان يرسم خطوط مؤامرة للايقاع به !**

نسى كتبغا أن لاجين القلق الثائر ، قد فاته حظه أكثر من مرة ..

لقد كان من أقدم مماليك الملك الصالح « نجم الدين أيوب » ، وكان أثيرا عنده حتى قدمه على « أيبك » التركماني ذات يوم .. وكان صاحبا وخدنا لأقطاى وبيبرس .. وهو الوحيد الذى مرت به السنون حيث هو ، فلم يتقدم ، ولا لاحت له بارقة أمل فى تقدم وهو جد مشوق الى الجاه والسلطان !

اما اليوم فهو غير الامس.. وأن بوارق الحظ لتتبدى للطامع لاجين.. وانه لينسج من خير كتبغا وأفضاله عليه شركا يوقعه فيه ، ويسير على جثته الى سرير الملك !

وظل كتبغا على حاله من الطيبة والهدوء .. وانصرف عن التفكير فى شئون المؤامرات التى كانت تحاك حوله ، الى التفكير فى أمر الانشاءات والعمارات ، ليكون له هو الآخر مسجدا عظيما — شأنه فى ذلك شأن السلاطين العظام الذين سبقوه !

وبدأ العادل كتبغا فى دراسة مشروع اقامة مسجد ومدرسة ، الى جانب مدرسة البيمارستان المنصورى ..

وشرع فعلا فى اقامة البنـــاء الأشم ، الذى كانت الظروف تحتم أن يكون على غرار المجموعة الضخمة التى أنشأها قلاوون ..

وارتفع البناء الحجرى الشاهق حتى ظهرت فى الافق معالمه ..

ثم سافر كتبغا الى الشام ، فى أمر من أمور ملكه الفسيح ..

وطابت له الاقامة هناك ، ولم يدر بخلده أن نائبه حسام الدين لاجين قدخلعه ، وأعطى لنفسه كل حقوق السلطان !

ولم يسمع الملك الطيب بما حدث ، الا يوم وصلته رســالة من لاجين ، يأمره فيها بالذهاب الى « صرخد » ليعيش هناك مع عائلته فى أمن وسلام ! وألا يحاول العودة .. أما أمر المملكة ، فقد رتبه هو وكفاه كل شئونه !

واستسلم كتبغا لأمر نائبه السابق لاجين ، وخلع نفسه عن السلطنة التى ظل يباشر مقاليدها قرابة العامين ..

وتولاها من بعده لاجين باسم « الملك المنصور حسام الدين لاجين » !

وتذكر لاجين أول ماتذكر مسجد احمد بن طولون « ذلك الفضاء الرحب المتخرب . الذى هرع اليه ذات يوم هاربا من الموت ! فقادته المصادفة الى مؤخرة المســجد حيث المئذنة !!

وطافت ذكريات عام كامل بذاكرة لاجين .. عام ظل فيه مختفيا فى خزانة المئذنة حتى صدر أمر الملك الناصر بالعفو عنه !!

واحب لاجين— وقد أصبح اليوم صاحب الحل والعقد وسلطان مصر المطلق، أن يرد

للمسجد الشبيه بالمهجور بعض فضله عليه ٠٠ فأمر بأن يجدد كله وينظف ، بعد أن جعل منه الزمن مناخا ؛ تتجمع فيه دواب حجاج المغاربة !

وبعد أن أتم لاجين تجديد جدران المسجد الطولونى من الخارج ، التفت الى داخله - وكان فى حاجة كبيرة الى الاصلاح والتعمير ٠٠

والى جانب المحراب الطولونى الاصلى ، والمحراب المستنصرى الذى بناه الخليفة الفاطمى المستنصر - بدأ لاجين يقيم محرابا جديدا على نمط المستنصرى ٠٠ وكان ذلك فى عام ٦٩٦ هـ ٠٠

ولما فرغ العمال من بناء المحراب ، كسى بالفسيفساء المذهبة ٠٠ وأمر لاجين بعمل اطار فوقه ، كتب فيه بالخط الكوفى :

« أقام هذا المحراب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين ، لاجين سلطان الاسلام » ٠٠

وفوق العقد المخموس كتب :

« لا اله الا الله محمد رسول الله حسبى ربى الله » ٠٠

واتجه لاجين باهتمامه بعد هذا الى المئذنة .. مئذنة « الذكرى » فجدد بناء ماتهدم منها ، وبنى قمتها التى كانت قد سقطت بفعل الزمن .. وأعاد اليها العشارى الذى كان فوقها أيام أنشئت فى زمن أحمد بن طولون ثم سقط منها بعد ذلك ..

وحبس المنصور لاجين على جامع طولون بعد هذا كله أوقافا كثيرة ، ذات دخل وفير ٠٠ ورتب فيه دروسا للمذاهب الاربعة ، ودرسا للتفسير ، ودرسا للحديث ٠٠

ولما كان احمد بن طولون ، يوم أنشأ المسجد ، قد ألحق به « خزانة أدوية » ؛ فنبه الأذهان الى انشاء « البيمارستانات » فى المساجد - فقد أحب لاجين أن يعيد كل شىء الى أصله ، بل وزاد عليه بأن قرر فى المسجد درسا خاصا بالطب ٠٠

وعين لاجين للمسجد اماما وخطيبا ، وعدة مؤذنين ومقرئين وفراشين ، وعين لهم رواتب محددة ٠٠

وأنشأ لاجين الى جانب المسجد مكتبا ، خصصه لأولاد الفقراء كى يتعلموا فيه قراءة القرآن ٠٠

وقد بلغ ماصرفه لاجين على تعمير جامع ابن طولون وتجميله وزخرفته واعادته الى أصله ، حوالى عشرين ألف دينار ٠٠

وهكذا كان المنصور لاجين وفيا للمسجد الذى آواه وأمن خوفه ، فأصلحه وجدد شبابه ٠٠ واستطاع أن يخلد لنفسه الذكر الحسن ، وأن يتقرب الى الله بعمل صالح يرضيه ٠٠

وفى الوقت الذى وجه فيه لاجين كل عنايته واهتمامه الى تعمير الجامع الطولونى ،

اتجه بعض كبار رجال الدولة وأئمة الدين الى عمارة جامع « عمرو بن العاص » ..

ففى عام ستة وتسعين وستمائة الهجرى ، اشترى « **الصاحب تاج الدين ابن الصاحب بهاء الدين بن حنا** » دارا بسوق الاكفانيين وهدمها ، وجعل مكانها « سـقاية » كبيرة ، رفعها الى محاذاة سطح الجامع ووصل بينهما بمعبر ..

وفوق « السقاية » بنى الصاحب تاج الدين أربعـة بيوت يرتفق بهـا فى الخلاء ، وخصص فى جانب آخر مكانا أعده لجرار الماء العذب ؛ فوفر على الناس بذلك متاعب كثيرة ويسر لهم الحصول على ماء الشرب ..

وهدم تاج الدين بعد هذا « سقاية » بالمسجد . كانت فى الحجرة الواقعة أسفل مئذنة المنظرة.. وأقام مكانها برجا شاهقا ، جعل بأعلاه بيتين للارتفاق، أحدهما بدلا من الحجرة التى هدمت ، والثانى يستعمله من هو خارج الحجرة ممن يقرب منها ، ويصل اليهما من ممر فى خارجها ..

ولقد كانت تلك العمارة خاصة بأعمال قصد بها وجه الخير وان لم تمس بناء المسجد من قريب أو بعيد ، فقد كانت لازمة لاستكمال بهائه ، من وسائل تجميله وتوفير العناء على العطشى الذين كانوا يترددون على الفسطاط ..

ولما تولى « علاء الدين بن مروانة » نيابة دار العدل بالقـاهرة ، أخذ يوزع الأعمال ، ويعين الاختصاصات ، ويكلف الموظفين العاملين بتحمل نصيبهم فى أعباء الادارة ..

وقد قسم ابن مروانة ادارة مسجدى القـاهرة الجامعيين ، بين اثنين من مساعديه : نبيه الدين بن السحرتى ، لادارة « الازهر » وبهـاء الدين بن السـكرى لجامع عمرو بن العاص .

وكان ابن السكرى من الاخلاص للعمل الذى وكل اليه ، الى الحد الذى جعله يلم بكل كبيرة وصـغيرة فى جامع عمرو ، وتلمس كل نواحى النقص فيه وما يمكن أن يزيده جمالا وبهاء ..

ورأى أن الزيادة البحرية من المسجد قد أهملت على كر العصـور ، ولم تعد صالحة لأداء الوظيفة الدينية التى أنشئت من أجلها ، فتحولت الى شبه مخزن تكدست فيه « الحصر » القديمة ..

وأراد أن ينظف ذلك المكان ويعيده الى سابق عهده ، وأن يرفع سـقفه ، ويقيم بين بابيه حاجزا **يمنع عابرى المسـجد بين بابه الأصـلى وباب الزيادة الموصل الى سوق النحاسين ..**

ورفع ابن السكرى الى رئيسه ابن « مروانة » تقريرا بما رآه ، وألح فى ضرورة التنفيذ ..

وأمر ابن مروانة بتنفيذ ما ارتأى مشيره .. وزاد فأمر بأن تكسى الارض بالبلاط ، وأن يرمم بعض رخام صحن المسجد ، بما قطع من الاعمدة الرخامية ، وكسا بالفائض من الرخام أرض بعض الممرات .

وظل لاجين قابضا على زمام الحكم متصرفا فى أمور الدولة مدة عامين كاملين .. غير أن نائبه الامير « منكوتمر » أساء التصرف ، وأغضب الامراء .. وكان فظا غليظ القلب ، جعل الناس يكرهون لاجين ، ويتمنون الخلاص منه ..

وتمت فعلا مؤامرة لخلع الملك وحدد موعدها .. ووقف المتآمرون فى بهو القصر ينتظرون الشارة المتفق عليها ليهجموا على الملك المحارب .. ولكن مملوكه ، « كرجى » مقدم المماليك البرجية كفاهم مؤونة الهجوم ، فقام به وحده .. وانتهز فرصة قيام سيده بالصلاة فهجم عليه وهوى بالسيف على كتفه ؛ فقام لاجين وأمسك به ليذبحه ، لولا أن أنقذه من يده متآمر آخر اسمه « نوغان الكرمانى » بأن وجه ضربة ثانية الى السلطان ، كانت هى القاضية ، ومات لاجين بعد أن حكم مصر قرابة عامين !!

ورأى متآمرو المماليك ـ وقد ظلت مصر بلا سلطان ، أكثر من شهر ـ أن يرسلوا فى استدعاء الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ليعود الى مصر ثانية ، ويتسلم عرشه من جديد ..



احدى مشكاوات مسجد السلطان حسن

نهضة عمرانية

بدأت مصر بعد عودة السلطان الملك الناصر اليها ، تتذوق لونا من ألوان الاستقرار والهدوء . فمرت السنون رتيبة دون جديد ، الا أنه حدث فى أوائل العام الهجرى الاول بعد السبعمائة ، أن مات **الامام أحمد الحاكم بأمر الله ..**

والامام احمد هذا هو الخليفة الرمزى الذى عينه سلاطين المماليك البحرية فى مصر ، بعد أن سقطت بغداد ، ليعزز وجوده وجودهم ، ويصل فى مصر ما انقطع من أمر الخلافة فى بغداد ، ويضمن بمكانته الدينية وصفاته الصورية التى منحت له ، اضفاء صفة رسمية على سلطان المماليك الذين كانوا يمارسونه فى مصر عن طريق الاغتصاب ووثوب قويهم على الضعيف ..

وقد رأى الملك الناصر ، أمام واقعة موت أول خليفة فى مصر ، أن ينهى أول ماينهى المراسيم الدينية الخاصة بتولية ابنه « المستكفى بالله أبى الربيع سليمان » مكان أبيه .. ثم اعداد العدة لمواراة الميت لحده

وأمر الملك الناصر بأن يكرم الخليفة العباسى الراحل بدفنه فى رحاب طاهر ، هو المشهد النفيسى ..

« مئذنة مسجد السيدة نفيسة »

وكأنما أراد أن يكون فى موت الخليفة ودفنه فى المشهد الجليل ، مشهد السيدة **نفيسة بنت الحسن الانور بن زيد بن الحسن ابن على بن أبى طالب** ـ سببا من أسباب العناية بذلك الاثر الجليل ، الذى لم تتناوله يد الاصلاح منذ آخر تجديد معمارى أجراه فيه الامير **بدر الدين الجمالى** ، أمير جيوش الخليفة **المستنصر الفاطمى سنة ٤٨٢هـ ،**

١٠٨٩م ، ثم جدد قبته بعد ذلك «**الخليفة الحافظ لدين الله**» سنة ٥٣٢هـ ، ١١٣٨م وكسا محرابه بالرخام ..

كما أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٤هـ ، ١٣١٤م بأن يلحق بالقبة مسجد عظيم البنيان ، يتفق ومكانة السيدة نفيسة فى القلوب ، وكلف « كهرداش » متعهد العمائر السلطانية بالاشراف على بنائه ، وأن يصرف عليه من حصيلة « النذور » و « الهبات » ، التى كانت تقدم من عامة الشعب للمشهد النفيسى ..

والجامع النفيسى يدخل اليه من ممر طويل مفروش بالحجر المنحوت .

ومطهرة الجامع الى يمين مدخله ، وتوجد به على كلا جانبيه أماكن للمتصوفين ، وفى نهاية الممر بابان يصل أحدهما الى الضريح ويصل الثانى الى صحن المسجد ..

والمشهد له باب من الرخام القيشانى ، يكتنفه عمودان صغيران من حجر السماق ، وحائط القبة من الأسفل مكسو بالرخام والقيشانى نحو ثلثى قامة ، وفى أعلاها آيات قرآنية ، وفيها قبلة بالرخام ، وأخرى من الخشب ..

وعلى البرزخ مقصورة من النحاس الاصفر ، وهناك نافذة تطل على مدفن الخليفة العباسى الذى تم دفنه هناك ..

والمسجد من الخارج محكم البنيان دقيق المئذنة رائع القبة ، فيه رقة تميزت بها « مشاهد » النساء الحسيبات اللاتى أقيمت لهن مشاهد فى مصر كلها ..

وبعد أن تم بنيان الجامع الجديد وكملت عمارته ، ولى الملك الناصر خطابته لعلاء الدين محمد بن نصر الدين الجوهرى شاهد الخزانة السلطانية ..

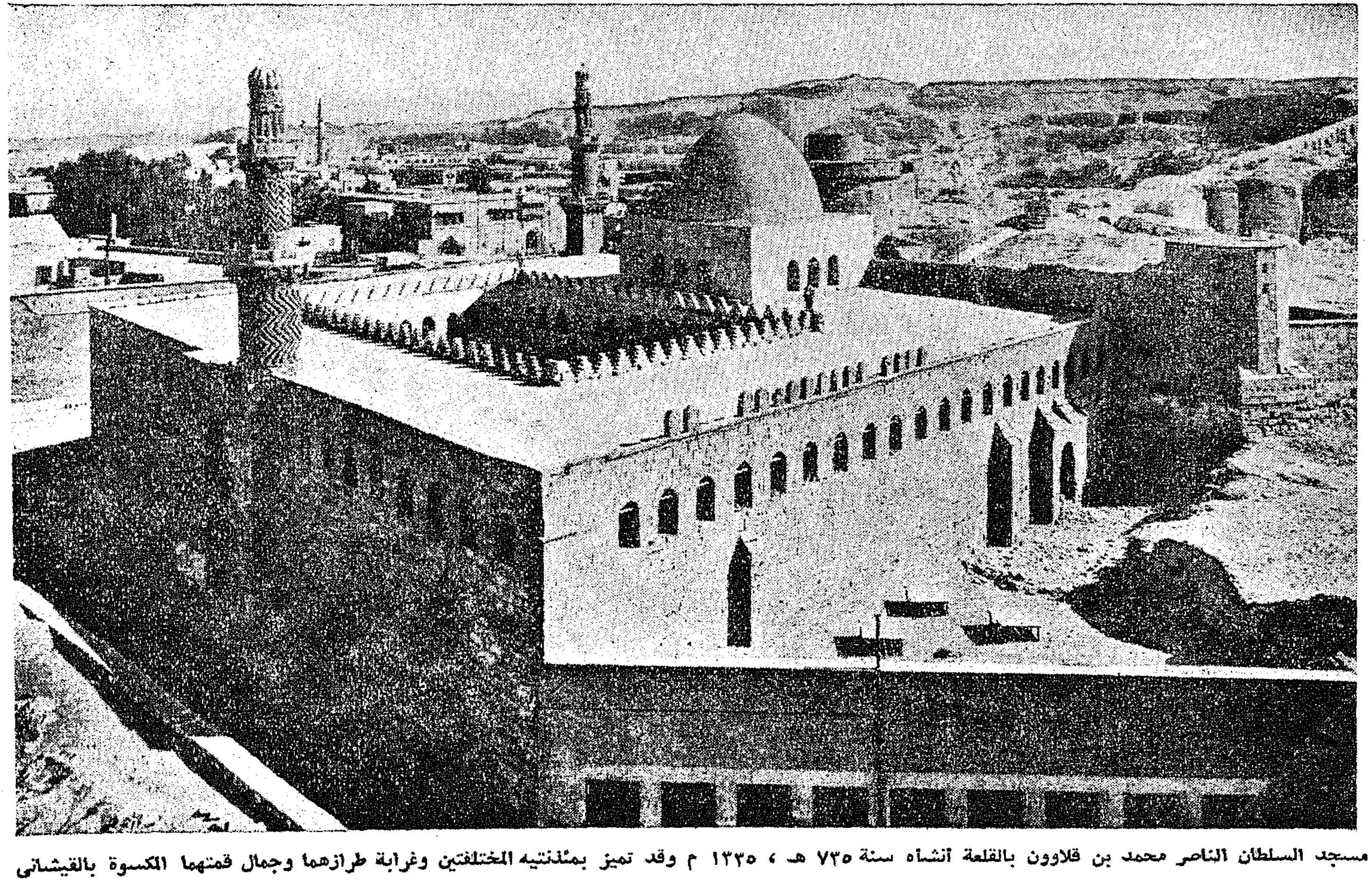
وشهد افتتاح المسجد أمير المؤمنين المستكفى بالله ، واستمع الى أول خطبة من خطب الجمعة ألقاها علاء الدين محمد ، وحضر مع الخليفة ولده وابن عمه ، وكان الأمير كهرداش الذى تولى عمارة المسجد ضمن الحضور أيضا ..

وسارت الأمور بعد ذلك مسيرها العادى : فتن محلية ، لا يلبث أعوان الناصر أن يقضوا عليها .. أو غارة من غارات التتار الدائمة ، يخرج لصدها جيش المماليك ..

وحل بعد ذلك العام الثانى بعد السبعمائة من الهجرة .. وسارت أيامه وشهوره كما مر غيرها من الايام والشهور ، ولكنه لم يكد يقارب نهايته حتى استيقظ الناس مذعورين ، وقد حوم الموت ورفرف الهلاك ، ومادت الارض واضطربت ، فتهاوت العمائر الضخمة ، وتشقق الجبل ، وتساقطت الدور وفعل الزلزال الرهيب أفاعيله !!

وجرى الناس هنا وهناك وفى كل مكان فسيح ، يتلمسون النجاة ولا نجاة .. وضاقت بهم المسالك وغصت الميادين ، وترددت فى جوانبها أصواتهم ضارعة مبتهلة ، يستغيثون ويستنجدون وقد ظنوا أن يوم القيامة قد دهمهم على حين غفلة !!

وأسفر الزلزال الرهيب عن خسائر جسيمة ، كان أظهرها تهدم سور الاسكندرية وأبراجها .. أما فى القاهرة فقد تهدمت معظم جدران الجامع الحاكمى ومئذنته ،



مسجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة أنشأه سنة ٧٣٥ هـ ، ١٣٣٥ م وقد تميز بمئذنتيه المختلفتين وغرابة طرازهما وجمال قمتهما المكسوة بالقيشانى

ومئذنة المدرسة المنصورية الملحقة بالبيمارستان ، ومئذنة جامع السلطان الملك الظاهر بيبرس ، وبعض جدران جامع عمرو بن العاص والجامع الأزهر ، ومئذنة مسجد الصالح طلائع بن رزيق ..

واستعرض الملك الناصر الحوادث التى نجمت عن ذلك الزلزال المروع الذى لم يشهد له الناس مثيلا ، والذى لم تخف حدته ، وظل يعاود الناس بالهول والكوارث فى فترات متقاربة ومفاجئة لقرابة عشرين يوما — تركوا خلالها الدور وأسرعوا الى الخلاء .. وراح الملك يحصى خسائره الظاهرة ، ليتخذ بشأنها مايجب اتخاذه من اصلاحات تبعا لأهميتها ..

وكانت أسوار الاسكندرية أهم مايجب أن يعنى به الناصر ، فأمر تابعه الامير « بيبرس الداوادار » بالسفر على وجه السرعة ، ليشرف على عمارة الاسوار والابراج .

وأحب الناصر بعد هذا أن يجعل من اصلاح المساجد التى تهدمت موضع منافسة ، ومجال تفاخر بين الأمراء المماليك . فكان أن أوحى اليهم بذلك ، وسرعان ماظهرت روح التنافس فى تصدى كثيرين منهم لمهمة الاصلاح المنشود .. فى سخاء وكرم من أموالهم الخاصة ..

ولم تلبث البلاد أن شملتها نهضة بنائية مترامية الأطراف ، متشعبة الاهداف .. وكان من نتيجة التنافس ، أن كثرت العمارات وتزايدت الانشاءات ..

وكان الامير سيف الدين بكتمر الجوكندار ، اول من تطوع لتحمل التبعات المعمارية ؛ فأشرف على اصلاح مسجد الصالح طلائع بن رزيق ، وبنى له مئذنة جديدة ، غير تلك التى تهدمت ، وجدد البناء وجمله ، ونمق واجهة المسجد وأزال ماتراكم أمامها من الأتربة .. وأعاد الى المسجد الرائع سابق عهده ورونقه ..

ثم اتجهت الانظار الى « الجامع الحاكمى » لسابق مكانته وعظيم شهرته بين المساجد الجامعة ، وقد أصابه من الزلزال ضرر بليغ أفقده رواءه الذى اشتهر به ..

وتصدى الأمير بيبرس الجاشنكير لعمارة المسجد الحاكمى ، فانتقل اليه ومعه العلماء والامراء المماليك ، وعاينه بنفسه وأمر باصلاح ماتهدم واعادة ماسقط منه .. ثم أوقف عليه مساحة شاسعة من الاراضى الزراعية بالجيزة والصعيد والاسكندرية .. ثم رتب فيه دروسا لتعليم الفقه على المذاهب الاربعة ودرسا آخر للحديث النبوى ، وخصص مدرسين للقيام بهذه الأعباء ، وشجع الطلاب على التردد على حلقات العلم .. ثم أنشأ خزانة للكتب ، وعين مقرئين للقرآن الكريم ..

ثم حفر بصحن المسجد « صهريجا » للمياه .. وأنفق فى هذه العمارة أكثر من أربعين ألف دينار ..

وتصدر الامير « سلار المنصورى » نائب السلطنة ، لاصلاح ماتهدم من المسجدين الجامعين الكبيرين : الازهر ، وعمرو بن العاص ..

أما الازهر فكان تأثير الزلزال فيه هينا ، فلم تستنفد عمارته من نائب السلطنة « سلار » الكثير من المال والجهد ..

أما جامع عمرو ، فكان تأثير الزلزال شديدا عليه الى حد بعيد .. حتى لقد انفصل الكثير من عمده بعضها عن بعض ، وبدا فى حاجة الى «عمارة» شاملة.. فكلف الامير وكيل أعماله بدر الدين بن خطاب بالاشراف عليها واتمامها .. وأوصاه بالا يقصر فى الانفاق أو يحاول التوفير ، ليكون اصلاح المسجد شاملا ومتينا ..

ورأى بدر الدين أن يبدأ بالجدار البحرى لجامع عمرو منناحية سلم السطح الى باب الزيادة البحرية والشرقية ، فيبنيه من جديد ليعود الى أصله الأول ..

وأقام فى هذه الزيادة بابين جديدين ، ورأى أن يزيد فى قوة الاعمدة الأخيرة المقابلة لهذا الجدار ، فزاد الى كل منها عمودا جديدا .. ثم صقل أعمدة المسجد كلها ، فبدت ناصعة رائعة ، ثم قام بطلاء المسجد كله ..

وزاد فى سقف الزيادة الغربية رواقين ، وكسا أرضهما ..

ورأى بعد هذا أن هناك بعض مساجد صغيرة مهدمة ، لا شهرة لها ولا أوقاف ، ولا رجاء فى اصلاحها .. فهدمها كلها وأخذ ماكان فيها من الاعمدة ونقله الى جامع عمرو ليملأ بها صحنه ..

وخلع بدر الدين عديدا من القطع الرخامية التى كانت تكسو بعض مواضع أرض المسجد ، ووضعها كلها عند الباب المعروف باسم « باب الشرابيين » ..

وأمام موجة النشاط المعمارى التى شملت البلاد ، أحب الملك الناصر محمد أن يسهم فيها بدوره ، وأن يكون له فى ميدان التسابق الانشائى نصيب .. ولم يلبث أن تذكر المسجد الذى أراد السلطان العادل « كتبغا » أن يقيمه لنفسه الى جانب بيمارستان قلاوون ، وكيف قام باختيار أرضه وتخطيطها واقامة جدرانه ، وكاد يتمه لولاغدر لاجين وانقضاضه عليه ، ومنعه من العودة الى مقر سلطنته ..

واستعرض الناصر البناء العظيم .. وقرر أن يتمه ، لا باسم « كتبغا » بل باسمه هو ، فكان أن اشترى البناء قبل الاشهاد بوقفه ، ثم أمر بتكملته ..

والمسجد الناصرى ، أو « المدرسة الناصرية » كما أريد لها أن تكون ـ بناء رائع ، يستقيم مع المجموعة الملاصقة له . وهى البيمارستان المنصورى .. ولكنه لايتعادل معها من حيث الفخامة والجلال ..

أما واجهة المسجد ومنارته فهما آيتان من آيات الصناعة المتقنة والزخرفة الرائعة.. والنقش العظيم الذى يظهر مدى ماتميز به صانعو ذلك العهد من تفوق ملموس، لانجده فى أي أثر اسلامى معاصر فى أي قطر آخر من الاقطار الاسلامية ..

وقد أقام الملك الناصر داخل المسجد قبة جليلة ، الا أنها برغم فخامتها دون قبة أبيه المنصور قلاوون المقامة فى البيمارستان ·· وقد قام بنقل رفات أمه ودفنها فيها ··

ودفن الناصر فى هذه القبة بعد ذلك ابنه « آنوك » وحبس عليها قيسارية الامير والربع الذى كان يعلوها . ويعرف بالدهيشة ·· ثم أوقف حوانيت أخرى بجهة الزهومة ودارا خارج دمشق ··

ورتب على تلك القبة وعلى الايوانات الاربعة فى المسجد ، أربعة دروس فى فقه المذاهب الاربعة وأجرى على أربابها الخير الوفير ·· ثم عين للمسجد اماما ، وأقام فيه خزانة للكتب وأمر بأن يمتلىء الدهليز « بالطوشية » ، امعانا فى اظهار مجده وأبهته ·· وكان الناصر يجلس بنفسه فى هذا الدهليز فى المناسبات الموسمية ؛ ليقوم بتوزيع السكر ولحوم الأضاحى على أرباب الوظائف المعينين فى المسجد ··

***

واجمل اثر نفيس يكاد يبلغ فى صناعته حد الاعجاز ، هو الباب الرخامى الرابع الموجود فى واجهته ، فالناظر اليه يقطع بأنه لايمت الى الصناعة الاسلامية بصلة ، فطرازه « غوطى » ، ورخامه ايطالى ، وزخرفته بعيدة عن الفن العربى ، ونقوشه فيها الروح الكنسى ..

وهذا الباب له قصة .. فقد كان قبلا فى احدى كنائس عكا ، وقد أمر الاشرف خليل بنقله الى مصر لما فتح تلك المدينة وهدم أسوارها وبعض كنائسها الصليبية ..

وقد استولى على هذا الباب الخائن « بيدر » الذى اغتال سيده الأشرف خليل ؛ فقتله مماليك الاشرف انتقاما لسيدهم ومثلوا برأسه وطافوا به فى الاسواق ، ثم علق على رمح ، وترك طعاما للطير !!

وقد بقى هذا الباب الدقيق عند ورثة « بيدر » طوال فترة سلطنة الملك الناصر الاولى ولم يلتفت اليه الناصر أو يهتم به ، لانه كان يومئذ حدثا صغيرا ، ولأنه لم يبق فى دست الملك مدة طويلة ..

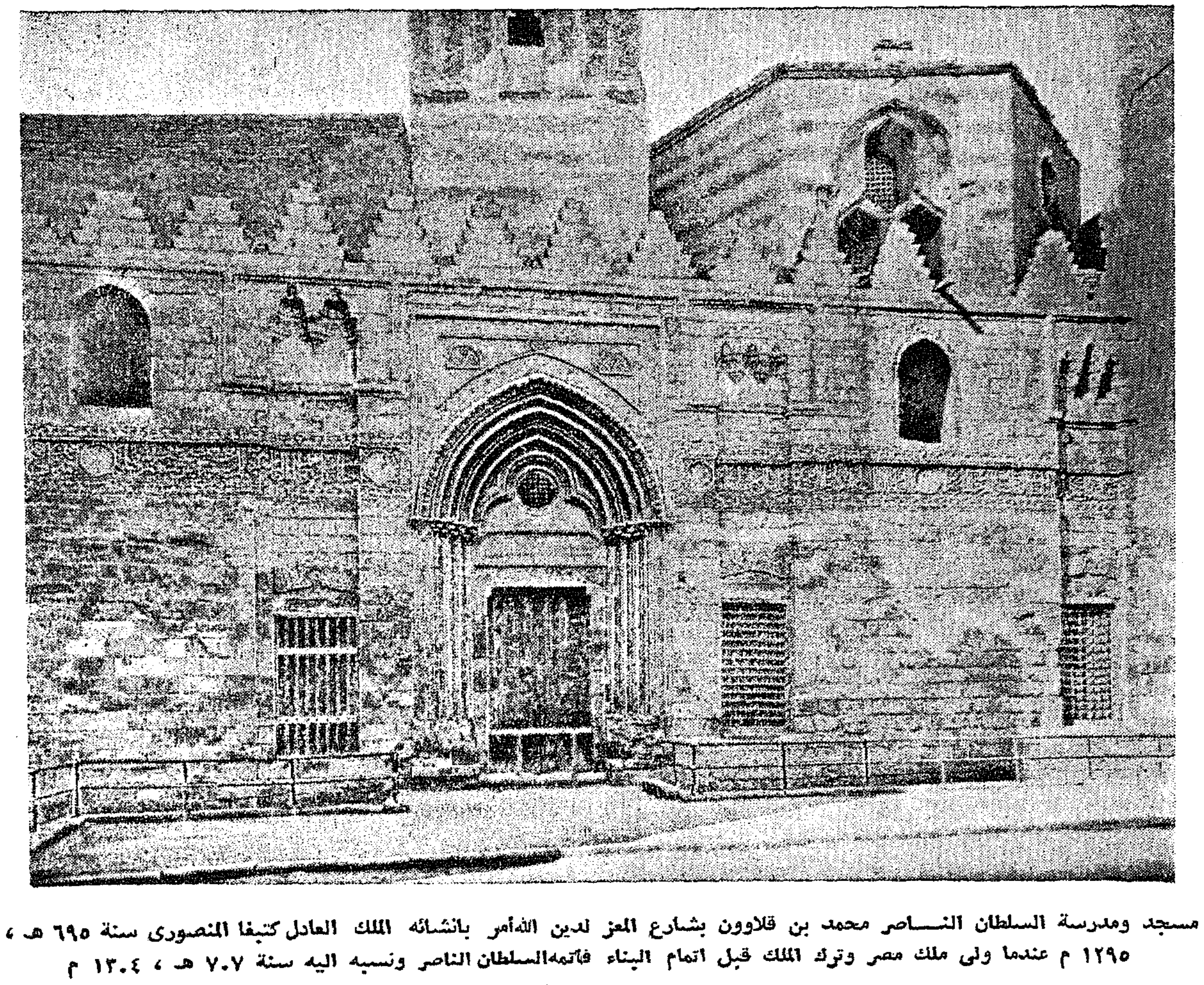
ولما تنازل الملك الناصر عن ملكه ورحل الى حصن « الكرك » حيث بقى هناك ، تاركا سلطانه للعادل كتبغا ــ رأى هذا الاخير ذلك الباب الفخم ؛ فكان أن ساوم عليه ورثة بيدر واشتراه منهم ··

وبدأ الملك كتبغا بعد ذلك بناء مسجده هذا ، فلم يجد بابا أدق منه ولا أجمل ، فوضعه فى مكانه ذاك ··

فلما عاد الناصر الى ملكه مرة ثانية ، رأى اتمام مسجد كتبغا ، على أن ينسبه الى نفسه ــ أبقى الباب حيث هو ، فكان تحفة رائعة وأثرا فخما ، وبابا نادر المثال لمسجد من أعظم وأفخم مساجد القاهرة ..

***

وفى الوقت الذى كان الناصر محمد مشغولا فيه باتمام مسجده العظيم هذا ، كان



مسجد ومدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بشارع المعز لدين الله أمر بانشائه الملك العادل كتبغا المنصورى سنة ٦٩٥ هـ ، ١٢٩٥ م عندما ولى ملك مصر وترك الملك قبل اتمام البناء فاتمه السلطان الناصر ونسبه اليه سنة ٧٠٧ هـ ، ١٣٠٤ م

مماليكه وكبار رجال دولته يتبعون المثل القائل : « الناس على دين ملوكهم » .. فراحوا بدورهم يشيدون العمارات ويقيمون المساجد العظيمة ويلحقون بها المدارس لتعميم دراسة الدين ونشر علومه بين شتى طبقات الشعب ..

ولما كان الامير سيف الدين « سلار » نائب السلطنة ، هو الذى أشرف على اصلاح الكثير من مساجد القاهرة التيأتى عليها الزلزال ــ فقــد أراد هو الآخر أن يخلد له أثر عظيم ، وأن يبنى له قبة يدفن فيها ــ شأنه فى ذلك شأن سيده الناصر ومن سبقوه

وكان « لسلار » صديق حميم من مماليك الناصر وخاصة أمرائه ، هو « علم الدين سنجر الجاولى» ، وقد بلغ من قوة صداقتهما أن تحابا فى الله وصارا أخوين ، واستقر بهما الرأى على اقامة هذا المسجد المشترك والمدرسة الملحقة به ، مشاركة بينهما ، ليكونا أخوين متجاورين فى الدنيا وفى الآخرة أيضا ..

واختارا لمسجدهما الجديد مكانا يجاور قلعة « الكبش » ، ويقع قريبا من المسجد الطولونى ، وشرعا فى اقامته على أرض مرتفعة عن مستوى الطريق العــام ، وجعلا له سلما يرقى عليه الصاعد اليه ..

ومدخل مسجد « الجاولى » منقوش بأعلى بابه الاساسى هذه الآية :

« **بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** » ..
وفى آخر الكتابة تاريخ البناء وهو عام « ٧٠٣ هجرى »

وبداخل دركة هذا الباب خلوة صغيرة ..

والمسجد يشتمل على ايوان وصحن وعدة خلوات لبعض المتصوفين ، ينقطعون فيها للتعبد ــ على غرار ماكان معمولا به فى ذلك العهد ، الذى أنشىء فيه الكثير من المعابد والتكايا التى عرفت باسم « الخانقاه » لاقامة الصوفيــة وضمان عيشهم ، ليخلصوا للتعبد والمناجاة والخلوص ..

وفى واحدة من هذه الحجرات الانفرادية الخاصــة بالمتصــــوفين ، يوجد حجر أزرق مربع ، يزعم العامة أنه نافع مجرب فى شــفاء مرضى البواســير اذا وضــع عليه زيت الزيتون ..

وبدائر المسجد كتابة منحوتة فيها :

« **بسم الله الرحمن الرحيم ، تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا** » ..

وبالمسجد ثلاث قباب، أعدت احداها مدفنا لعلم الدين سنجر الجاولى، وفيها قبلة من الحجر ، وعلى الضريح تركيبة من الرخام ، وبأعلا الحــائط نقشت البســملة ، والآيات الثلاث الاخريات من سورة البقرة ..

وفى القبة الثانية مدفن الأمير سلار ، وعلى بابها نقش فى الحجر باسم « سيف الدين

سلار نائب السلطنة المعظمة الملك الناصرى المنصورى ، فى شهور سنة سبعمائةوثلاث»

وبداخل هذه القبة الثانية ضريح الأمير سلار ، وعليه تابوت خشبى ، وفى القبة قبلة من الرخام منقوش بأعلاها آية الكرسى ، وبدائر القبة نفسها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب .. الى آخر قوله تعالى : « والله عنده حسن الثواب » ..

أما القبة الثالثة ، ففيها قبر غير معلوم صاحبه .. والقبــاب الثلاث آيات ثلاث من آيات الدقة الصناعية ، ودليل واضح ينطق بثراء سنجر وســلار ، وبظاهرها نقشت آيات قرآنية ..

وللمسجد منارة دقيقة الصناعة فريدة فى نوعها ، تنسجم فى الدقة والفن مع القباب العظيمة ، وتؤلف معها مجموعة نادرة ناطقة بروعة العمارة الاسلامية فى ذلك العهد ..

وبالرغم من أن المسجد قد أنشأه الأميران : سلار وسنجر ، فان بعض الظروف التى حدثت بعد ذلك ، كادت تمحو اسم « سلار » ، بل محته فعلا ، اذ غضب عليه الناصر، وأصبح من غير اللائق أن يذكر اسمه أو يشار اليه بأثر من آثاره العظيمة !

أما الامير سنجر ، الصاحب الثانى للبنـاء العظيم ـ فقــد كان فريدا فى مصر بين المماليك ، الذين لم يسمع عنهم الا أنهم عشاق مقامرة ، وهواة سطو وقتل واغتصاب ..

لقد كان محبا للعلم ، متوافرا على الدراسة .. الى حد أن قيل : ان الامير الجاولى قد روى وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى .. وانه جلس للافتاء على المذهب الشافعى وكتب بخطه عديدا من الفتــاوى التى دلت على خبرته بشئون الدين وأحكامه وشئون معاملات الناس ..

وكما فاق سنجر الجاولى زملاءه المماليك فى التفقه فىعلومالدين، فاقهم كذلك فىحبه للخير ، وغرامه بالعمارة وانشاءبيوت الله .. اذ بنى مسجدا بكل منمدينة غزة ، وحماة ـ وألحق بكل منهما مدرسة وسبيلا وخانا .. كما بنى ببلد الخليل عليه الســلام مسجدا عظيما ، وأقام ببلدة أرسوف قنطرة ..

ولما كان الامير الاتابكى بيبرسالجاشنكير، لايقل جاها ولا مركزا ولا ثراء عن سلار صاحبه وزميله ، فقد وجد الفرصة مناسبة لان يسهم هو الآخر فى اقامة العمــائر الجليلة .. وكان أن قرر بناء « خانقاه » للصوفية فى العام الخامس بعد السبعمائة الهجرى ..

ومسجد بيبرس الجاشنكير مكون من ايوانين ومقصورتين ، وأرضه مفروشــة بقطع الرخام الملون ، وسقفه مرتفع معقود بالحجر ..

وقد بناه بيبرس أول مابناه ليكون « خانقاه » للصوفية ، وبنى بجانبه « رباطا »

كبيرا يتوصل اليه منه ، وجعل بجانب « الخانقاه » قبة فيها قبره ولها نوافذ تشرف على الشارع ..

والمسجد كان يقوم مكانه عدد من الدور اشتراها بيبرس من أصحابها وهدمها ، واستعمل بعض أحجارها وأخشابها في البناء ، أما « الرخام» الذى استعمله فى التجميل وغيره فقيل أنه عثر على مغارة كانت مليئة به ، فنقله الى المسجد ..

ولما كملت « الخانقاه » بناء ، عين بها أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة جندى وابن سبيل .. وجعل بها مطبخا يقدم الطعام يوميا لهؤلاء جميعا ، وجعل لهم « الخلو »

ونظم بيبرس بالقبة درسا للحديث ، وعين القراء بالشباك الكبير ، يتناوبون القراءة ليلا ونهارا ..

وأوقف على المسجد عدة ضياع بدمشق وحماه ، ومنية المخلص ـ احدى أقاليم الجيزة ، وبعض عقارات بالقاهرة ..

وأمر الشيخ « شرف الدين بن الوجيه » بأن يكتب له بالذهب « ختمة » فى سبعة أجزاء فى ورق قطع البغدادى بقلم الشعر .. وأنفق على نسخها ألفا وسبعمائة دينار ، وأوقفها على « الخانقاه » فكانت تحفة جميلة ..

وعلى هذه الوتيرة استمرت الحياة فى بلاط الناصر، وبين مماليكه : عمارات وانشاءات وروعة بالغة ، برغم القحط الذى شكت منه البلاد كلها فى العام السادس بعد السبعمائة وزال أثره بعد ذلك فى العام التالى ..

ثم حدث بعد هذا أن أحس الناصر بأنه يكاد يكون لاشىء الى جانب نائبه سلار وأتابكه وبيبرس الجاشنكير ..

فلما أراد أن يوقفهما عند حدهما ، تغيرت النفوس .. وكادت تحدث فتنة ، تحاشاها الناصر ، وادعى أنه سيخرج الى الحج .. ثم أبى أن يعود الى القاهرة ، وأعلن عزل نفسه ، ورجع الى الكرك واتخذها مقاما له !

وكان قد مكث فى الملك تسع سنين وستة أشهر ..

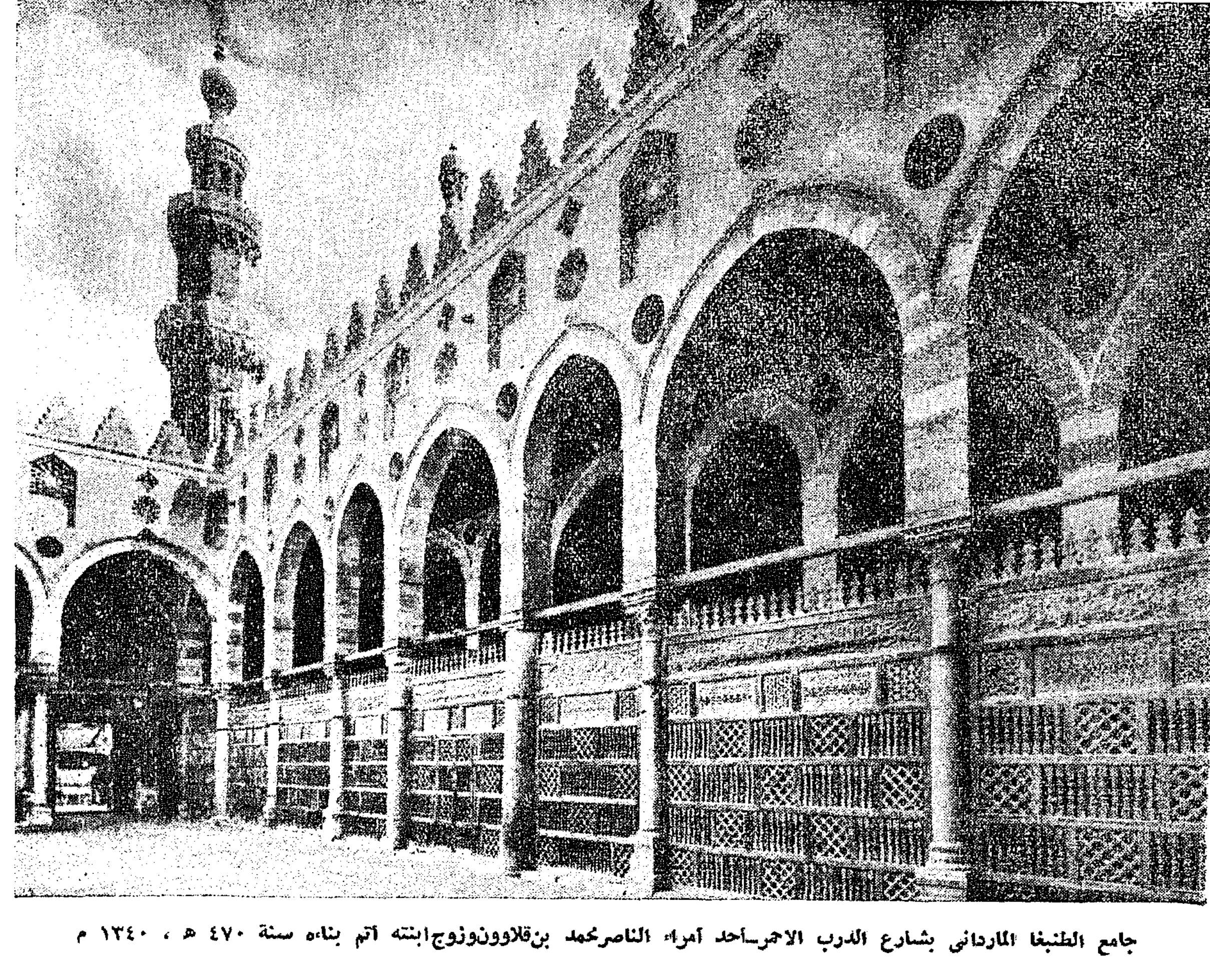
***

وبقى الامر معلقا بين سلار وبيبرس : أيهما يكون له الجاه والسلطان ؟!

واختار المماليك سلار ، لأنه كان بحكم وضعه ونيابته عن السلطان ، أحقهم بالملك . ولكنه تراجع وأبى ، وأقسم أنه لن يتبوأ العرش ، وسيكتفى بمنصبه كنائب للسلطان !

وفتح الحظ بابه لبيبرس ، فتولى السلطان باسم « الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير » .. وبدأ أول عمل له بأن عين سلارا نائبا له ..

وبدأت الحياة تسير سيرتها فى ظل السلطان الجديد ، الذى لم يلبث أن تورط فى عدة مطالب ، وجهها الى سيده السابق « الناصر محمد » فى هيئة انذار وتهديد ..



جامع الطنبغا الماردانى بشارع الدرب الاحمر ـ أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون وزوج ابنته أتم بناءه سنة ٤٧٠ هـ ، ١٣٤٠ م

لقد كان فى اقدام المظفر بيبرس علي تهديد الناصر الذى اعتزل الحكم وأحب أن يقضى البقية الباقية من حياته فى راحة وهدوء ، صفعة أليمة ، كبرت على الناصر .. وعز عليه أن يستسلم الى تهديد بيبرس الجاشنكير ، فكان أن امتلأ قلبه بالحفيظة ، وأسرع يكاتب الامراء وولاة الاقاليم ، طالبا نصرتهم ..

وخرج الناصر من الكرك .. وما لبثت النجدات أن وصلت اليه من كل مكان ، فأصبح فى جيش لجب وصلت أنباؤه الى القاهرة ، فتبلبلت الخواطر وعمت الفرحة قلوب الشعب الذى كره المظفر بيبرس ، وأطلق عليه اسم « ركين » مبالغة فى السخرية منه !!

وأحس المظفر بحرج مركزه ، خاصة وقد تسلل مماليكه تاركين القاهرة ليعودوا اليها مع الناصر .. فكان أن أشهد الأمراء على خلع نفسه وترك « القلعة » ـ دار الحكم ، فى الوقت الذى كان الناصر يتقدم فيه الى القاهرة ، ليجلس على عرشه من جديد ..



احدى المشكاوات الموجودة بجامع الامير الماس

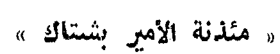
عَودة الناصر

عاد الناصر الى القاهرة للمرة الثالثة ، وقبل أن يدور الفلك دورته ويشارف العام تمامه ..

وخرج الأمراء يستقبلونه مع القضاة وكبار رجال الدولة ، فى الوقت الذى تسلل فيه بيبرس الجاشنكير هاربا الى اقليم اخميم ، بعد أن أفلح فى الافلات من يد الشعب الذى تربص له ساعة غادر القلعة، وراح يضربه بالمقاليع ويوجه اليه اقذع السباب !!

وتقدم «سلار» نائب السلطنة فى عهديها ، فى جملة الامراء ، معلنا خضوعه واخلاصه لسيده الناصر ، طالبا منه أن يتكرم باعفائه .. وأن يسمح له بمغادرة البلاد ليعيش بقية عمره فى هدوء ..

فاذن له الناصر بما طلب .. وغادر مصر التى شهدت سطوته وسلطانه ليعيش شبه منفى فى « الكرك » ..



« مئذنة الأمير بشتاك »

وكان بيبرس خلال هذه الفترة لم يزل فى اقليم « اخميم » فأرسل يطلب الامان من الناصر ، والسماح له بأن يخرج الى الاراضى الحجازية لأداء فريضة الحج .. فسمح له السلطان بما أراد ، وطالبه بأن يمر بالقاهرة وهو فى طريقه الى مغادرة البلاد ..

ولكن الأتابكي الحذر ، أبى أن يطيع الناصر .. ورأى أسلم طريق أن يسير الى « السويس » ومنها الى الكرك هو الآخر ، حاملا معه من الاموال والنفائس ما خف حمله وغلا ثمنه ..

واشتم الناصر فى محاولة تهرب بيبرس ريح مؤامرة ، فأحب أن يقضى عليها قبل أن

تستفحل .. فأصدر امرا بالقبض على الهارب المتسلل ، وسرعان ماأحضروه اليه فى « القلعة » خاضعا ذليلا ..

وتقابل الرجلان .. ومر الماضى بحوادثه ، وراح الناصر يذكر أتابكه بأنعمه العديدة التى أسبغها عليه ، وكيف جحدها وتنكر له ، وأنذره بتشريده وتشريد أبنائه معه !!

وظل بيبرس صامتا منتظرا سماع كلمة سيده الأخيرة فيه ..

وحكم الناصر بالموت على بيبرس .. وأن ينفذ الحكم فورا فى حضرته !!

وأسرع الاتباع فخنقوا المحكوم عليه بوتر .. حتى مات ، وحملت جثته الى أهله ، ومعها أمر بأن يدفن فى « القرافة » مع العوام !!

وتوسل الامراء الى الناصر ، ليشمل بعطفه جثة عاجزة ، ويأمر بنقلها لتدفن فى القبة التى كان بيبرس قد أقامها لنفسه فى « الخانقاه » أيام أن كان مرضيا عنه ..

ورضى الناصر أخيرا .. فنقلت جثة الرجل التعس ، الذى كان اسمه ذات يوم « **السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير** » ، ليدفن فى قبته !!

ولم يكد الجثمان يثوى فى قبره حيث أراد له الله ، حتى بادر الناصر فاصدر أمره بأن تغلق « خانقاه » بيبرس الجاشنكير ، وأن تحول أوقافها كلها اليه !!

ثم أصدر أمرا آخر بمحو اسم بيبرس من « الطرز » الذى كان بالقبة فوق الشبابيك .. وسرعان ما نفذ الأمر على الفور ..

وثمة أمر آخر أصدره الناصر بعد ذلك ، هو تعطيل الشعائر الدينية التى رتبها بيبرس لتقام فيها واجرى عليها المال .. كما أبطل الطعام ومنع الخبز ، وحرم توزيع الدراهم ، وطرد جماعة الصوفية من خلواتهم حيث كانوا يعيشون ويتعبدون !!

وأحس الناصر بعد هذا أن بعض المماليك من الموالين لنائبه السابق سلار ، ينوون الوثوب عليه غدرا كعادتهم ..

فارسل رسله يتحققون من ذلك الامر ، حتى ثبت له صدق احساسه ، فقبض عليهم .. وأرسل فى طلب سلار ، ليبرىء نفسه أمام سيده ..

وحمل علم‌الدين سنجر الرسالة الى سلار أخيه وصديقه ، ومعها الامر بحضوره..

وأسرع سلار ملبيا ، ليثبت للناصر أنه أبعد مايكون عن المؤامرات ..

ولكن الناصر قبض عليه ورماه فى سجن القلعة مدة ثمانى سنوات .. ثم حدث أن ارسل له الناصر طعاما ، توجس سلار منه خيفة ، فرفض أن يقربه .. واذ ذاك تغير الناصر عليه ، وامر بأن يبقى فى سجنه وأن يمنع عنه الطعام !!

ورق قلب الناصر أخيرا لنائبه السابق .. وأرسل اليه فى سجنه من يبشره بانه قد عفا عنه ..

وغلبت الفرحة سلار الطيب ، وأحب أن يقوم من محبسه ليفارقه.. ولكن الضعف الناجم عن الجوع الطويل أعجزه ، فسقط مكانه .. ولم يلبث أن مات !!

وحمل سنجر الجاولى رفيق صباه وشقيق روحه الى مثواه الاخير .. ودفنه فى قبته حيث أنشأ قبره بيده قبل أن يموت ..

وبكى الناس الامير الخير ، الرقيق القلب الذى جرده الناصر من كل شيء ، حتى من اطلاق اسمه على المسجد الذى بناه بالمشاركة مع صاحبه علم الدين سنجر الجاولى !! وثوى فى قبره رجل عرف بالشجاعة والاقدام وحب النجدة والتفرد فى انتقاء أجمل الملبوس وأحسنه .

***

وبدأ الناصر ـ بعد موت سلار ومن قبله بيبرس الجاشنكير ـ يحكم وحده ، وقد اختفى من طريقه الرجلان اللذان جعله تدخلهما فى شئون الخاصة يترك الحكم والسلطان مرتين ، ليعود اليه وقد حذق فنون الدهاء والسطوة وكيفية ادارة الامور..

وبدأ الناصر أول مابدأ فى اصلاح سور الميدان الكبير الموجود أسفل القلعة ، ثم التفت الى القلعة نفسها ، فأجرى عام أربعة عشر وسبعمائة هـ ، عمارة كبيرة فى القصر المعروف باسم « القصر الأبلق » ـ وكان عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة ، مكونة من خمس قاعات وثلاثة مرافق.. فأتم تعميرها وأعادها الى أحسن مما كانت عليه ..

واحتفل الناصر بانتهاء هذه العمارة الكبيرة احتفالا عظيما ، دعا اليه جميع أمراء المماليك وقضاة المذاهب الاربعة ، وأقام مأدبة لم تشهد البلاد لها مثيلا ، وملأ نافورة القصر الكبير بالسكر والليمون ، وأمر بأن يقف عندها رؤوس النواب ، وبيدهم الاكواب ليقدموا الشراب للناس جميعا ..

وبعد حوالى عامين من تلك الحوادث اتجه الملك الناصر باهتمامه الى بقية أبنية قلعة الجبل ، وقرر اصلاحها واعادتها الى أصلها .. ثم وجه اهتمامه بصفة خاصة الى جامع القلعة ..

وجامع القلعة كان أولا مسجدا مهدما ، تجاوره أبنية متهالكة كانت تستعمل كمخازن ، أو أماكن للطهو .. فأمر الملك سنة ثمانى عشرة وسبعمائة هـ بأن تهدم جميعها ، وأن يقام مكانها المسجد الجديد ..

وقد اهتم الناصر بهذا المسجد اهتماما ظهر فى بنائه والعناية به ، وادخال اضافات وزيادات عديدة عليه وفرشه بالرخام الملون ..

وأصلح الناصر قبة رائعة كانت بالمسجد ، وأنشأ لنفسه فيه مقصورة من حديد بديعة الصنع ..

كما بنى أيضا القبة الخضراء ، والى جانبها المئذنة الخضراء .

وافتتح السلطان مسجد القلعة للصلاة رسميا ، ودعا الى الاحتفال سائر خطباء مساجد القاهرة ، فخطبوا جميعا بين يديه وأذن المؤذنون ورتل القرآن ..

وارتاح الناصر الى خطيب جامع عمرو بن العاص ، فاستأثره بعطفه وخصه برعايته واختاره خطيبا لمسجد القلعة ، واختار من المؤذنين عشرين مؤذنا عينهم جميعا فى المسجد .. ورتب عددا من القراء ، ونظم درسا ، وعين قارىء مصحف دائم .. ثم حبس على المسجد من الاوقاف مايزيد على حاجته ..

ولم يقف اهتمام الملك الناصر عند مسجد القلعة ، بل وجه نظر القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش ـ الى بناء مسجد بقرب « موردة الخلفاء » على شاطىء النيل ..

والمسجد الناصري الجديد ، كان آية من آيات الروعة المعمارية ، وكان النيل يجرى من تحته صيفا وشتاء ، وكانت له أربعة أبواب فسيحة ، وفى صحنه مائة وسبعة وثلاثون عمودا ..

أما مساحته فكانت بالغة الاتساع ، وكانت حواليه بساتين اعتبرت من اجمل المتنزهات فى ذلك العصر(1) ..

***

وكما اهتم الملك الناصر محمد بالعمارات والانشاءات الرائعة واقامة المساجد ـ وجاراه فى ذلك مماليكه وأمرائه وأتابكته ـ فقد اهتمت كذلك بعض جواريه بهذا الامر .. وكانت أسبقهن فى بناء المساجد « الست الرفيعة مسكة » ..

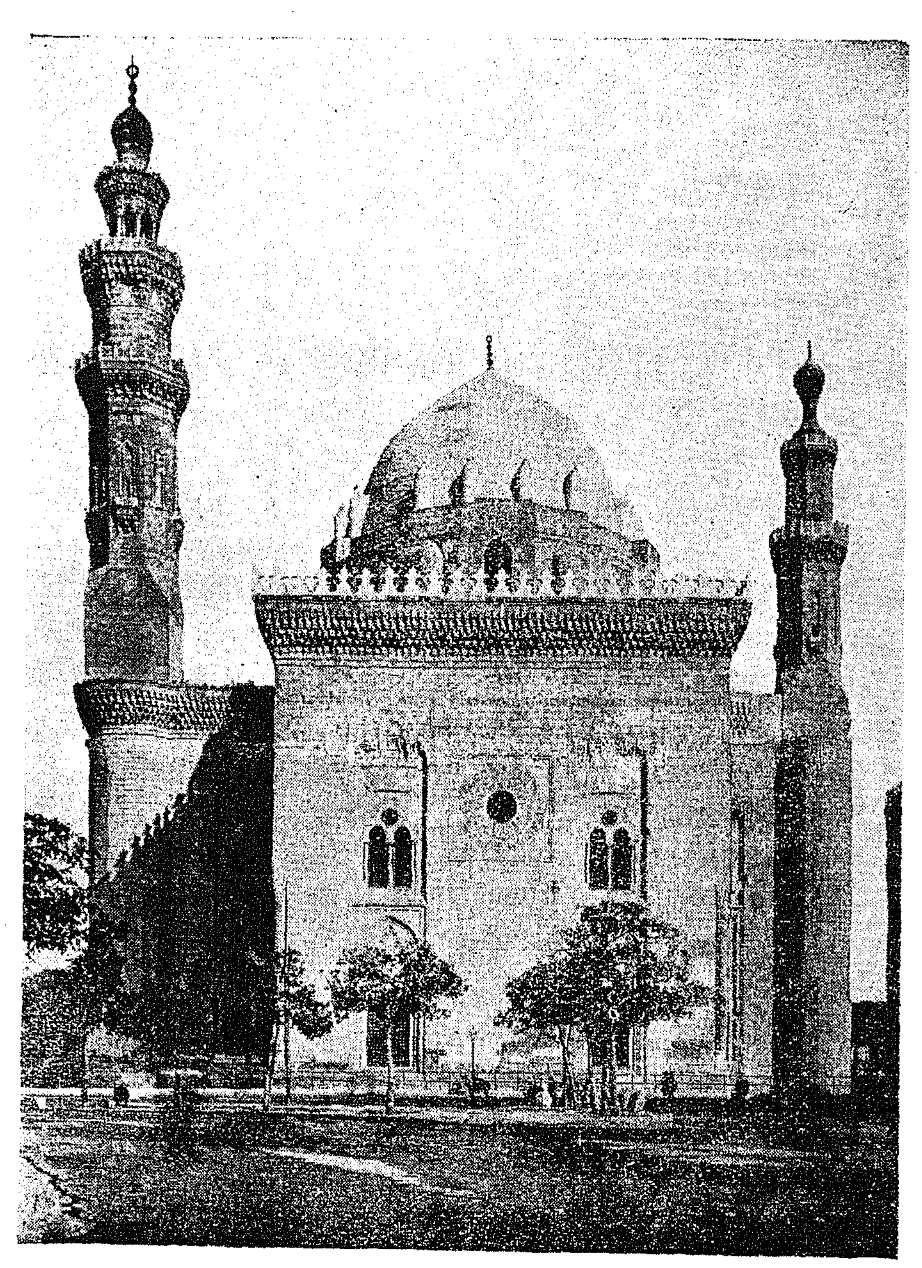
ومسجد « **الست مسكة** » مسجد لطيف مبنى بالحجر .. وله بابان ، منقوش بأعلا أحدهما فى الرخام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمرت بانشاء هذا الجامع المبارك الفقيرة الى الله تعالى الحاجة الى بيت الله ، الزائرة قبر رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ الست الرفيعة مسكة . ثم تاريخ الانتهاء من بناء هذا المسجد وهو سنة ٧٤٦ هـ » ..

وللمسجد قبلة مصنوعة من الرخام الملون ، وتتجلى فى سقفه دقة الصناعة القديمة ، وأعمدته من الرخام ، و «دكنه » صغيرة مركبة على ثمانية أعمدة رخامية ، وبدائره من داخل ازار خشبي مكتوب فيه أبيات من « البردة » ..

---

(1) تهدم هذا المسجد مع مرور الزمن واهمال العناية به ، ثم جدد اخيرا سنة ١٢٨٠ هـ وفى جزء باق منه اشيع وجود مدفن الامام الحسن الانور ـ والد السيدة نفيسة ... وزاد المدعون فجمعوا فى هذا المسجد الحديث بالنسبة للائمة الاثنى عشر ـ بقية هؤلاء الائمة بعد الحسن الانور ، مثل «زيد الابلج» « والامام جعفر » .. فى حين أن تاريخ بناء المسجد اصلا ، ينكر هذا الادعاء ، الذى استمراه بعض الناس ؛ فجعلوا مساجد القاهرة كلها مشاهد لأهل البيت الكرام ! !



مسجد ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ـ ولى الحكم بعد أخيه الملك المظفر حاجى سنة ٧٤٨ هـ ، ١٣٤٧ م ، واعتقل سنة ٧٥٢هـ ، ١٣٥١ م ، وظل يشتغل بالعلم فى معتقله كثيرا حتى انه نسخ دلائل النبوة للبيهقى، واعيد الى السلطنة مرة اخرى سنة ٧٥٥ هـ ، ١٣٥٤ م ،وظل فى دست الحكم حتى قتل سنة ٧٦٢ هـ ، ١٣٦١ م ، ولم يعرف مكان قبره اذ اختفت جثته بعد أن وثب عليه مملوكه « يلبغا العمرى » وقيل انه غرق !

توفى عن عشرة بنين وست بنات ، وكان خير ملوك الدولة التركية

وبداخل المسجد من جهته الغربية قبر منشئته « السيدة مسكة » ، وعليه مقصورة من الخشب ، وبوسط صحنه بئر ، وبدائره شرفات جصية ذات نقوش بديعة ..

والست الرفيعة مسكة ، كانت من أشهر جوارى الملك الناصر ، وقد تربت فى بلاطه وتدرجت فى وظائفه حتى صارت « قهرمانة » القصر ، المشرفة على شئونه ، المقتدى برأيها فى الاعراس السلطانية والمهمات الجليلة فى المواسم والاعياد ، وكانت المربية الاولى لأولاد السلطان ، والمهيمنة على حريمه ..

ومن أجمل المساجد التى بنيت فى ذلك العهد العظيم ، المسجد الجامع الذى بناه « الامير بشتك » أحد أمراء الملك الناصر ..

وقد اقام الامير بشتك هذا المسجد واتمه سنة ست وثلاثين وسبعمائة هـ وبنى أمامه « خانقاه » على الخليج الكبير ، وبنى بينهما « ساباطا » يتوصل به من احدهما الى الآخر ..

وافتتح المسجد للصلاة عقب الانتهاء من اتمامه ، وخطب فيه أول خطبة للجمعة عبد الرحيم بن جلال الدين القرزدينى ..

وقد فرش الجامع عند افتتاحه بالرخام ، وكانت له مئذنة دقيقة مماثلة للمآذن التى أقيمت فى ذلك العصر ..

وفى هذا المسجد ايضا أنشأ الامير «أصلم» مسجده المعروف باسمه والمنسوب اليه..

و « أصلم » هذا هو الامير « **بهاء الدين أصلم السلاحدار** » الذى خرج بعد هروب بيبرس الجاشنكير ، ليبلغ الملك الناصر بذلك ، فأنعم عليه وقدمه فى دولته .. فكان من « مشايخ الحلقة » ومن المحاربين البواسل ، الذين يحسنون استعمال السلاح ورمي القوس والنشاب ..

ومسجد أصلم كان لايفترق فى شىء عن غيره من مساجد ذلك العصر ، وكان مكونا من أربعة ايوانات ، احداها كسيت جدرانه بالرخام ، وعلى صحنه اقيمت قبة جليلة ..

وللمسجد بابان ، كتب بأعلا أحدهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ــ أنشأ هذا المسجد المبارك العبد الفقير أصلم عبد الله السلاحدار الصالحى المالكى» ..

***

وثمة مسجد آخر أنشىء فى هذا العهد ، هو مسجد « الماس » القريب من باب زويلة.. وقد بناه « **الامير سيف الدين الماس** » أحد مماليك الملك الناصر، الذين سولت لهم أنفسهم ذات يوم ممارسة السلطة فى غيبته ، فكان نصيبه القتل يوم عاد الناصر من الاقطار الحجازية ..

ودفن « الماس » فى مسجده الذى بناه على نمط غيره من مســاجد زملائه أمراء المماليك ، وقد بنى لنفسه فيه قبة فخمة ، ذات شباك يشرف على الطريق العام ..

ومسجد « الماس » يتميز بمنبره الدقيق ، وبوائكه المقامة على أعمدة رخامية ، ومحرابه ذى الدائر القيشانى ..

***

ومن المساجد الرائعة التى أنشئت فى ذلك العهد ، مسجد الامير « قوصون » صفي الملك الناصر وأقرب مماليكه الى نفسه وأحبهم اليه منذ رآه يوم حضر مع «**خوند بنت أزبك**» عروس الناصر من بلادها ــ فاشتراه لنفسه ليكون مملوكه وقدمه على عشرة ، ثم جعله أمير طبلخانة ، ثم أميرا لمائة .. وصار يرقيه حتى بلغ به أرقى المناصب ..

ولما وجد « قوصون » أن الدنيا قد أقبلت عليه على تلك الصورة ، بعث فى طلب أهله ، فحضروا اليه وعاشوا فى مصر حياة هى البذخ والترف فى أوسع صورهما ..

وبلغ من اعزاز الناصر لقوصــون أن زوجه من ابنته ، وتزوج النــاصر من أخت قوصون !!

ومسجد قوصون قريب من باب زويلة ، وكان مكانه قبــل بنائه دار تعرف بدار « اتوش نميله » ، ثم عرف بعد ذلك باسم « دار جمال الدين قتــال السبع الموصلى » فاشتراها قوصون وهدمها وكلف بالعمل فيها جماعة من الأسرى وردوا على البــلاد فى ذلك الحين ..

وتصادف فى تلك الاثناء أن حضر من بلاد «توريز» بناء ماهر ، استخدمه قوصون فى بناء مسجده .. فبنى مئذنتى المسجد على غرار المئذنة التى بناها «خواجا على شاه» وزير السلطان أبى سعيد فى جامعه بمدينة توريز ..

وافتتح المسجد للصلاة فى شــهر رمضان عام ثلاثين وسبعمائةهـ . وتولى خطبة الجمعة فيه قاضي القضاة « جلال الدين القزوينى » بحضور الملك الناصر نفسه.. فلما انتهت صلاة الجمعة أنعم الناصر على الخطيب وأركبه بغلة بخلعة سنية ..

وأحب الملك الناصر بعد هذا أن يبنى باسمه « خانقاه » ..

ولم يطل به أمد التفكير ، اذ سرعان مااختــار لها مدينــة « سرياقوس » مكانا ، وبدأ البناء ..

و « خانقاه » الملك الناصر فى سرياقوس كانت تحفة من تحف البناء فى ذلك العصر .. وقد أشاع بعضهم انه بناها بأمر من رسول الله صلى الله عليــه وسلم ــ وقد تجلى عليه فى رؤيا صحيحة ، وأشار عليه بأن يبنى فى مكان عينه خانقاه !!

وصدع الناصر بالامر الكريم .. وتمت « الخانقاه » فى أقصر مدة ممكنة ، فأفرد بها

أمكنة للصوفية ، ووضع فيها ربعة مكتوبة بالذهب ، مشابهة للربعة التى وضعها مملوكه بكتمر فى الخانقاه التى بناها فى « القرافة » ..

وعين الشيخ مجد الدين الاقصراتى شيخا للخانقاه .. وحضر الناصر بنفسه يوم افتتاحها ، واقام فيها مأدبة عظيمة حضرها القضاة الاربعة واكابر الاعيان ..

وعمر الملك حول الخانقاه وشاد الدور ، وجاراه الاثرياء ، فكملت عمارة المدينة ونبه شأن الخانقاه ..

واستمر الناصر على عهد الناس به بعد ذلك : يهدم ، ليعمر .. ويعمر ليضرب الأمثولة الصالحة لرجاله ، ليسيروا على نهجه .. فأنشأ القصور ، وشاد المساجد ، وحفر الترع ، وأقام العدل .. وكانت سنون حكمه التى أربت على ثلاثة وأربعين ، كلها سعادة ونهضة ورخاء ..

***

ولما حان حين الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جعل صفيه قوصون وصيا على العرش ، ومشرفا على ولده الذى اختاره للملك من بعده ، والذى تسمى باسم « **السلطان الملك المنصور سيف الدين أبى بكر** » ..

ومات الناصر سنة احدى وأربعين وسبعمائة هـ . ودفن الى جانب أبيه المنصور قلاوون فى قبته ..

***

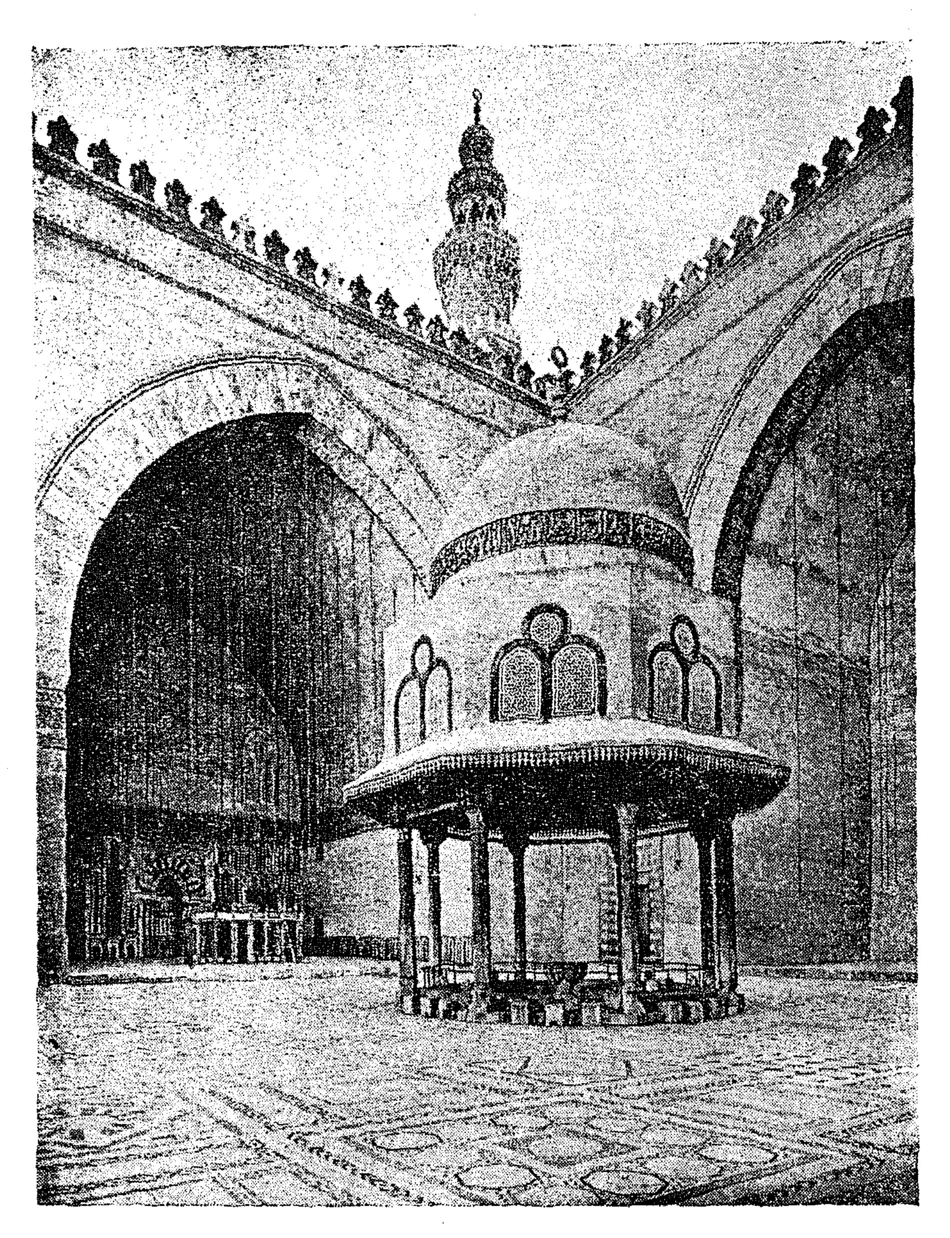
وسارت الامور فى مصر سيرا جديدا مغايرا لنهج الناصر ، فسرعان ما بدأت المؤامرات ، وتكشفت حقائق الناس ووضحت نفوسهم ..

وكان من أغرب ماحدث أن قوصون ــ صفي الناصر وأحب الناس اليه وزوج ابنته وصهره والوصى على ولده المنصور أبى بكر ــ انقض على سيده الصغير بعد ثلاثة أشهر من موت الناصر .. وأرسله مع اثنين من اخوته الى سجن بعيد فى مدينة « قوص » !! ثم أوصى حاكم قوص بأن يدبر مؤامرة تكون نهايتها قتل السلطان الصغير !!

ولم يكد قوصون يسمع بنجاح مؤامرته الحقيرة ، حتى جاء بشقيق الملك الصغير ، وألبسه شارات السلطان ، ونادى به خليفة لاخيه المنصور سيف الدين باسم « **الاشرف علاء الدين** » !!

ولما كان علاء الدين يومها صغيرا ، فقد أطلقوا عليه اسم « **علاء الدين الصغير** » .. ونودى باسم « كجك » !!

وطغى قوصون وتمادى فى طغيانه .. فثار أمراء المماليك بقيادة « **الامير شمس الدين آق سنقر** » وزميله « **ايدغمس** » ..



صحن مسجد السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون يتوسطه قبة معقودة على مكان الوضوء ، تحملها ثمانية أعمدة رخامية كتب بدائرها آيات قرآنية وتاريخ انشائها ، وعلى جوانب هذا الصحن ايوانات اربعة معدة لاقامة الشعائر الدينية ، وفي كل زاوية من زواياه باب يوصل الى احدى المدارس الاربعـــة التى شيدها منشىء المسجد ليدرس في كل مدرسة منها مذهب من المذاهب الاربعة .. ظل العمل في بناء هذا المسجد ثلاث سنوات ، ومات صاحبه السلطان حسن قبل أن يتمه ، فأتمه من بعده أحد امرائه « بشـــير الجمدار » سنة ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٣ م

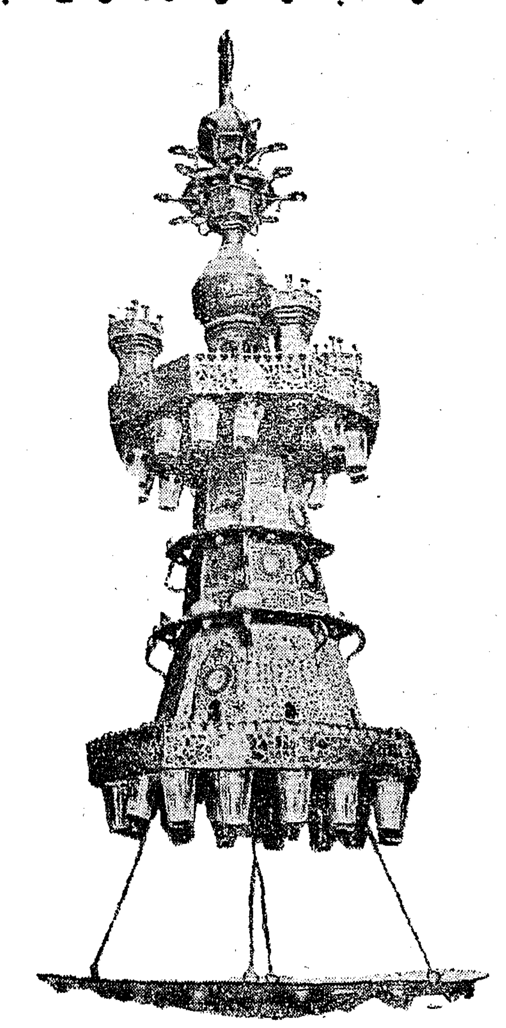
ودارت الدائرة على قوصون ، فقبضوا عليه وسجنوه .. ثم عزلوا علاء الدين عن السلطنة ، بعد أن ظل يحكم بأمر قوصون خمسة أشهر، ونادوا بالامير أحمد بن الناصر محمد ملكا باسم « السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد » ..

ولم يبق فى الملك غير شهرين وأيام !!

وجاء بعد أحمد أخوه « أبو الفداء اسماعيل » ، ونودى به ملكا باسم « الملك الصالح علاء الدين » !!

وفى عهد هذا السلطان .. علا نجم الامير « آق سنقر » .. وخبا نجم الامير « الطنبغا الماردانى » زوج احدى بنات الملك الناصر محمد ..

ثم مالبث نجم آق سنقر أن خبا هو الآخر ، وأرسل الى سجن الاسكندرية !!



احدى الثريات الموجودة بمسجد السلطان الغورى

مساجد ومساجد

كان موت الملك الناصر محمد نهاية لعهد من الاستقرار والجاه العريض، وبداية لعهد مضطرب قلق ، سادته الفتن وعظم فيه شأن الخونة ، وبلغ من استهتار المماليك بسادتهم أن كانوا يعزلون من يكرهون ويولون من يحبون .. حتى بلغت بهم الجرأة فى بعض الاحيان أن يقدموا على قتل السلطان نفسه ، أو ارساله الى السجن أو المنفى ..

وقد تولى أولاد الملك الناصر من بعده شئون السلطان وهم صغار ضعاف ، فكان السعيد منهم من يبقى فى الحكم عاما ، وبعضهم كان لايمكث فيه أكثر من شهر وبضعة أيام ..

لقد كان يكفى أن يقدم « أتابك » أو «خاصكى» أو « أمير » ، بل أي مملوك عادى على قتل سيده أو تحديه علانية ، فيصل الى مكان الصدارة ، ويصبح ـ اعتمادا على جرأته أو خيانته ـ نائبا للسلطنة ، أو مهيمنا على كل الامور !!

((مئذنة مسجد الامير قوصون))

و « آق سنقر » و « الطنبغا الماردانى » ، كانا من المماليك الذين لعبوا أدوارا خطيرة فى المؤامرات المتكررة التى حدثت خلال ولاية كثيرين من أبناء الملك الناصر .. فلم يكن غريبا على «آق سنقر» أن يتقدم الجميع لجرأته ومهارته فى استعمال السلاح .. وقد وصل من قبله الطنبغا ، بوصفه صهر الملك الناصر ، وأحد من ظاهروا مغامرى المماليك فى وثوبهم على أصهاره واخوة زوجه أبناء سيده الناصر ..

ولما كانت عهود أبناء الملك الناصر وسلطنتهم لاتهمنا في شيء ، لقصرها وخلوها من أي عمل عظيم ، فاننا نتجه الى المساجد الشهيرة التى انشئت فى تلك العهود .. ومن أهمها مسجدا « الطنبغا » و « آق سنقر » ..

ومسجد الطنبغا المارداني أنشيء في عهد الملك الناصر نفسه ، والطنبغا في ذلك العصر كان ساقيا للملك.. وكان بعيدا عن السياسة وتكتلات امراء المماليك ومؤامراتهم الخطيرة ..

وقد تم انشاء المسجد عام أربعين وسبعمائة ـ والملك الناصر فى أوج مجده .. فكان جديرا بالطنبغا ، صهره وساقيه ، ان ينشيء مسجدا عظيما يتناسب مع مركزه المالى و.. مركزه العائلى كزوج لبنت الملك ..

ومكان المسجد كان فى الاصل مقبرة عامة .. ودرست معالمها بحكم التوسع وتقدم العمران ، وبنيت مكانها مساكن عديدة سرعان ماكونت حيا من أحياء القاهرة..

ولما فكر المارداني فى بناء مسجده هذا أشار له بعضهم الى هذا المكان .. وعاينه فراقه واستحسن اقامة مسجده فيه ، وكلف « النشو » بان يفاوض أصحاب المساكن الباقية والارض الفضاء فى شرائها .. وتم له ما أراد .. وسرعان ماهدمت المساكن الباقية وأخذ المشرفون والموكول اليهم أمر البناء فى اقامته ..

وقد رأى « المارداني » أمام اتساع رقعة الارض الفضاء ، أن يوسع رقعة مسجده ، ليكون مسجدا جامعا رحبا فسيحا ، فجعل له أربعة ايوانات متفاوتة فى الاتساع ، تحيط بصحن فسيح مكشوف ..

ولمسجد المارداني ثلاثة ابواب ، صنعت من الخشب الثمين ، وزخرفت كلها زخرفة دقيقة ، وكسيت بالمعادن زيادة فى تجميلها ، ومبالغة فى اضفاء رونق الثراء والفخامة عليها ..

وواجهة المسجد من الحجر ، وبابه الأساسى هو الباب البحرى ، وهو من الحجر المكسو بالرخام الملون ومكتوب فوقه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله ، من آمن بالله واليوم الآخر »

***

ومسجد الطنبغا المارداني يتميز عن شتى المساجد المملوكية ، بكثرة مافيه من زخارف رائعة حفلت بها جدرانه وايواناته ..

وللمسجد سياج خشبى فريد فى صناعته ، فهو من الخشب المخروط الدقيق المركب بمهارة وخبرة فائقة ، وعليه حفر دقيق مزين بزخارف نادرة ، ينتهى من أعلاه بطراز مستطيل ، كتبت عليه من ناحيتيه آيات قرآنية ، حفرت على الخشب بمهارة واتقان ..

وسياج مسجد الطنبغا هذا يكاد يكون فريدا فى المساجد التى سبقت عهده والتى بنيت فى زمنه ..

والسياج الخشبى المزخرف يفصل رواق القبلة عن بقية المسجد ..

وايوان المسجد الشرقى يعتبر معرضا لدقة الصــــناعة وروعة فنون الحفر والنقش والتذهيب ، الذى يتميز به سقفه .. أما « **وزرة** » هذا الايوان فمن الرخام الملون ، ويبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار ، عليها كتابات محفورة بالأصداف ، وبينها دوائر دقيقة كتب فيها بالخط الكوفى :

« يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »

وللمسجد منبر خشبى بالغ الروعة ، بما أفرغ فيه صانعــه من براعة فى حفـره وتطعيمه بالسن ..

ومحراب مسجد المارداني آية من آيات الدقة التى ميزته عن جميـــع المســاجد المملوكية أيضا ، فهو مكسو بالرخام الملون ، وبأصداف تتلاقى فى توافق هندسى ، فتكون أشكالا زخرفية رائعة ..

والمسجد قبة قائمة على أعمدة جرانيتية حمراء عددها ثمانية ، منقوشة نقشا بديعا ، « ومقرنصاتها » خشبية مذهبة ، تفصلها زخارف متعددة الالوان ..

وفوق أبواب المسجد الثلاثة ثلاث نوافذ ، صنعت من القيشــانى الذى اجتمعت فيه ألوان عدة ، أظهرها الاخضر والابيض والاسود ــ وهى بزخارفها وما حوت تعتبر فريدة فى ذلك العصر ، اذ ليس لها مثيل فى اي مسجد آخر من مساجد القاهرة ..

والى يمين المنبر ثبتت لوحة رخامية ، نقش فيها اسم مشيد الجامع ، وعام الانتهاء من بنائه ــ جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا الجامع المبارك العبــد الفقير الى الله تعالى الراجى عفو ربه ، الطنبغا الساقى الملكى الناصرى . وذلك فى شــهور ســنة أربعين وسبعمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم »

وقد تكلف بناء مسجد الطنبغا هــذا نحوا من خمســة عشر الف دينار ، أنفقهــا المارداني ــ غير ماأهدى اليه من صهره الملك ، من اخشاب وقطع رخامية وأعمدة رائعة ، حملت اليه من جامع راشده ..

وكان افتتاحه بخطبة الجمعة فى شهر رمضان من عام أربعين وسبعمائة ..

***

أما الامير الجرىء « آق سنقر » ــ الذى صاهر هو الآخر الملك الناصر وتزوج من احدى بناته .. وعاش حيــاة البذخ فى عهده وعهد بنيه .. فقد قبض عليــه الملك

الصالح اسماعيل بن الناصر .. ثم أمر الملك الكامل شعبان بخنقه وهو فى سجنه !!

وقد بنى مسجده الشهير ، بعد عهد الملك الناصر بسنين عديدة ..

ومسجد سنقر يشغل مساحة من الارض ، كانت معدة لمقابر أهل القاهرة ، فاستولى عليها واختارها لتكون مسجده ، الذى بناه بالحجر الضخم ، وجعل أسقفه على هيئة عقود من الحجارة ..

وقد كسا آق سنقر جدران مسجده هذا بالرخام .. وشغلته عمارته ، حتى أنه لم يكل أمر الاشراف على بنائه لاحد ، بل راح يباشره بنفسه ، فكان يقضى سحابة يومه بين جموع العمال .. يشاركهم فى العمل بيده رغبة منه فى بناء المسجد بأسرع ما يمكن .. حتى لقد نسى أنه أمير عظيم وصهر السلطان .

وكان يحدث أحيانا أن يتقدم آق سنقر ليحمل بنفسه التراب تشجيعا لهم ودفعا الى الاجتهاد فى العمل ..

وكان خلال عملية البناء لايبرح مكانه ، ولا يهتم أبدا بمرور الوقت ، حتى لقد كان ينسى نفسه وطعامه !!

ومسجد سنقر يعتبر من المساجد الجامعة الكبيرة ، فهو مكون من صحن فسيح غير مسقوف ، تحيط به ايوانات أربعة رحبة ، أكثرها اتساعا الايوان الذى يقع فيه محراب المسجد ، وهو من السعة بحيث قسم الى رواقين ..

ومحراب المسجد يعتبر آية من آيات التفنن الصناعى ، الذى لاشبيه له فى مساجد القاهرة كلها ..

وكذلك المنبر ، فهو مصنوع من الرخام المزخرف بقطع رخامية ملونة ..

وسقف المسجد محمول على حجارة ملساء تشبه الرخام ..

وللمسجد منارة سامقة ، يتمثل فيها ثراء العهد المملوكى ، فهى مكونة من طوابق ثلاثة ، لكل طابق صفاته المعمارية الفريدة وطريقته الفذة فى البناء ..

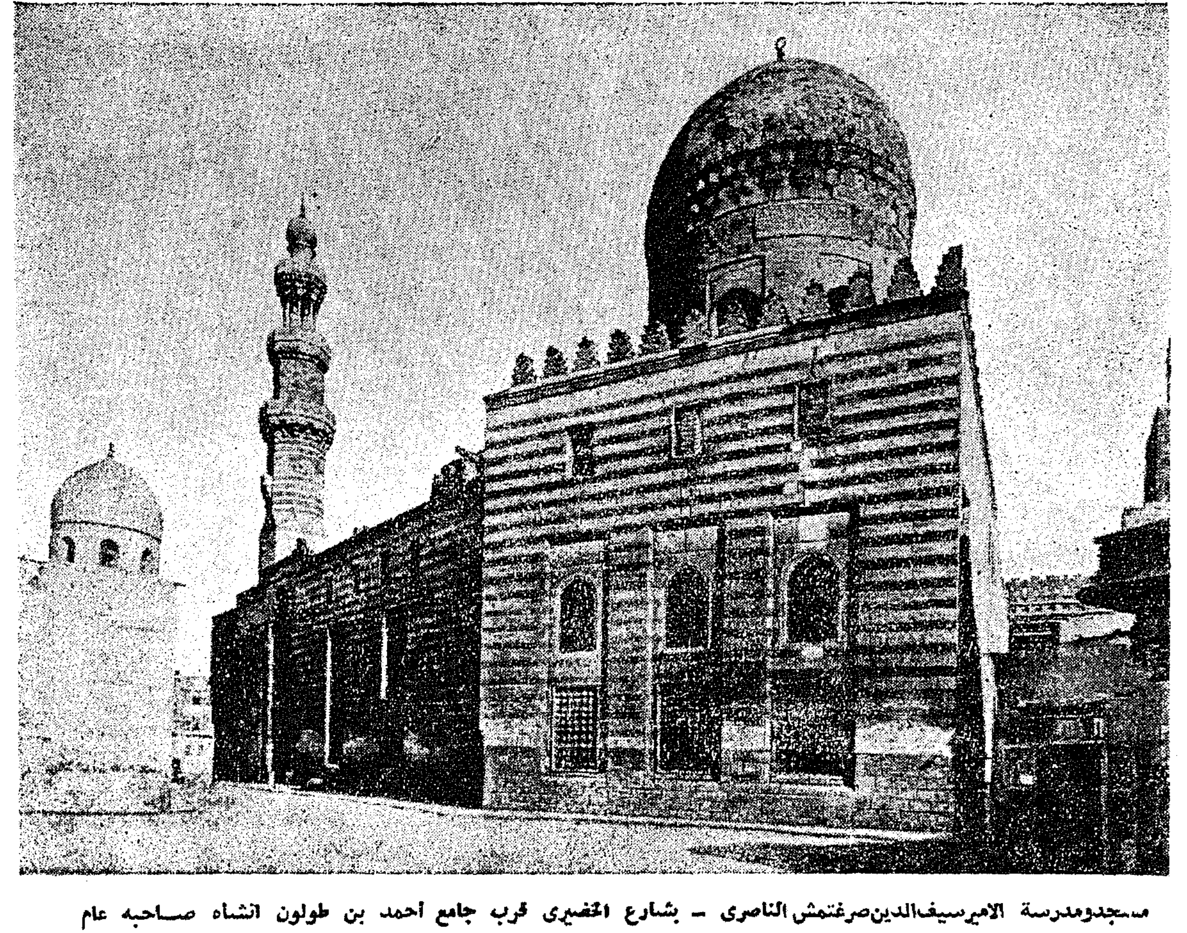
وقد بنى آق سنقر لنفسه قبرا فى ذلك المسجد ..

والى جانب المسجد كانت هناك قبة على قبر السلطان علاء الدين كجك ، ضمت الى باحة المسجد ودخلت فيه ، وأصبحت ضمن ابنيته ..

وقد شيد آق الى جانب مسجده هذا مكتبا لفقراء المسلمين، يحفظون فيه القرآن، و « سبيلا » لري العطاشى من عابرى السبيل ..

وقد أوقف سنقر على مسجده هذا ضيعة صغيرة ـ من قرى حلب ، لينفق ريعها على عمارته وانارته ورواتب العاملين فيه ..

وقد تولى أمر المسجد أول من تولى الشيخ « شمس الدين اللبان » ، فكان خطيبه والمشرف عليه ..



مسجد ومدرسة الامير سيف الدين صرغتمش الناصرى – بشارع الخضيرى قرب جامع أحمد بن طولون انشاه صاحبه عام ٧٥٦ هـ ، ١٣٥٥ م ، وخصص المدرسة لفقهاء السادة الحنفية وتدريس الحديث

ومات آق سنقر قتيلا .. خنقه الامير الاشرف شعبان واعتلى العرش مكانه .. ودفن فى مقبرته التى بناها فى مسجده هذا (١) ..

***

وتولى بعد ذلك هؤلاء وهؤلاء .. وأخذت الحياة سنتها التى عرفت بها طوال العهد المملوكى ... وثبات وغدر وتربص وارسال الى سجن أو قضاء على الحياة .. وتلك أمور لم تكن غريبة على مجموعة من السائمة البشرية الجاهلة بيعت فى الاسواق بيع المواشى والانعام ثم سيقت بعد ذلك كالخراف الى بيت سيدها ليمتلىء بالحقد قلبها أول ما يمتلىء على السيد نفسه ، فتكون المؤامرة .. ويكون الحكم بالموت ..

وأخذ دولاب الحوادث يدور .. مرة بيد مملوك لئيم ، وأخرى بيد خادم ارتفع الى مرتبة الامارة وأحب أن يكون له جاه من اشتراه !!

ثم مالبث هذا الدولاب أن توقف لحظات ، ليشهد « المظفر حاجى » ابن الملك الناصر — وهو يثب على أخيه «الكامل شعبان» — الذى «خنق» آق سنقر وغيره — فيقتله بعد أن بقى على عرش السلطنة أربعة عشر شهرا .. ويتولى هو الملك ليجلس على دسته خمسة أشهر ، يسجن بعدها عن طريق خدمه وعبيده المماليك ، ليخلفه أخوه « الناصر أبو المحاسن حسن » !!

ومرت على سلطنة الناصر حسن أربعة أعوام .. واذا بالمأساة تتجدد والفتنة تصحو وتطل برأسها ، لترى « الصالح صلاح الدين » وهو يثب على أخيه ، فنحاه عن سرير الملك ، ودفع به ليقضى حياته سجينا فى دور الحريم بالقلعة ، وتولى هو منصب السلطان !!

وظل الصالح صلاح الدين يحكم مصر ثلاث سنوات أخرى .. واذا بالمملوك « شيخو العمرى » يتجه الى القلعة فى موكب من أنصاره ، فيخلع صلاح الدين ويرسل به الى السجن .. ويحضر الناصر حسن من سجنه ليتولى العرش مرة ثانية !!

والملك الناصر أبوالمحاسن حسن ، لم يكن يفترق فى شىء عن اخوته ولا غيرهم ممن

---

(١) تعطلت الشعائر فى هذا المسجد بعد وفاة الظاهر برقوق ، لان الواضع يده على احباسه فى حلب اغتصبها لنفسه . . وظلت حالته المالية بين مد وجزر حتى تولى نظارته « ابراهيم اغا مستحفظان » ، فاهتم بعمارته وتزيينه ، وبنى لنفسه فيه قبرا ، ووضع لوحة على قبر منشئه آق سنقر ، وزخرف المسجد وجدد عمارته وزين جدرانه بالقيشانى الازرق الى علو اربعة امتار . . حتى لقد عرف من اجل هذا بالمسجد الازرق ، كما غلبت شهرة مجدده ابراهيم اغا شهرة بانيه آق سنقر فاطلق الناس عليه حتى ايامنا هذه « مسجد ابراهيم اغا مستحفظان » وقد سمى المسجد ايضا بمسجد « النور » ، وهى كلمة تفسرها لوحة رخامية بجوار المحراب ذكر فيها « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رؤى وهو يصلى فى محرابه » ! !

سبقوه .. ولكنه برغم هذا نال شهرة خلدت على الدهر ، وكان مرجعها اقدامه على بناء المدرسة الفريدة التى عرفت باسم « **مسجد السلطان حسن** » ، والتى ارتفع بناؤها الأشم وكأنها ناطحة سحاب لا شبيه لها ولا مثيل بين عمائر العصور الاسلامية كلها .. فهى اقرب الى الحصن الشامخ منها الى المدرسة التى يتلقى الطلاب فيها أصول الدين والفقه والشريعة على المذاهب الاربعة ، أو المسجد المعد لأداء شعائر الدين ..

ومسجد السلطان حسن بن الناصر محمد قلاوون ـ أعجوبة بنائية خالدة ، توارت أمامها شتى العمائر الملوكية ، وفى جملتها « البيمارستان » المنصورى الشامخ ، الذى بناه السلطان المنصور قلاوون جد السلطان حسن ..

وقد بنى مسجد السلطان حسن فى مواجهة قلعة الجبل ، فانتقل به بانيه من الاماكن التقليدية التى اعتاد سلاطين المماليك وأمراؤهم اقامة مساجدهم فيها ، الى مكان جديد كانت تشغله دار نائب الشام « يلبغا اليحياوى » ..

وبدأ السلطان حسن عمارة مسجده هذا فى السنة السابعة والخمسين بعد السبعمائة من الهجرة .. وقرر أن ينتهى من بنائه فى اقرب وقت مستطاع ، فرصد عليه المال الوفير وحشد له جيوش العمال وأهل الفن والخبرة المعمارية ..

وأخذ البناء يرتفع فى سرعة واتقان .. وجعل السلطان حسن يسرف فى الانفاق عليه ، حتى لقد بلغ ما كان يدفعه يوميا لمستلزمات البناء والعاملين فيه ـ حوالى عشرين ألف درهم ..

وبلغ من اهتمام السلطان حسن باستكمال مسببات روعة مسجده ، ورغبة فى أن يكون واحد المساجد الفرد ـ أن أنفق مائة ألف درهم لاتمام صناعة « القالب » الذى تم عقد الايوان الكبير عليه .. وبعد أن تم البناء ألقى بهذا القالب فى المهملات !!

واستمر العمل لاتمام بناء المسجد حوالى ثلاث سنوات ، استنفدت فيها ميزانية الدولة وثراء الملك الناصر حسن نفسه .. حتى لقد قال اكثر من مرة : انه لولا خوفه من ان يعيره الناس بأنه عجز عن اتمام بناء مسجده الكبير ، لأوقف البناء فيه وتركه دون اتمام !!

وقد أراد السلطان حسن ، مبالغة منه فى تجميل المنظر الخارجى لمسجده هذا ـ أن يقيم فوقه اربع منائر سامقة ، يتولى ابلاغ الأذان عليها أربعة من المؤذنين ، ليصل التبليغ الى أكثر عدد من الناس .. فكان أن بنى من هذه المنائر الاربع ، ثلاثا فقط .. ثم لم تلبث أن سقطت احداها .. وكان سقوطها فاجعة أودت بحياة كثيرين ، فأهمل

السلطان اقامتها بعد ذلك ، ولم يقم المنارة الرابعة واكتفى بوجود منارتين شاهقتين في مسجده العظيم ..

ومسجد السلطان حسن من الفخامة والروعة وسعة البناء ، بحيث بلغت مساحته حوالى ألف متر مربع ..

وللمسجد واجهات أربع خالية من جميع نواحيها ، وجدرانه بالغة الارتفاع حتى ليكاد يصل ارتفاعها الى أربعين مترا ..

وبالرغم من ضخامة بناء مسجد السلطان حسن ، فانه يعتبر معرضا من أجمل معارض الفن الدقيق ، اذ جمع بين روعة البناء ، ودقة التنفيذ ، وجمال الهندسة والتنسيق ..

وقد تعددت بالمسجد اساليب الزخرفة .. وظهرت دقة الحفر واضحة جلية ناطقة بالاعجاز الفنى ، ممثلة فى « مقرنصات » المسجد البديعة وروعة الاعمال المرتبطة بهذه المقرنصات، وخاصة الانشاءات الرخامية التىتظهر بوضوح فى «وزرتي» القبة وايوان قبلة المسجد ومحرابيه الرائعين و « دكة » المبلغ ..

وصحن مسجد السلطان حسن مفروش بالرخام المتعدد الالوان ، تتوسطه نافورة فوقها قبة رائعة ..

وهندسة المسجد مشابهة لغيره من المساجد ، فصحنه الوسيع تحيط به أربعة ايوانات ، أكبرها وأعظمها الايوان الشرقى .. وقد خصصت هذه الايوانات لتكون أربع مدارس يدرس فيها فقه المذاهب الاربعة ..

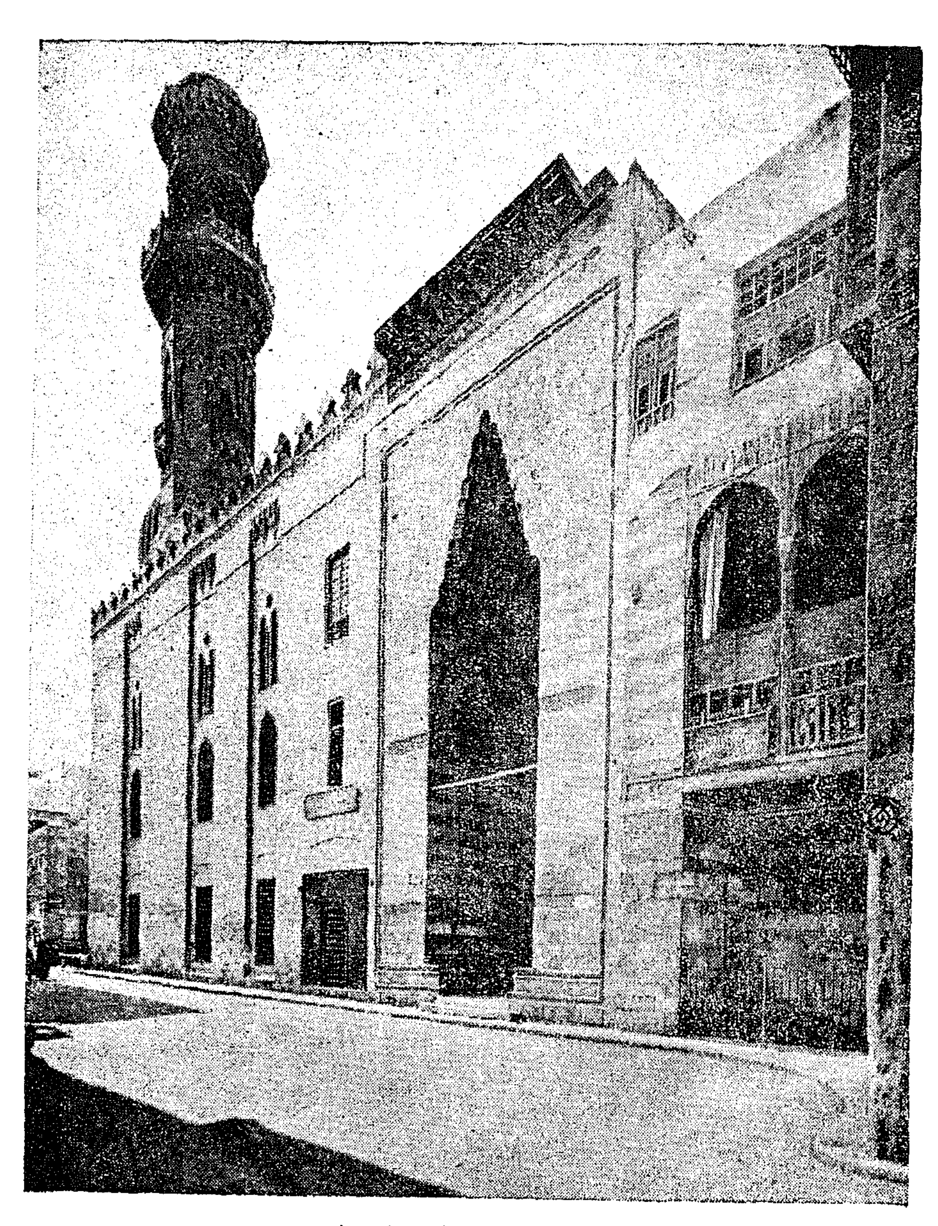
وحوالى محراب المسجد بابان ، أحدهما مكسو بالنحاس المذهب ، وثانيهما فقدت كسوته .. وهما يوصلان الى القبة الواقعة خلف المحراب ..

وقد حفز بناء مسجد السلطان حسن الشعراء على التغنى فيه وفى روعته ، فقال « ابن حجلة » :

لسنا ، وان كرمت أوائلنا ... يوما على الآباء نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل فوق ما فعلوا

ولما كملت عمارة هذه المدرسة كان لها يوم مشهود ، واجتمع بها فى يوم الجمعة القضاة الاربعة وسائر الامراء وأعيان الناس ، وملئت « الفسقية » التى بصحنها سكرا بماء الليمون ، ووقف رؤوس النواب يوزعون الشراب على الناس ..

ونزل السلطان حسن من القلعة فى ذلك اليوم وصلى هناك .. وخلع بعد الصلاة على البنائين والمهندسين الخلع السنية ، ووهب العمال هبات مجزية ، ونال كل منهم عشرة دنانير ..



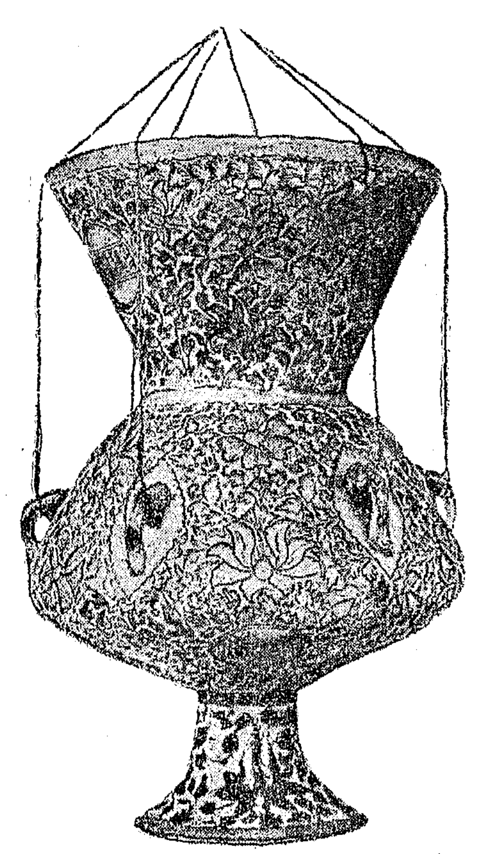
مسجد ومدرسة السلطان شعبان

مسجد ومدرسة السلطان شعبان انشاه صاحبه سنة ٧٧٠ هـ ، ١٣٦٨/٦٩ م ، وصاحبه هو السلطان الملك الاشرف حفيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ـ قيل انه انشاه لوالدته ، وقيل ان الذى انشا المسجد والمدرسة والدة السلطان شعبان ، وقد تعارف الناس من اجل ذلك على تسميته بـ ((مسجد أم السلطان)) . ولى السلطان الملك الاشرف شعبان ملك مصر سنة ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٣ م ، وظل متربعا فى دست الحكم أربعة عشر عاما توفى بعدها فى سنة ٧٧٨هـ ، ١٣٧٧ م ، ودفن بالقبة القبلية بالمسجد

وقد قال الشيخ جمال الدين بن نبـاتة فى هـذا المعنى ـ مهنئا السلطان بافتتاح مسجده العظيم :

امام الورى هنئت بالجـامع الذى　　　وجدت الى مبناه سـعدا موافقا
دعا حسنه أهل الصلاة لقصـده　　　فلا غرو أن جاء المصلى سـابقا

ومن غرائب المصادفات ، أن بانى هذا المسجد الشامخ لم يحظ بدفن جثمانه فى مقبرته التى أعدها لنفسه فيه ، اذ اختفت جثته بعـد أن وثب عليه مملوكه « يلبغا العمرى » .. وقيل انه غرق(١) !!



احدى المشكاوات الموجودة بمسجد السلطان حسن

---

(١) كان من جراء وجود هذا المسجد الشامخ امام قلعة الجبل وارتفاع منارتيه ، أن جعله بعض أشرار المماليك حصنا ، يحاربون منه القلعة ومن فيها بالسهام وغيرها ـ مما جعل السلطان الظـاهر برقوق يهدم سلم هذا المسجد الموصل الى ابوابه ، ويامر بأن يسـد الباب الكبير والسلم الموصل الى المئذنتين وقد شجع هذا العمل الملك المؤيد شيخ ، على نقل باب مسجد السلطان حسن الكبير الى مسجده

بداية ونهاية

لئن كانت العهود التى تلت عهد الناصر، لم تعرف ماهية الهدوء ولامعنى الاستقرار، فانها برغم ذلك قد عرفت كيف تستمر على الدرب ، فحافظ بعض سلاطينها ونخبة ممتازة من أمرائها على حب البناء والغرام بالعمارة ، وخاصة بناء المساجد ، وبيوت الصوفية والمدارس ..

ولئن كان الحكم قد بقي لعدد من السنين فى عدد من أبناء الملك الناصر نفسه ، فان هذه الفترة قد اعتبرت فترة الاحتضار بما حوت من خيانات واغتصاب وعدم استقرار.

وكان موت السلطان الملك الناصر محمد قلاوون ، بداية النهاية لدولة المماليك البحرية ..

وان فى اقبال سلاطين المماليك وأمرائهم على تعمير بيوت الله ، يعتبر فى نظرى وسيلة للتخلص من « عقدة » نفسية لازمت هؤلاء الناس ، ووجدوا فى اقامة هذه الصروح العتيدة وحبس الاحباس عليها باسم الدين متنفسا لهم ..

« مئذنة الناصر محمد بن قلاوون »

لقد كان المماليك اخلاطا من الناس .. مزيجا من تعساء اهل الارض ، تخاطفتهم الايدى من أحضان اهليهم ، ثم دفعتهم دفعا الى أسواق الرقيق فبيعوا فيها الى سادتهم بيع الانعام !!

واعتاد السيد « الشارى » أن يسرف فى جمع هذه السائمة البشرية ، ويربيهم فى شبه « حظائر » وان كثر فيها النعيم ،وكانت مؤثثة مزخرفة ، الا أن فى وجود هذه الكتل البشرية اهدارا للآدمية واشعار الاصحابها بأنهم كالدواب ، أتى بهم سيدهم ليكونوا عبيدا شعارهم الطاعة ، ومبدؤهم الوفاء للسيد .. ولو كان الفداء بالروح !!

ويتطلع هؤلاء الرقيق المدللون الى سيدهم الكبير ، فيدهشهم انه كان خادما مثلهم فى يوم من الايام .. وارتفع الى مقام السيادة على جثة سيده !!

ولقد كان عجيبا أن تحكم مصر فئة من الخدم والرقيق المجلوب المشترى بالمال ، ويتصرفون فى أقدار شعب حر .. ثم يسكت أفراد هذا الشعب على تحكم هؤلاء الرقيق وطغيانهم !!

فهل كان الشعب راضيا حقا عن تحكم هؤلاء الرقيق فى أمورهم وأرزاقهم ؟! لقد رضى الشعب بتحكم الرقيق المجلوب من الخارج فعلا ــ باعتبارهم كانوا يعيشون فى محيط بعيد عن الناس ويرون أن الحكم والجاه والسلطان ، أمور موقوفة على فئة بعينها ، تتوارث هذه الشارات أو يغتصبها بعض افرادها من بعض .. لهذا لم يهتم الشعب بما حدث ايام اغتصب « الاتابكى » المملوك « ايبك » عرش سادته الايوبيين .. ولم يقم وزنا للمؤامرات والمنازعات والاغتيالات التى حدثت بعد ذلك فى الدولة المملوكية البحرية ، واعتبر كل هذا أمرا خارجا عن دائرته ، مادام هو يعيش ويجد حاجته فى سلام !!

بل ان مجرد السكوت والرضاء بمثل هذه الاوضاع المشينة فيه اهدار للآدمية الشعبية فى مصر ..

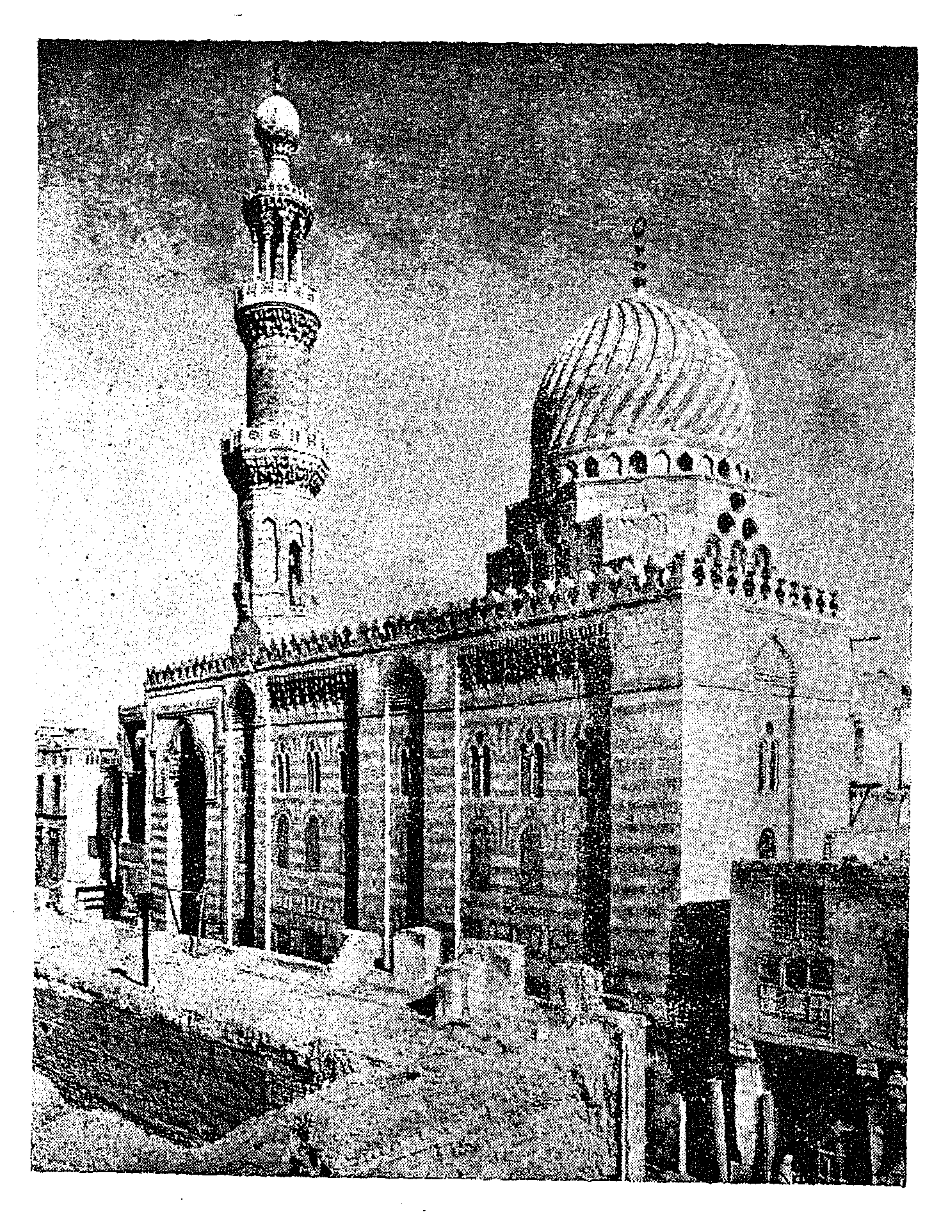
ولكن ، لقد كان هذا السكوت وذلك الرضاء بداية لاعداد الأتون المشتعل الذى عرف الشعب بعد ذلك كيف يعده ــ ليحرق به المماليك وأشياعهم ، وقد تمادوا فى المظالم وساروا سيرة الفساد والشر واشاعة الظلم بين الناس ..

و «عقدة» حب البناء ، وتعمير المساجد وشراء النفائس عند هؤلاء الناس، كان مبعثها احساسهم بضعتهم وضياع أصولهم وحدوثهم على النعمة .. ثم امتلاء حياتهم فى شتى أطوارها بالمفاسد والضلالات على اختلاف أنواعها ، واعتقادهم بأنهم خلقوا ليعيشوا ليومهم فقط ، وأن الغد يعلمه الله .. ويعرفه جيدا المتآمرون الخونة ، الذين كانوا يتربصون لبعضهم بعضا !!

لقد ظن أمراء هذه الفئة من سائمة البشرية ، أنهم باقامة المساجد ، يمحون خطاياهم، ويسترون سوءاتهم ويسرقون ويغتصبون ويقتلون .. ثم يصبح من السهل الهين على المملوك أو النائب أو الامير أو من وصل الى السلطان أن يفعل مايشاء .. يسرق .. يذبح .. يخون .. ثم يبنى مسجدا فخما ويحبس عليه الضياع والعقار ليغفر له الله ماتقدم من ذنوبه وما تاخر !!

***

كانت الدولة فى العصور المملوكية حرما مباحا للسلطان وأتباعه ، فلا تفكير فى شعب أو رعية ، اذ لا ميزانية محددة ، ولا رواتب معينة ، ولا انشاءات لصالح الناس ،



مسجد ومدرسة الجاى اليوسفى انشاه الامير سيف الدين الجاى اليوسفى أتابك العساكر ((كبير الامراء)) فى عهد الملك الاشرف شعبان سنة ٧٧٤ هـ ، ١٣٧٣ م بشارع سوق السلاح قرب القلعة .
انشـــــاه على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد فهو يتكون من صحن مكشوف كبير تحيط به أربعة ايوانات معقودة الفتحات ، وايوان القبلة يختلف عن بقية المساجد ، أما منبره فيعتبر من المنـــابر الخشبية الدقيقة الصنع ــ كتب بأعلى بابه تاريخ انشائه سنة ٧٧٤ هجرية

ولا نظام فى اجتماع أو عمل مما يعود على الشعب بالنفع .. بل كانت الدولة ومواردها ومكوسها وشتى ضرائبها ـ بقرة حلوبا ، تنتقل من أيدى الجباة اللصوص ، الى أيدى زعماء العصابات من سادتهم السلاطين ونوابهم وصفوف الامراء الخدم ، الذين لم يتحرروا من قيد الرق ولم يعرف واحد منهم ماهية الحرية الا على صورة رهيبة ، يجللها الدم وتجسدها الخيانة والجبروت !!

بهذا الروح بقي هؤلاء الناس فى مصر .. شراذم لا أهل لها ولا وطن ..

وبهذا الروح الشرير ساسوا الامور فيها .. فلم يكن من المستساغ أن يحترموا الروابط أو يفكروا فى صوالح الوطن ، الذى جمع شتاتهم وآواهم وأطعمهم ، فتنقلوا فى ربوعه لصوصا غاصبين سفاكين للدم !!

والكفارة عن هذا كله .. بناء مسجد أو « خانقاه » ، وحبس بعض العقارات أو الضياع المغتصبة عليها !!

على هذه الصورة حكمت مصر الغالية .. وبهذه العقلية أدار هؤلاء الناس سياستها !! فاعتبروها ضيعة هم ملاكها الوحيدون ، أما أصحابها الاصليون فأجراء لديهم ، وأن ليس من حقهم الا أن يعملوا ويدوروا مع الدولاب الصاخب راضين ، وأن يتركوا كل شيء للرقيق الاجير الضائع ، ليتولى الحكم والدفاع والحرب والصدام !!

***

ولقد تميز العهد المملوكى البحرى بعمائر رائعة ، وانشاءات بديعة ومساجد لا مثيل لها .. حتى بلغت النهضة البنائية فيه ذروتها فى عهد الملك الناصر قلاوون ..

وعلى الرغم من حالة التفكك التى تميزت بها البلاد فى عهود أولاده ، فان العمائر والانشاءات استمرت على عهد الناس بها ..

واظهر مظاهر ضعف ورثة الملك الناصر ، أنه لم يقدم أحد فيهم ، غير « **السلطان أبى المحاسن حسن** » على البناء ، فشاد مسجده العظيم المفرد .. ولم يستطع أحد من اخوته الذين سبقوه أو الذين جاءوا من بعده أن يبنوا شيئا ..

لقد تولى أمر البناء فى تلك العهود الهزيلة أمراء المماليك ، اذ أصبح بأيديهم مقود الامور .. وكانوا هم أصحاب الحل والعقد والتصرف حتى فى أقدار السلطان ..

ومن أشهر العمائر التى تمت فى خلال تلك العهود القلقة مسجد «شيخو وخانقاه» .. ومسجد « الجاي اليوسفى » ، المملوك الذى تزوج أم الملك الأشرف شعبان .. فلما ماتت نازع سيده ميراثها وخرج عليه وحاربه ..

ثم مسجد « منجك » ، و « صرغتمش » ..

وعمارة الامير « شيخو العمرى » عبارة عن بنائين منيعين ، أولهما هو المسجد

المعروف باسمه ، والثاني هو « الخانقاه » المنسوبة اليه ـ وكلاهما فى مواجهة الآخر .. وكان مكانهما قبل البناء بعض مساكن قائمة فى قطائع الامير «أحمد بن طولون» فاشتراها شيخو من أصحابها وهدمها ـ وكانت مساحتها تزيد عن فدان ، فبنى عليها المسجد والخانقاه ، وحمامين وبعض حوانيت تعلوها مساكن للمتصوفين الذين بنى لهم الخانقاه ..

وقد أنشأ شيخو مسجده وبقية المجموعة الملحقة به فى عام ست وخمسين وسبعمائة .. ولم يسخر فى بنائه أحدا ، ولم يغتصب من المساجد حجارة ولا أعمدة .. ودفع لمن عملوا فى بنائه أجورهم كاملة ..

وأراد للمسجد أن يكون من المساجد الجامعة ، فرتب له من أجل ذلك كل ما كان فى حاجة اليه ، وأجلس فيه عشرين صوفيا ـ نقلهم بعد ذلك الى « الخانقاه » المواجهة للمسجد بعد أن أتم بناءها ..

ورتب « شيخو » فى مسجده هذا قراءات ، ودروسا فى المذاهب الاربعة ، ودرسا فى الحديث وآخر فى علم القراءات بالروايات السبع .. وجعل لكل درس شيخا وطلبة ، واشترط عليهم حضور الدروس وحضور وظيفة التصوف ..

ووكل رئاسة « الخانقاه » الى الشيخ « **أكمل الدين مدرس الحنفية** » واسند رئاسة الدرس الشافعى الى « **بهاء الدين السبكى** » ، والمالكية « **للشيخ خليل** » ، والحنبلية لـ « **موفق الدين الحنبلى** » ..

ورتب شيخو للطلبة كل ماكانوا فى حاجة اليه ، وقرر لهم طعامهم اليومى ، وهو مكون من خبز ولحم ، وكان يصرف الى كل منهم الحلوى والصابون كل شهر مرة ..

ومسجد «شيخون» وخانقاه من أروع الاعمال المعمارية التى تمت فى العصر المملوكى، وكان بناؤهما بالحجر ، ولكل منهما منارة بديعة فوق بابه .. وبباب المسجد لوحة رخامية كتب فوقها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » ..

ومكتوب بعد هذا :

« أمر بانشاء هذا المكان المبارك والموطن الذى يربو العمل فيه ويبارك ، العبد الفقير الى ربه جل وعلا وتبارك ، المستغرق فى بحر نواله ، المغترف من أفضاله ، الامير شيخو العمرى » ..

والداخل من هذا الباب يجد لوحة خشبية حفر فوقها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » ..

ومسجد شيخون يزهو بمنبره الخشبي الفخم، ومحرابه الجميل، وأعمدته الرخامية المتناسقة ، وصحنه المفروش بالرخام الملون ، تتوسطه ميضاة رائعة ، مقام عليها قبة فوق اعمدة رخامية ..

والمسجد مسقوف بالخشب ، بازاره آيات قرآنية ..

ومنبر الخانقاه مصنوع من الرخام ، ودكة التبليغ مصنوعة من الحجر ومقامة فوق أعمدة من الرخام(١) ..

واذا مررنا بعد ذلك مر الكرام في وصف مساجد : « الجاي اليوسفي » ، و« الامير « منجك « ، و « خوند بركة » أم السلطان الاشرف شعبان ـ لتشابهها فى كل شيء مع شتى المساجد التي أنشئت في ذلك العصر ـ فانه ينبغي ألا نترك مسجد «صرغتمش» المقر السيفي ، ورأس النواب ـ لا لأهمية الرجل في الدولة المملوكية خلال فترات الاضطراب ، وتطاحن أولاد الناصر والمماليك على الحكم ، بل لأن في المسجد نفسه ما يوجب الوقوف عنده ..

ومسجد « صرغتمش » قد أقيم في نفس الحي الذى تخيره أمراء المماليك لاقامة مساجدهم الشهيرة ، فهناك أصلا مسجد طولون، ومن بعده الجاولي وشيخو وغيرهم.

وقد امر « **المقر الاشرف العالى المولوى العالمى العادلى الفاضلى السيفى صرغتمش الملك الناصرى ، مربى العلماء ومقوى الضعفاء وبانى المدارس والمساجد** » ـ بأن يكون مسجده هذا في أول الامر مدرسة ، بدأ فيها البناء عام ست وخمسين وسبعمائة هـ ـ فلما تمت كانت آية من آيات الدقة الصناعية ، فافتتحها أجمل افتتاح وركب اليها مع الامراء والقضاة الاربعة ومشايخ العلم ، وعين « قوام الدين » مدرسا للعلم بها ، فألقى فيها أول درس .. ثم أقام الامير صرغتمش مأدبة عظيمة ، دعا اليها الخاصة والعامة ، ووزع على الحضور شراب الليمون الذى كان قد ملأ به نافورة المدرسة التى أوقفها على علماء الحنفية ..

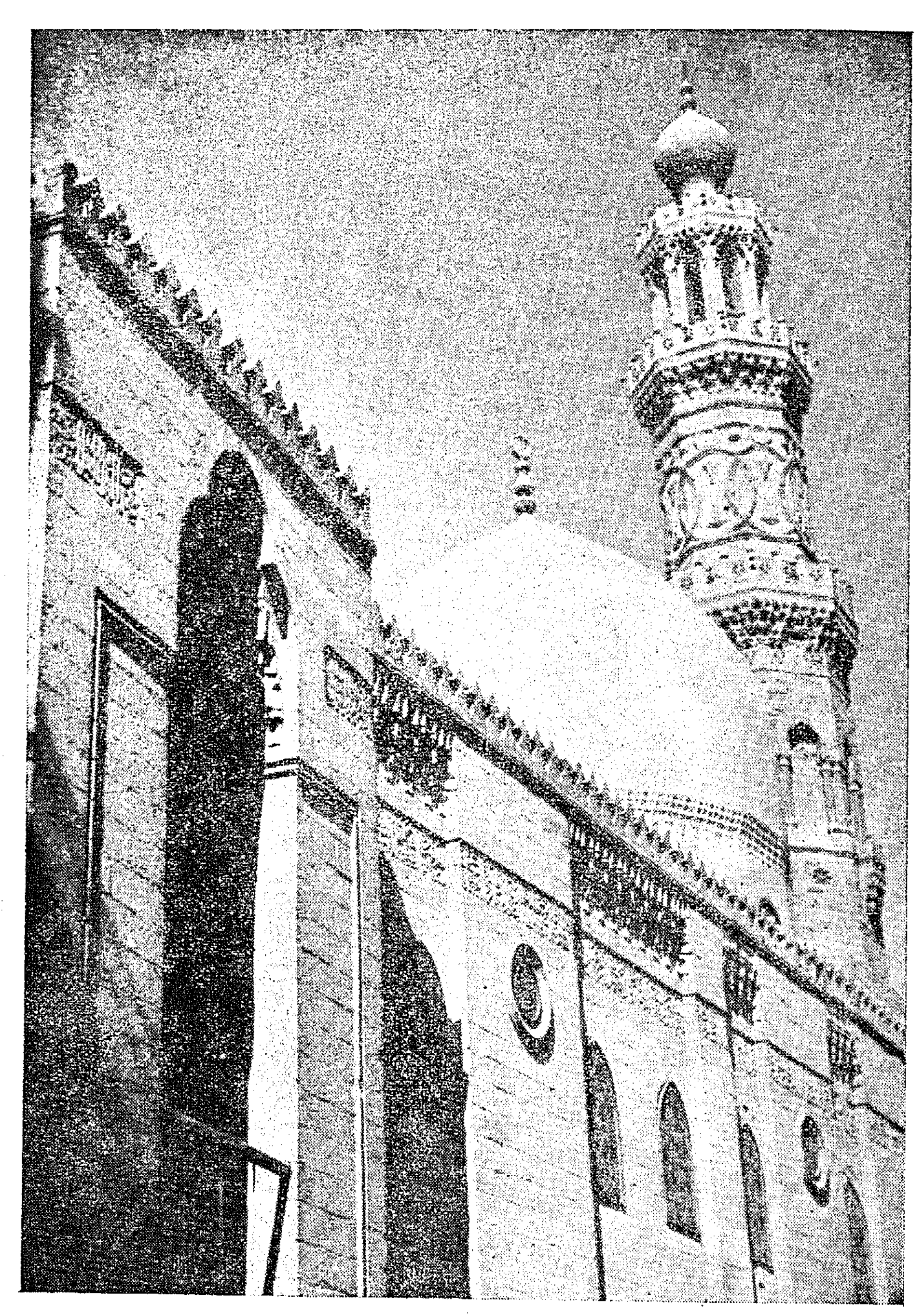
وقد اتخذت المدرسة الصرغتمشية هيئة المساجد الجامعة ، فجمعت بذلك بين الصفتين . وهى مكونة من صحن فسيح مفروش بالرخام ، تحيط به حجرات للطلاب ، وأربعة ايوانات فى أحدها القبلة ، وبحائطها رخام ملون منقوش ، وعلى جانبيها لوحان كتب عليهما اسم « صرغتمش » ..

وهناك ميضاة مسقوفة على أعمدة رخامية ثمانية ..

---

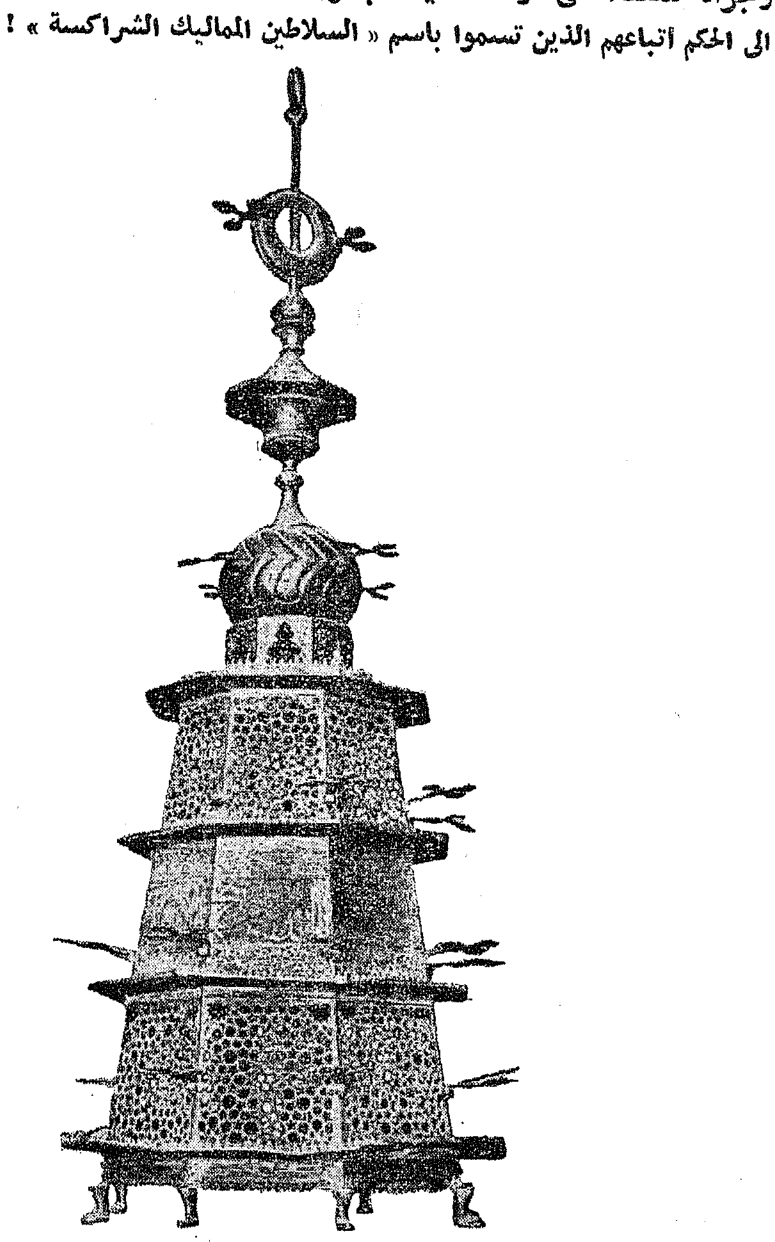
(١) أحرق الطاغية التركى سليم الاول هذا المسجد لما نمى اليه أن المملوك طومان باى يختبىء فيه ، كما أحرق ايضا الدور التى كانت تحيط به ، مبالغة منه في الاضرار بالمسلمين الذين خرج لحربهم مع جيشه ليجرب جبروته فى بنى دينه ! !

وقد نادى الشيخ احمد الطحاوى سنة ١٢٣١ هـ مستحثا المسلمين للاسهام في تعمير مسجدى شيخو ، فاكتتب الناس جميعا وتم اصلاح المسجدين وصارا على احسن حال ..



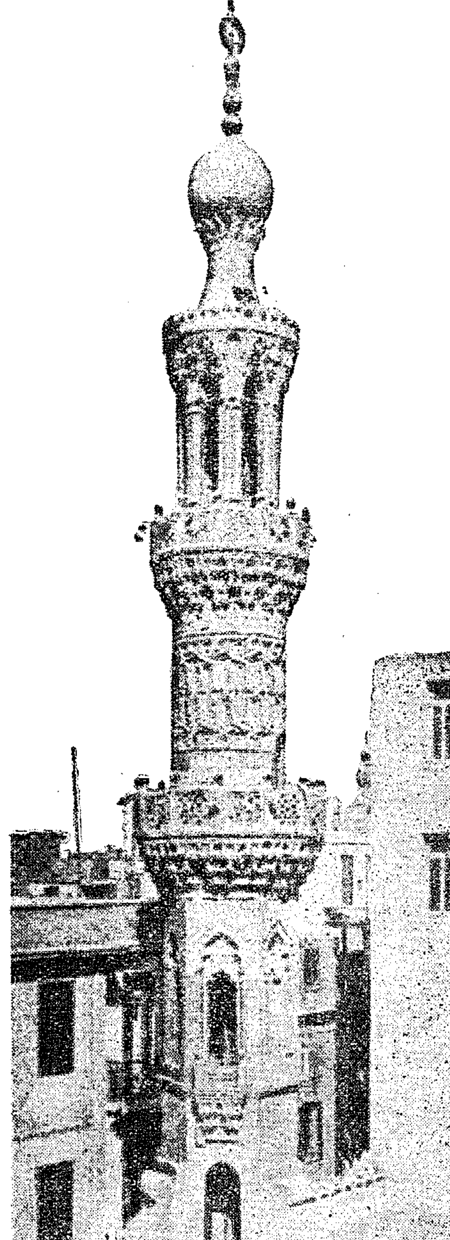
مسجد ومدرسة السلطان برقوق بشارع المعز لدين الله ، أنشأه « الملك الظاهر سيف الدين سعيد برقوق بن انس » أول من ولى حكم مصر من المماليك الجراكسة .:. كان مملوكا للامير يلبغا ، فأعتقه وظل يتنقل فى مناصب الدولة الى أن أسعده الحظ فولى ملك مصر فى سنة ٧٨٤ هـ ، ١٣٨٢ م

لقد كان من صفات هؤلاء الامراء ٠٠ والنعوت التى خلعوها على أنفسهم ، والعمارات التى شادوها فى أيام لم يستطع السلاطين فيها أن يقيموا باسمهم أى بناء ، نستطيع أن نحكم على السادة ٠٠ وعلى رفيقهم الذى بطش وتحكم وســاد ، ومهد الجو بتهوره وجرأته للقضاء على دولة المماليك البحرية ، حتى جعلوا منهم جسورا يعبر عليهـا الى الحكم أتباعهم الذين تسموا باسم « السلاطين المماليك الشراكسة » !



احدى مشكاوات مسجد القاضى عبد الباسط

سلاطين الشراكسة



« مئذنة جامع الامير أسنبغا »

كان دخول السلطان الملك الصالح « أمير حاج » الى اخوته فى دور الحرم بقلعة الجبل نهاية دولة ..

وكان خروج المملوك «برقوق» الى الحياة العامة وتسلمه زمام الامور ، بداية دولة اخرى ..

وهكذا .. وبعدمائة وستةوعشرين عاما، دالت دولة المماليك البحرية .. أولئك الرقيق الذين قدر لهم أن يحكموا مصر ، ويتوارثوا عرشها بالمغامرات والدسائس والتقتيل — ليرثهم بعد قرن وربع قرن أخوة لهم فى الرق، هم المماليك « البرجية » الذين ما أن خلص لهم الامر حتى سموا أنفسهم «الشراكسة» ..

وظهور المماليك البرجية على مسرح الحوادث فى مصر ، لم يكن مفاجأة من تلك المفاجآت التى حدثت أيام الصالح أمير حاج وكان بطلها المملوك الاتابكى برقوق .. بل كان ظهورهم يرجع الى ماقبل ذلك بعشرات السنين .. وفى أيام السلطان العادل كتبغا بالذات ..

ولما علا نجم « لاجين » وطرد خدنه وزميله فى الرق والفروسية « كتبغا » ، وتولى أمر السلطنة من بعده — أقدم مملوك برجى اسمه « كرجى » على قتل حسام الدين لاجين .. فمهد بذلك للعودة الثالثة للملك الناصر محمد بن قلاوون ..

وقد ظل شأن « البرجية » يعلو أيام حكم الناصر ، ونفوذهم يزداد أيام بنيه السلاطين حتى لقد راح هؤلاء « البرجية » يتقدمون صفوف «البحرية» ، وينافسونهم فى المناصب والتقرب الى السلاطين .. حتى استطاع الاتابكى برقوق — أكثرهم جرأة

وطموحا ـ أن يستحوذ على ثقة سيده « أمير حاج » ، حتى قربه وأعلا شـأنه وقدمه على جميع المماليك ..

واستطاع برقوق الطموح أن يرتب مظاهرة لعزل سيده ، ظل يدفع بهـا ويحرك شخوصها حتى أفلحت وتمت بنجاح ، فنودى به سيدا للبلاد باسم « **السـلطان الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد برقوق بن أنس** » !!

ولما كان أولاد المنصور قلاوون وحفدتهم وحدهم ـ هم من استطاعوا أن ينسبوا أنفسهم الى أب دون سائر المماليك المجهولى الاصل فعلا ـ فقد كان غريبا بالنسبة لبرقوق أن يجـد له أبا !! وأن يشـتهر باسم ذلك الأب الذى ذكره التاريخ وقال عنه « أنس » !!

وقد تكون قصة الانتساب هـذه ، قصـة من مبتكرات ذلك المملوك الذكى .. وقد يكون تعرفه على أبيه حقيقة واقعة .. **ولعله وقد أحس أيام دولة سـيده « أمير حاج » ، انه موشك أن يكون شيئا خطيرا .. وقد يسعده الحظ بأن يحكم ، فأراد أن يتحرر من وصمة التجهيل التى لازمت أمثاله من الرقيق ، الذين كانوا يباعون فى الاسواق .. فبعث من يبحث عن أبيه ، أو من يجد له بين الناس أبا ، حتى وجده فى النهاية فى شخص « تركى شركسى » اسمه أنس ..**

وحضر أنس والد برقوق هـذا الى مصر أيام « أمير حاج » وقد أعدت لاستقباله المواكب .. ولم يكن حظه أقل من حظ ابنه ، فسرعان ماأعدت له المناصب وأجريت عليه الرواتب وأصـبح فى دولة « الخدم » رجلا مميزا له المركز العـالى والدرجة الرفيعة !!

وقد طالت حياة أنس حتى شهد ولده الذى بيع بالأمس فى سوق العبيـد ، وهو يرقى عرش مصر ويرسى فيها قواعد دولة الشراكسة (١) ..

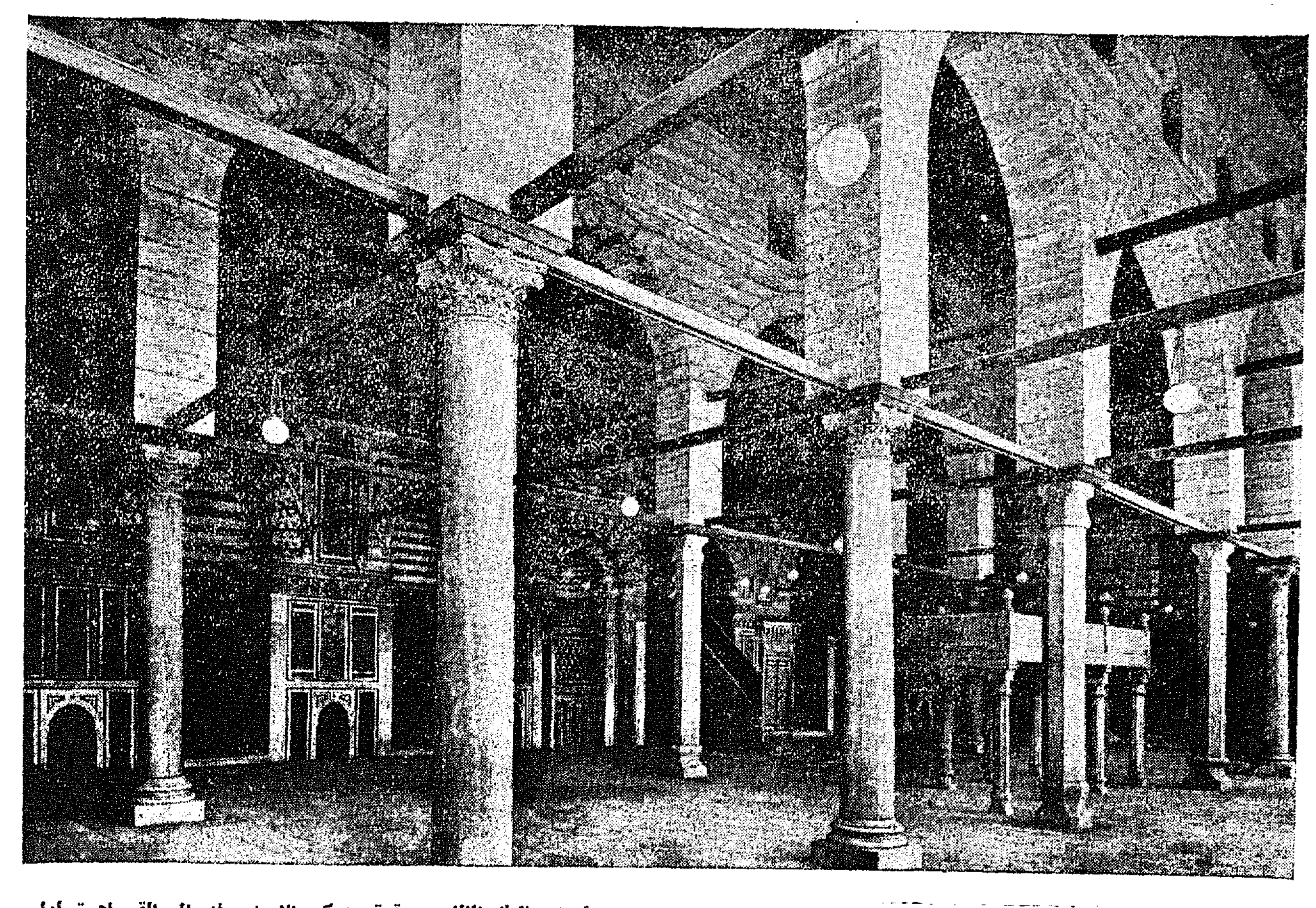
---

(١) لسادتنا مؤرخى العرب الاوائل تخريجات طريفة فى تفسير معنى « شراكسة » هذه ، اذ يقولون انهم جنس من البشر ، ابوهم الاول هو « جبلة بن الايهم » وهو فارس عربى عملاق من غسان ، اسلم أيام عمر ابن الخطاب .. ووفد فى موسم الحجيج ليطوف بالبيت ، وكان له كساء بلغ من طوله أنه كان يمسح الارض أثناء سيره ! !

ولقد حدث خلال الطواف أن تعثر أعرابى بكساء جبلة ، فغضب ولطم الاعرابى لطمة أفقدته احدى عينيه ، فأسرع الاعرابى يحتكم الى عمر الذى قضى بأن العين بالعين وأن الدية غير مقبولة مهما عظمت قيمتها .. فلم يجد جبلة الا أن يهرب من القصاص الى الشام ، حيث ارتد عن الدين وكسب لنفسه فوق اسمه صفة جديدة أشير اليه بها وهى : أن الرجل الذى « جر وراءه كساءه الطويل » حتى لقد عرف باسم « جركساه » ! !

وقد رحل « جركساه » بعد ذلك الى القسطنطينية حيث تزوج امرأة من الترك ، استولدها أبنـاءه الذين عرفوا باسم « الجراكسة » و « الترك » ...

أما مؤرخو الغرب ، فيقولون : ان الجراكسة هم بعض نسل « يأجوج ومأجوج » ، وقـد تركهم « الاسكندر الاكبر » خارج « السد » عندما بناه .. فسموا من أجل ذلك « الترك » ، أى الذين تركوا خارج السد العظيم ! !



جامع السلطان المؤيد ـ انشاه السلطان الملك المؤيد أبوالنصر شيخ المحمودى «أحد مماليك الظاهر برقوق جركسى الاصل، وفد الى القـــاهرة أول سنة ٧٨٣ هـ فاشـــتراه محمود اليزدى تاجر المماليك ـ ولذلك عرف بالمحمودى نسبة اليه ـ وقدمه الى الظـاهر برقوق وقت أن كان أتابكا فاعتقه وعلمه الفروسية بأنواعها وعينه فى جملة وظائف ظل يترقى فيها حتى ولى ملك مصر سنة ٨١٥ هـ ، ١٤١٢ م ٠ وكان موقع هذا الجامع أصلا سجنا يسمى « خزانة شمائل » سجن فيه المؤيد وقت أن كان أميرا فنذر ان أتاه الله ملك مصر أن يبنى مكانه مسجدا فتم له ما أراد ووفى بنذره

وبرقوق كان رجل خير وصلاح ، وان لم ينس ـ رغم حبه للخير وصلاحه ـ صفاته كمملوك مغامر ، عليه أن يحترس من أخص أصفيائه ، ومن غيرهم من أمراء المماليك الذين يتطلعون أن يكون لهم مثل مركز الظاهر برقوق ..

فسلطنة برقوق الشركسي اذن ، لم تختلف في شيء عن سلطنة من سبقوه من سلاطين « البحرية » : فتن ، وتحزب ، ومؤامرات للوثوب على السلطان .. لعزله .. أو سجنه .. أو قتله اذا لزم الامر ..

وكما كانت الحياة رخيصة أيام سلاطين المماليك البحرية ـ كذلك كانت الحياة هي نفس الحياة الرخيصة أيام حكم السلطان الشركسي الاول ، الذي لم يلبث أن ثار عليه خلصاؤه ، وخاصته ، وتحزبوا ضده وحاصروه في قلعة الجبل ، وعجز عن مقاومتهم ، فخلع ملابس السلطان وخرج من قصره متنكرا ليهرب وينجو بحياته ..

وظل برقوق مختفيا بضعة أيام ، أعاد المتآمرون خلالها السلطان «أمير حاج» القلاووني الى العرش مرة أخرى .. ثم تمكنوا من القبض على برقوق فسجنوه ، ثم ترفقوا به فنفوه الى الكرك ..

وفي « الكرك » ، الذي يعتبر حصن « الحظ » بالنسبة لكل من نفي اليه من السلاطين ـ استطاع برقوق أن يسترد مكانته ويعظم شأنه ، وأن يخرج في جيش لاسترداد ملكه في مصر .. وأن يعيد مرة ثانية الحكم الشركسي ..

وقد استطاع الظاهر برقوق بعد عودته تلك أن يقبض على ناصية الامور بيد من حديد ويحول دون الطامعين وما يريدون .. وأن يبقى مستقرا في دست الحكم حتى نهاية عمره

وبرقوق قد بدأ عهده أول مابدأ بالتشبه بمن سبقوه من سلاطين المماليك البحرية ، بأن اتجه الى العمارة وتشييد المساجد .. وكان الازهر أول مسجد مسته يد الاصلاح

واتجاه السلطان الظاهر الى الجامع الازهر ، لم يكن للاصلاح البنائي .. وانما قصد منه التنظيم الاداري بوصفه مدرسة جامعة .. والاشراف الفعلي على تلك الادارة .

وبرقوق هو أول من عين للأزهر « ناظرا » ، ولم تكن هذه الوظيفة معروفة من قبل .. وكان المقصود من انشائها « تركيز ادارة » الجامع العتيد ، وتثبيت حلقات الدراسة فيه ، وترتيب « الجراية » في يد مسئولة تعرف كيف تسوس الامور ..

و « ناظر » الجامع الازهر ـ بحكم وضع السلطان برقوق له ، كان رجلا « اداريا » ، لا دخل له بشئون العلم والدين ، لان هذه الامور كان يتولاها خطيب المسجد وامامه وكبار العلماء ..

وأول « ناظر » للأزهر كان مملوكا اسمه الامير « بهادر » .. وأول عمل باشره استصدار مرسوم سلطاني ، يقضي بأن من مات من « مجاوري » الازهر ، دون وريث شرعي يرث ماتركه ، فان ميراثه يؤول كله الى زملائه « المجاورين » معه ..

وبعد أن نظم برقوق شئون الازهر الادارية ، اتجه اليه اتجـــاه المصلح الراغب فى العمارة والبناء ٠٠ فاهتم أولا بمئذنة الجامع العتيد التى وجدها قصيرة لاتتفق ومكانة المسجد وشهرته فكان أن أمر بهدمها وأقام بدلا منها منارة سامقة صرف على اقامتها من جيبه الخاص مايقرب من الخمسة عشر ألف درهم ٠٠

واحتفل السلطان رسميا بافتتاح هذه المنارة ٠٠ وعلق فيها القنـاديل العديدية ، حتى بدت وكأنها تسبح فى محيط من النور ٠٠

وأمر برقوق بجمع أهل العلم والقراءات فى تلك الليلة فى صحن الجامع الازهر ، حيث قامت شبه مباراة فى القراءة والانشاء والأذان ٠٠

وقد اتجه الظاهر برقوق بعد أن زال شبح الحرب التى كاد يشنها « تيمور لنك » على الشرق ــ الى الاصـــلاحات الكبرى ، فجدد عمارة ثغر دميـــاط ، وحصن ثغور الاسكندرية ، وجدد بناء خزائن السلاح فيها ٠٠ ثم جدد اصلاح القناة ذات العيون ، التى كانت تحمل الماء من النيل الى قلعة الجبل ٠٠ وأمر باعادة سور ميدان القلعة ، حيث بنى هناك مكتبا للعلم و « سبيلا » للظامئين من عابرى الطريق ٠٠

وكعادة سائر السلاطين الذين حكموا مصر وعمروها بالمســاجد ، أراد برقوق أن يكون له أيضا مسجد عظيم ينسب اليه ، ويتقرب عن طريقــه الى الله ٠٠ فكان أن شرع فى بناء مسجده المعروف بين القصرين ٠٠

ومسجد الظاهر برقوق ، أو مدرسته الشهيرة ــ أقيم فى مكان كان يعرف باسم « خان الزكاة » ، وهو بناء أقيم فى جزء من أحد القصرين الفاطميين الشهيرين ٠٠ وهو القصر الصغير ٠٠

وقد أزال برقوق «خان الزكاة» وسوى مكانه وأعد الارض الفسيحة لاقامة مسجده و « خانقاه » الملحقة به ٠٠ وبدأ العمل فيه فى أواخر عام ست وثمانين وسبعمائة هـ ٠٠

ويمتاز بناء مسجد برقوق بحجارته التى لا مثيل لها لضخامتها بين مساجد القاهرة ، وقد أعد لنقلها من الجبل عربات خاصة تجرها « **العجول** » حتى لقد أطلق على تلك الحجارة اسم « **الحجارة العجالى** » ٠٠

وقد وضع تصميم مسجد برقوق وأشرف على تنفيذه معلم المعلمين « **شهاب الدين أحمد بن الطولونى** » ، وكان مهندسا مدربا واسع الخبرة فى بناء المساجد وتجميلها ٠٠

وأشرف على عمارة المسجد وباشر شتى شـــئونها **الامير** « **جركس الجليلى** » مملوك السلطان ٠٠

ومسجد الظاهر برقوق من المســاجد الفخمة ، التى أفرغت فى بنائهـا خلاصـة عبقرية الفنان المصرى ٠٠ وتبدو روعة هذا العمل الفريد فى واجهة المسجد الشرقية ،

التى ينتهى طرفها الجنــوبى بباب المسجد الرئيسى المكسو بالرخام ، والمحلى بنقوش وكتابات بديعة ، ومصراعاه بالنحاس المفضض ..

ومنارة مسجد برقوق تعتبر آية من آيات اتقان الصناعة ، وتقع فى الطرف الشمالى للمسجد ، تجاورها قبته ..

وواجهة المسجد زاخرة بالزخارف ، مليئة بنوافذ ذات أشكال منمقة ، ودلافات خشبية ..

أما المسجد من الداخل ، فقد روعي فى تصميمه أن يكون على شكل « مدرسة » ، فصحنه الواسع تحيط به ايوانات أربعة ، أدقها ايوان القبلة ، الذى فرشت أرضه بالرخام ، وبنيت مقدمته على هيئة محاريب مشابهة للمحاريب التى بنيت فى «**خانقاه» الظاهر بيبرس الجاشنكير ..**

واستغرق العمل فى بناء هذا المسجد عاما كاملا .. وافتتح رسميا فى حفــل رائع حضره السلطان الظاهر برقوق بنفســه ، واجتمع بالمسجد يومهــا قضــاة المذاهب الاربعة ، وجميع الامراء وكبار المقرئين ..

وأمر السلطان باقامة وليمة حافلة مد فيها سماطا عظيما ، وأمر بأن تملأ النافورة التى بصحن المسجد بشراب الليمون ، ليشرب منه الحضور جميعا ..

وقد خلع برقوق فى يوم افتتاحه خلعته السنية على الامير جركس الخليلى ، فرقاه الى رتبة « أميراخور » كبير ، أي مشرف على « الاسطبلات السلطانية » وملحقاتها .. وخلع على «مهندس» المسجد وبانيه المعلم الشهاب « أحمد الطولونى » بعدة « قبالخ » وأركبه فرسا بسرج ذهبى وكنبوش ..

ووهب المنح لخمســة وعشرين مملوكا من مماليــك الامير جركس .. ولم ينس المرخمين والعمال والمزخرفين والنقاشين ، فوهب كلا منهم خلعة .. أما « الفعلة » فقد نال كل واحد منهم « أشرفيين » ..

وعين السلطان فى ذلك اليوم شيخا لمسجده هــذا ، هو « علاء الدين السيرامى » وأضاف اليه فوق مهام منصبه هذا وظيفة تدريس المذهب الحنفى ..

وكان حفل افتتاح مسجد برقوق مناسبة لطيفــة تبارى خلالها الشــعراء واهل الفنون ، وقيل فيها شعر لعل أجمله ماقال **ابن العطار :**

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة — فاقت على « ارم » مع سرعة العمل
يكفى الخليلى أن جاءت لدعــوته — صم الجبال لها تسعى على عجل !!

وقال أيضا :

قل للمليــك الظــاهر المرتضى — هنيت بالمدرســة الفائقــه
خنقت حســادك قهــرا بهــا — فيالهــا من مدرســة خانقــه !!

وحدث بعد أن تم بناء المسجد أن مات الشركسى « أنس » والد برقوق ، فدفن فى ذلك المسجد .. كما دفنت هناك أيضا زوج السلطان وولداه ..

أما برقوق .. الذى شاد وبنى ، فقـــد أوصى عند موته بأن يدفن فى لحـد بين الفقراء !! فنفذت وصيته بدقة ، ولم يدفن فى مسجده هذا مخالفا فى ذلك من سبقوه من سلاطين المماليك ..

وقد أوصى السلطان الظاهر برقوق فى جملة ما أوصى به بعد موته ، أن يخلفه على عرشه أولاده الثلاثة ، على التوالى وهم : **المقر الزينى فرج ، ثم المقر العزى عبد العزيز ، ثم المقر الصارمى ابراهيم ..**

وقد نفــذت وصـــية برقوق ، فتولى العرش من بعده مبــاشرة ولده فرج باســم **« السلطان الملك الناصر زين الدين أبى السعادات فرج بن برقوق » ..**

وقد تعرض فرج لما تعرض له أبوه برقوق .. فترك السلطنة هاربا ليتولاها من بعده أخوه المقر المعزى باسم « **المنصور عز الدين أبى العز** » ..

ولكن فرج مالبث أن عاد وتسلم السلطان من جديد ..

ولم يكن « فرج » على غرار أبيه فى شىء .. كان عابثا ، مســتهترا ، ســكيرا ، سفاحا محبا للغدر .. حتى لقد تآمر عليه مماليك أبيه ، بزعامة الاتابكى « شيخ » ، فحاربهم وطاردهم وتبعهم الى الشام وانتصر عليهم فى موقعة دامية ، أراد بعدها أن يواصل هجومه ليقضى عليهم القضاء الاخير .. وكان وقتها ثملا لايستطيع أن يقوم على قدميه ، ولكنه أقسم أن يحارب .. فتركوه ليتقـدم مماليكه وينـال الهزيمة النكراء ، فقبض عليه ثم سجن .. وقتل !!

ورأى الاتابكى « شيخ » ، بعد أن خلت السلطنة من صاحبها ، ألا يليهـــا هو .. ولا زميله نوروز .. وأن يكونالسلطان الجديد هو الخليفة العباسى « المستعين بالله »

***

وعلى هذه الصورة الأليمة دالت دولة ورثة برقوق وذهبت ريحهــا .. واستطاع فرج الماجن السكير أن يسود صحائفها ، ويترك الذكرى السيئة و.. « خانقاه » تعد من أجمل الاعمال البنائية فى عهد السلاطين الشراكسة ..

و « خانقاه » فرج بن برقوق ، كانت عملا تخليديا أحب « فرج » الابن ، أنيقدمه لأبيه الظاهر برقوق !!

كان برقوق قد أوصى أن يدفن بين الفقراء فى الصحراء فى قطعة أرض منعزلة بعيدة ـ كما سبق القول ـ سورها خلال حياته .. ودفن فيها كثيرون من خاصته ، كما دفن فيها بعض العلماء وأهل الفضل ، ومنهم الشيخ السيرامى شيخ مسجد الظاهر برقوق نفسه ، والشيخان : اليمانى ، وطلحة ..

وقد نفذ المشرفون على وصية الظاهر برقوق وصيته .. ودفن فى ذلك المكان الصحراوى البعيد فى لحد متواضع كما أوصى ..

ثم أراد الابن فرج ، ومن بعده الابن الثانى عبد العزيز — أن يكرما ذكرى أبيهما ، فكان أن أقدم أولهما على بناء تلك الخانقاه فى الفضاء الذى سوره الأب .. ودفن فى لحد فيه ..

والتاريخ يذكر أن « خانقاه » فرج بن برقوق ، لم يتم بناؤها فى عام كمسجد أبيه ، بل فى اثنى عشر عاما ، اذ بدىء بالعمل فيها عام واحد وثمانمائة وتم فى نهاية اثنى عشر وثمانمائة . وكان المشرف على بنائها هو الامير « **لاجين الطرنطاى** » ..

وقد بلغ من تحمس فرج لهذه « الخانقاه » التى أقامها على قبر أبيه — أن أحب أن يجعل منها نواة لعمران أراده فى ذلك المكان المقفر غير المسكون .. فكان أن شجع على اقامة البناء حولها ، وأراد بذلك أن ينشىء مدينة حاوية لكل أسباب الاستقرار والعمران .. ولكن ظروفه وسيرته لم يمهلاه لاتمام هذا المشروع الخطير ..

و « الخانقاه » بعد هذا آية من آيات الدقة الصناعية والزخرفة الفريدة ، بنيت بالحجر الدقيق ، وهى خالية من جهاتها الاربع ، ولها بابان ، أحدهما تزينه «مقرنصات» غاية فى الدقة ، والى جواره «سبيل» للعطاشى ، يعلوه «مكتب» لتعليم فقراء المسلمين القرآن .. **ويفضى هذا الباب الى شرفة ذات عقود حجرية ..**

والباب الثانى بنى على نمط الباب الاول ، اذ يجاوره «سبيل» ، أعلاه «مكتب» يشابه المكتب الاول ..

وبين البابين أقيمت منارتان من أجمل وأبدع المنارات ..

وهناك قبة كبيرة وأخرى صغيرة فوق المحراب .. أما القبة الكبيرة فنقوشها تعتبر تحفا فنية لا نظير لها ولا شبيه ..

والخانقاه من الداخل لها صحن متسع تحوطه أيوانات أربعة ، فوق كل واحد منها قبة صغيرة ، تقوم كل منها على قواعد حجرية مثمنة ..

والقبة الكبيرة خصصت ضريحا للظاهر برقوق وأولاده ، وقد كسيت فتحاتها بالخشب المجمع المتشابك فى أشكال هندسية دقيقة ، وجدرانها ومحرابها مكسوان بالرخام الملون ، ونقش عليها اسم « **المنصور عبد العزيز بن برقوق** » ..

والقبة الثانية ، ليست أقل فخامة من القبة الاولى ، وقد طليت جدرانها من الداخل باللون الاسود ، وخصصت لدفن سيدات الاسرة البرقوقية ..

ولطالما تمنى فرج بن برقوق لو يكون مثواه فى « خانقاه » هذه الى جوار أبيه .. ولكن القدر أبى أن ينيله هذه الأمنية ، فمات قتيلا فى ديار بعيدة .. ودفن فى مكان مجهول ، وصدق عليه قول الله جل وعلا :

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ..

وهكذا تولى زمن برقوق وولديه .. ودخلت مصر من بعدهما فى حكم الخليفة

العباسى ، الذى لم يكن طوال العصور المملوكيـة أكثر من رمز صورى ، يعزز وجود السلطان الفعلى ، وهو المملوك الجرىء مغتصب الحكم ..

ولم يكد الخليفة يتسلم رسميا سلطاته ، حتى أكد الاتفاق الذى تم بين الاتابكى شيخ ، وصاحبه « نوروز الحافظى » فاستقر بأولهما « أتابكا » على مصر ، ومدبرا لشئون المملكة ، واستقر بالثانى نائبا على الشام ، وأضاف اليه جميع خراج البلاد الشامية ، وحكم البلاد من « غزة » الى « الفرات » ..

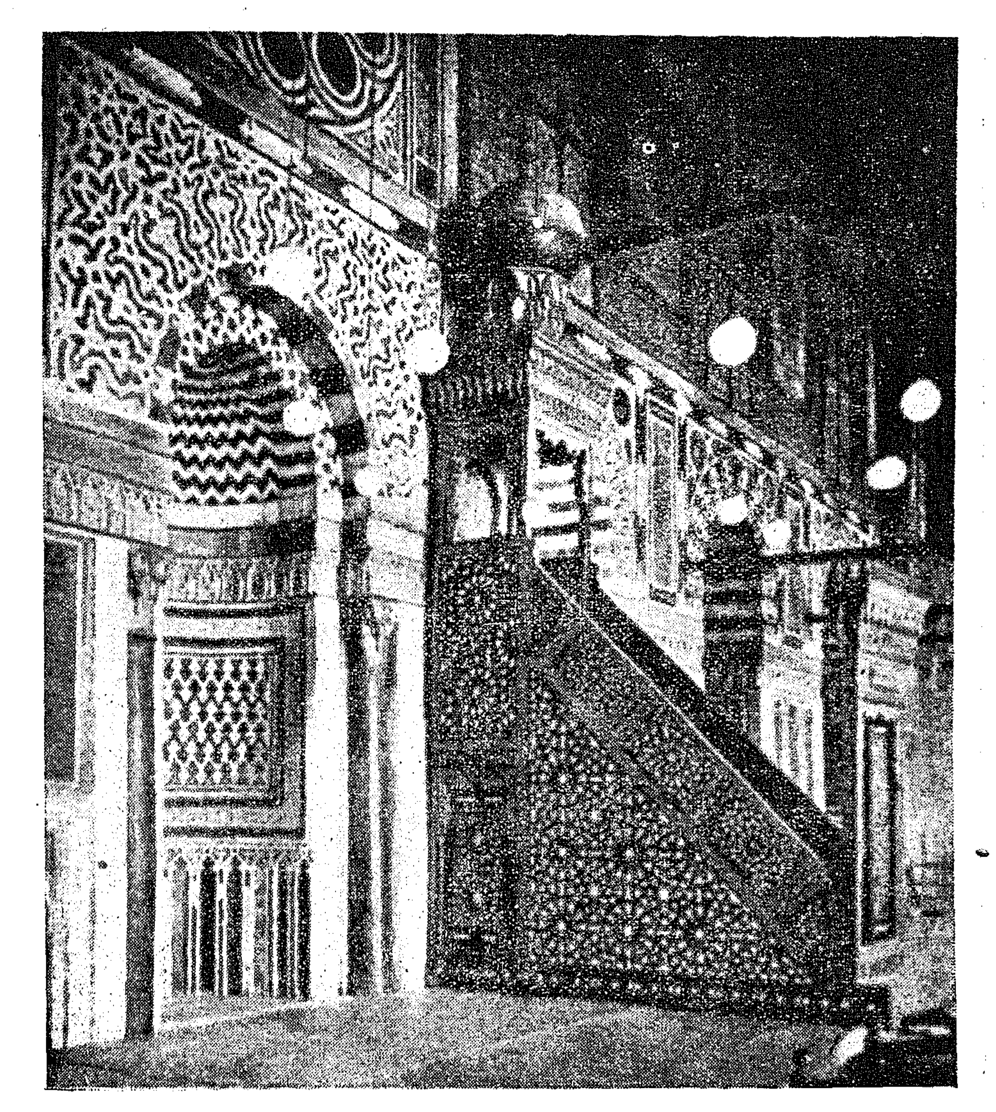
وصعد الخليفة السلطان الى قلعة الجبل لاول مرة فى تاريخ الخلفاء العباسيين فى مصر ، وجعلها مقرا لحكمه .. فى الوقت الذى أبى فيه الاتابكى شيخ المحمودى أن يتركه ، خشية أن توسوس له نفسه بأن يستأثر بالسلطان ، فأقام على مقربة منه عند باب السلسلة ..

وكان شيخ المحمودى ـ بوضعه هذا الذى فرضه ومسكنه القريب من مسكن السلطان ، رقيبا فعليا على الرجل الضعيف الذى أرادوه فى مركز لم يكن صاحبه ، فكان يلقى أول مايلقى القادمين ويوجههم ، ثم يقابل الخارجين من حضرة السلطان فينصحهم ، ويشعرهم جميعا بأنه لم يزل الاتابكى صاحب السطوة والجاه والسلطان الحقيقى !!

ومرت على هذه الاوضاع غير المستقيمة فترة يسيرة من الزمن .. برم شيخ المحمودى خلالها بكل شىء وكره أن يكون تابعا لتابع سابق له .. وعاد يرسم من جديد خطته لطرد الخليفة العباسى المستعين بالله ، لينفرد هو بحكم مصر ، ويكون فيها السيد الاول المقدم على الجميع !!



احدى مشكاوات مسجد السلطان حسن



« منبر ومحراب جامع السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى »

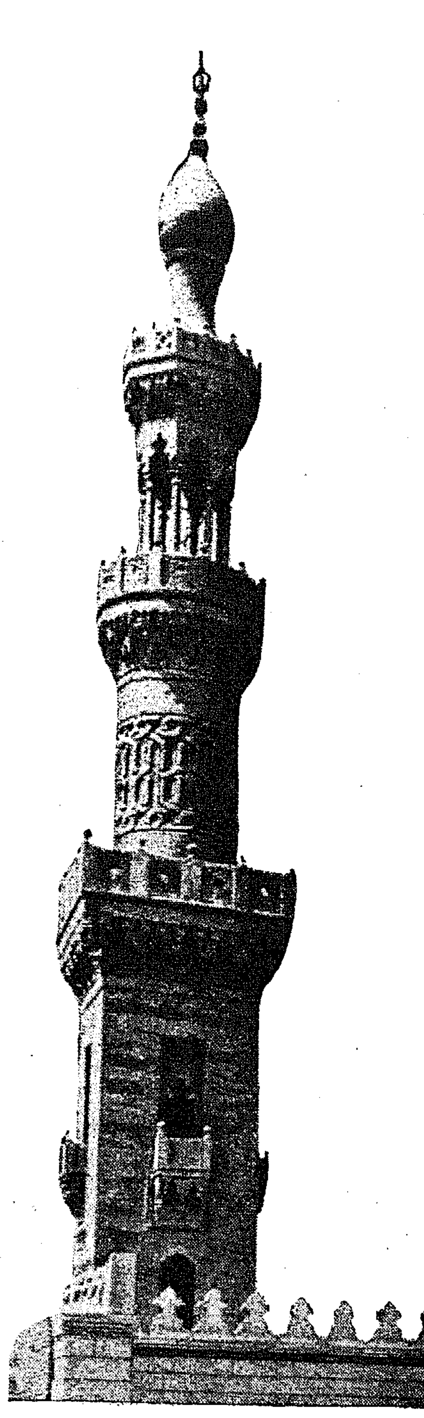
يعتبر جامع السلطان المؤيد من الجوامع الكبيرة التى بولغ فى تزيينها وتجميلها ـ شرع فى انشائه الملك المؤيد سنة ٨١٨ هـ ، ١٤١٥ م بجوار باب زويلة بشارع المعز لدين الله، واتمه سنة ٨٢٣ هـ ، ١٤٢٠ م

وقد تجلت دقة الصناعة وبراعة التطعيم فى منبر الجامع الخشبى، ومحرابه الرخامى الرائع وتناسب الالوان فيه ، وقد استطاع الفنانون المصريون ـ باشراف الامير فخر الدين ـ تجميل محرابه الرخامى بعد أن نقلوا اليه عمودى محراب مسجد « قوصون » كما نقلوا اليه ايضا باب مسجد السلطان حسن لانه كان من اجمل الابواب المزخرفة بالنحاس وادقها فنا ..

كما بالغــوا فى النقوش التى تزين الاسقف وما تخللهــا من تذهيب رائع أضاف الى تنوع تصميماتها جمال ألوانها وتجانسها ..

وقد كان للجامع مكتبة قيمة ومدرسون عينوا لتدريس العلوم الدينية ابتداء من سنة ٨٢٣ هـ ، ١٤٢٠ م ـ أى بعد اتمام بنائه مباشرة .

المؤيّد



واخيرا .. انتصر الاتابكى ونودى به حاكما على مصر باسم « **السلطان الملك المؤيد أبى النصر شيخ المحمودى** »

وكان أبو النصر جريئامقداما ، ذا سطوة وقوة ، لا يهاب ولا يرهب ..

وقد أثار خلعه للخليفة شريكه القديم « نوروز » الذى تفرد بولاية الشام ، ووجد فى اعلان المؤيد نفسه سلطانا على مصر ، نقضا لعهد قديم أبرماه معا .. فكان أن خرج على طاعة المؤيد ووقف منه موقف العدو المتربص للحرب والانتقام ..

ولقد سخر المؤيد من جرأة « نوروز » وأعد لكل احتمال عدته ..

وبدأ ، بعد أن عزل الخليفة العباسى من منصبه السياسى ـ بعزله من منصبه الدينى الرمزى ، فجرده من شارات الخلافة .. وبالغ فى السخط عليه فأرسله الى سجن الاسكندرية ، ليقضى هناك بقية عمره .. ونصب أخا للخليفة اسمه « داود » خليفة بدلا منه

وبلغ الحقد مداه من « نوروز » لان شريكه القديم لم يستطع أن يحفظ العهد لاكثر من ستة أشهر ، سطا بعدها على العرش وتفرد بالسلطان ..

« مئذنة السلطان برقوق بقرافة المماليك »

ولم يكن المؤيد من الضعف بحيث يدع نوروز وشأنه حيث هو بالشام ، غيرمعترف بما حدث ، مصرا على الاعتراف بسلطان الخليفة المسجون ، مصمما على الخطبة باسمه فى المساجد ..

فكان أن خرج اليـــه فى جيش لجب ،حيث دارت بينهما واقعـة رهيبـة ، وقف النصر خلالها الى جانب المؤيد ، فبدد قوات نوروز وقبض عليـــه ، ثم قتله فقضى على دولته وأحلامه وسلطانه ٠٠

وسلطنة المؤيد على مصر لم تفترق فى شيء عن سلطنة من سبقوه من مماليك البحرية والبرجية : مؤامرات ودسائس ، ونجاح فى القضاء عليها ٠٠ ثم امعان فى الاستقرار ٠

وأظهر عمل خلد به المؤيد نفسه كان بناء مسجده العتيد المجاور لباب زويلة ٠٠

ولئن كانت دولة المماليك البحـرية ،تفخر بالمدرسـة التى أقامهـا السـلطان الناصر حسن كالطود فى مواجهة القلعة ؛ فان دولة المماليك الشراكسة تباهى بالمسجد العظيم الذى أقامه السلطان المؤيد شيخ ٠٠

والغريب فى أمر اختيار هذه البقعة الضيقة بالذات ، لتكون مسجد السلطان المؤيد **يرجع الى قصة قديمة ، بدأت عندما قام الامير « منطاش » بفتنته ضد سـيده برقوق ـ يوم هرب من قلعة الجبل ؛ تاركا السلطان ، ومع السلطان مماليكه الموالون ، وفى جملتهم المملوك الامين « المؤيد شيخ » ٠٠**

وقبض منطاش على المؤيد فى جملة من قبض عليهم ، وألقى به فى « خزانة شمايل » وهى سجن رهيب اقامه فى العصر الايوبى رجل اسـمه « شمايل »(١) ــ فى نفس مكان مسجد المؤيد الحالى ٠٠

ولقى المؤيد فى « خزانة شمايل » كل هول ورهبة ، حتى لقد نذر لله ان أنقذه من هذا السجن وأعطاه ملك مصر ، ليهدمن « خزانة شمايل » ، وليقيمن مكانها مسـجدا جامعا ، يبز مساجد المتقدمين والمتأخرين جميعا ٠٠

ولعب الحظ دوره فى حيـاة المؤيد شـيخ ٠٠ وواتاه الملك ، فكان أن فكر فى الوفاء بالنذر ــ وأمر بأن تهدم فورا « خزانة شمايل » ٠٠ الرهيبة ذات الذكريات الاليمة وأن يقام مكانها مسجده الشامخ ، ليكون بيتا لله ، يذكر فيه اسمه ٠٠ ويكون فى ذات الوقت دارا للعلم ومدرسة ٠٠ يبدد عن طريقها ظلمات الجهل ، وينتشر العلم النافع المفيد ٠٠

ولقد أمر السلطان المؤيد شيخ بأن يبدأ العمل فى بناء مسـجده العظيم فى جمـادى **الأولى من عام ٨١٨ هـ ، بعد أن أشهد على نفسه أنه أوقف ذلك المسجد الجامع لله تعالى وحبس عليه أرضا وعقارا فى مصر وبلاد الشام ٠٠**

ولم يكد يتم حفر أساس المسجد العظيم حتى سارع البناؤون فى اقامة الجدران ٠ وبلغ عدد المشتغلين فى تشييد الجامع ثلاثين بناء ومائة فاعل ٠٠ وظل هـذا الحشد

(١) هو احد المغامرين فى عصر الصالح نجم الدين ايوب ، وكان يتجسس على الفرنسـيين فى حملة المنصورة ويعود الى السلطان بالاخبار فقربه منه ورقاه الى اعلا المناصب ٠ ٠٠

العظيم يعمل دون انقطاع وفى همة طالما شحذها اهتمام السلطان بمسجده واغداقه الأعطيات على العاملين فيه لتشجيعهم ٠

وقد استطاعوا بتشجيع السلطان ـ الفراغ من اقامة البناء فى فترة وجيزة ٠٠ التفت السلطان بعدها الى زخرفة مسجده وتجميله ٠٠ فطلب الرخام بجميع أنواعه وألوانه وصفاته ، واتجه رجال السلطان الى الدور ذات الشهرة التاريخية ؛ فاقتلعوا ماكان يحليها من أعمدة الرخام وألواحه ٠٠ فلما لم يكفهم ذلك شرعوا فى هدم «مسجدالاقدام» بحجة بعده عن العمران وتهدمه ، وانصراف الناس عن اقامة الشعائر فيه ٠٠ ولم يكن كذلك !!

ثم حملوا ماكان بهذا المسجد من أعمدة وألواح رخامية الى مسجد السلطان المؤيد

وأعجب السلطان بعد هذا بالباب العظيم المقام بمسجد السلطان حسن فأمر بأن يحمل الى مسجده هذا ٠٠ وحمل معه أيضا « تنورا » نحاسيا عظيما دقيق الصناعة ٠٠ وبرر عمله هذا بأن ادعى شراء « الباب والتنور » بثمن صورى هو خمسمائة دينار !

ومبالغة من المشرفين على العمل فى مسجد المؤيد ورغبتهم فى تجميل محرابه ، نقلوا اليه محراب مسجد « قوصون »

ورأى الامير « فخر الدين » المشرف على عملية البناء ، أن تكون للمسجد ميضاةمستقلة فاشترى دارا مجاورة ، هدمها وشرع فى بناء الميضاة ٠٠

ولما كانت بعض جدران المسجد مجاورة لباب زويلة ، فقد رأى مهندسوه أن يستعينوا بالباب التاريخى الاشهر ، ويستغلوا مجاورته للمسجد ٠ فبنوا فوقه مئذنتين ٠٠ برغم مافى هذا من عدوان على التاريخ ، والفن المعمارى نفسه ٠٠

ولقد حدث أن مالت احدى المئذنتين المقامتين على بدنة هذا الباب « باب زويلة » ورؤى هدمها ، فوافق السلطان على ذلك وبدىء فى هدمها ٠٠ واذا بحجر يسقط منها على أحد الأبنية المواجهة ، فيقتل رجلا ٠ وعندئذ رؤى اغلاق باب زويلة وتحريم المرور منه مدة شهر كامل ٠٠

وقد أثار حادث سقوط منارة مسجد المؤيد ، خيال بعض الشعراء ، فنظموا فيه شعرا كان أطرفه مانظمه شمس الدين الجوجرى اذ قال :

منـــارة لثواب الله قـــد بنيت
فكيف هدت ؟! فقالوا نوضـح الخبرا :
أصـــابت العين أحجـــارا بهـــا انفلقت
ونظرة العين قالوا تفلق الحجـــرا !

وأمر الملك المؤيد بعد هذا بأن تنقل من القلعة مكتبة عامرة بالمصـــنفات الى مسجده الجامع ٠٠ ولم تكد تحل سنة ٨٢٠ هـ ، حتى بدأ المؤيد يرتب أعمال مســجده الجامع ، فجعل فيه ثلاثة دروس للشافعية والمالكية والحنابلة ، وخلع على المشـــايخ المشرفين على هذه الدروس خلعا عظيمة ٠

وأول من جلس للدراسة فى مسجد السلطان المؤيد كان الفقيه « ابن حجر » ، وقد جلس يومها فى المحراب ، ليلقى درسه ـ وكان المؤيد يومها فى جملة الحاضرين ، فأحب الفقيه أن يقوم له ساعة أهل على الحلقة ولكن السلطان منعه من القيام ..

وافتتح السلطان بعد ذلك مسجده رسميا فى شوال من ذلك العام ، فمد سماطا عظيما ، وملأ نافورة المسجد بعصير الليمون المحلى بالسكر ـ جريا على عادة من سبقوه .. ودعا الناس الى طعام وشراب ، فأقبلوا من كل حدب وصوب ، وأكلوا وشربوا ماطاب لهم .. ثم حملوا ما استطاعوا حمله الى بيوتهم من طعام وشراب ..

وخلع المؤيد يوم افتتاح مسجده خلعا عديدة على الحضور ، فكان نصيب القاضى الحنفى « **شمس الدين محمد الديرى** » « كاملية » صوفية بفرو **سمور** ، واقراره فى مشيخة التصوف وتدريس المذهب الحنفى . وقد تصدر يومها مجلس الافتتاح فجلس فى المحراب، والسلطان عن يمينه ، والامراء وقاضى القضاة وشيوخ العلم عن يساره ..

والمؤيد شيخ كان من أوائل المماليك الذين أوقفوا على مساجدهم « الجراية » و« النقود» .. وحدد فى « وقفيته » كيفية التصرف فى ايراد الاحباس العديدة التى أوقفها ومن هم الذين يستفيدون منها .. وبلغ من دقته أن رتب فى وقفيته هذه عدد المشايخ من كل مذهب وعدد الطلاب وعدد القراء وعدد الموظفين الاداريين الآخرين ..

وقد يكون من الممتع أن ننقل هنا طرفا من نص هذه « الوقفية » الفريدة ، التى جاء فيها ، بعد ذكر الأعيان المحبوسة نفسها :

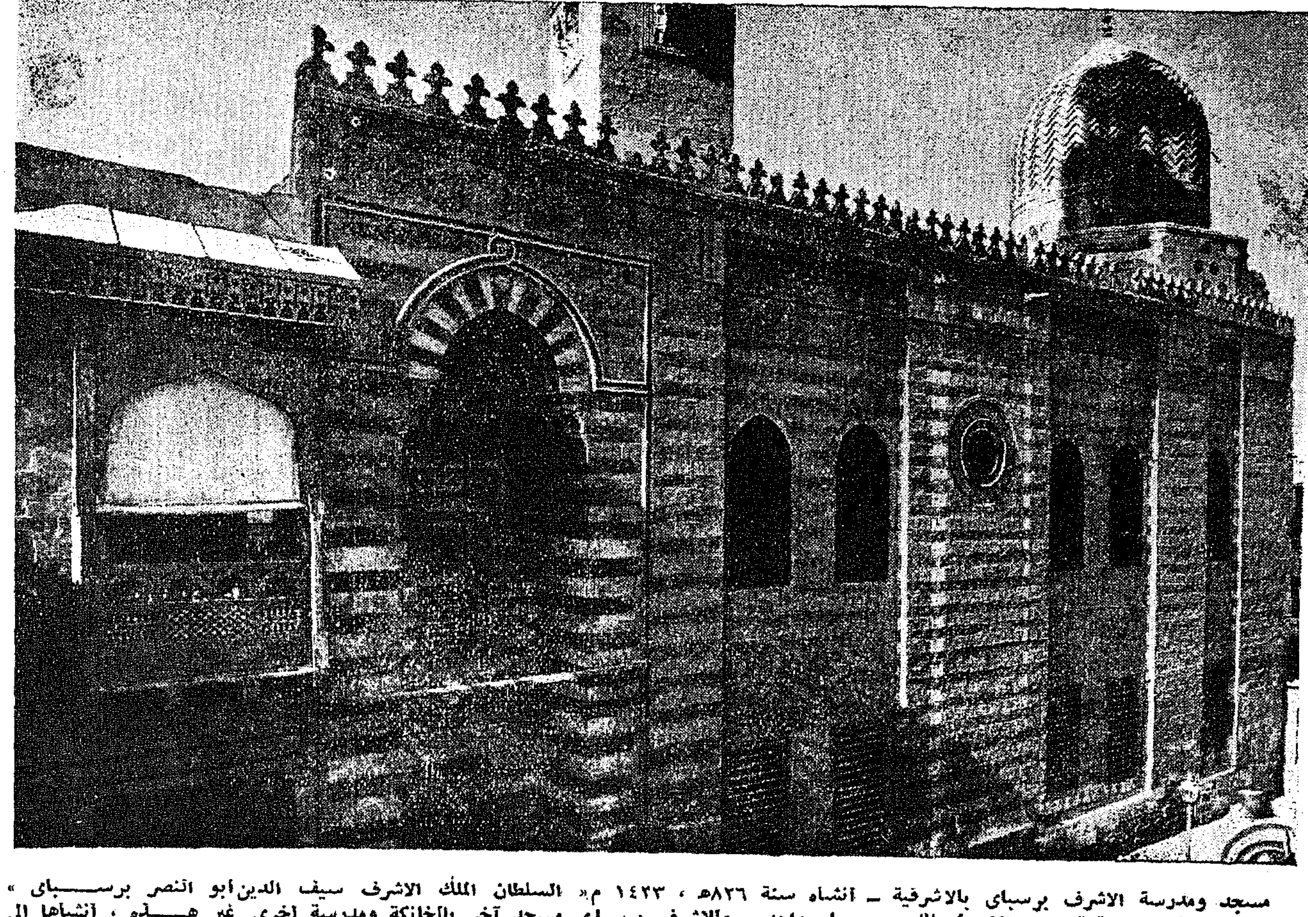
« **فيرتب شيخا للصوفية يكون حنفيا عالما** له قدم عال فى طريق التصوف حسن الهيئة حسن الاعتقاد حافظا للمنقول والتأويلات واختلاف المذاهب ، له قدرة على حل المشكلات واقامة الادلة وتسهيل العسير ، ويكون قائما بتدريس مذهب أبى حنيفة بهذا الجامع ، ويحضر وظيفة التصوف بهذا الجامع كل يوم بعد العصر على عادة الخوانق والجوامع ويصرف له كل شهر من الفضة البيضاء خمسمائة وخمسون نصفا أو مايقوم مقام ذلك من النقود ، ويرتب معه خمسون طالبا حنفيا ويحضرون أيضا درس التصوف ، ولكل منهم شهريا أربعون نصفا فضة وكل يوم أربعة أرطال من الخبز

« **ويرتب شافعيا بتلك الصفات** وأربعين طالبا شافعيا وللشيخ شهريا مائة وخمسون نصفا وللطالب أربعون شهريا ويوميا أربعة أرطال خبزا

ويرتب مالكيا معه خمسة وعشرون طالبا وللشيخ مائة نصف وللطالب أربعون شهريا وأربعة أرطال خبزا يوميا

ويرتب حنبليا معه عشرة وللشيخ مائة نصف وللطالب أربعون نصف شهريا

ويرتب محدثا معه عشرون طالبا وله مائة وخمسون نصفا وللطالب أربعون وأربعة أرطال خبزا يوميا ..



مسجد ومدرسة الاشرف برسباى بالاشرفية ـ انشاه سنة ٨٢٦هـ ، ١٤٢٣ م« السلطان الملك الاشرف سيف الدين ابو النصر برسباى » احد مماليك الظاهر برقوق بعد ان ولى ملك مصر بعام واحد ، وللاشرف برسباى مسجد آخر بالخانكة ومدرسة اخرى غير هذه ، انشاها الى جوار قبة السلطان الظاهر برقوق لتكون قبرا له . . .

ويرتب مقرئا للقراءات السبع والشواذ ومعه عشرة وله مائة وخمسون نصفا وللطالب أربعون نصفا شهريا وأربعة أرطال خبز يوميا

ويرتب أربعة أئمة أحدهم بالمحراب فى الايوان القبلى له شـهريا مائة وعشرون نصفا ويوميا أربعة أرطال خبزا ولكل من الثلاثة الآخرين ستون نصفا ·

ويرتب رجلين حافظين للقرآن بصوت حسن يقرأون فى المصحف أحدهما كل يوم وله فى الشهر أربعون نصفا والآخر يوم الجمعة فقط وله ثلاثون نصفا ·

ويرتب بالشباك سبع عشرة جوقة ، كل جوقة سبعة أشخاص ، يتناوبون القراءة ليلا ونهارا ولكل منهم خمسة انصاف ·

ويرتب كاتب غيبة له شهريا خمسة عشر نصفا

وخطيبا وله مائة نصف

وخازن كتب بالجامع وله أربعون نصفا ويوميا أربعة أرطال خبزا

ويرتب سبعة عشر مؤذنا حسان الاصوات يؤذنون على المنـارات الثلاث ولكل منهم شهريا خمسة عشر نصفا ولهم كاتب غيبـة ، له شهريا أربعون نصـفا ويوميا أربعة أرطال خبزا

ويرتب خادما لجماعة الصوفية على عادة الخوانق وله فى الشهر ستون نصفا وفى اليوم أربعة أرطال خبزا

ويرتب شيخا يشتغل بالكتاب المعروف بالطحاوى ومعه عشرة طلبة وله مائة وخمسون نصفا وللطالب أربعون نصفا شهريا

ويرتب خمسة رجال على خدمة « الربعات » على التناوب لكل منهم أربعون نصفاشهريا وأربعة أرطال خبزا يوميا

ويرتب عشرة فراشين لكل ثلاثون نصفا شهريا ··

ويرتب سبعة وقادين لكل عشرون نصفا

ويرتب رجلين لخدمة سجادات الصوفية لكل أربعون نصفا .. »

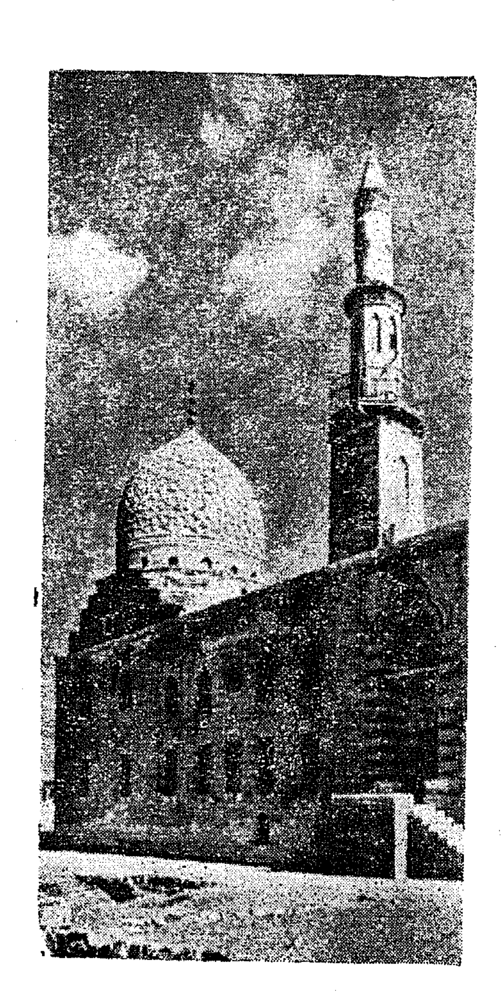
***

وهكذا تستمر هذه « الوقفيـة » العظيمـة الدالة على حب الخير فى ذكر وجوه الخير ، وتعداد الوظائف ومرتبات أصـحابها حتى تصـل فى نهايتهـا الى ذكر « **البوابين** » و « **الكناسين** » و « **الايتام من الاطفال** » وتستمر كذلك دون أن ينس كاتبها ذكر «**طبيب طبائعى** » و « **كحال** « و « **جرائحى** » و « **كاتب طبقة** » و « **مهندسا** » و«**مرخما**» و«**سباكا**» ·· **ولكل واحد من هؤلاء ثلاثون نصفا فى الشهر** ··

ولعله يبدو من مرتب « الطبيب الطبائعي » وصاحبه « الجرائحي » أنهما كانا من فئة غير متميزة !!

وقد يبدو غريبا بعد هذا كله أن المسجد قد تم افتتاحه رسميا بحضور السلطان ـ قبل أن تكتمل سائر أبنيته ٠٠ وظل العمل فيها جاريا بعد ذلك حتى مات المؤيد ، فدفن في قبته هناك ٠٠ واستمر رجال دولته يعملون في اكمال الطود العظيم ، الذي حفظ اسم دولة المماليك الشراكسة على كر العصور ٠

مسجد الاشرف برسباى بصحراء المماليك

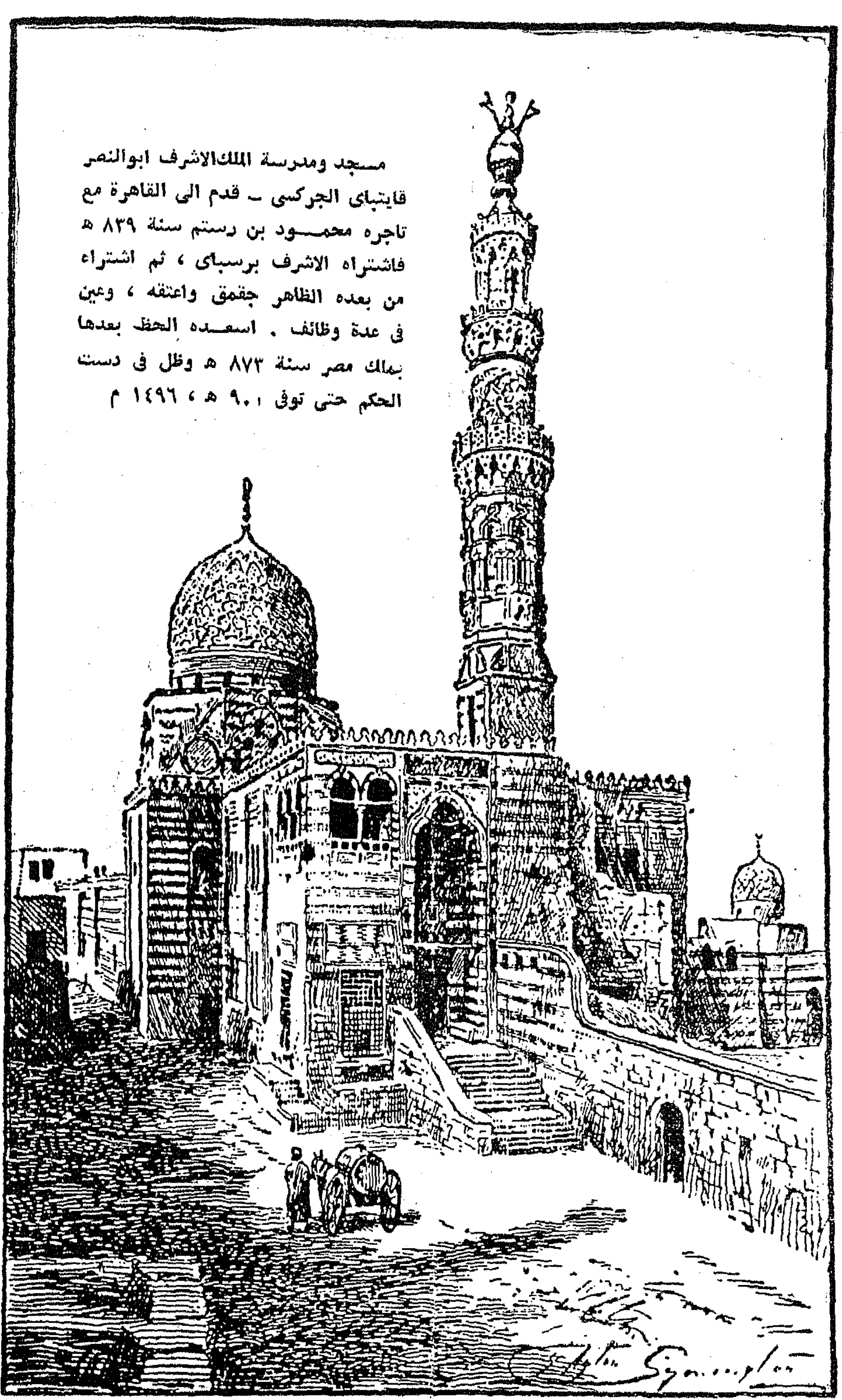


انشأه السلطان الاشرف برسباى سنة ٨٣٥هـ ، ١٤٣٢ م بصحراء المماليك بجوار مسجد وخانقاه السلطان الظاهر برقوق ، والحق به مقبرة له،وهي مكونة من حجــرة مربعة ، فرشت ارضيتهـا بالرخام البديع ، اما وزرتها الرخاميـة فهي دقيقة الصنع الى حد يفوق جميـع ماصنع قبله في المقابر الاخرى ٠

وامام المحراب الموجـود بالمسـجد « تركيبة » من الرخام تعلو المقبرة التي دفن فيها الاشرف برسباى معزوجه سنة ٨٤١ هـ ، ١٤٣٧ م

وهناك بالوجهــة الغربية للمقبرة ـ كتابات تاريخية توضح الاملاك التيأوقفت عليها وخصص ريعها لصيانتها والانفاق على خدمتها ٠٠

وهذا المسجد احد مساجد ثلاثةمازالت باقية الى الآن ، وقد انشـا السـلطان الاشرف برسباى أولها سـنة ٨٢٦هـ ، ١٤٢٤ م بشارع المعز لدين الله عنـد تلاقيه بشارع جوهر القائد وثانيهـــا مســـجده هذا الملحق به مقبرته وخانقاه بقرافة المماليك والذى انشـــاه سنة ٨٣٥هـ ، ١٤٣٢م ، وثالثها جامعه الكبير الذى انشا به « خانقاه » عظيمة ببلدة سرياقوس سنة ٨٤١ هـ ، ١٤٣٧ م ـ وكلهـــا في منتهى الروعـــة والدقة في الزخرفة وصناعة الرخام الملون-خصوصا رخام المقبرة الذى بلغ منتهى العظمة في هذا الفن الدقيق ٠٠



مسجد ومدرسة الملك الاشرف ابو النصر قايتباى الجركسى ـ قدم الى القاهرة مع تاجره محمـــود بن رستم سنة ٨٣٩ هـ فاشتراه الاشرف برسباى ، ثم اشتراه من بعده الظاهر جقمق واعتقه ، وعين فى عدة وظائف . اسعـده الحظ بعدها بملك مصر سنة ٨٧٣ هـ وظل فى دست الحكم حتى توفى ٩٠١ هـ ، ١٤٩٦ م

عهود الفوضى

كان السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى ، نسيجا وحده بين سلاطين المماليك الجراكسة ..

كان قويا مرهوب الجانب ، مسموع الكلمة نافذ الارادة .. لم يجسر صاحب حظوة أو سطوة أن يرفع صوته فى أيامه ، فاستتب الامن وعرفت مصر الطمأنينة والهدوء ..

وكان المؤيد بخيلا ، حتى جرت الامثال ببخله ..

وكان ماجنا أيضا ، مفرطا فى مجونه الى حد التردى فى الشراب والمخدرات !!

وكان يعشق الفنون والعاملين فيها ، وكان متمكنا من الموسيقى ، وكان له صوت جميل حتى لقد اشتهر بحسن الغناء !!

وكان يجيد صناعة الشعر وتلحينه ..

ومن شعره فى الغزل الذى لحنه وغناه :

فتنتنا سوالف وخدود
وعيون نواعس وقدود
أسرتنا الظبا وهن نعاس
وخضعنا لها ونحن الأسود
وأنا الخاصكى شيخ المؤيد
نظم شعرى جواهر وعقود

ولكنه ، برغم مجونه ولهوه واسرافه فى التردى ، كان يحب العلماء ويميل الى العلم ويعرف كيف يكرمه ويعلى شأن أهله وحفظته

« مئذنة جامع أبو بكر مزهر »

ومن الغريب أن شخصيته جمعت بين النقائض كلها ، فهو عابث مستهتر ، وهو بر بالعلم وأهله ، وهو غليظ القلب مولع بسفك الدم ، يطربه صراخ الضحايا !

ولقد بنى المؤيد وشاد المساجد والخوانق ، وعمر بيوت الله وحبس عليها الاوقاف العديدة ·· ولكن حبه للدم طالما غلبه ؛ فكان الغادر القاتل الرهيب ، الذى لم ينج من غدره وبطشه ولده الأكبر « المقر الصارمى ابراهيم » ··

كان ابراهيم شابا شجاعا ، ميالا للحرب مغرما بالبطولة ، محبا للخير ، ولوعا بخدمة الناس ··

وكان أبوه المؤيد قد مل الحروب وسار الى الشيخوخة ·· وعز عليه أن تتجمع القلوب على حب ولده ، حتى لقد صور له وهمه أن هذا الحب لايعنى غير شىء واحد ، هو اقدام ابراهيم على خلعه واغتصاب ملكه !

فكان أن دس له السم بايعاز من خطيب مسجده القاضى « ناصر الدين بن البارزى » الذى لقى هو الآخر نفس المصير بيد المؤيد ·· وبالسم أيضا !

ومات المؤيد شيخ المحمودى بعد سنين من قتله لولى عهده المقر الصارمى ابراهيم ··

مات ولم يترك غير طفل رضيع اسمه « احمد » من زوجه « خوند سعادات » بنت الامير صرغتمش الناصرى ، وخمسة آلاف مملوك !

ولقد كان هؤلاء المماليك من الوفاء لسيدهم المؤيد شيخ ، بحيث أصروا على تولية ولده « احمد » الذى كان لم يبلغ بعد العامين من عمره ، وأجلسوه مكان أبيه ، وجعلوه سلطانا باسم « الملك **المظفر أبى السعادات احمد** » ·· وجعلوا الاتابكى « **المقر السيفى ططر** » وصيا عليه ··

وبدأ « ططر » وصايته بأن قرب ، وأبعد ·· وخلع ، وولى ·· وحارب وانتصر ·· وعلا نجمه على كل قوى وكل معارض ، وصار له الامر ، فقتل وسجن ·· وعظم ذكره ونبه صيته ، حتى وجدت « خوند سعادات » أم السلطان الطفل نفسها تسعى الى طلب الزواج منه ، لتحفظ ملك ابنها الصغير ··

وتزوج « ططر » من أرملة سيده المؤيد شيخ ·· وازداد بزواجها شرفا على شرف ، وصار له الحل والعقد والمكانة والسلطان حتى لقد طمع فى ملك الطفل ·· وراق له أن يخلعه ؛ فخلعه ·· وأرسله مع حاضنته الى سجن الاسكندرية ، ونادى بنفسه سلطانا باسم « الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد ططر » !

وتنمرت الأم « خوند سعادات » وكبر عليها أن يخون ططر اللعين أمانته ، ويقدم على خلع سيده السلطان الصغير ولما تمض عليه ثمانية أشهر فى سلطنته وتوليه عرش مصر

ولكنها عرفت كيف تنتقم منه لولدها الذى سجنه ! ولنفسها ؛ اذ أقدم على طلاقها — فكان أن دست له السم ، فمات بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام من توليه السلطان !

وتكررت المأساة مرة ثانية ·· ونودى بابن ططر ، الذى لم يكن قد بلغ من العمر

احدى عشرة سنة ــ سلطانا على البلاد باسم « الملك الصالح ناصر الدين محمد » !

ثم خلع عن السلطنة بعد ثلاثة أشهر من توليها ، اثر مؤامرة مملوكية تزعمها « برسباى الأتابكى » !

وكان الأتابكى برسباى نبيلا مع سيده السلطان الصغير ، فلم يرسله الى سجن الاسكندرية ، بل أدخله دور الحرم ، على عادة أولاد الملوك ، وأسكنه قاعة البربرية هو وأمه « **خوند بنت الامير سودون الفقيه** » ثم زوجه من بنت الأتابكى « **يشبك الاعرج** » وسمح له بالخروج والتنقل !

وتولى الأتابكى برسباى العرش بعد هذا كله باسم «**السلطان الملك الاشرف أبى النصر برسباى الدقماقى** » ..

وكان برسباى محظوظا ؛ اذ استطاع أن يتفادى ما تعرض له سلفه ، فاستقر فى السلطنة طويلا .. واستطاع أن يبعد شبح المؤامرات وأن يحكم مصر وأوشاب المماليك سبعة عشر عاما ..

وقد كان من أسباب هذا الاستقرار أن فكر « برسباى » فى أن يخلد لنفسه الذكر الحسن هو الآخر ، جريا على سنة الاسلاف .. وأن يشيد مسجدا يحمل اسمه كما فعل القلائل من سلاطين الجراكسة الذين سبقوه ، فكان أن تخير المكان .. وأعد العدة لبناء مدرسة الأشرفية ..

« ومدرسة الاشرف برسباى كانت تشغل مكانها عدة حوانيت ، تعلوها مساكن . خلفها مساحة شاسعة من الارض ، اتخذ منها الباعة سوقا لعرض بضاعتهم .. وكانت كلها موقوفة على المدرسة القطبية ..

واستبدل الاشرف برسباى الارض الموقوفة بأرض أخرى .. ! وحرر أرض مسجده هذه من قيود الوقف ، وشرع فور الانتهاء من ذلك فى هدم الحوانيت والمساكن التى تعلوها وأمر مباشريه بالبدء فى بناء المسجد فى اليوم الاول من رجب سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية .

ومسجد برسباى أو« المدرسة الاشرفية » قد بنى على نمط المساجد الجامعة ، فهو يتكون من صحن وايوانات أربعة ، اثنان كبيران ، واثنان صغيران ، وليس بالمسجد أعمدة على الاطلاق ، وله منبر عظيم ، ودكة للتبليغ ، ومحراب فخم مكسو بالرخام الملون وبه خزانة كتب .

ومسجد برسباى من المساجد المرتفعة عن مستوى الارض ، يرقى اليه بعدة درجات وأول من تولى الخطبة فيه « **الفقيه الحموى** »

وللأشرف برسباى ، خلاف مدرسته هذه ، مدرسة أخرى ، أو هى فى الواقع « قبة » بناها الى جوار قبة السلطان الظاهر برقوق ، لتكون قبرا له ..

وقد بنى أيضا « خانقاه » شامخة ضخمة فى سرياقوس ، سجن فيها ملك « قبرص » بعد أن هزمه وأسره فى حرب قامت بينهما ..

ولما مات الاشرف برسباى تولى ابنه من بعده باسم « الملك العزيز أبى المحاسن جمال الدين يوسف .. ومن المؤسف أنه لم يمكث فى عرشه سوى ثلاثة أشهر ، اذ وثب عليه مملوكه « جقمق » وطرده .. ونادى بنفسه سلطانا باسم «الملك الظاهر سيف الدين أبى سعود جقمق العلائى » !

وكان جمقق محظوظا ، فاستطاع بسطوته وقوته أن يحفظ الملك لنفسه ، وأن يقبض على السلطة دون منازع أربعة عشر عاما كاملة .. أوصى بعدها وهو فى مرضه الأخير بسلطنته لولده « عثمان » ..

وتولى عثمان السلطنة باسم « **الملك المنصور أبى السعادات فخر الدين عثمان** » ..

ومن المضحك أنه لم يبق فى لحكم أكثر من أربعين يوما ، ثار عليه المماليك خلالها بزعامة الاتابكى الطامع « **اينال** » ، فخلعوه !! ..

وتولى الملك ، « **باسم الملك الاشرف أبى النصر سيف الدين اينال العلائى الظاهرى** » !

وبقى اينال سلطانا مرهوب الجانب ثمانى سنوات ، مرض فى نهايتها ، فأوصى بالملك لولده احمد ..

ولكن احمد هذا لم يبق على العرش أكثر من شهور أربعة ؛ تحزب عليه المماليك بعدها وهاجموه فى قلعة الجبل وحملوه الى السجن !

وواتت الفرصة اذ ذاك الأتابكى « **خوشقدم** » ، فتولى السلطنة باسم « **الملك الظاهر أبى سعيد خوشقدم الناصرى المؤيدى** » الذى ظل محتفظا بملكه ست سنوات حتى مات عام اثنين وسبعين وثمانمائة هجرية .

وتولى من بعده الاتابكى « **بلباى** » باسم « **الملك الظاهر أبى النصر سيف الدين بلباى** » .

ولكنه لم يستقر فى السلطنة طويلا ، وخلع عنها ..

وتولاها مملوك آخر باسم « **الملك الظاهر أبى سعيد الظاهرى** » !

ولم يبق أكثر من شهرين !

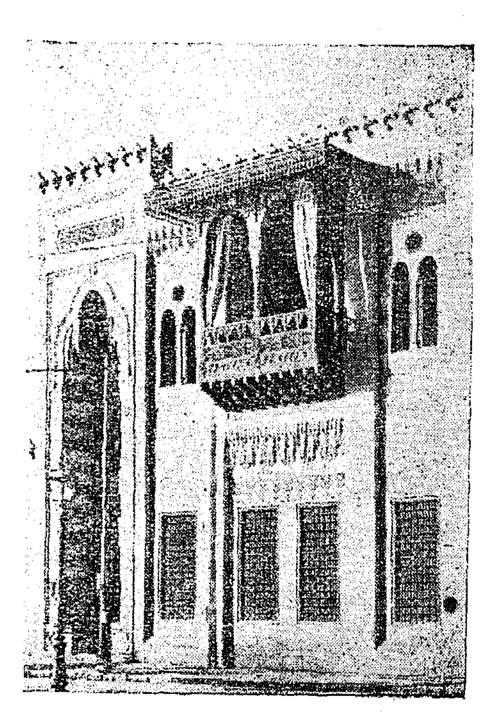
وظن المملوك « خاير بك » أن الجو قد صفا له ، وأن الحظ واتاه ، فأعلن نفسه سلطانا

ولكن الحظ سخر منه ، فلم يبق فى سلطنته تلك غير ليلة واحدة ؛ حضر بعدها الأتابكى « **قايتباى** » من رحلة كان فيها ، فحاصر القلعة .. وشدد فى الحصار وقبض على المماليك والامراء وأرسلهم الى سجن الاسكندرية .. أما السلطان فأرسله غير مقيد الى دمياط !

ولما كان قايتباى أقوى الامراء المماليك ومقدمهم وزعيمهم ، فقد أصبح الجو ممهدا له وابتسم له الحظ ، فنودى به سلطانا على مصر باسم « الاشرف أبى النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى » فاستتب له الامر ..

وفى عهده المستقر ، بدأت البلاد والعمارة الاسلامية تدخل فى طور جديدة ، تاركة وراءها عهود الفوضى ..





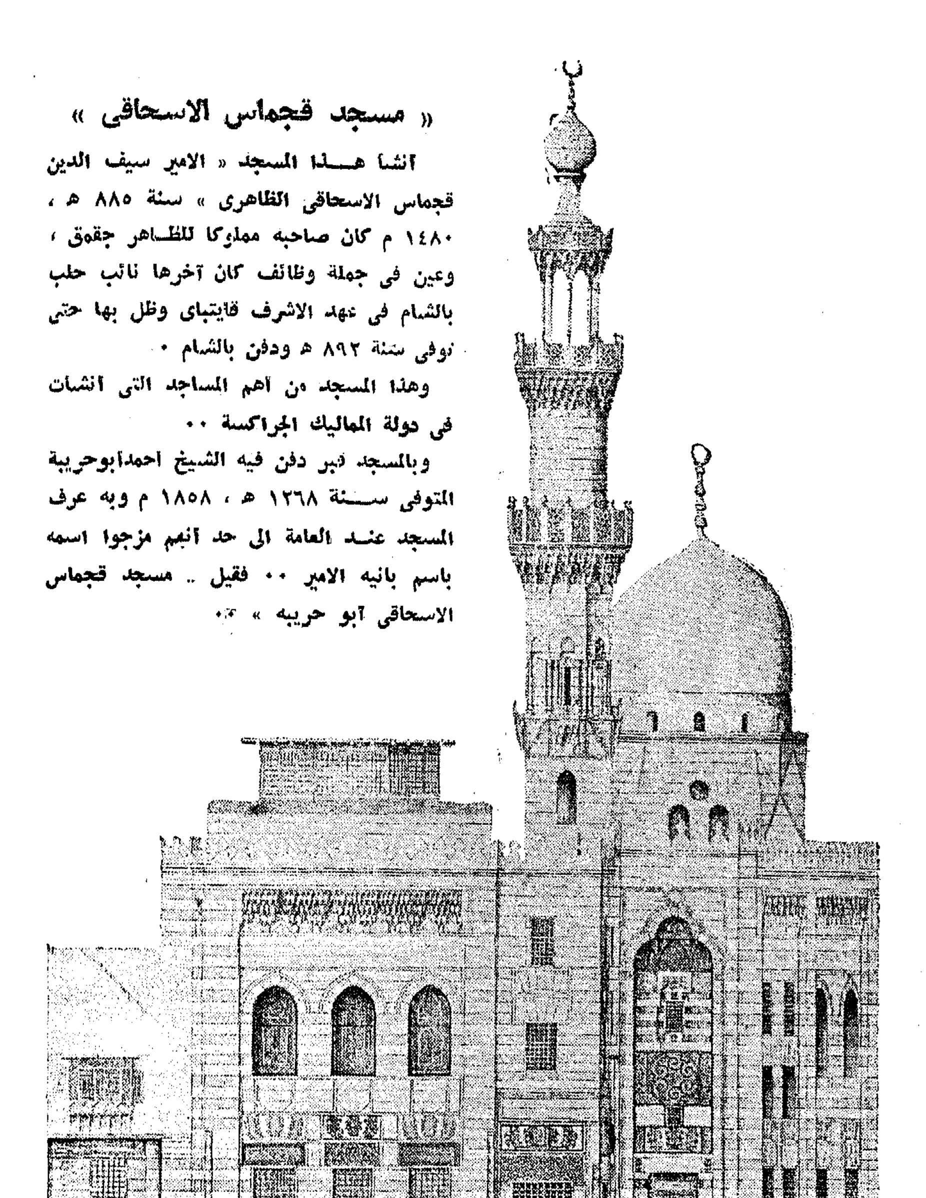
« مسجد القاضى يحيى »

انشاه الامير زين الدين يحيى بمدينة القاهرة، وهو ثالث مسجد انشاه هذا الامير سنة ٨٤٨ هـ ١٤٤٤م وهو يقع عند تلاقى شارع الخليج بشارع الازهر الجديد . وقد شيد هذا المسجد على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد ، فهو مكون من صحن يغطيه سقف بوسطه «شخشيخه» وتحيط به أربعة ايوانات متقابلة نقشت أسقفها الخشبية بزخارف مذهبة جميلة .

وكتب على جانبه آيات قرآنية . وتاريخ انشاء المسجد سنة ٨٤٨ هجرية وبنى به قبرا له .. وأوقف عليه داره الذى كان تجاه المسجد وأموالا أخرى للانفاق عليه .. والمسجد الاول انشاه الامير زين الدين يحيى فى حى بولاق . والمسجد الثانى بحارة الحبانية .

عين الامير يحيى فى منصب « ناظر ديوان الخاصة » وتألق نجمه واتسع نفوذه فى أيام الظاهر جقمق .. اذ كان من اقرب المقربين له .

وبعد وفاة الظاهر جقمق قبض عليه وسجن بالقلعة وعذب كثيرا .. كما صودرت جميع أمواله ، وظل سجينا حتى مات سنة ٨٧٤ هـ

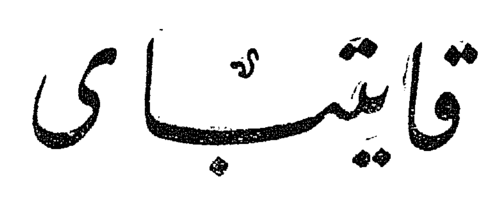


« مسجد قجماس الاسحاقى »

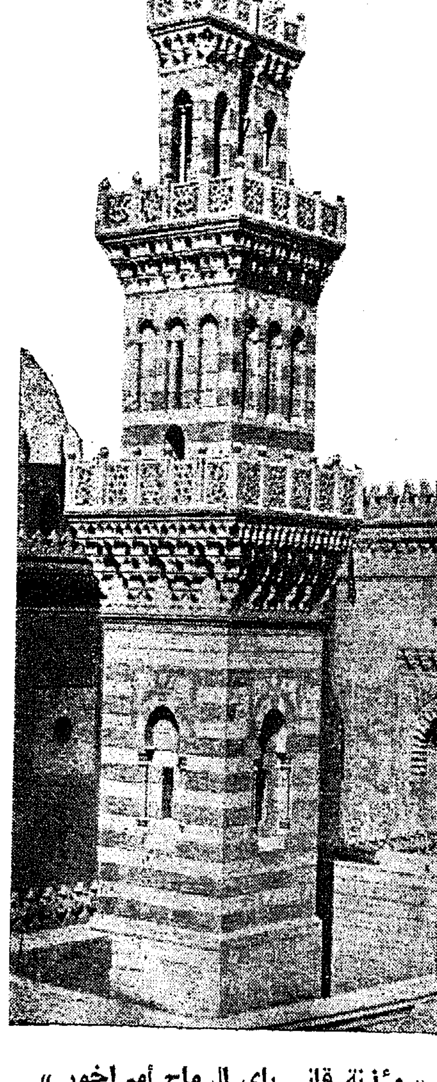
انشا هـــذا المسجد « الامير سيف الدين قجماس الاسحاقى الظاهرى » سنة ٨٨٥ هـ ، ١٤٨٠ م كان صاحبه مملوكا للظــاهر جقمق ، وعين فى جملة وظائف كان آخرها نائب حلب بالشام فى عهد الاشرف قايتباى وظل بها حتى توفى سنة ٨٩٢ هـ ودفن بالشام ٠

وهذا المسجد من أهم المساجد التى أنشأت فى دولة المماليك الجراكسة ٠٠

وبالمسجد قبر دفن فيه الشيخ احمدابوحريبة المتوفى ســـنة ١٢٦٨ هـ ، ١٨٥٨ م وبه عرف المسجد عنـد العامة الى حد أنهم مزجوا اسمه باسم بانيه الامير ٠٠ فقيل .. مسجد قجماس الاسحاقى أبو حريبه » ٠



قايتباى



« مئذنة قانى باى الرماح أميراخور »

اذا تركنا الحديث عن الدولةوالسياسة ، وعلاقة مصر الخارجيــة بجيرانها وغيرهم من أقربين وأبعــدين ٠٠ وقصرنا الحــديث على السلطان الملك الاشرف قايتباى ، باعتباره مصلحا بانيا ، موجها كل همه الى الاستقرار والرخاء ـ أمكن فى سهولة ويسر أن نقول ان عصر هذا السلطان الشركسى ، يشبه من كل الوجوه عصر السلطان النــاصر محمد ابن قلاوون ٠٠

لقد ازدهرت العمارة أيما ازدهار فى عصر الناصر ٠ وســار الأمراء على نهج سيدهم فى البناء وحب العمارة ٠٠ وكذلك كان هذا نفس ماحدث فى عصر قايتبــاى الذى تميز وتفرد وامتــدت أياديه البرة المصــلحة ، **فشــمل خيرها مصر وغيرها من شــتى بلاد الاسلام ، لاسيما الاراضى المقدســة فى مكة المكرمة ، ومدينــة الرســول عليه الصــلاة والسلام ٠٠**

اننا نتناسى ونحن فخورين شتى أعمال الاشرف قايتباى ٠٠ نتناسى مكانته العظيمة وما استمتعت به مصر من رخاء وأمن ـ أمام الاعمال الجليلة التى شادها وجعلهــا دعائم لعصر سلام ورفاهية ٠٠

لقد حارب قايتباى وتذوق الهزيمة قبل النصر ٠٠ حارب الاتراك العثمــانيين ، وحارب الروم ٠٠ وعرف كيف يرفع علم مصر وجيشها وكيف ينال النصر تلو النصر بالسيف مرة والحكمة مرات ٠٠

وكان قايتباى من الدهاء بحيث عرف كيف يقاوم شتى التيارات ، داخلية وخارجية حتى لقد حدث ذات مرة أن أحس بتجمع أمراء المماليك عليه للقيـــام بفتنة ٠٠ وكانت جيوشه تحارب فى الشام وغيرها ، فرأى أن يجمع الامراء أصحاب المؤامرة ، ويعلن فيهم أنه عزل نفسه ولم يعد بعد سلطانا !! ولهم أن يتصرفوا فى الامر ويتخيروا لهم سلطانا كما يشاءون !!

وتراجع المتآمرون فى ذعر ، فقد أدركوا أن قايتبـــاى وضعهم فى موقف دقيق بالغ الحرج ٠٠ وسرعان ماتعالت الاصوات ترفض اقرار ذلك العزل الذى أحب قايتبـــاى أن يفرضه على نفســـه ، وطالبته بأن يســـتمر فى تحمل الامانة الخطيرة وأن يظل فى مكان القيادة حيث هو ؛ لانه سيد الموقف ورجله الاوحد ٠٠

ولما كانت سنة بناء المساجد والمبالغة فى تعميرها أشهر ماعرف عن سلاطين المماليك البحرية والشراكسة ، فقد سار قايتبـــاى على تلك الســـنة الحميدة ٠٠ واتجـــه بكليته وبجميع ماله الى بناء بيوت الله وتعميرها ٠٠

وأعمال الاشرف قايتباى العمرانية عديدة ، من العســـير أن تشملها عجالة قصيرة ، ولكنها مع هذا نورد طرفا منها فى ايجاز ٠٠ ونقدم منها أول مساجده ٠٠

***

فان مسجد قايتباى بالصحراء هو أول المساجد التى أقامها وأشهرها ــ وهو مرتفع عن الارض ، يصعد اليه بسلم حجرى ٠٠ وقد أقامه السلطان فى منطقة الصـــحراء البعيدة عن العمران ، لأنها فى ذلك الوقت بالذات كانت المنطقة التى اتجهت اليها شتى الانظار حتى لقد كثرت فيها العمائر والابنية والقباب والمزارات والمقابر الضخمة ٠٠

والمسجد يمثل مجموعة بنائية ضخمة ، جمعته وجمعت الى جانبـــه مقبرة للسلطان ، و « سبيلا » لرى العطاشى ، ومكتبا لتعليم فقراء المسلمين وأيتامهم القرآن الكريم ٠٠

ومسجد قايتباى يمثل فى هيئته الخارجية العامة الشاملة له وللمجموعة الملحقة به ، منظرا من أجمل وأروع وأدق الآثار الاسلامية التى تنطق بعظمة الصانع المصرىوبراعته ومدى ما وصل اليه من تفوق فى فنون الهندسة والبنـــاء والنقش والزخرفة فى العهد المملوكى الشركسى ٠٠

فاذا ماصعدنا الدرجات القليلة التى تصل الى باب المســـجد ، ونفذنا الى داخله ــ وجدنا تصميما رائعا لمسجد جليل ، له صحن فسيح غطيت أرضه بالرخام ، تحوطه من نواحيه ايوانات أربعة فخمة ، مكسوة بالرخام الملون ، وتحوى مجموعة رائعة من النوافذ الجصية التى تميزها دقة النقش وبراعة الترتيب ٠٠

ومحراب مسجد قايتباى هـــذا خلو من الزخرفخلوا تاما ، على جانبيـــه عمودان من الرخام تبدت فيهما بدائع الفن الزخرفى ظاهرة فى بدنتيهما وقاعدتيهما وتاجيهما ٠٠

وهناك الى جوار المحراب منبر دقيق الصنع يتجلى فيه فن «الحشو» و«الحفر» و«التطعيم» بالسمن ..

وقبة المسجد رائعة الصناعة والزخرفة ، تحليها عدة نوافذ جصية مزخرفة ، وبها كرسى أعد لحمل المصحف الذى أمر السلطان بوضعه هناك للقراءة فيه ، وأوقف على القراء الذين ينبادلون القراءة اليومية فيه أموالا وخبزا ..

وتحت هذه القبة السامقة الفخمة أعد السلطان قبره .. والى جانبه قبة أخرى صغيرة من النحاس المكسو بطبقة من الذهب ، تحتها حجر أسود صغير ، به أثر قدمين تواردت الشائعات أنهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

والى جوار القبر الثانى القابع تحت القبة السامقة ، توجد قبة خشبية أخرى ، تحتها أيضا حجر ثان عليه آثار أقدام يقال انها لخليل الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام (١)

واذا تركنا مسجد قايتباى هذا ، القائم بالصحراء التى نسبت اليه وسميت باسمه ـ نجد أمامنا مسجدا آخر يحمل اسم السلطان البر ، هو مسجد قايتباى بقلعة الكبش ..

ومسجد قلعة الكبش مسجد عظيم البنيان ، واجهته من الحجر الضخم ، وله بابان كبيران نقش على أحدهما :

« أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا الاشرف السلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباى » .

وعلى الباب الثانى نقشت أيضا كتابة مشابهة لهذه ..

ولما كان هذا المسجد قد بنى ليكون مدرسة لتحصيل العلم ، فانه مكون من صحن فسيح غطيت أرضه بالرخام الملون ، وحواليه أربعة ايوانات ، حفرت على جدرانها آيات من القرآن الكريم .

وبالمسجد بعد هذا عدة أماكن لخلوة أهل التصوف ، وله منارة سامقة يعلوها هلال نحاسى ، وقد ألحق بواجهته « سبيل » للماء والى جانبه حوض ..

وعلى عدة أماكن من جدران هذا المسجد نقش اسم السلطان قايتباى وأوصافه وعدة أدعية له ..

وثمة مسجد ثالث فى الروضة يحمل اسم السلطان قايتباى ، هذا المسجد عرف قبلا بجامع الفخر .. ثم أطلق عليه اسم جامع المقسى ، ثم جدده وأقام ماتهدم من أبنيته الملك الاشرف قايتباى فنسب اليه ..

---

(١) من الغريب أن فكرة « آثار الاقدام » هذه قد لعبت دورا كبيرا فى ايجاد عدد من هذه القطع الرخامية المدعى بوجود آثار اقدام رسول الله عليها .. وأمثال هذه الآثار تكاد تملأ مساجد عديدة فى مصر كالمسجد الحسينى ، والسيد البدوى ، والمسجد الدسوقى .. بل وفى القدس والطائف والقسطنطينية .. بل انه توجد فى الهند حجارة عليها آثار أقدام منسوبة الى آدم .. وبالحرم المكى آثار أخرى منسوبة الى ابراهيم الخليل ، وثالثة بدمشق منسوبة الى موسى ، وأخرى ببيت المقدس قيل أنها لعيسى ..

ومسجد قايتباى الذى بالروضة ، أنشىء ليكون مدرسة ، فهو مكون من أربعة ايوانات: اثنان منها كبيران ، واثنان يصغرانهما ·· وله مئذنة فخمة مكونة من ثلاثة أدوار ، وجدرانه منقوش عليها فى الحجر آيات من القرآن الكريم ··

واذا تركنا هذه المساجد الثلاثة الضخمة ، نقف مبهوتين أمام الاعمال الخيرية التى أقامها ذلك السلطان العظيم ·· ولنتجه أول ما نتجه الى الجامع الازهر ··

واهتمام قايتباى بالازهر يبدو أول مايبدو فى « سبيل » للشراب ، أنشأه ببابه ، و « مكتب » فى داخله « نافورة » و « ميضاة » ··

كما جدد السلطان بعد هذا « رواق المغاربة » ، وأنشأ أيضا « رواق الاتراك » — ويحتوى على ستة عشر عمودا رخاميا ، يعلوها اثنا عشر مسكنا خاصا ، وخزانة كتب

وقد أمر « قايتباى » أن يلحق بهذا الرواق « مطبخ » وصنبور مياه ، وحبس عليه أوقافا عديدة خصصها فقط « لمجاورى » الاتراك ، وكان لهذا الرواق بابان يجاوران « رواق المغاربة »

وأحب السلطان بعد هذا أن يضيف الى أياديه الكريمة يدا أخرى أعز وأكرم ، فأقام فى الجامع الازهر المئذنة العظيمة الواقعة على يمين الداخل ؛ لتكون هى الاخرى أثرا ناطقا بكرمه ··

وكما شمل بر قايتباى مصر ومساجدها ، كذلك امتد الى الخارج فعمر « مسجد الخيف » بمنى ، وأقام فيه قبتين عظيمتين : احداهما على المحراب النبوى ، والثانية على المحراب الثانى ·· وأقام فى هذا المسجد منارة وأربعة بوائك ، وبابا كبيرا و « سبيلا » للماء ··

ثم عمر المكان المعروف بمسجد **الخليل ابراهيم** ، وعمر السقايات والعيون ، وأجرى فيها الماء بعد انقطاعه ··

وعاد الى مصر بعد هذا ليجدد جامع عمرو بن العاص ، والمشهد النفيسى ، والايوان المجاور لضريح الامام الشافعى ، وبنى المقامين الدسوقى والاحمدى ··

وهكذا استطاع الاشرف قايتباى أن يخلد لنفسه الاحدوثة الطيبة والذكر الحسن ·· كما استطاع أيضا أن يجعل من أعماله العظيمة الخالدة منوالا نسج عليه أمراؤه ورجال دولته ، فشادوا العمائر وأقاموا الدور وعمروا بيوت الله وتباروا فى كل مفيد وعظيم

وليس لنا أن نقف عند هذا الحد من تاريخ عصر قايتباى ، دون أن نذكر أشهر خلصائه « أزبك » و « يشبك الداوادار » و « قانى باى الرماح » و « جان بلاط » ·· والآثار الاسلامية العظيمة التى تركوها ، مثل قبة يشبك التى عرفت باسم « القبة الفداوية » ، ومسجد أزبك ، ومسجد قانى باى الرماح ، ومسجد جان بلاط ··

والقبة التى أنشأها **الامير يشبك الداوادار** ، كان بناؤها فى مكانها البعيد عن

« مسجد قانى باى الرماح » ٠ انشاه الامير قانى باى الرماح أميراخور سنة ٩٠٨ هـ ٠ ١٥٠٢ م – بناه على ربوة عالية تشرف على ميدان صلاح الدين بالقلعة ، وبنى به قبرا له ولولده محمد الرماح ٠٠ كان مملوكا للملك الاشرف قايتباى ، الحقه بعدة وظائف حتى وصل الى أميراخور « كبير المشرفين على اصطبلات السلطان » ٠٠ وكان فارسا شجاعا يجيد اللعب بالرمح حتى سمى من شدة براعته فيه بـ « الرماح » ٠٠ يمتاز مسجده « بالمنارة المزدوجة » والقبة المزخرفة ٠٠

العمران مغامرة كبيرة ، اذ لم يكن هناك وقتها غير بعض قبور وحقول متنـــاثرة وخلاء فسيح ، ينفر الناس منه ويرهبونه ٠٠ ولكن يشبك المحارب الجرىء سخر من كل الآراء فهدم المقابر ، ووسع مساحة الحقول وجعلها حدائق غنـاء ٠٠ وحفر لها الآبار لتمدها بالماء ، وأقام فوق البئر أربع « سواق » لترفع الماء ٠٠

وسار الامير بعيدا فى خطة التعمير التى رسمها لتلك المنطقـة ، فبنى لنفسه قصرا شامخا ، وعلى بعد قريب منه أقام القبة الشاهقة ، والى جنوبها بنى مقبرة له ، ثم ألحق بالقبة مساكن للمتصوفين ، وأنشأ أمامها مدرسة و «سبيلا» وحوضا كبيرا لشرب الدواب

وكان يشبك من الوفاء لسيده السلطان قايتباى بحيث نقش اسـمه داخل القبة ، وداخل القبة الاخرى التى أنشأها قرب المطرية ٠٠

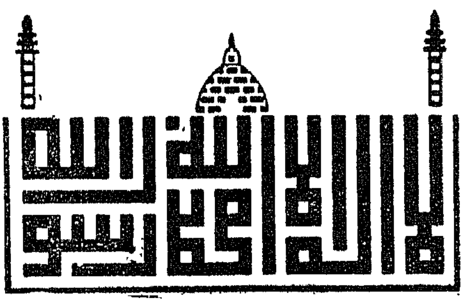
وقد بلغ من اعجاب السلطان قايتباى بتلك المنطقـة المستجدة ، أن جعلهـا متنزها ومكان خلوته وراحته ٠٠

والقبة اليشبكية بناء أشم ، يتميز من خارجه بالبساطة ، وان حوى فى داخله روائع الصناعة وبدائع النقش (١)

ويأتى بعد هذا دور أمير آخر هو « قانى باى الرماح » الذى كان فارسـا شجاعا يجيد اللعب بالرمح فسمى من أجل ذلك ب «الرماح» ٠٠ لقد انشأ هذا الامير مسجدين: أولهما امام قلعة الجبل ، وثانيهما فى حى « الناصرية » وقد أطلق على كلا المسجدين اسمه

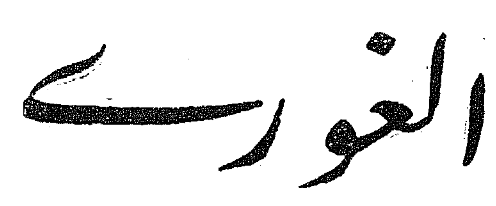
والجديد فى المسجدين « المنارة المزدوجة » ، ثم القبـة المزخرفة بنقوش فى الحجر ــ الموجودة فى المسجد المقابل لقلعة الجبل ٠٠ والذى نقل عنه مهندس مسجد الغورى ــ اذا لم يكن هو نفسه ــ شكل الوزرة الرخامية والمئذنة المزدوجة الموجودة بالجامع الازهر ٠

أما الامير أزبك ، فمسجده على طراز أمثاله من المساجد المملوكية ، وقد تميز بشهرة مرجعها الاتقان الظاهر فى بنائه ونقشه وزخرفته ٠٠



(١) وقد ظلت القبة اليشبكية هـذه محتفظة بطابعها ، واسم بانيها ، حتى لقـد حدث أن تسللت الى جماعة الصوفية المقيمين بها فئة من طائفة الاسماعيلية .

ولما كانت هذه الطائفة معروفة فى تلك الفترات بانها من الفـدائيين الخطرين ، فقـد اطلق العامة على افرادها اسـم « الفداوية » ، وبالتالى غلبت صفتهم هـذه على اسم منشىء القبة ، فنسى الناس اسم بانيها « يشبك الداوادار » وسميت قبة الفداوية .



مر عهد الاشرف قايتباى كحلم هادىء داعب عينى وسنان استراح بعد طول عناء، وعاد بعد طول غياب ، فلقى الهدوء والراحة والاستقرار بعد الصخب والارهاق والفوضى ثم صحا الشعب من جديد ، اذ علت

أصوات طال صمتها ، وتقاربت رؤوس طال تباعدها ، وبدأت الفتنة تطل من جديد ٠٠ وراح سفهاء المماليك والطامعون منهم يتحركون من مخابئهم ، ليعيدوا عهود القلق والريبة والشكوك ٠٠

وذهب سلطان ٠٠ ثم جاء سلطان ، ليخلعه طامع جديد ولما يمض على هذا وذاك بضعة أشهر !

ودارت العجلة دوران الفوضى والقلق٠٠ وظلت تجتاز بحور الدم والمؤامرات والقلاقل ثم أخذت تعبر عهودا من بعدها عهود ٠٠ وتطوى فى طريقها السلاطين وأشباه حكام ٠

طويت صفحة **قايتباى** ٠٠ وخلفه قانصوه الاشرفى ٠٠ ثم طويت صفحته ، ليخلفه سلطان جديد هو أبو النصر جان بلاط ، الذى لم يلبث أن سيق الى سجن الاسكندرية

وتولى من بعده طومان باى الاشرفى ، الذى مرت به الحوادث مرا سريعا ، لتقف « مئذنة جامع السلطان قانصوه الغورى» وقفة طويلة أمام السلطان الجديد المسمى « الملك الاشرف قانصوه الغورى » ٠٠

والغورى ، وان كان أقل أمراء المماليك الشراكسة سطوة ومالا وجاها ، الا أنه كان أكثرهم دهاء وفطنة ، فعرف كيف يخدعهم جميعا ويجعلهم ينادون به سلطانا بكامل رضاهم

لقد أقنعهم بأنه سيكون طوع ايمانهم ·· وأنهم حين لايرضـون عنه ، سـوف يخلع نفسه بنفسه ليولوا من بعده من يشاءون !

ولم يكد الغورى الداهية يتولى السلطنة ويقبض على زمام السلطة ، حتى بدأ يضرب الامراء بعضهم ببعض ·· فجعل من العصبة المتكتلة شيعا وأحزابا شتى ، حتى سـهل عليه أمر القضاء عليها قضاء مبرما ، لم تقم لها بعده قائمة أبدا ··

وعرف الغورى بعد هذا كيف يحكم ·· وكيف يسـتبد كمملوك شره لا مال له ·· وأراد أن يجمع مالا وأن يكون فى أقصر وقت ممكن ، أكثر المماليك غنى وجاها وسطوة .

وراح يعمل لهذه الغاية بكل الوسائل ، غير ناظر الى شىء سواها ··

أثقل كواهل الشعب بمطالبه ·· باعهم أكثر من مرة فى سوق الممارسة لجباته وزبانيته فتحكموا فيهم ونهبوا أموالهم ··

سطا على « خشداشينه » ورفاق أمسه ، فاستولى على أموالهم وأرزاقهم ··

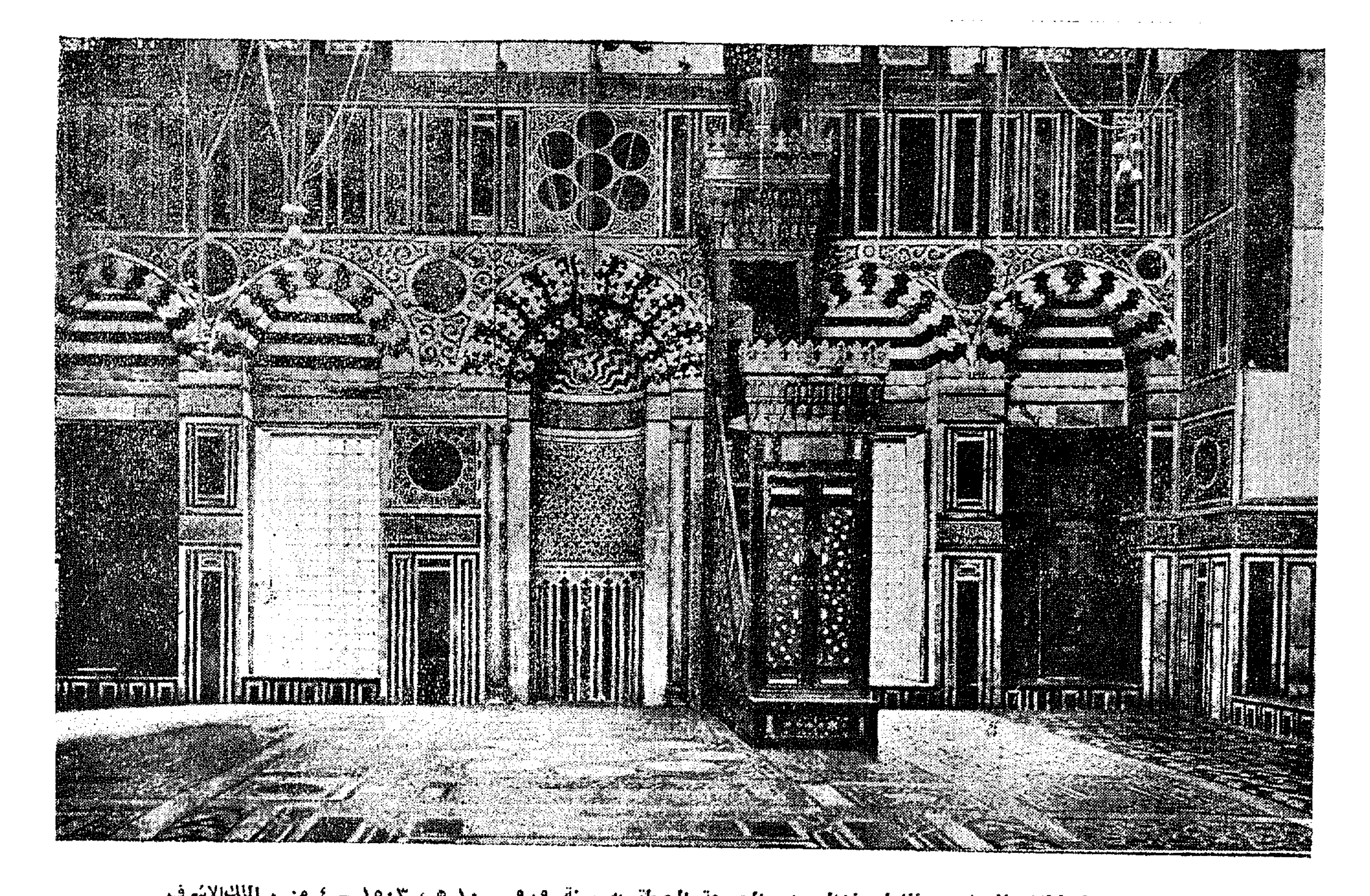
ولكنه مع هذا لم يخل من احسـان قدمه عن رضى أو كره ·· وألجم المماليك وأذلهم وأوقف مطامعهم عند حد لم يجسر أقواهم شوكة على أن يتعداه ·· فعظم نفوذه ·· وأخذ يتودد الى ملوك الشرق والغرب ، ويرسل اليهم الهدايا ليوطد علاقته بالدول كلها فذاع اسمه وامتدت شهرته فى البلاد ··

والتفت الغورى بعد هذا الى تخليد اسمه ·· وتخليد الاسم فى العهود المملوكية لم يكن بالعمل الصالح ·· بل بالعمائر والأبنية ··

والغورى فى هذه الناحية يشبه سلفه القديم « الملك المؤيد شيخ » فكلاهما كان ظالما متعسفا سلابا ، محبا للطرب واللهو ، مستهاما بالجمال عاشقا للفن ·· ومحبا للعمارة ·· فى ذات الوقت ، وبخاصة ماكانت ذات صلة بالمقدسات وبيوت الله ··

وقد أولى الغورى الجامع الازهر شيئا غير قليل من اهتمامه ، فأنشأ فيه مئذنة مزدوجة الرأس ·· وأبقى نظام تقديم « العصيدة » للمجاورين خلال شهر رمضان بأكمله · وزاد على ذلك أن جعل مطهى الازهر يستمر فى عمله وتقديم الطعـام طوال ذلك الشهر ·· ورتب لاستمرار هذه العملية ستمائة وسبعين دينارا سنويا ، ومائة قنطار من العسل ، وخمسمائة أردب من القمح ··

والتفت الغورى بعد ذلك الى قلعة الجبل ، فجدد عمارة الدهيشـة ، وقاعتى اليسرية والعواميد ، وقاعة البحرة ·· وأنشأ العمود المسمى بالعمود القبطى ـ وهو كائن بالفناء الكبير · ثم جدد عمارة المطبخ ، وعمد الى سبيل المؤمنين ، فجدد سـقفه وجعله معقودا بالحجر ·· وجدد عمارة ميدان المهارة القريب من قناطر السباع ، وهدم أبنيته التى كانت مقامة باللبن وجعلها من الحجر ، ونقل مجرى الماء من مكانه القـديم الى موردة الحلفاء ·· وجدد عمارة المقياس ، وأنشأ به القصر والشرفة ··



مسجد السلطان الغورى . انشا هذا المسجد والمجموعة المحيطة به سنة ٩٠٩ – ١٠ هـ ، ١٥٠٣ – ٤ م . الملك الاشرف قانصوه الغورى » وهى مكونة من مدرسة ، وحمام ، ومنزل ، ومقعد . وسبيل ، ومكتب ، وخانقاه ، وقبة ، ومقبرة .. كما يوجد به مقبرة للاشرف طومان باى ابن اخ الغـــــورى ، وهـــو من أروع المنشآت الاثرية وابدع ما خلفه لنـــا ســـــلاطين دولة المماليك الجراكسة ..

واهتم الغورى بالثغور البحرية فحصنها وبنى بها الابراج والمعاقل ، وحصن أسوار الاسكندرية ورشيد ، وأصلح طريق العقبة وجعل فيه مخازن توضع فيه حاجيات الحجيج

وامتدت أيادى الغورى حتى وصلت الى مكة المكرمة ، فأنشأ مدرسة ، وحبس على طلبتها أوقافا للانفاق عليهم ، وأجرى عين بازان وحصن « جدة » ، وبنى على ساحلها سورا ذا أبراج لحمايتها من اغارات الاجانب •

لقد كان الغورى جماعا للنقائض فى خلقه وفعاله ••

ولكننا حين نستعرض حال الدولة فى أيامه ، قد نلتمس له بعض العذر •• ونغتفرله هفواته أمام أياديه البيض العديدة ، وما اتصف به من يقظة وحزم •• وأمام عظمة تمثيله لمصر أمام السفراء الاجانب الذين وفدوا عليه ينشدون وده ويطلبون صداقته ••

ان حياة الاشرف قانصوه الغورى ، حياة حافلة بالمظالم والخيرات •• واللهو والجد والمرح مع اليقظة والتوثب والجرأة ••

وانها على عظمتها وتعدد مناحيها ، لايهمنا فيهما غير شيئين اثنين : أولهما مسجده لاننا نؤرخ للمساجد •• وثانيهما : حكمه •• الذى اعتبر ، برغم طول مدته ، نهاية لدولة السلاطين الشراكسة ، وفاتحة لحكم الاتراك العثمانيين •

والاشرف قانصوه الغورى قد نسب اليه مسجد عظيم له شهرته فى الحى الذى يحمل اسمه أيضا « الغورية » ••

ولكنه بنى مسجدا ثانيا ليست له شهرة المسجد الاول ولا فخامته ، وهو القائم أمام قلعة الجبل •• وقد بناه فى العام الخامس والعشرين بعد التسعمائة •• ونقش على بابه فى الحجر هذه العبارة :

« أمر بانشاء هذا المسجد المبارك السلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى عز نصره »

***

والمسجد بعد هذا عادى فى كل شىء ، له منارة دقيقة يعلوها هلال نحاسى ، وواجهته الحجرية تزينها عدة نوافذ من الجص المزخرف بالزجاج الملون ••

أما المسجد الكبير المشهور بالغورية ، فهو من أعظم المساجد التى بنيت قبله •• ويعتبر دليلا ناطقا بعظمة بانيه ومدى ماحققه لنفسه من ثراء •• وبه مجموعة ، مكونة من **حمام ومنزل ومقعد وسبيل ومكتب وخانقاه وقبة ••**

والمسجد مكون من ايوانات أربعة وصحن فسيح ، وعلى الجدران « وزرة » رخامية **بأعلاها شريط نقش عليه بالخط الكوفى آية الكرسى وآيات أخرى من كتاب الله الكريم •**

وفى الايوان الشرقى محراب رخامى ، الى جانبه منبر مطعم بزخارف من « السن » وقد طليت خوذته بالذهب فوق السن ، ووزرة هذا الايوان من الرخام ، وهى مرتفعة فى

محاذاة قواعد النوافذ العلوية ، وقد نقشت عليها بعض الآيات القرآنية ..

والمسجد فى جملته مزخرف بنقوش بلغت حد الاسراف ، حتى لقد شملت الأبواب والنوافذ والجدران .. وله منارة ضخمة مربعة ، مكونة من أربعة طوابق ، يحمل الطابق الاخير منها خمسة رؤوس خشبية ، وقد كسيت كلها بالقيشانى ..

والقبة تعتبر آية من آيات المبالغة فى الزخرفة ، وبطرفها السبيل المنقوش سقفه بالذهب ، وفى حافته رسوم على هيئة أسماك ، وفى أعلاه لوحة رخامية كتب عليها :

أنظر جمالى ، فمائى حين أرسله
يحكى سلاسل بلور على ذهب

وسقف مسجد الغورى يقوم على بوائك من غير أعمدة ..

وقد أشرف على بناء هذه المجموعة الضخمة الأمير ثانى بك الخازندار ، الذى أولى جل اهتمامه الى القبة بالذات ، لتكون متحفا لبعض الآثار النبوية ولمصحف سيدنا عثمان .. ثم مدفنا للغورى نفسه ..

ولكن .. وبعد أن تم المسجد والقبة والخانقاه .. وحبست عليها الاحباس الوفيرة .. هل دفن الاشرف الغورى هناك ؟! انه لم يدفن فى هذا المسجد !

لقد شاء حظ السلطان الجرىء أن يضطرب ميزان القوى فى أواخر عصره ، وأن تدفع المطامع السلطان العثمانى سليم الاول الى محاولة غزو الشرق لاطفاء غلة حب السيطرة والتملك التى قامت فى نفسه الطامعة فخرج بجيوشه ينشر الرعب ويفتك بأخوته فى الدين !

وهدد سليم العراق .. واقترب من الشاه اسماعيل الصفوى ، حليف الغورى .. وأنزل به هزيمة منكرة .. ثم سار الى الامام ليحقق مطامعه الواسعة ..

وأرسل الغورى للفاتح الغازى ليتعرف نيته .. وجاء ، الرد الرهيب : « لقد ابتدأت باسماعيل الصفوى .. وسأثنى بك ! وموعدنا مرج دابق » ..

وخرج الغورى من مصر الى الشام فى موكب لم يشهد التاريخ له مثيلا .. واستقر فى الشام ..

فلما جاءته الانباء بتقدم الجيوش العثمانية ـ وكان وقتها فى « حلب » صلى الظهر وخرج ومعه أمير المؤمنين المتوكل على الله ، والقضاة الاربعة .. وكان قد تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط .. حتى رجت لهم حلب ..

« فلما خرج السلطان توجه الى جيلان ومنها الى مرج دابق ، فلم يشعر الا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان .. فصلى السلطان صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه

الى زغزغين وتل الفار ـ قيل أن هناك مشـــهد نبى الله داوود ، فركب السلطان وهو وملوطه وعلى كتفه طير وصار يرتب العسكر بنفسه ، وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفه وملوطه وعلى كتفه طير مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفى ، وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس من الحرير الاصفر على رؤوس جماعة الاشراف ، وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه ••

« وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدى احمد البدوى ومعهم أعلام ، والسادة الاشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة ســـيدى احمد بن الرفاعى ومعه أعلام ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود » (١)

ودارت الرحى الرهيبة •• وانطلقت الكلاب الكلبة من عقالها •• فكر المماليك وكروا وتقدموا وهم الاقوياء ذوى البأس فهزموا عسكر « ابن عثمان » هزيمـــة منكرة وأخذوا منهم سبعة صناجق ، وأخذوا المكاحل التى كانت على العجل ورماة البندق •• وهم ابن عثمان بالهروب •• ثم طلب الامان وقد قتل من عســـكره فوق العشرة آلاف نفس •• وكانت النصرة لعسكر مصر » •• (١)

ولكن الخيانة المملوكية لم تلبث أن لعبت دورها الحقير ، فهرب الخائن خاير بك بمماليكه وباع سيده الغورى للغاصب العثمانى ، ففتح ثغرة فى قوة الدفاع ، ومكن للعثمـــانيين المنهزمين من العودة ليجعلوا من الهزيمة النكراء نصرا ماكانوا يحلمون به ••

ولقد كان ميل ميزان الحظ فى صف سليم شاه ، مفـــاجأة أذهلت الغورى المنتصر •• فأحب أن يهجم بمن بقى معه من فرسان قلائل ؛ ليلقى الموت شريفا وفى يده سيفه •• ولكن القدر أبى عليه تلك الامنيـــة ، فأصيب فجأة بفالج رهيب •• واذا به ، بدلا من أن يشق الصفوف بجواده مطيحا بالرقاب ، يسقط تحت سنابك الخيل فى حومة الوغى ، فتدوسه وتحطمه •• حتى لاتبقى من جثمانه على أثر !

وهكذا مات الغورى الباسل •• وتناثرت أشلاء جسده ••

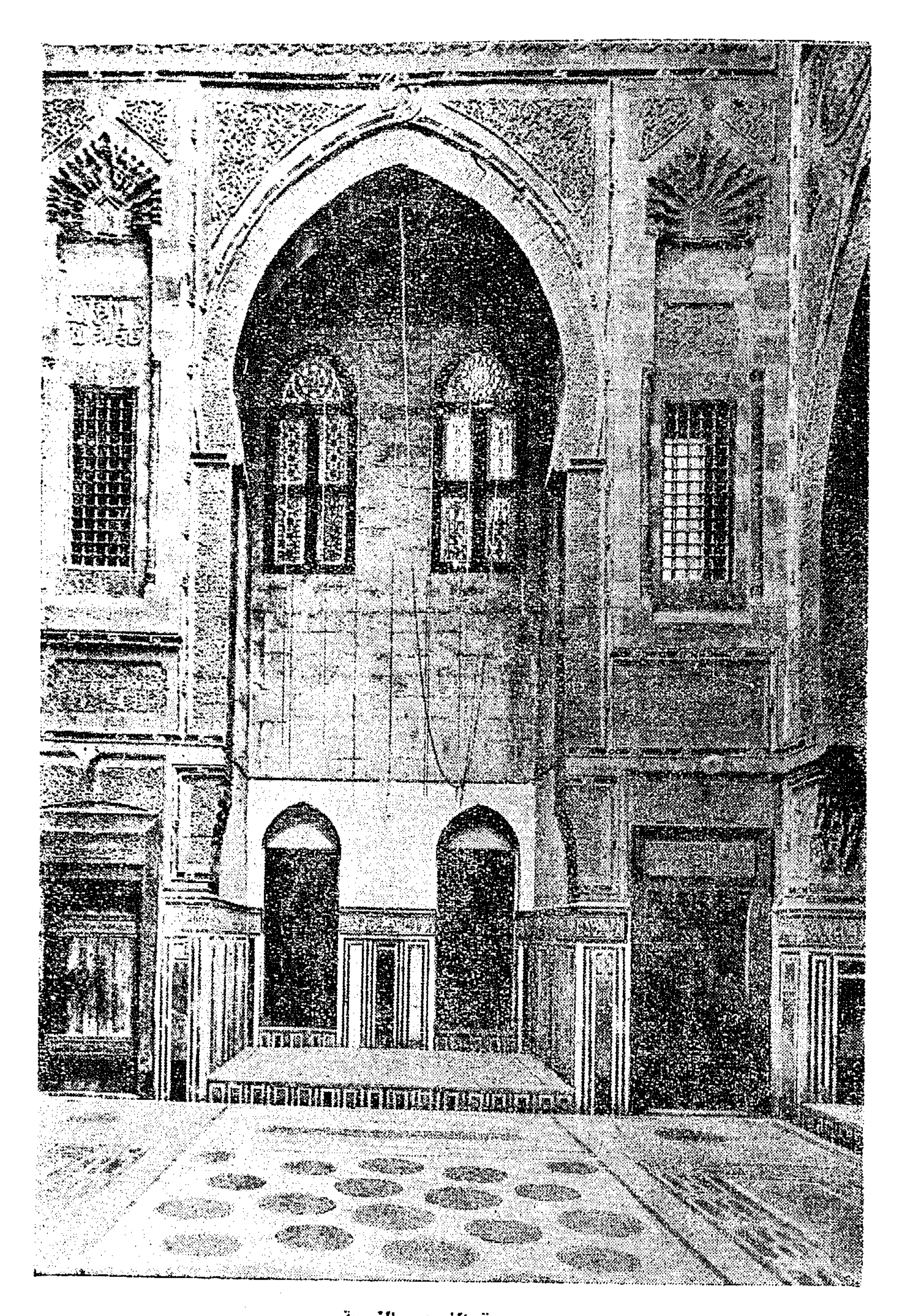
وعلى هذه الصورة الاليمة انتهت حياة السلطان النحس الذى باعه أمراؤه ، وتآمر عليه وعلى مصر مماليكه الانذال ، فنسوا حق سيدهم عليهم !! ونسوا حق مصر التى حررت رقابهم وجعلتهم وهم الرقيق الرخيص ، سادة وأمراء وحكاما وسلاطين !!

وبدأ سليم شاه يتقدم بجيوشـــه فى الوقت الذى تجمعت فيه فلول المـــاليك حول « طومان باى » ابن أخ الغورى ، وراحوا يطالبونه بأن يكون سلطانهم وسيدهم !!

وكان طومان باى شابا فيه جرأة واقدام وحب للارض الطيبة التى حررته وأكرمته •• وكانت به خشية من غدر المماليك ، فرفض طلبهم وأحب النجاة بنفسه •• ولكنهم تكاثروا

---

(١) ابن اياس ج ٣ ص ٤٦ وقد أوردناه بنصه ليعرف القارئون مدى عقلية الغورى الخارج الى الحرب !!



« مدرسة الغورى بالغورية »

أنشأها السلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى ضمن مسجده الذى يقع عند تقاطع شارع الغورية بشارع الازهر . وانشا فى مواجهة المدرسة قبة لتكون قبرا له .. ولكنه قتل اثر خيانة « خاير بك » له فى حربه مع السلطان سليم العثمانى فى معركة « مرج دابق » وتمزق تحت سنابك الخيل ولم يعثر على جثته .. وكان هذا فى سنة ٩٢٢ هـ ، ١٥١٦ م

عليه ورلحوا بلين الكلام والاسراف في الوعود يخدعونه ، حتى قبل أن يكون سلطانا على مصر . وكان آخر السلاطين الجراكسة فيها ..

***

وجاءت الانباء بأن سليم شاه كان يتقدم ، فاستعد طومان لمعركة كانت « الريدانية » ميدانها ..

ولقد عرف القائد المملوك الشاب كيف يضرب أكثر من ثلاث مرات جيوش العثمانيين ويحرق خيامهم .. حتى لقد ضاقت السبل على سلطانهم السفاح ..

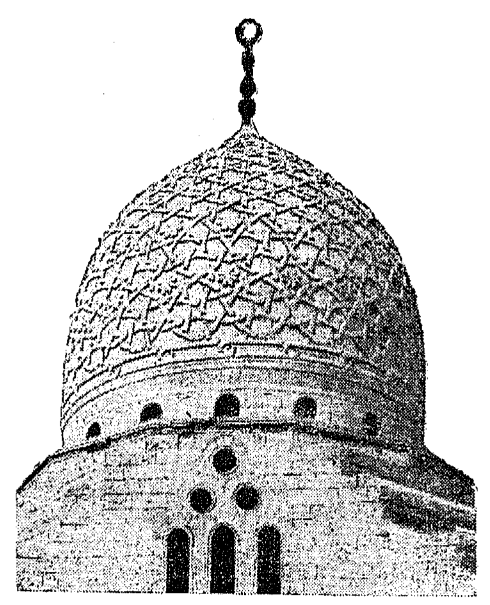
ولكن الخيانة عادت تلعب دورها ، فهرب المماليك .. وفر خلفهم طومان باى ! ولكن .. هل سلم ؟!

وظل طومان يناوىء سليما ، وسليم يناوئه .. حتى قتل من رجاله العثمانيين مالا يحصية العد !

وضاقت بطومان الحيل ، ففر تاركا القاهرة ليحتمى بصديق قديم له من العرب ، اسمه « حسن مرعى » .. ولكن هذا الرجل كان وغدا زنيما ، فلم يرع الصداقة ولا حرمة الاستجارة ، فسلم طومان لعدوه الخطير سليم شاه !

وأمر سليم السفاح بشنق طومان على باب زويلة !

وبدأ يدفع للخونة أجر خيانتهم .. وكان أولهم دون شك « خاير بك » الذى باع سيده الغورى للعثمانى الدخيل ، فكوفىء على ذلك بأن عين ملكا للامراء ، ونائبا للسلطان العثمانى فى حكم البلاد !



« قبة جامع الاشرف برسباى »

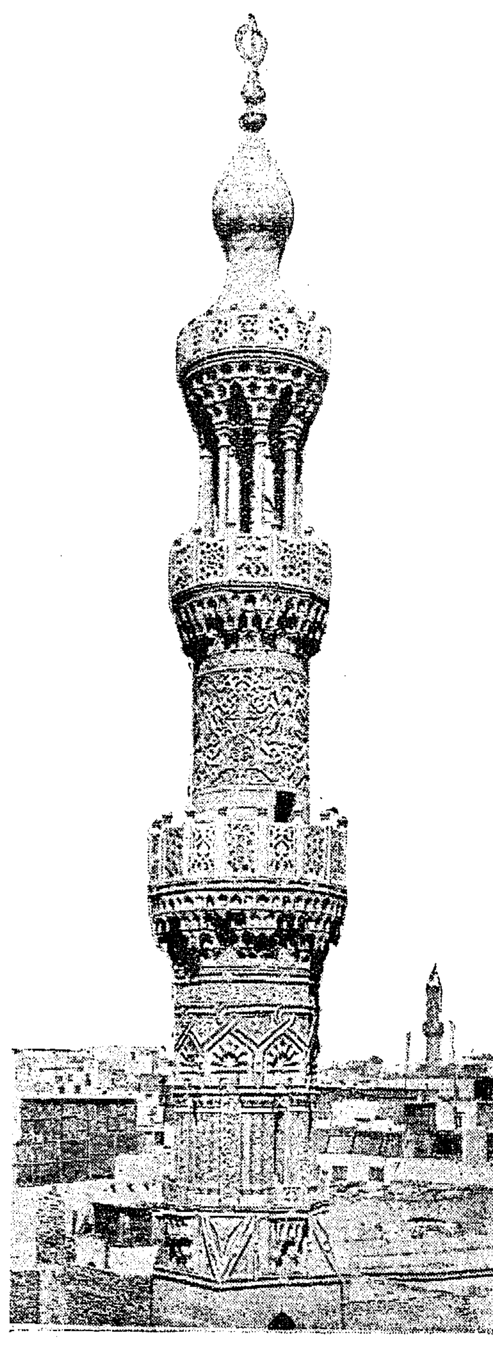
العثمانيون

لم يكن سليم شاه يتصور انه سيصل الى مصر ويفتحها بتلك السهولة التى تم بها الفتح العثمانى ..

ولقد عزز معتقده هذا أنه هزم أمام الغورى هزيمة ساحقة جعلتها الخيانة بعد ذلك نصرا .. ثم ما لبث هذا الاعتقاد أن عاد الى الظهور ثانية فى الريدانيـــة وقد كاد طــومان باى الباسل أن يبيد العثمــانيين .. لولا الخيانة أخيرا ...

وبدخول سليم مصر .. وتسلمه مقــاليد السلطة التى كانت فى يد سلاطين المماليك الشراكسة ، طويت صحائف هؤلاء المغامرين الغرباء فى هذه الارض الطيبة التى سودتهم وكانت لهم الموطن والملاذ .. وفتحت صفحة مغـــامر جديد من نفس الجنس الذى اعتـاد ارسال أبنائه الى أســواق الرقيق لبيعهم الى تجار المماليك !

ولكن هذا الغريب الجديد لم يحب الارض الطاهرة ، اذ كان له وطن ، وكانت له قومية وجاه واسم وآباء وأجداد !



« مئذنة جامع جانم البهلوان »

وسليم شــاه « تركى » .. والترك فى عرف بعض المؤرخين قبيلة من قبائل المغول « تركها » الاســكندر المقدونى خارج سور الصين العظيم يوم بناه ليحمى الحضارات من المخربين .. ولم يدر أحـد لماذا تركهم ؟ .. وهل كان تركه اياهم تقليلا من شأنهم ، أو لانهم تعهدوا له أن يكونوا من المصلحين ؟!

فالترك اذن .. من الجنس المغولى .. والمغول قبائل عديدة لها صـفات ومميزات

وسليم شاه كان من قبيلة نسبت الى « عثمان » زعيمها ـ وهم فئة من الرعاة كانت تنتقل وراء الخصب والنماء .. وأسعدها حظها ذات يوم ، اذ وجدت نفسها تخوض غمار حرب فى صف قوم ، عرفت بعد نهاية المعركة أنهم من أقاربها «الاتراك السلاجقة» ..كماعرفت أن دخولها المعركة كان سبب انتصار هؤلاء الاقارب الذين استضافوا أبناء عمومتهم الرحل ومنحوهم مقاطعه قرب « بردسة » سكنوها تحت زعامة قائدهم وزعيم قبيلتهم « أرطغرول » ..

وأنجب « أر طغرول » هذا ولده « عثمان » الطموح الذى ابتـــدأ يتحرك من مقاطعته الصغيرة ليبنى دولة .. وسار ابنه « أورخان » على نفس النهج ، واستطاع أن يحقق بعض المطامع الاقليمية حتى لقد وصل الى الشاطىء الاوروبى بجيوشه واحتل «غاليبولى»

وجاء مراد بعــد أورخان .. ثم « بايزيد » الاول الصـــاعقة .. ثم مالبثت الدولة العثمانية أن تفرقت بعد موته فى أسر تيمور لنك ..

بيد أن « محمد الاول » استطاع أن يلم الشعث ويوحد القوى من جديد ، ليعيد الدولة التى كادت تبيد وتفنى وهى فى عمر الزهور !

ومات محمد الاول فى ريعان شبابه وخلفه مراد الثانى .. وجاء من بعده ابنه محمــد الثانى ، أو ، كما يسمونه « الفاتح » ؛ لانه فتح القسطنطينية .

وقد يهمنا هنا الوقوف قليلا عند هذا السلطان بالذات ، لانه أول حاكم مسلم وصل الى أوروبا .. وأول من استولى على الكنيسة الشهيرة « أيا صوفيا » وحولها الى مسجد عظيم ، أقيمت فيه المنائر والقباب .

وقد كانت كنيسة القديسة «صوفيا» من الرواء والفخامة بحيث أحب السلطان محمد الفاتح أن تبقى على حالها ، دون أى تبـــديل أو تغيير ـ اللهم الا تحويل مذبحها الى محراب رائع الصناعة ، عظيم الزخرفة ، ثم طلاء النقوش واللوحات ذات الطابع الكنيسى بطلاء أخفى معالمها وحجبها عن الانظار ..

وراح فنانو المسلمين بعد ذلك يزخرفون وينقشون الجدران ، التى سجل عليها أروع آيات الفن البيزنطى الدقيق ، لتظهر فى صورة غير صـــورتها القديمـــة ولتســـتقيم فى تعبيراتها الدينية مع بساطة الدين الاسلامى السمح ..

وكأنما حلا لمحمد الفاتح ـ وقد تم مسجده العظيم بما يتمشى وجلال الفن الاسلامى أن يحول الكثير من البيع والكنائس التى كانت موجودة هنـــاك بكثرة ـ الى مســـاجد اسلامية .. ثم ترك البقية الباقية من النماذج البيزنطية العريقة ، كما ترك للمسيحيين حرية العبادة فى بلاده ..

وخلف « محمد الفاتح » على العرش العثمانى ابنه « بايزيد الثانى » .. وهذا أنجب « سليم شاه » الذى خرج بجيوشه ومعداته ـ لا الى الغرب ومحاربة الامراء المسيحيين



« طومان باى فى طريقه الى باب زويله لشنقــــه »

كانت رسالة الخنكار سليم شاه الى طومان باي الباسل هى :

((أما بعد ــ فان الله قد أوحى الي بان أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسكندر الاكبر ذو القرنين، وانك لمملوك تباع وتشرى ، ولا تصلح لك ولاية ، وأنا ابن ملك الى عشرين جدا)) .

وجاءت الانبــاء بأن سليم شاه كان يتقدم ، فاســـتعد طومان باى لمعركة « الريدانية » ميـدانها .

ولقد عرف القائد المملوك كيف يضرب أكثر من ثلاث مرات جيــوش العثمانيين ويحرق خيامهم .. حتى لقد ضاقت السبل على سلطانهم السفاح ..

ولكن الخيانة عادت تلعب دورها ، فهرب المماليك .. ولكن طومان باي لم يسلم وظل يناوىء سليما ، وسليم يناوئه .. حتى قتل من رجاله العثمانيين عددا كبيرا ..

وضاقت بطومان باي الحيل ، ففر تاركا القاهرة ليحتمى بصديق قديم له من العرب ، «حسن مرعى»

ولكن هذا الرجل كان وغدا زنيما ، فلم يرع الصداقة ولا حرمة الاستجارة ، فسلم طومان باي لعــدوه الخطير سليم شاه ..

وأمر سليم السفاح بشنق طومان باي على باب زويلة .. وخرج طومان باي من البوابة مكبلا بالحبال على فرس هزيل .. وترجل وهو مرفوع الرأس ، كان طويل اللحية ، فتسلمه المشاعلية ليضــعوا الحبل حول عنقه ، وشدوا الحبل المعلق بقاعدة برج البوابة ، فانقطع الحبــل بالمشنوق .. وهكذا كانت نهاية طومان باي البطل ..

لتحقيق توسع اسلامى فى بلادهم ، كما فعل آباؤه واجداده ، بل الى الشرق ، موطن الحضارات الاسلامية ـ ليحارب اخوته فى الدين ويحاول ادخالهم تحت سلطانه الذى قامت دعائمه على الرشوة واشاعة الفرقة والتحريض على الخيانات !

وقد واجه « سليم خان » فى مصر شعبا له حضارته وأمجاده وتاريخه وتقاليده العتيدة فلم يرتح الى تلك المظاهر . وهو الذى ماخرج غازيا الا لينشر ماظنه حضارة وتقاليد عثمانية ، لم يكن لها فى الواقع خلال تلك الفترة بالذات أى وجود !

لقد أراد سليم خان أن يتزعم الشرق كله .. وزعامة الشرق لاتعنى النصر الحربى فحسب ، بل انتقال الحضارات الاسلاميةوكل شارات المجد العربى الى القسطنطينية ـ عاصمته ، لتكون كعبة المسلمين وقبلة حضارتهم الدينية الرفيعة وسيدة الاقطار الاسلامية جمعاء ..

وأفلح « سليم خان » فى التمهيد لخطته الجريئة هذه يوم دخل القاهرة منتصرا بمظاهرة ألبسها ثوب الدين وبعد بها مظهريا عن موكب الفاتح المنتصر ، اذ تقدم موكبه الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ـ والذى لم يكن فى الواقع هو ومن سبقوه من أهله جميعا غير رموز ايهامية ، كان سلاطين المماليك البحرية ومن بعدهم الشراكسة يستعملونها للتأثير على العوام .. فسخرها سليم العثمانى لهذا الغرض !

وأراد بدهائه وقد جعل الخليفة على رأس الموكب ، أن تكون المظاهرة ذات تأثير عميق .. فجعل القضاة الاربعة ـ أصحاب السلطان الدينى والزمنى الحقيقى فى البلاد ، ينتظمون فى موكبه ، وقد أطلق سراحهم وكان قد أسرهم يوم « مرج دابق » ليكون اشتراكهم الفعلى فى موكبه وسيلة للوصول الى القلوب ، حتى يدخل فى روع الخاصة والعامة ، انه انما جاء لحماية الدين ونشر السلام !

لقد كان «سليم خان» يعرف مدى مايستمتع به قضاة المذاهب الاربعة من نفوذ دينى مدعم ، فتحاشى جهده اغضابهم ، وعمل ما وسعه ليكونوا فى صفه .. حتى اذا تقدم نحو تنفيذ مشروع نقل العاصمة الاسلامية الى القسطنطينية كانوا معه ، لا عليه !

ثم أفلح سليم بعد هذا فى اغراء الخليفة العباسى بسلطان المال ، على الاعتراف بأنه أحق وأليق بتولى الخلافة وممارسة سلطانها .. فكان أن تنازل له عن اللقب الرمزى ..

وبهذا أصبح « سليم خان بن بايزيد الثانى » خليفة واماما لجميع المسلمين !

وبهذا أيضا انتقل بالتبعية مركز الخلافة من مصر الى عاصمة العثمانيين !

وخيل الى الخليفة الطموح ، بعد أن حقق ماحقق ، أنه قادر على أن ينقل الى عاصمته كل مظاهر العز الاسلامى وتراثه العظيم فى مصر .. فاتجه الى الجامع الازهر ، محاولا أضعافه وثل سلطانه الدينى العريق ، ليصرف العيون عن التطلع اليه ويذهب عنه أمجاده

باعتباره كعبة العلم ، ومهوى الافئدة من كل راغب فى المعرفة ومثابة الدين . وعلمائه صفوة أهل العلم وأعلام الهدى والبيان وهداة المسلمين وقادتهم الروحيين ..

ووقف سليم خان وقفة طويلة يفكر : كيف يحارب الازهر كموئل للاسلام .. وعلماءه كقادة للفكر الاسلامى ؟!

ان وجود هؤلاء العلماء فى القاهرة يعنى أن انتقال شارات الخلافة ورموزها الى القسطنطينية ، لم يكن سوى مظاهر .. لاتغنى عن اللب والحقيقة شيئا ..

لقد أراد سليم أن يخلع عن القاهرة أردية الزعامة ويلبسها للقسطنطينية .. فكيف السبيل الى ذلك !

لقد كان من السهل نقل الخلافة اسما ومظهرا .. ولكن الجيوش وآلات الحرب أضعف من أن تنتصر على الامامة الروحية ! وكان من العسير نقلها روحا ومعنى ونصا وصفة وذاتا من القاهرة الى هناك ..

عرف سليم هذه الحقيقة .. ولكنه لم يستسلم للواقع استسلاما مطلقا ؛ بل راح يشن الحرب على العلماء محاولا التقليل من سلطانهم ، فأصدر أمرا بابطال نظام القضاة الاربعة ..

ثم اتجه الى الرئاسة الشافعية ، فنقلها من قاضى القضاة الشافعى المصرى ، الى قاض تركى حنفى المذهب ، ثم أعلن بعد ذلك أن « الحنفية » مذهب الدولة الرسمى !

***

وبهرت سليم بعد هذا روعة مساجد مصر وفخامتها ..لقد وقف مشدوها أمام جامع السلطان حسن وقال عنه « أنه بناء جدير بالملوك » ..

ووقف أمام زخرفة مسجد « الغورى » وقال عنه : « هذه حجرات تاجر » !!

وراح ينقل عينيه الزائغتين فى جلال العمائر الاسلامية ، فأحس بضعفه وضعة بلاده فكان أن أمر بهدم بعض الآثار ونقلها الى تركيا !

ولم يتعفف عن نهب الزخارف النادرة والمخطوطات القيمة .. وقد ظن أنه بهذا يعطى القسطنطينية فوق ماكانت تستحق !

وكما سرق سليم خان الزخارف والنفائس ، شرع فى سرقة الرجال أنفسهم !

لقد ساق الفاتح أمامه الى القسطنطينية صفوة أهل الدين من المصريين وخلاصة نوابغ الصناع وأهل الحرف الدقيقة ..

وعاد من جديد ينظر الى الازهر ورسالته نظرة العاجز ، اذ عرف أنه لن يستطيع الاجتراء على ذلك الحارس العملاق اليقظ ، الذى سيقف هكذا على كر الدهور ، ليحمى لغة القرآن من غزو الرطانات الاجنبية أيا كان لونها !

وكان سليم يعلم بعد أن فعل مافعل ، أن بقاءه فى مصر لن يطول .. وحتى لو طال

فلن يستمر ، اذ كان عليه أن يعود الى بلاده ، ولكن ليس قبل أن يوطد « أقدام » فتوحه ليعود وهو مرتاح البال ..

ولطالما خشى سليم هذه العودة ، لانه كان يعرف أن فتح مصر فتحا كاملا والقضاء على القوات المناوئة له فيها ، لم يتم كما أراد ، فقد كان مماليك الشراكسة بصفة عامة ، والمماليك وأشياعهم بصفة خاصة ـ مازالوا يملأون البلاد .. وأنهم برغم هزيمتهم وانتصار العثمانيين ، كانوا أصحاب الحظوة والسطوة والمال .. وكانوا أقرب الى قلوب المصريين من سليم وجيشه وسلطانه ..

وكان عليه أن يفكر فى استنباط طريقة عملية تضمن حفظ ملكه الجديد من العواصف المحيطة به والانواء الموشكة على الهبوب ..

ولما كان سليم خان قد أتم فتوحه فى الشرق معتمدا على التجسس والرشوة والوقيعة وانتهاج سياسة « فرق تسد » ـ فقد عمد الى تدعيم هذه السياسة والخروج بها الى الميدان العملى فى ثوب جديد ..

ولما كان « سليم خان » قد اعتاد أن يتبع فى الماضى هذا الاسلوب الرخيص والسياسة غير المستقرة ، مخفيا وسائله هذه تحت ستار من السرية البحتة ـ فقد رأى أمام الوضع الذى أراد اظهاره وتركيزه ـ أن يجهر بسياسته تلك ويعلنها صراحة فى بلاد مصر قبل أن يغادرها عائدا الى عاصمته القسطنطينية ..

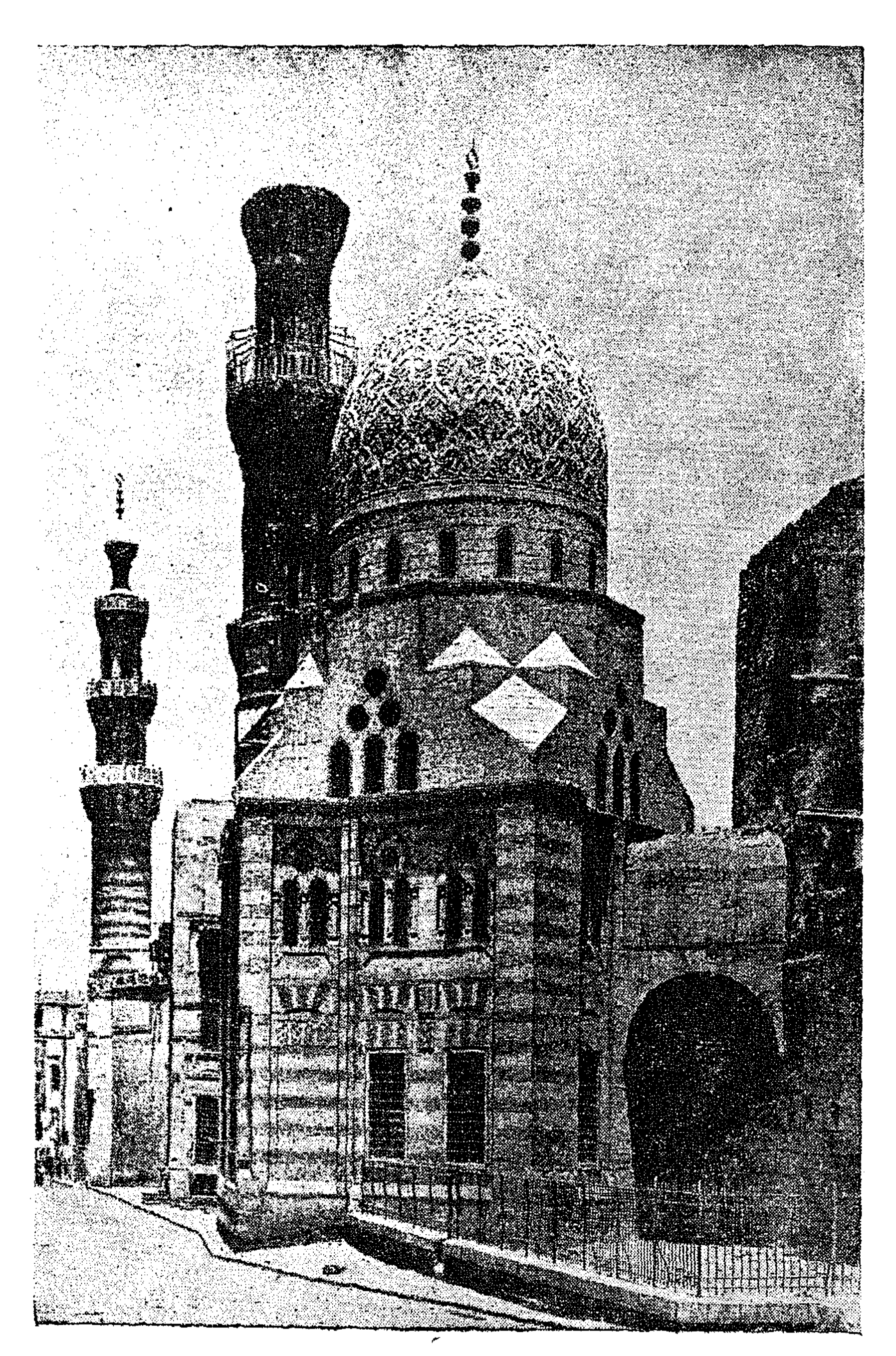
وتنفيذا للخروج بهذا الاسلوب السياسى المستحدث ، رتب سليم لحكم مصر ثلاث طبقات من الحكام ، لكل طبقة منها مركزها وجاهها ، فوق مالها من مكانة مدعمة وقوة معترف بها ..

وقد هدف السلطان العثمانى من ايجاد هذه الطوائف الثلاث ـ وفيها المماليك ـ الى خلق مبدأ « تنازع السلطات » وجعل كل فئة من هذه الفئات بمثابة جاسوس و «خصم» متربص بالطائفتين الأخريين المنافستين لها ..

ولم يجعل لأى طائفة من هذه الطوائف سلطانا مستقلا ، أو حرية فى أداء عمل فردى .. بل ربط بينها كلها وجعلها دون تمييز تحمل شتى المسئوليات ، وتكون مسئوليتها جميعا أمامه وحده ..

وكان معنى هذا هو عدم تركيز السلطة ، والحيلولة دون أى فريق من الثلاثة والاستئثار بها ، أو السعى الى السيادة أو غصب المال أو فرض ضرائب ..

وقد تسلم « خاير بك » نائب حلب السابق مقاليد السلطة بعد سفر سليم خان ، جزاء له على خيانته لسيده الغورى .. وسرعان مابدأ يباشر سلطانه مشتركا مع الطائفتين الباقيتين بقلب وحش ضار ، وروح حيوان مفترس ، لا عقل له ولا ضمير !



« مسجد الامير خاير بك »

انشاه الامير خاير بك احد امراء السلاطين الجراكسة ، سنة ٩٠٨ هـ ، ١٥٠٢/٣ م كان فى عهد السلطان الغورى نائب حلب ، وعندما بدأت الجيوش العثمانية تغزو الشام عينه الغورى قائد ميسرة الجيش المملوكى ، فاتصل خاير بك سرا بالسلطان سليم العثمانى وعرض عليه مساعدته والغدر بسيده ، فوعده بأن يجعله نائبا له فى مصر ان هو نفذ ما وعد به ، وعندما اشتد القتال خان خاير بك سيده السلطان الغورى ، وانتهت المعركة بهزيمة المماليك فى موقعة « مرج دابق » الذى قتل فيها السلطان الغورى •• وهكذا بدأ حكم العثمانيين لمصر ، وكان خاير بك أول حاكم عليها من قبل الدولة العثمانية قسوة وعنف•• فظلم وسفك كثيرا من الدماء ، وكان يكره العلماء والفقهاء ، ومات مكروها سنة ٩٢٨ هـ

وكان « خاير بك » لا يعرف من أمور دنياه ودينه الا التفانى فى ارضاء سيده .. وبلغ من هوانه وذلته ورغبته فى استجلاب ذلك العطف التافه ، أن صغرت لديه القيم كلها وهانت الوشائج والروابط ، وتنكر لانسانيته وصار شبه مجنون ؛ لايعى ولا يعرف ولا يستطيع التمييز !

وأعمت الخيانة عينى الرجل وقلبه .. وطغى وتجبر حتى لقد تسمى باسم « ملك الامراء » .. ولم يفعل مافعله الشراكسة الذين سبقوه من اضافة نعوت اسلامية أوأسماء فيها من روح التعاطف ظل ، بل جعل من نفسه ملكا على الأمراء ، فباعد بلقبه هذا بين شخصه وبين الشعب ، بل بينه وبين مصر كلها .. وركز جهاده وجهوده فى رعاية مصالح العثمانيين الذين كان بالنسبة لهم « ناظر زراعة » أو أحد « جباة المال » أو جاسوس خطير !!

وعلا نجم التابع الخائن ، وراح يتصرف تصرف الذئب الشره فى قطيع من الشاه .. فخضع أمراء المماليك .. وهانت عليهم أقدارهم .. وأخذت الحوادث سمتها .. ودار دولابها فى هدوئه الرتيب المعروف ..

ثم مالبث أحد رؤوس الخيانة أن أطل ..

كان رأس «جان بردى الغزالى» شريك خاير فى خيانة «مرج دابق » ــ وقد أحب أن يقوم بمغامرة خسيسة جديدة ضد السلطان العثمانى،ويشترك فيها ((خاير)) ، ليقتسما الغنيمة ويكونا الحاكمين المطلقين فى أقدار الدولة دون رقيب أو حسيب ، أو خضوع لسلطان غريب ..

كان جان بردى يحلم بالاستقلال بحكم البلاد التى أنابه سليم عليها ..

وكان يريد لخاير أن يستقل هو الآخر بسلطان مصر ..

ولكن خاير كان عبدا ذليلا ، جبل على الخسة والخضوع .. فأسرع يحمل الى سيده نبأ المؤامرة ..

وأسرع سليم لينقذ مايمكن انقاذه ، فأبعد جان بردى ..وكافأ خاير بك بمزيد من السلطات !

ولقد عرف عن «خاير بك» أن بينه وبين اسمه عداء ، اذ كان رجلا لايعرف «الخير» ولا يحبه ، بل كان عدوه اللدود ..

كان قاسيا ، فظا ، شريرا سفاكا ، غادرا .. لا يعترف بأخاء ولا يشعر بانسانية ..

كان عدوا لنفسه .. عدوا للناس ! وبالرغم من هذا كله فقد قام ببناء مسجد ! لاتقربا الى الله ، ولكن ليقال عنه انه فعل كما فعل غيره من أمراء وسلاطين المماليك وأنه شيد مسجدا جامعا ليحمل اسمه على كر السنين !

ومسجد خاير بك انشأه قبل أن يكون « ملكا للامراء » ـ فى العام الثامن بعد التسعمائة من الهجرة ، وهو مسجد مملوكى بكل صفاته ومميزاته ؛ ترتفع أرضه عن منسوب الطريق العام بحوالى ثلاثة أمتار .

وقد أقيم فى حى « الخربكية » المنسوب الى « خاير بك » .. وأجمل مافيه قبته الرائعة التى تنطق بمهارة صانعها ودقته ، فقد زخرفت من الخارج بنقوش فى الحجر ؟ تمثل وحدة بنائية متكررة ..

وللمسجد منارة عظيمة على الطراز المملوكى ، وله مدخل روعى فى بنائه أن يكون معقودا ، تغطيه « طاقية » مقرنصة الاركان ..

وبالواجهة « شبابيك » كبيرة ، تعلوها أخرى جصية ذات مجموعات ثلاثية .. ويقوم تحتها « سبيل » للماء ..

وأجمل مافى هندسة البناء ، أنه لا يقوم بأجمعه على نمط واحد ..

والمسجد مسقوف بقبوات مصلبة من الحجر ، وأرضه جميعها مفروشة بالرخام الملون

وقد أنشأ بانيه «خاير بك» مقبرة لنفسه فيه ، ودفن فيها بعد أن وافاه الاجل وهو فى منصبه الخطير ..

وكان طبيعيا بعد موت « خاير بك » أن تفتر حركة الانشاء فى مصر ، لان عدم استقرار ولاة العثمانيين فيها ، وتعرضهم للمؤامرات والعزل صرفهم عن العمارة .. كما صرف منافسيهم من المماليك أيضا ..

وبرغم هذا فقد قام ثلاثة أو أربعة من الولاة العثمانيين بانشاء مساجد فى القاهرة ، قامت الى جانب المساجد المملوكية الشهيرة ، فأضافت الى المجموعة المعمارية الاسلامية لونا جديدا من ألوان البناء تجلى فيه الطابع العثمانى ..

ومن أوائل ولاة العثمانيين اهتماما بالبناء ، كان الوالى سليمان باشا الخادم الذىأنشأ بقلعة الجبل مسجدا جميلا عام ٩٣٥ هـ ـ حمل اسمه وخلد ذكراه ..

ومسجد سليمان باشا الخادم ، يعتبر فى قائمة المساجد الاسلامية ـ المسجد الاول الذى ظهر للناس ، حاملا الطابع العثمانى الغريب من حيث « الطراز » والزخرفة والتنظيم وأساليب البناء ..

والمسجد فى مجموعته يتألف من صحن مكشوف ، فيه بساطة رائعة وجمال طبيعى .. والى جانب هذا الصحن ايوان خصص للصلاة ، تعلوه قبة كبيرة عارية من الزخارف الخارجية ، وبها عدة « مناور » تحيط بها مجموعة صغيرة من انصاف القباب ـ وقد لونت وزخرفت بعدة نقوش دقيقة وكتابات من القرآن الكريم ..

وللمسجد منارة عالية دقيقة الذروة ذات طابقين .. وهو بعد هذا بسيط فى كل شىء حتى فى مظهره الخارجى ..

وقد اهتم بالعمارة الاسلامية فى مصر وال عثمانى آخر ، هو « الخصى داود باشا » الذى بنى له هو الآخر مسجدا فى شارع « اللالاه صفية » بحى الحنفى ..

ومن الغريب أن الوالى داود باشا قد اختار لمسجده مكانا يكاد يكون بعيدا عن الاحياء التى اعتاد السلاطين وأمراء المماليك اقامة مساجدهم فيها .. ولعله اختار هذا الحى بالذات ، باعتباره الحى الممتاز فى ذلك الوقت الذى تكاثر على سكناه كثيرون من أمراء المماليك وأعيان البلاد ..

وهذا المسجد مبنى بالحجر المنحوت ، وهو من المساجد المعلقة ، وله باب متسع يرقى اليه بسلم رخامى ، وقد علقت فوقه لوحة من الرخام نقش عليها مايلى :

أتم بنـــاه داود صـــديق — وفى سـبل الهـدى قد جد سيرا

حمـــدناه فأرخنا بنـــاه — حوى حمــدا جزاه الله خـيرا

وقد أراد الوالى العثمانى الذى أقام مسجده هذا فى شارع سويقة اللالاه صفية ، أن يجعل منه مدرسة أيضا .. فهو يعتبر أول مسجد عثمـانى فى مصر خصصه بانيه للصلاة والدراسة ..

والمسـجد يطل على طريق ضيق من خـلال عدة نوافذ حديدية ، تعلوها « مناور » جصية مزخرفة بالزجاج الملون . وهو مكون من ايوان واحد فسيح ، فيه المحراب والمنبر ـ وهو من الخشب العادى . والمسجد خال من الاعمدة خلوا تاما ، وجدرانه تحليها وزرة من الرخام الملون ..

***

ولدينا غير هذا المسجد ، مسجد جامع آخر له شهرته ، هو مسـجد الوالى العثمانى «سنان باشا على بن عبد الرحمن» الذى تولى حكم مصر نيـابة عن السلطان العثمانى مرتين متتاليتين ، كان فيهما رجل الاصلاح المحبوب ، فلم تكن فيه عنجهية جنسية ، ولا تكالبهم على المال ، فأقدم على فعل الخير واستجلب لنفسه حب الناس ..

وقد أقام سنان باشا مسجده هذا قرب « ثغر بولاق » ، حيث كانت له هناك عمـائر انشائية أخرى ، وقد أتم بناءه عام تسع وسبعين وتسعمائة .

والمسـجد آية من آيات الدقة الانشـائية ، صبت فيه خلاصـة الفن العثمـانى المستحدث . وهومكون من قبة كبيرة ذات أبواب ثلاثة ، تؤدى الى ثلاثة ايوانات رائعة .

والسقف مقام على « قبوات » تحملها عقود مركزة على أعمـدة رخامية ، وأكتاف من الحجر الذى بنيت منه واجهة المسجد ..

والقبة الكبيرة يعلوها هلال لطيف ، وبدائرها عدة منافذ هندسية الشـكل ، بديعة الرواء ..

وواجهة المسجد غاية فى البساطة ، فهى من الحجر الذى لازخرفة فيه ولا نقوش ، بأعلاها عدة شواهد تتجاور فى نظام هندسى متسق ..

ومنبر مسجد سنان باشا ، منبر دقيق لطيف ، مكسو بالرخام الملون .. وله منارة ذات دورة واحدة ، تنتهى بمسلة مخروطية تعطى الناظر الى المسجد فكرة واضحة على أنه مسجد عثمانى الهندسة ..

ويبقى بعد هذا فى قائمة المساجد التى بناها فى مصر الولاة العثمانيون ، « مسجد سيدى عقبة » .. بناه الوالى الوزير محمد باشا السلحدار عام ألف وست وستون هـ فى القرافة الصغرى بقرب مسجد الامام الليث بن سعد ..

وسيدى « عقبة » هذا هو ابن عامر الجهنى ، حامل راية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم !.. وقد تولى حكم مصر أيام معاوية وبعد وفاة عمرو بن العاص .. ويقال أيضا أن فاتح مصر عمرو بن العاص مدفون هناك كذلك ، وهو قول غير ثابت ، لان عمرو قد دفن فى مدافن عاصمته الفسطاط ، ولم تكن الفسطاط من السعة بحيث وصلت الى المكان الذى قيل أنه قبر عقبة بن عامر الجهنى ..

وطبيعى أن الوالى العثمانى محمد باشا السلحدار ، لم يقم بانشاء هذا المسجد عفوا ، كما أنه لم يرشده اليه أحد ، بل حدث أن زاره فى مكانه ــ وكان زاوية صغيرة قديمة فأحب أن يجددها وأن يجعلها من الجلال الانشائى والدقة البنائية ، بحيث تتناسب مع مكانة أحد صحابة سيدنا رسول الله وكبار الفقهاء فى عصره ، فكان أن جدد الزاوية وأقام البناء ..

ومسجد سيدى عقبة مسجد رحب مكون من ايوانين ، أحدهما سفلى ـ به محراب معقود على عامودين من الرخام الابيض المثمن ، وثانيهما الايوان العلوى . وبين الايوانيين ثلاث بوائك حجرية ..

والى جانب المسجد أنشأ الامير السلحدار زاوية ، أمام مقام سيدى عقبة فى الناحية الغربية من المسجد ، وفوقه مقصورة خشبية دقيقة الصنع ، وقبة شامخة يعلوها هلال نحاسى مذهب ، ويحوطها اثنا عشر منورا جصيا ..

والمسجد مسقوف بالخشب المزخرف بالطلاء الدقيق المتقن ..

ولم يكتف الأمير السلحدار بانشاء هذا المسجد والزاوية الملحقة به ، بل أوقف عليه أوقافا جمة للانفاق على عمارته وخدمه وامامه ومقرئيه ، ورتب لهم الرواتب السخية ، وجعل أحباسه كلها ، وقفا واحدا ينفق ريعه فى رعاية مقام سيدى عقبة والجامع والسبيل والمكتب وغيرها من متعلقاته ..

وأوقف السلحدار المسجد على المسلمين ، تتوالى فيه الصلوات والخطب فى الجمع

والاعياد ، وتقام فيه الشعائر ، ويتلى فيه القرآن وتدرس فيه الاحاديث •• أما الزاوية المجاورة للجامع فقد جعلها مكتبا لايتام المسلمين ، يكون به فقيه قراء وعريف واثنا عشر طفلا لم يبلغوا الحلم ••

« وجعل الصهريج سبيلا للفقراء وجميع المسلمين ، يملأ في شهر « طوبة » من النيل ، وجعل نفع الساقية عوميا للمطهرة وغيرها ، والمساكن التى بجوار الجامع معدة لسكن الامام والخدمة ••

«واشترط أن يبدأ بالعمارة و«المرمة» ثم يصرف لشيخ القراء كل شهر من الشهور العربية ستون نصفا •• وقرر لمشيخة الحديث مفتى السادة المالكية «الشيخ اللقانى» • ومن بعده يقرر الناظر من هو أعلا الناس سندا ••

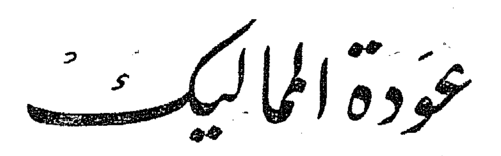
وقد درج هذا الوالى العثمانى على حب الخير ، واستهوته عمارة بيوت الله ، فأنفق فيها ماله حتى لقبه السادة اللقانية « **بأبى النور** » ••

وحدثت فى أيامه فتنة مملوكية بين جماعتى « القاسمية » ومنافسيهم « الغفارية » ، وقد ثار « الغفارية » عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وعزلوه من الولاية وسلبوه السلطان !

وأخذ المماليك بعد هذا يتغلغلون فى شتى شئون الحكم ، حتى قويت شوكتهم من جديد •• وأصبح الجو ممهدا للقيام بمغامرة لانتزاع الحكم ، لامن يد الوالى العثمانى فحسب •• بل من يد السلطان نفسه ••



احدى مشكاوات جامع السلطان برقوق



لئن كان « الخنكار » سليم الاول قداعتبر موقعة « مرج دابق » تاج نصره وبداية توطيد أقدام العثمانيين فى الشرق ، فان الواقع نفسه والحوادث معه قد أكدا غيرذلك واعتبرا تلك الموقعة بالذات نهاية فعلية لعهد سلاطين المماليك الشراكسة وحكمهم ، وبداية مدعمة لفترة ترقب خاطفة ــ تم خلالها زحف المماليك ثانية الى أماكن الصدارة في مصر ، حتى لقد صارت لهم المنعة والقدرة على شل يد الحكم العثماني والقضاء على هيبته فى مصر ، وأحيانا فى بلاد الشام والحجاز ..

لقد كانت الخيانة واشاعة الفرقة فى الصفوف وايجادالاحزاب وتربص الطوائف بعضها ببعض ، أساسا لسياسة سليم الاول وسر انتصاراته ، وهى أسس كان صاحبها يعرف أنها غير صالحة للبقاءوالخلود ولكنه برغم هذا عمل على تثبيتها وتدعيمها فىأرض الشرق ــ وقد خدعته مظاهرنجاحها الوقتية ، متناسيا مقدم الغد .. متجاهلا قومة الطوائف التى أوجدها وأدخلها فى حساب الحوادث قسرا ، وهو يظن أنهاستعمل فى صفه وتكون فى خدمته ..

« مئذنة جامع الحريشى بالمحلة الكبرى »

كان سليم يعرف أنه أزال الملك الشركسى فقط .. أما المماليك ــ كقوة لها أثرها الفعال ، فقد كان يعرف أنها لم تزل حيث كانت فى موضعها القديم ، متغلغلة فى صميم الحياة الاجتماعية المصرية .. وانها ،وان تصاغرت أمام الحوادث وخضعت لسلطان النصر الوقتى ، فان هذا لايعنى خضوعها المستمر ، أو انه تخلص منها نهائيا..

وعلى هذا الاساس عرف سليم أن انتصاره الحربى على السلطة الزمنية شيء ، والقضاء على النفوذ المملوكى شيء آخر . ميدان التخلص منه غير ميدان الحرب والقتال .. ففكر فى حيلة من حيله الخطيرة ، يضمن عن طريقها القضاء على أى محاولة مملوكيـة يمكن أن تقوم بها هذه الفئة الخطيرة فى سبيل استرجاع سلطانها الذاهب ..

ولقد كان سليم دائم التقصى ، لمعرفة أحوال الشراكسة الذين أزال سلطانهم ..

واذا بالخائن « خاير بك » يهبط عليه ذات يوم ويرشده الى أمير مملوكى اعتزل الحياة وطلق المجتمعات وبعد عن الناس وأغلق دونهم أبوابه ، حتى لقـد أسموه « سودون الأسير » !! ..

وأحب « الحنكار » الداهية أن يعرف عن سودون هذا أكثر من أنه اعتزل المجتمعات .. فعرف أن له ولدين «أسرهما» داخل بيته أيضا ، كى يحول دون اختلاطهما بالناس ويباعد بينهما وبين الفتن حتى لقد سد مداخل قصره بالحجارة .. !

وراعت القصة السـلطان العثمانى الداهيـة .. وزاد فى اعجابه بها أن عرف حب الشابين للفروسية ومهارتهما فيها ، مهارة ندر مثيلها .. فكان أن قرر زيارة المملوك « الاسير » وولديه ..

وسرعان ماتحرك موكبه الى هناك ؛ حيث وجد الرجل فى جلسـته المنعزلة يتلو كتاب الله ..

وأعجب سليم بمضيفه سودون ، وقبل أن يتناول الطعام فى بيته .. ثم لم يلبث أن طلب رؤية ولديه ، فحضر « ذو الفقار » و « قاسم » .. ورآهما سليم أعظم مما وصفهما له «خاير بك» : شبابا وفتوة ، وتواضعا ولباقة فى الحديث ..

وانصرف السلطان العثمانى ، بعد أن رفع مرتبة سودون وولديه وضاعف أجرهم ..

ولم يكد يحل اليوم التالى ، حتى كان قد أرسل فى استدعاء الامير وولديه الى الصحراء التى خرج اليها فى ذلك اليوم فى موكب من حاشيته وجنده ..

وحضر سودون الاسير وولداه .. واذا بالسلطان يطلب من الشابين أن يقوما ببعض الاستعراضات فى فن الفروسية على جواديهما أمام الجمع الحاشد ، فلبى الاميران طلبه . وعرفا كيف يذهلان بفروسيتهما جمهور الحاضرين !

وكرر سليم الحادث فى اليوم الثـانى ودعا أمراء المماليك والاجنـاد .. ثم طلب من الجميع أن يجعلوا من أنفسهم فرقتين ، على رأس احداهما « قاسم » وعلى الثانية شقيقه « ذو الفقار » ..

وجعل معظم فرسانه العثمانيين فى الفريق الذى كان يقوده ذو الفقار ، أما قاسم فقد زوده بأمراء المماليك وجنود مصر .. وألبس رجال ذى الفقار الثياب البيض ، والقاسم ورجاله الثياب الحمر ..



« مسجد أيا صوفيا بتركيا »

كان السلطان محمد الفاتح اول مسلم فتح القسطنطينية ووصل الى اوروبا ، واول من استولى على الكنيسة الشهيرة « اياصوفيا » وحولها الى مسجد عظيم .. حول مذبحها الى محراب فخم ، وغطى النقوش واللوحات الكنيسية بطلاء أخفى معالمها ، وشيد لها المنابر و القباب الرائعة .. ونقش بداخله اسم الله ورسوله وصحابته .. وسجل عليها فنانو المسلمين اروع آيات الفن البيزنطي الدقيق ، لتستقيم في تعبيراتها الدينية مع بساطة الدين الاسلامي

ولما تم هذا الاعداد الغريب ، أمر الطاغية العثمانى كلتا الفرقتين أن تركب الى الميدان فى هيئة عرض عام •• ثم كلفهم أن يقوموا بتمثيل معركة !

وانطلق الفريقان •• وتدافع رجال قاسم ، ورجال ذو الفقار ، وصالت الرماح وجالت ، وتدافعت الاجساد وتلاحقت ، وعلت الصرخات وعظم الكر والفر •• وكاد العرض التمثيلى ينقلب الى حقيقة !•• وكاد كل من الاخوين الشقيقين ينسى نفسه وصلة الدم وآصرة الاخوة ، ليحرز النصر ويكون له القدح المعلى على الآخر !

واذ ذاك صدر أمر الطاغية بايقاف القتال « الصورى » •• وعودة القوات كلها الى مراكزها ••

وعاد الامراء جميعا فى ذلك اليوم وهم فرقتان توزعت قلوبهما ••

ووقف القائدان الاخوان موقف التحدى كل منهما للآخر •• ونظرا الى الواقع «التمثيلى» كأنه حقيقة صدرت بها «الاوامر» •• وصارا حزبين متعارضين ، القاسمية والفقارية ، وقد تمسك كل منهما بالزى الذى اختاره له الطاغية ، والتقاليد التى استنها وبهذا الانشقاق ربح سليم من ورائهما أن شطر المماليك كمجموعة موحدة الى حزبين ••

وهكذا ربح الطاغية الجولة الاولى بهذا « الصدع » الخطير فى صفوف المماليك المتحدة كالبنيان المرصوص ••

وعاد سليم الى بلاده وقد نسى المماليك أصولهم وطوائفهم ، فلم يعودوا ، «بحرية» ، ولا « برجية » بل •• « فقارية » و «قاسمية » ، بينهما برزخ من التطاحن والعداء الرهيب

ولكن هل استطاع سليم ، أو خلفاؤه من بعده أن يقضوا على النفوذ المملوكى فى مصر ؟!

لا •• لقد كان النظام الثلاثى فى الحكم أولا واشراك المماليك فيه ، ثم نظام الحزبية القاسمية والفقارية بعد ذلك ــ من أكبر الاسباب التى دعت المماليك الى تقوية أنفسهم ، كل داخل حزبه••حتى لقد أصبحوا خطرا رهيبا على «الباشا» نفسه ، وعلى«وجاقات» الجيش الذين كانوا يعتبرون السلطة الثانية فى الحكم ••

وقد بلغ من استفحال قوة المماليك أن كانت لهم القدرة على خلع « الباشا » وطرده من البلاد ، بل لقد حدث أن الدولة العثمانية نفسها ــ ممثلة فى شخص السلطان كانت تطلب منهم قيادة حملات تأديبية فى مصر وخارجها لقمع الفتن والثورات •• فى الوقت الذى كان يهمل فيه شأن الوالى ، لاعتقاد سادته فى « الأستانة » بأنه أضعف وأحقر من المماليك !

وهكذا بدأ المماليك يتسللون من جديد الى مكان الصدارة فى الدولة ويحتلون أرفع المناصب ويسيطرون على المجتمعات كلها •• حتى أصبح الوالى ورؤساء الوجاقات الى جانبهم لا شىء ••

وقد نبه فى العصر العثمانى كثيرون من المماليك وارتفع شأنهم ارتفاعا له خطره ،

حتى طغت شهرتهم على شهرة الوالى ومكانته ·· ومن أهمهم مملوك جرىء اسمه « عوض بك » ، حرف العثمانيون اسمه الى «ايواظ بك » ـ وكان من فئة « القاسمية » ·· وبلغ من اعتراف الدولة العثمانية بمكانته أن جعلت ترسل اليه « الفرمان السلطانى » تلو الآخر ، ليكون قائد حملاتها على العصاة !

وورث أمجاد « ايواظ بك » بعد موته ولده الجرىء « اسماعيل بن ايواظ » ·· الذى فكر فى سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، والاستقلال بحكمها ·· ولكن الخيانة السلطانية لاحقته ، واستطاع المرتشون من لصوص رجال المابين اغراء تابعه « محمد جركس » بقتله ·· فتآمر عليه وقتله ! ·· وكان أول وأجرأ المماليك فى محاولة الاستقلال ··

واسماعيل بن ايواظ كان رجل خير وصلاح وبر ، استتب الامن فى أيامه ، وهدأت الفتن ، وعرف الناس معنى الراحة والاستقرار ، و «كانت أيامه سعيدة ، وأفعاله حميدة والاقليم فى أمن وأمان من قطاع الطرق وأولاد الحرام » (١)

واسماعيل بن ايواظ بعد هذا يعتبر أول « شيخ بلد » من المماليك ، أقدم فى العصر العثمانى على تعمير المساجد ، فأعاد بهذا سنة من سبقوه من المماليك القدامى ـ بين شراكسة وبحرية ، كانت موقعة «مرج دابق» الحدالفاصل لنشاطهم العمرانى واهتمامهم الزائد ببيوت الله ··

وقد اتجه ابن ايواظ أول ما اتجه باهتمامه العمرانى ـ الى الجامع الازهر ·· فاستعرض حالته البنائية كلها ، فوجد سقف المسجد بأجمعه آيلا للسقوط ·· فأمر بهدمه ·· ثم أسرع يبنيه من جديد ، فجاء عمله تحفة بنائية رائعة ، وكان عملا جليلا له مكانته فى النفوس ··

ولم يكد يفرغ من بناء سقف الجامع الازهر ، حتى اتجه الى مشروع بنائى جديد ، هو اقامة مسجد عظيم للسيد « ابراهيم الدسوقى » ··

والمسجد الدسوقى كان أول ماكان « زاوية » صغيرة رأى ابن ايواظ أنها لاتتفق ومكانة القطب الصوفى الكبير السيد ابراهيم الدسوقى ·· فكان أن أمر بازالتها وآنشأ مكانها مسجدا جامعا ، بناه على هيئة المدارس ، مكونا من صحن تحيط به عدة ايوانات

واظهر اهتماما خاصا بالضريح الشهير ، فاقام فوقه قبة سامقة بديعة ، تفنن الصناع فى زخرفتها ، فكانت آية من آيات العصر فى دقة الصناعة وجمال الزخرفة ··

وللأمير اسماعيل بن ايواظ ، بعد هذين الاثرين الخالدين ـ أثر انشائى ثالث ، هو بناؤه مسجد السيد **« على المليجى »** فى طنطا ··

ومحمد جركس ، الذى تولى « مشيخة البلد » بعد سيده اسماعيل بن ايواظ ـ كان نسيجا وحده ·· فى البغى والظلم والعدوان !! وكانت له بطانة على شاكلته من متمردى

---

(١) الجبرتى

المماليك وعصاباتهم ، ارتكبوا أبشع القبائح وأرذل الفعال .. الى حد أنهم كانوا يدهمون جهارا « الحمامات » الشعبية ؛ ليسرقوا ملابس النساء وحليهن وما يحملن من مال !

وبرغم هذه الرذائل البشعة والجرأة الرهيبة على أقدس المقدسات ، فقد أبى محمد جركس الا أن يشيد باسمه مسجدا مرموقا ؛ ليذكره الناس به على الدوام .. فكان أن واتته الظروف ، فأمر ببناء مسجد شامخ ، جمع بين البساطة والروعة ــ جهة «مناظر اللوق » ، بعد به عن الفن المملوكى العتيد ، واتجه به الى « العمـــارة » العثمانية وأخذ بأساليبها فى مئذنته ومحرابه وطريقة بنائه ..

وقد عاصر الداهية محمد جركس ــ أمير خير صالح من أمراء «الفقارية» ، هو «ذوالفقار الفقارى بك » ..

ولقد كان ذو الفقار سيدا مرهوب الجانب ، عالى المقدار ــ كره أن يستبد محمد جركس بالشعب وأن يشيع الفســاد فى مصر ، وأن يعتــــدى على الحرمات دون أن تفكر قوة فى الصمود له !!

بل من كان يجسر على الوقوف فى وجه « جركس » الذى ســـجن الوالى التركى فى القلعة ، ثم أمر بطرده من مصر !!

ولكن ذو الفقار وقف فى وجه الطاغية ، وقامت بينه وبين جركس حروب خطيرة كان النصر فى نهايتها لـ « ذو الفقار » على عدوه ، الذى هرب من الموقعة على ظهـر جواد خاض به النهر ، ولم يستطع أن يتخلص منه ، فغرق ..

ومن المؤسف أن ذا الفقار لم ينعم بالنصر الذى أحرزه على جركس ، اذ تآمر عليه مماليك عدوه واستطاعوا أن يظفروا به ويقتلوه بعد موت سيدهم بخمسة أيام !

وورث أمجاد « ذو الفقار بك » وعزه ومكانته، مملوكةالذكى «عثمان بك ذوالفقار» الذى كان من الجرأة وسعة الحيلة بحيث نزع الى الاستقلال عن الدولة العلية ، وأحب أن يستقل بحكم مصر ويسلخها من أملاك العثمانيين .. ولكن الخيـانة تربصت به ووقفت له بالمرصاد ..

ومن أظهر الثراة فى عصر عثمان بك « خشـــداشة » ، وصاحبه عثمـان كتخـدا القازدوغلى » صاحب المهابة والكياسة والسطوة والنفوذ ، وصاحب المسجد الشــهير الذى عرف باسم « جامع الكخيا » ..

ومسجد « الكخيا » عثمان القازدوغلى ، هو فى الواقع مركز لمجموعة بنائية ضخمة ، انشأها ذلك الامير بجهة رصيف الخشاب . وهى مكونة من مسجد ، وسبيل ، ومكتب وحمام ..

والمسجد من حيث صفته البنائية يعتبر تحفة جميلة من فن المعمار الاسلامى ، وهو مرتفع عن الطريق ، وواجهته بسيطة المظهر ، وبه بابه الأصلى ، ويصــل الصـاعد اليه بعدة درجات رخامية تنتهى بمدخل حجرى متسع ، حلته تربيعات من القيشانى ..

وباب المسجد من الخشب المنقوش بزخارف دقيقة محلاة بالنحاس المفرغ ..

وللمسجد منارة فى ناحيته الشرقية ، وقد بنيت على النمط العثمانى البسيط ..

والمسجد من الداخل على طراز المساجد الجامعة ، فهو مكون من صحن فسيح غير مسقوف ، فرشت أرضه بالرخام الناصع ، تحوطه أربعة ايوانات فسيحة ـ أعظمها شأنا الايوان الشرقى ؛ لاشتماله على ثلاثة أبهاء مليئة بالاعمدة الرخامية التى تحمل عقودا حجرية ركب فوقها سقف المسجد ..

ومحراب مسجد « الكخيا » فى صدر ايوانه الشرقى ، وهو مقام من الرخام الدقيق ، يكتنفه عمودان أخضران ، وقد حلى أعلاه وأسفله بالرخام الذى نقشت عليه زخارف ورقية ..

والى جوار المحراب يقوم المنبر الخشبى الدقيق الصنع ..

وواجهة المسجد تطل على الطريق العام .. وتشرف عليه من خلال نوافذ كبيرة حديدية ، تعلوها مناور دقيقة من الجص محلاة بالزجاج الملون ..

والجميل فى المسجد بساطته التى استمدت من بساطة صاحبه ، الذى أبى عليه تواضعه أن ينقش عليه اسمه ، كما اعتاد أن يفعل غيره . واكتفى بأن ثبت لوحا فى واجهة الايوان الشرقى جاء فيه :

« قد وافق الفراغ من انشاء هذا المسجد المبارك غرة جمادى الاولى من شهور سنة ألف وماية وسبعة وأربعين ، فنسأل الله الكريم من فضله العميم أن يتقبله من واقفه ، ويدخله الجنة دار النعيم » ..

وافتتح الجامع للصلاة فى يوم مشهود .. وتقاطر الناس عليه حتى امتلأ وضاق بمن فيه ولم يبق فيه مكان لقدم .. حتى أن الامير الأجل « **عثمان بك ذو الفقار** » لم يجد لنفسه مكانا يصلى فيه ، اذ حضر متأخرا .. فعاد ليصلى فى مسجد ازبك اليوسفى القريب من مسجد الكخيا ..

وقد مات « كتخدا » وخلف وراءه ثروة تجل عن الحصر ، ورثها ابنه « عبد الرحمن » وكان وقتها حدثا .. فاغتصبها منه بعض مماليك أبيه ، ولكن عثمان بك ذو الفقار كان لهم بالمرصاد ، فرد الثروة الى عبد الرحمن .. الذى عرف كيف يستغلها بعد ذلك فى وجوه الخير وقد ورث معها أيضا مكانة أبيه العالية ودرجته الرفيعة فى الدولة ..

وقد شارك عثمان بك فى أبهة الحكم صديق جرىء من المماليك ، اسمه « **رضوان** كتخدا » ، وقد تنتسب نفسه الى قرية « **سنجلف** » من أعمال مديرية المنوفية ..

وقد كان رضوان كتخدا الجلفى أميرا جليل الشأن محبا للخير .. وكانت أبواب قصره مفتوحة على الدوام للقاصدين .. وكانت بطانته من أهل العلم والعرفان والادب ، وكانت له مع الشعراء صولات وجولات ..

وكان لرضوان الجلفى مماليك .. وكانت لبعض هؤلاء المماليك مطامع ، فلم يكن غريبا عليهم أن يتآمروا عليه ويحاصروه فى قصره ، ويضربه أحدهم بالرصاص فيصاب فى رجله .. ولكنه مع هذا يفر منهم على ظهر جواده وهو جريح ، ليموت فى مكان بعيد ..

ولقد مهدت مؤامرة القضاء على رضوان الجلفى الفرصة لظهور مملوك عظيم الشأن ، هو « على بك بلو قبطان القازدوغلى » الذى عرفه التاريخ باسم « على بك الكبير » ..

وقد ورث على بك الكبير أمجاد سيده رضوان الجلفى ، وتربع على كرسى « **مشيخة البلد** » .. فكان أخطر وأقوى الامراء المماليك وأبعدهم نظرا ..

وبدأ على بك عهده بأن قتل المملوك «صالحا» الذى أطلق الرصاص على سيده رضوان الجلفى ، اذ اعتبره خائنا ، ومن الحكمة الا يؤتمن !!

والتفت بعد هذا الى تقوية مركزه وتحصين نفسه ..

وعلى بك الكبير يعتبر أدهى وأقوى بكوات المماليك الذين شهدتهم مسارح السياسة بعد زوال دولة الشراكسة فى مصر .. فقد كان جريئا ، عنيفا .. مصريا بدمه ولحمه وتفكيره ، محبا للارض التى وسعه كرمها .. فكان أن فكر ، أول مافكر ـ فى تخليصها من النير العثمانى الرهيب .

ونظر على بك حواليه ، فهاله ما رأى : سلطان .. ضعيف عاجز ! ورجال بلاط ، لايعرفون غير حبك الفتن وخلق المنازعات والدسائس ، ولا يحسنون عملا الا التجسس ، ورسم خطط الاغتيال لكل من يفكر فى التحرر أو الاصلاح !

ورأى الرشوة سائدة .. وعرف أنها طالما كانت سيدة كل موقف ، وانها وحدها كانت الكفيلة بتحقيق كل رغبة وتذليل كل صعب ومفتاح كل طريق الى الآمال والرغبات !

وعز على المملوك الطموح أن تكون مصر نهبا مقسما بين فئة من المرتشين الأغراب ..

وقرر فى نفسه تخليصها من أيديهم مهما كانت النتيجة .. ومن هنا بدأ يقف موقف المترقب الواعى الخبير بمجريات الامور ..

وجاءت من الاستانة رسل على بك الكبير ، لتخبره أن ثمة خطة جريئة قد رسمت هناك للقضاء عليه .. وعينوا لها أبطالها .. وسرعان ماوجه ضربته قبل أن يضربوه .. واعلن استقلاله بمصر !

ونادى بنفسه حاكما مطلقا عليها !

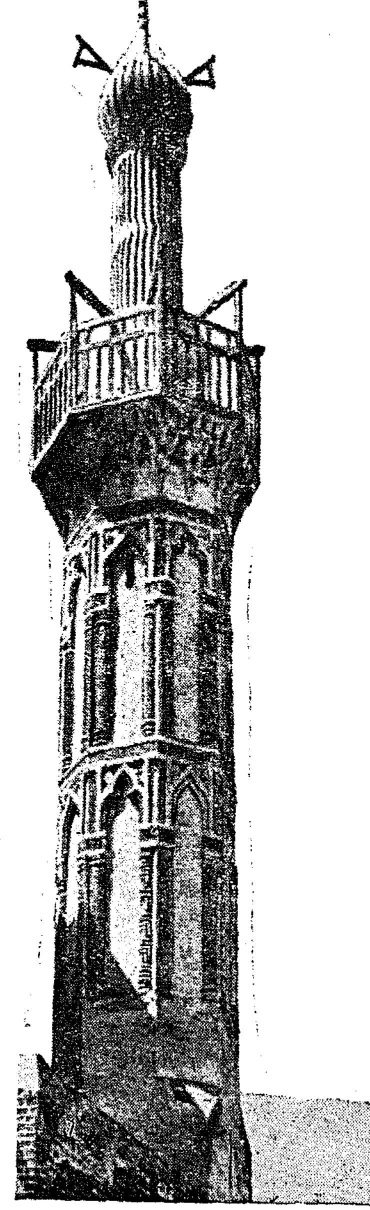
ومنع دخول الولاة الاتراك اليها !

وأوقف دفع الجزية !

وضرب العملة باسمه !

ثم أخذ يعمل لفرض سلطانه على بلاد العرب والشام !

استقلال ، وخيانة



« مئذنة مسجد العباسي برشيد »

استقل على بك الكبير بحكم مصر .. وسخر علانية من السلطان العثماني ، فطرد واليه ، ولم يسمح بعد ذلك لوال عثماني بدخول أرض مصر .. وراح يشترى المماليك ويكثر منهم ، فى الوقت الذى حرم فيه على « البكوات » من زملائه القدامى ، الاحتفاظ باكثر من مملوكين فقط ..

وسار على بك فى سبيل استقلاله بمصر شوطا بعيدا ، أعاد اليها خلاله هيبتها القديمة وعزها ، فنودى باسمه على المنابر ، ونقشت « السكة » باسمه ، وفاوض الملوك وتحالف مع الامم ، وابرم بينه وبين انجلترا والبندقية محالفات تجارية ..

وكون على بك الكبير لنفسه جيشا عظيما .. واستطاع بفضل قوته الجديدة ان يدخل ميدان الصراع الدولى ، وأن يعقد مع روسيا معاهدة دفاعية هجومية .. وكانت روسيا فى ذلك الوقت مشتبكة فى حرب ضروس مع جيوش السلطان العثمانى ..

وسار على بك بجيوشه خارج مصر .. وبدأ يستولى على املاك السلطان نفسه ، فخلع ولاته فى جدة والحجاز ، وخلع شريفها الموالى للسلطان ، ونصب بدلا منه شريفا آخر اعترف بتبعيته لمصر ، وامر بأن تكون خطبة الجمعة فى الحرمين الشريفين باسم على بك الكبير سلطان مصر وخاقان البحرين ..

ولقد كان على بك رجلا فذا ، طموحا ، قادرا ، شديد المراس ، مهيب الجانب مرهوبا .. أحس بصفاته هذه كلها ، فأحسن استغلالها حتى وصل الى أبعد مما كان يريد ..

وكان الرجل فوق هذا صارما ، سريع البت فى الامور ، فعرف كيف ينقى الجو من الشوائب ويتخلص من شتى القوى التى كانت تناوئه فى الداخل ، ولم تقف دون خطته زمالة أو صداقة أو فضل قديم ..

ولم يكن غريبا على رجل هذه صفاته ، أن يعرف مكمن الداء وموضع الخطر .. لهذا عمد أول ماعمد الى التخلص من « **عبد الرحمن كتخدا** » صاحب الأيادى الظاهرة عليه ، وسيده ، وحاميه ، وساعده الاول فى الوصول الى أهدافه وفوزه بمشيخة البلد .. وذلك لانه أحس من عبـد الرحمن ـ وهو كما عرفنا كان صاحب حول وطول ـ ميلا الى ممارسة السلطة ورغبة بادية فى التدخل فى أعماله الخاصة ، فكان ان اصدر أمرا بنفيه خارج مصر !!

والتفت على بك بعد هذا .. وبعد أن تخلص من عبد الرحمن كتخدا ـ الى أمير مملوكى آخر خطير الشأن هو « صالح بك القاسمى » ، صاحب المكانة العالية فى الصعيد وخاصة عند قبائل الهوارة ـ وذلك بأن وكل الى صالح بك تنفيذ أمر نفى عبد الرحمن ومصاحبته حتى السويس .. ثم أخبر اتباعه سرا بأن صالحا مقضى عليه بالنفى مع عبد الرحمن ، فحمل قسرا الى غزة ، ومنها أعيد الى رشيد ..

واستطاع صالح القاسمى أن يفر من منفاه الى الصعيد ، حيث تحصن فى « المنيا » وكون جيشا خطيرا ، استطاع أن يهزم الجيش الذى بعثه له على بك الكبير ..

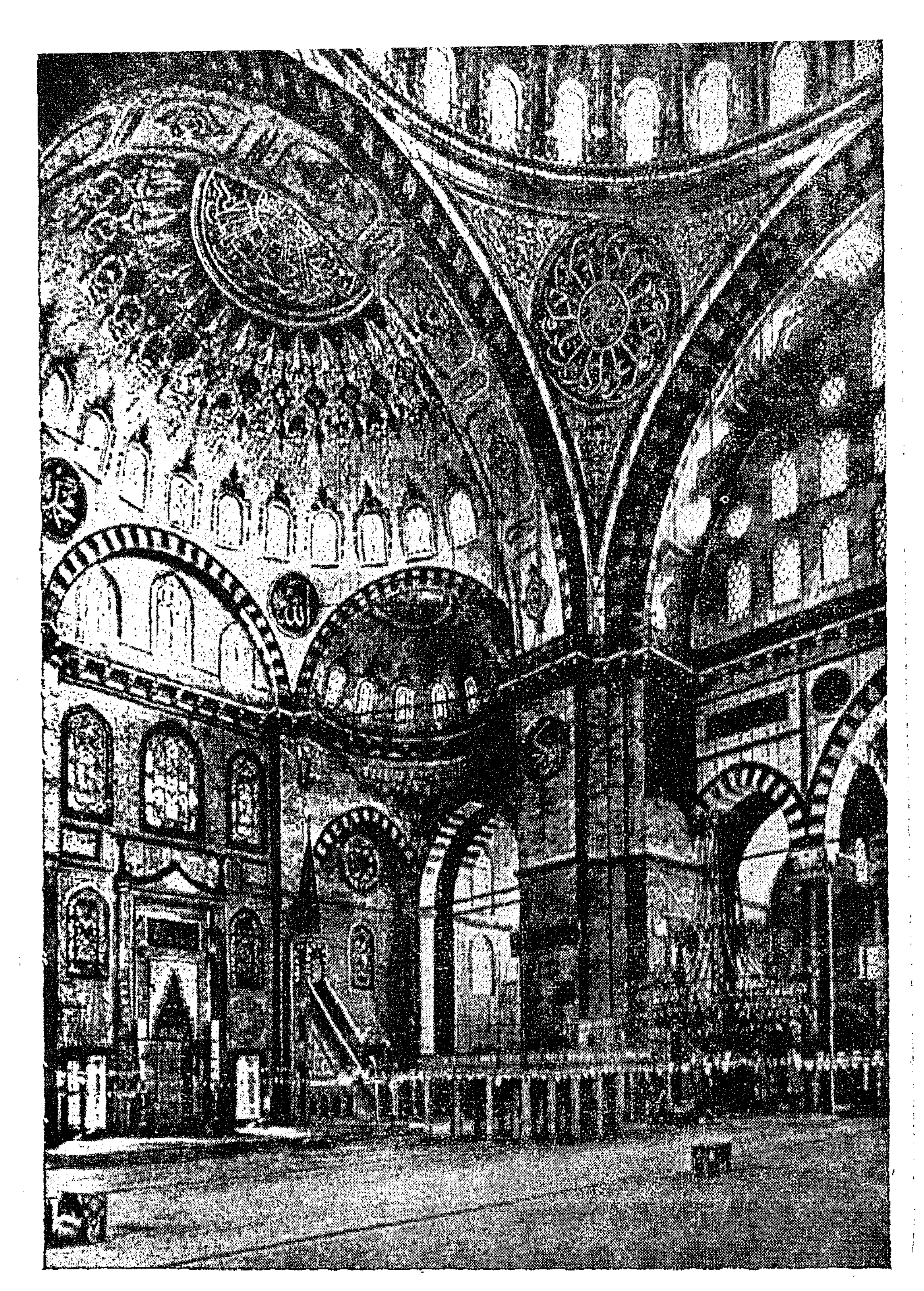
وتصالح الرجلان بعـد ذلك ، ولكن على بك الكبير لم يكن صـادقا فى مصالحته لصالح القاسمى ، اذ سرعان ماغدر به وأوعز الى بعض مماليكه بالتربص له ذات يوم ، وكان فى ضيافته ، ليثبوا عليه ويقتلوه أثناء خروجه .. وقد كان !!

* * *

ودانت الدنيا لعلى بك الكبير بعد هذا .. لقد أصبح وحـده سيد البـلاد ، بل أصبح سلطان مصر المستقل الذى تجاسر على أملاك السلطان العثمانى وسلبها وخلع من خلع من ولاتها وعين من عنده ولاة آخرين يدينون له وحده بالطاعة والخضوع ..

واستقرت أقدام على بك الكبير فى بلاد الحجاز ، ووجد أن الفرصة مواتية لاسترداد بلاد الشام .. فلم يلبث أن بعث اليها بجيش جرار حالفه النصر حتى وصل الى دمشق .. ثم صادفته هناك الخيانة والدس والوقيعة ، والاغراء بالمال فلعبت كلها بعقل المملوك القائد « محمد أبو الذهب » ، فاذا به ينسى واجب الولاء لسيده على بك ، ويصغى الى مؤامرة رجال المابين زعماء الرشوة والخيانة والفسـاد ، ودعاة الانحـلال والفوضى فى الشرق الذى نكب بهم ذات يوم ! !

وتقاربت الرؤوس .. وأسر أبو الذهب الى زميله مراد بك برغبته فى التخلص من سيدهما « على بك » الذى طغى وتجبر ، وعلا وتعاظم ومال الى الراحـة وراح يبعث بهم الى الحرب والموت ! !



« مسجد السلطان سليم شاه العثمانى »

مسجد السلطان الذى ما تصور ابدا أن الفتح العثمانى فى مصر ـ الذى هزم فيه امام السلطان الغورى ستحوله الخيانة نصرا .. فلولا خيانة خاير بك لسيده مادخل العثمانيون مصر .. والسلطان سليم شاه هو ابن بايزيد الثانى وجده محمد الفاتح ـ وهو الذى عمل جاهدا لينتقل مركز الخلافة من مصر الى عاصمة العثمانيين .. وقد بنى مسجده هناك وحاول أن يخلع عن القاهرة أردية الزعامة الدينية ويلبسها للقسطنطينية .. ففشل فشلا ذريعا . ولم تستطع آلات الحرب والجيوش أن تنتصر على الامامة الروحية ، فراح يحارب العلماء ويضعف من سلطانهم ..

وتردد مراد .. ولكن أبو الذهب أقنعه ، بل واستطاع أن يصل الى خبيئة نفسه الشريرة .. فعرف أنه يكاد يموت حبا بجارية شركسية لدى سيده على بك ، اسمها «نفيسة» رائعة الجمال .. وانه يتمنى لو يتزوج بها ..

ومن ناحية «نفيسة» هذه ــ نفذ أبو الذهب الى صاحبه ، فلانت عريكة مراد وقبل الاشتراك معه فى جريمة الغدر بالسلطان ، مادام سيفوز «بنفيسة» ، وتكون له ..

وعاد أبو الذهب بجيشه الى مصر ، بعد أن أحكم الخطة مع سادته الاتراك ، وأخذ منهم وعدا بمكافأته وولايته .. ودخلها دخول الفاتح المرهوب الجانب ، اذ كان خلفه ثلاثون ألف محارب .. ولم يستطع على بك الكبير أن يصدهم .. أو أن يقف فى وجوههم ، ففر هاربا تاركا مصر لابى الذهب ، فى حين لجأ هو الى خليفة الشيخ « **ضاهر العمر** » حاكم عكا ..

وفى « عكا » تقابل « على بك » بقائد الاسطول الروسى المرابض هناك ، فأسرع اليه مطالبا بتنفيذ شروط المعاهدة الدفاعية الهجومية التى كان قد عقدها مع الروس .. فأمده القائد بالرجال والسلاح ليسير على رأس جيش مدرب لاتمام اخضاع الشام لحكمه.

وانتصر على بك الكبير فى الشام ووطد أقدامه هناك ، وأصبح قوة مرهوبة يخشاها الخائن أبو الذهب .. فاذا به يتحايل ويرسم خطة للغدر بسيده الاول ، فجره الى شرك نصبه له ، اذ أرسل اليه الوفود تلو الوفود ، تطالبه بالعودة الى مصر ليخلصها من عسف أبى الذهب !!

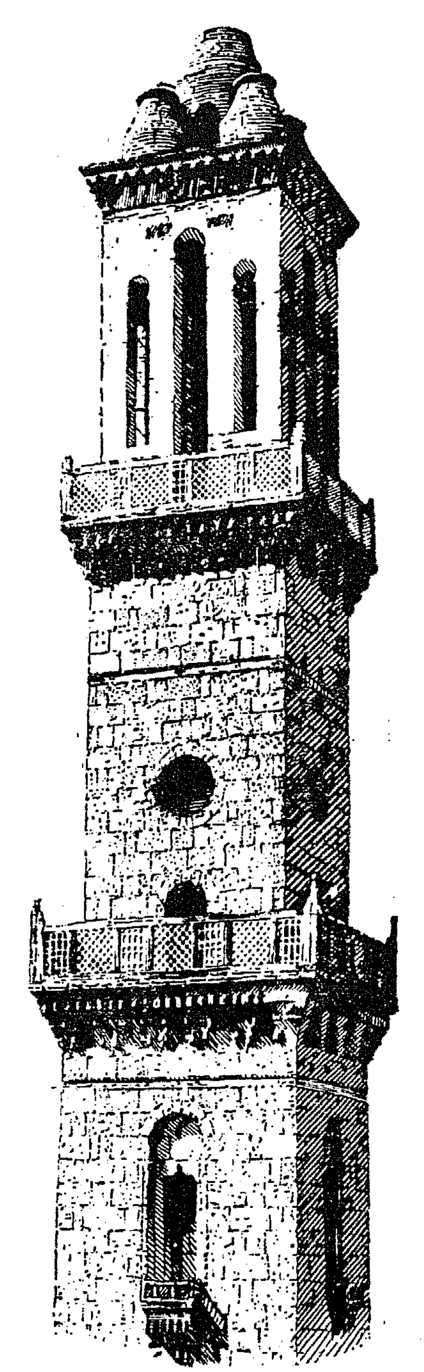
وصدق على بك ماسمعه .. وسار الى مصر بجيش صغير هزم به « أبو الذهب » عند الصالحية ..ثم مالبثت الخديعة أن لعبت دورها فدارت الدائرة على «على بك الكبير » فوقع فى أسر مملوكه الذى أكرمه ، وترجل عن جواده ساعة رآه ، وركع أمامه مستغفرا وقبل يده ..

ثم صحبه معه الى القاهرة حيث بقى فيها سبعة أيام .. ثم مات ..

وقيل ان السم قد لعب دورا فى هذا الموت المفاجىء !!

وهكذا غدر أبى الذهب الذى أعاد حكم العثمانيين الى مصر ، وأفقدها استقلالها الذى حققه سيده على بك الكبير ..





تسابق فى المكرمات

كانت فترة خاطفة من فترات التاريخ . فترة بسيطة من العسير أن تتسع لبناء الامم وتحقيق المعجزات ..

ولكن ماحدث فيها كان شيئا جد خطير .

ثمانية عشر عاما كاملة خرجت فيها مصر من نطاق الفلك العثمانى وأعلنت استقلالها عن السلطان .. وراحت تعمل للغد فى مثابرة وجد ، وتستعيد مافقدت من الامجاد واستطاعت أن تحرر الحجاز والشام وأن تعيدهما الى فلكها كما كانا قبل الغزو العثمانى ..

ثمانية عشر عاما استقل فيها على بك الكبير بمصر ، وأعاد اليها رايات العز والسؤدد ، وجعل منها شوكة فى جنب الدولة العثمانية التى أحست بخطورة استقلال مصر ، فلجأت الى الدس والخيانة لتسترد مكانة كادت تفقدها فى الشرق ..

ثمانية عشر عاما ، مع بدايتها أهلت الحرية على مصر ، واستروح أهلوها عبير الخلاص .. ومع نهايتها غربت أضواء المجد ، وعادت لتخيم عليها من جديد ظلمات التبعية العثمانية التى جرها معه على البلاد، المملوك الغريب الخائن محمد أبو الذهب ..

تلك فترة من فترات التاريخ وان قصرت الا أنها حفلت بالاعمال والحوادث والمغامرات وفى ميدانها ظهر رجال وأشباه رجال ..

« مئذنة جامع محمد أبو الذهب »

وخلالها برزت أعمال عظيمة ... وتمت انشاءات خطيرة واشتهرت شخصيات نافعة وضارة ، ولمعت أسماء حبيبة وبغيضة ، من أهمها ـ الى جانب على بك الكبير ـ

« عبد الرحمن كتخدا » ثم .. « محمد أبو الذهب » كمنشيء لمسجد له قيمته التاريخية فقط ..

ولئن قيل عن على بك الكبير انه كان رجل حرب ومغامرات ، فان تاريخه يثبت له فضائل أخرى كالشجاعة الادبية النادرة ، وحب الخير المطلق ، والبغض الشديد للخسة والدنايا .. واحتقاره للوساطة وكرهه للمرتشين ..

وكان مجلسه مجلس الفضل والكمال والعلم .. وكان خطيبا قوى الحجة ، واسع الاطلاع ، عارفا بسير القدماء مغرما بالتشبه بهم .. وكانت شخصية السلطان الملك « الظاهر بيبرس » البندقدارى ، من أحب الشخصيات الى نفس على بك الكبير .. واستطاع أن يخلد لنفسه بجانب مجده الحربى فى ميادين الحرب وساحات القتال - ذكرا عطرا فى ميادين الاصلاح والعمارة ، وترك وراءه آثارا ناطقة بحبه للدين والبر ، وغرامه بالعمارة الاسلامية ..

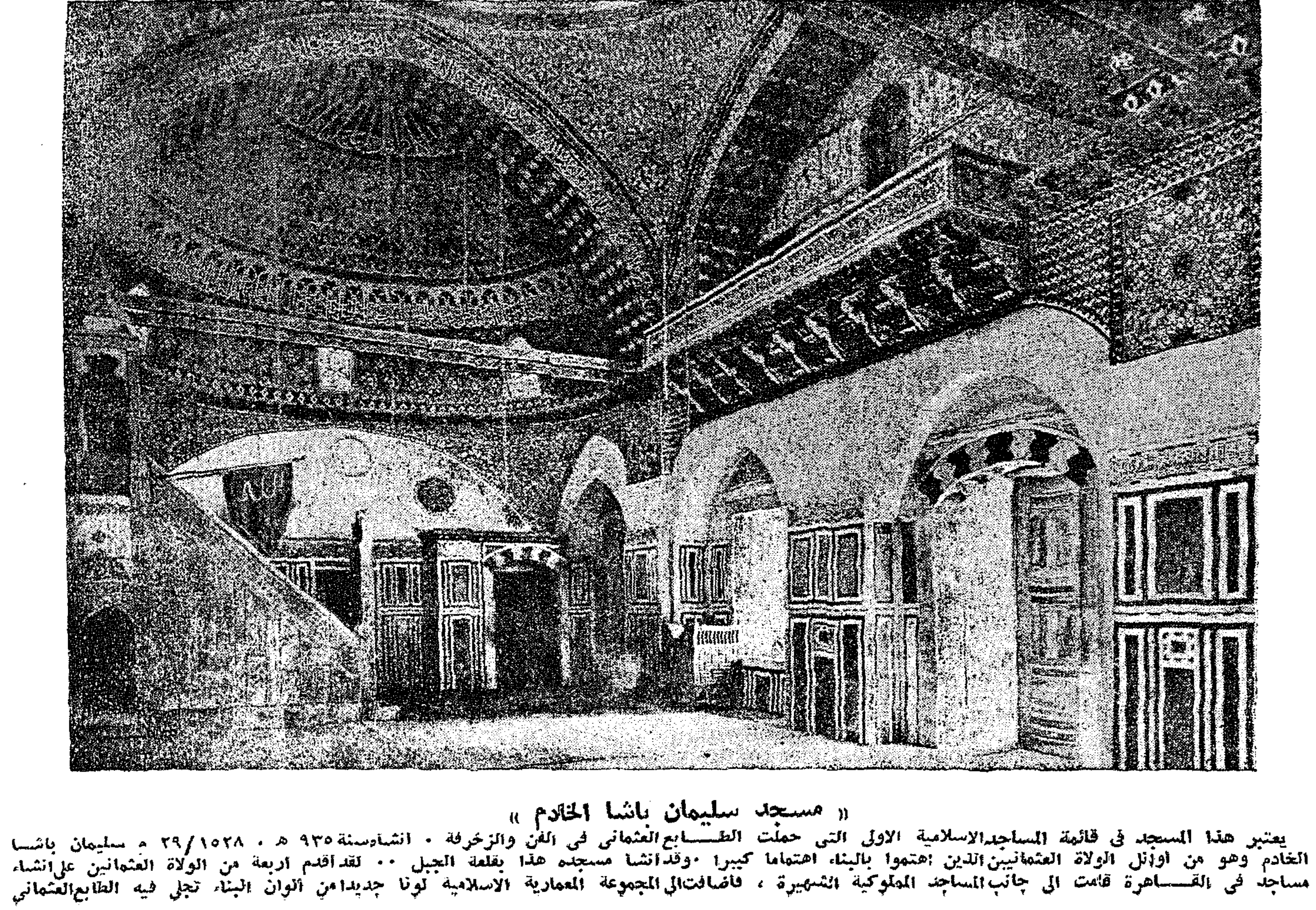
ولقد كان للمجاهد الاسلامى الصوفى « السيد أحمد البدوى » مكانة عظيمة فى نفس على بك الكبير ، اذ قرأ سيرته وعرف قصة مجالدته للنفس وانتصاره على أهوائها .. ثم عرف بعد ذلك قصة جهاده الوطنى ، واشتراكه الفعلى فى بعض المواقع الشهيرة مع فئة من أتباعهومريديه أيام الحروب الصليبية ، التى شنها « القديس لويس » على مصر ووصل فيها الى المنصورة ..

لقد استهوت سيرة السيد أحمد البدوى نفس على بك الكبير ، ولم يجد وسيلة لتكريم صاحبها خيرا من أن يجدد مسجده القائم بمدينة « طنطا » تجديدا شاملا استكمل به روعة المسجد وجعله لائقا بمقام المجاهد العظيم ..

واقام على الضريح قبة فخمة دقيقة الصنع بديعة الزخرفة ! وشيد منارتين تجلت فيهما روعة العمارة وبراعة الهندسة ومتانة الصنع .. ثم انشأ « سبيلا » جميلا والحقه بالمسجد ، و « قيسارية » رائعة عامرة عرفت باسم « الغورية » لانها كانت تزدحم دواما بتجار « الغورية » الذين كانوا يفدون على طنطا أيام المولد الشهير .. مولد القطب الصوفى الجليل السيد احمد البدوى ..

وقد اتجه على بك الكبير بعد هذا الى الاهتمام بقبة الامام الشافعى - التى بناها الملك الكامل الايوبى ، فأولاها عنايته .. وجددها وكشف ماعليها من الرصاص القديم الذى كساه الصدأ ، ورفع الاخشاب البالية التى كانت تحته ووضع أخرى جديدة بدلا منها ثم صب عليها الرصاص من جديد .. وعمد الى تجميلها وزخرفتها من الداخل بالذهب واللازورد والاصباغ ، وأمر بأن يكتب على افريزها تاريخ منظوم ..

ويأتى بعد على بك الكبير سيده وأستاذه وحاميه ، ومساعده الذى وصل به الى



« مسجد سليمان باشا الخادم »

يعتبر هذا المسجد في قائمة المساجد الاسلامية الاولى التى حملت الطابع العثماني في الفن والزخرفة . انشاه سنة ٩٣٥ هـ . ١٥٢٨/٢٩ م سليمان باشا الخادم وهو من اوائل الولاة العثمانيين الذين اهتموا بالبناء اهتماما كبيرا . وقد انشا مسجده هذا بقلعة الجبل .. لقد اقدم اربعة من الولاة العثمانيين على انشاء مساجد في القاهرة قامت الى جانب المساجد المملوكية الشهيرة ، فاضافت الى المجموعة المعمارية الاسلامية لونا جديدا من الوان البناء تجلى فيه الطابع العثماني

المجد ـ « عبد الرحمن كتخدا » .. وهو وان جاء بعده فقد سبقه فى الفضل والمكرمات وتشييد المساجد وتعمير بيوت الله ..

وعبد الرحمن كتخدا ـ أمير الخير وسيدالامراء ، لم يكن مملوكا مجلوبا من الخارج، بل أميرا جليلا ولد فى مصر ، وفى قصر أبيه عثمان كتخدا القازدوغلى .. فهو من هذه الناحية بعيد عن الانتساب الى المماليك ، وان كان منهم بحكم صلة أبيه المملوك السابق ..

وقد طار صيت عبد الرحمن فى كل مكان ، حتى لقد عرف فى مصر والشام بصاحب الخيرات والعمائر .. وبلغت المساجد التى انشأها وجددها ، وأقيمت فيها الخطبة والجماعة ـ ثمانية عشر مسجدا ، غير الزوايا والسبل ، والسقايات ، والمكاتب ، والاحواض ، والقناطر .. وما فرضه للفقيرات والمنقطعات من الصلات البارة .

وله من هذه العمائر والانشاءات شىء كثير فى ريف مصر ، وفى الحجاز ..

كما رتب للعميان الفقراء كساء من الصوف يعطيه لهم قبل حلول الشتاء من كل سنة ، ورتب لمؤذنى المساجد « أحرمة » تقيهم برد الشتاء عندما يصعدون الى المآذن لآذان الفجر ..

« وكان يفرق الثياب من الحرير المحلاوى والحرير الصعيدى والملايات والاخفاف على الفقيرات والارامل ..

ويخرج أمام بيته فى ليالى رمضان عند الافطار القصاع الكبيرة ، مملوءة بالثريد واللحم مسقية بالمرق ـ والسمن ، يفطر منها الفقير والمحتاج .. وأوقف لخدمتهم نقيبا يعطيهم قطع اللحم الكبيرة الجيدة ، وعندما ينتهون من أفطارهم يعطى النقيب لكل واحد منهم رغيفين وشيئا من المال لسحوره » (١) .

وتمشيا مع قاعدة الحب العامة التى اعتاد المسلمون قاطبة أن يولوها لاهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اتبع عبد الرحمن كتخدا نفس القاعدة دون شذوذ أو خروج ، فجعل همه حب الاشراف السادات أبناء فاطمة الزهراء .. وأبى فى حبه وتكريمه لهم ولهن ، الا ان يكون عمليا الى حد بعيد ، فأقام المساجد والزوايا واغدق عليها من ماله ..

وبالرغم من أن أهل العلم والتحقيق وكبار « النسابة » والمؤرخين ، قد أثبتوا بالادلة القاطعة أنه لم يفد على مصر من أهل بيت رسول الله غير « السيدة نفيسة » حفيدة الامام على بن أبى طالب ، وانها بقيت فى مصر حتى دفنت فيها ـ فان التشيع لاهل على وبناته وبنيه قد بلغ بالمصريين مداه ، فجعلهم يقيمون لهم المشاهد الفخمة .. ويصرون على أنهم جميعا قد دفنوا فى ثرى مصر ! !

وزينب الصغرى بنت الامام على بن أبى طالب من فاطمة بنت رسول الله ،

---

(١) الجبرتى

يصر المصريون على أنها مدفونة عندهم .. ويعينون مزارها بالذات وقبرها الطاهر وينسبون اليها الكرامات ، بل ويذكر الامام الشعرانى فى طبقاته أنها دفنت بمصر ، فى حين يقول غيره من المؤرخين وأهل العلم : ان « زينب » المدعى بأنها بنت الامام على ، ليست غير زينب بنت يحيى بن زيد بن على بن الامام الشهيد الحسين بن على بن أبى طالب ..

وسواء كانت صاحبة الضريح الشهير المعروف فى مصر هى زينب الصغرى بنت الامام على وشقيقة الامام الحسين ، أو زينب بنت يحيى بن زيد ـ فان الامير عبد الرحمن كتخدا لم يأخذ بهذا التحقيق ولم يعره التفاتا وجارى العصر فى معتقده بأن مزار زينب هو الموجود فعلا ، وان عليه أن يكرم صاحبته الطاهرة بأن يقيم لها ضريحا فخما تظلله قبة جليلة ، ويلحق به مسجد عظيم من المساجد الجامعة ..

وهكذا أمر صاحب العمائر والخيرات ، عبد الرحمن كتخدا بأن يقام للسيدة الحسيبة النسيبة زينب ، مسجد فخم ، بدلا من مزارها القديم الذى كان قد تصدع ومالت جدرانه ..

وسرعان ما بدأ العمل تحت اشراف الامير عثمان الطنبورجى ، وكان ذلك فى عام ١١٧٤ هجرية .

كذلك أمر **عبد الرحمن كتخدا** بأن يقام الى جوار المقام الزينبى الشهير مقامان آخران ، هما عبارة عن تركيبتين من الرخام ، احداهما على قبر ((**محمد العتريس**)) الذى يقال انه أخ **القطب الشهير « ابراهيم الدسوقى »** .. والاخرى على قبر سيد من أهل الصلاح ، والتقى هو ((**وجيه الدين أبو المراحم الحسينى العلوى العيدروسى النريمى**)) . **وكلا القطبين ينتهى نسبه عند الامام على بن أبى طالب ..**

* * *

وكما اهتم عبد الرحمن كتخدا بالضريح الزينبى ، كذلك وجه اهتمامه الى البقية الباقية من آل البيت النبوى الكريم ـ الذين يصر المصريون على انهم دفنوا فى أرض مصر ، منهم « سكينة بنت الحسين » وأختها « فاطمة الصغرى المعروفة بالنبوية » ، و « عائشة » .. فبنى مساجد لهؤلاء الشريفات جميعا ، وكانت من الفخامة بدرجة ملحوظة جدا .. ثم اتجه الى المسجد النفيسى ، فجدد فيه وجمل .. ثم مشهد رقية بنت على فعمره وجدده وأضفى عليه رواء ..

وبنى الامير بعد هذا مسجد شرف الدين الكردى ، ثم مسجد **الامام الشافعى** .

ولم تقف جهود كتخدا العمرانية عند هذا الحد ، بل انه ذهب بنفسه الى جهة « **كيمان الجارح** » ووجه عنايته الى مزار قطب من اقطاب الصوفية ، ظهر فى أواخر أيام المماليك الشراكسة ، وكانت له مع بعض سلاطينهم ـ ومنهم « **طوماى باى** » وقائع معروفة .. ذلكم كان الشيخ « أبو السعود الجارحى » الذى بنى له **الامير عبد الرحمن**

كتخدا مسجدا عظيما بين كيمان الجارح فى حى شبه متخرب ، تكريما لذكرى رجل كانت له مع طغاة المماليك وقفات مشرفة لصالح الشعب ..

***

ويبقى بعد هذا الخائن محمد أبو الذهب ، الذى باع نفسه للذهب العثمانى ، وكذلك باع سيده ، وباع مصر .. باع استقلال البلد المضياف الكريم للغرباء ، وأسلم أموره الى الطغاة المرتشين .

ومسجد محمد بك ابى الذهب من المساجد المعلقة ، يصعد اليه بدرج ، وله ثلاثة أبواب على وجه أحدها نقش هذان البيتان متضمنان « تاريخ الانشاء » بحروف الجمل فى الشطر الاخير :

انشأت يامولى الاكابر مسجدا
ولواء نصرك فى البرية يسعد
ولك العناية بالسعادة أرخت
« حاز الفضائل والكمال محمد »

وعلى الباب الثانى وهو الباب الاصلى للمسجد نقش مايلى :

أمير اللواء الاكرمين محمد
بمسجده حاز الفضائل والذهب
عليه ضياء للقبول مؤرخ
لسعد لقد دام العزيز أبو الذهب

وبالمسجد ثمانية نوافذ نحاسية ، ومنبر خشبى مزخرف بالصدف .. وخارج المقصورة انشأ أبو الذهب لنفسه قبرا ليدفن فيه ، عليه تركيبة رخامية حفرت عليها آيات من القرآن الكريم ، وفوقها شاهدان ، على احدهما نقش مايلى :

هذا مقام عزيز مصر أميرها
عين الاكابر ذى العلا والسؤدد
أعنى أبا الذهب الذى فى عصره
كانت له الاقطار فى طوع اليد
تجرى على طول المدى صدقاته
بدروس علم أو عمارة مسجد
فسحائب الرحمات يصحبها الرضا
تهمى عليه فى المساء وفى غد
والحور فى المأوى له قد أرخت
دار الكرامة مسكن لمحمد

وعلى الشاهد الثانى :

يا واقفين بقبرنا لا تعجبوا من أمرنا
بالامس كنا مثلكم وغدا تكونوا مثلنا !!



« مسجد سنان باشا »

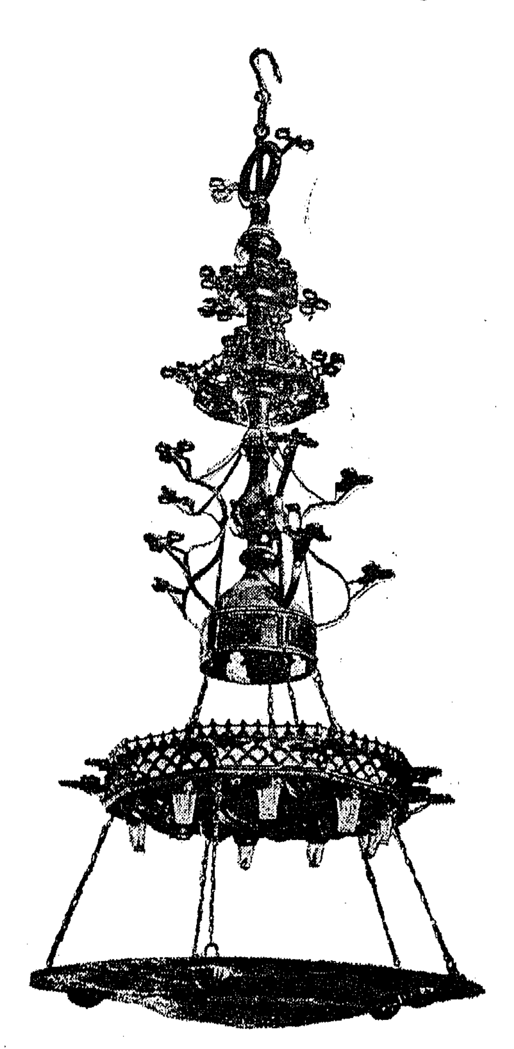
اقيم هذا المسجد سنة ٩٧٩هـ ١٥٧١م قرب ثغر بولاق ـ انشاه صاحبه «سنان باشا» ابن علي بن عبد الرحمن الذي تولى حكم مصر نيابة عن السلطان العثماني مرتين متتاليتين كان فيهما مثال رجل الاصلاح المحبوب ، ولم تكن فيه عنجهية جنسه ، ولا تكالبهم على المال .. والمسجد آية من آيات الفن العثماني المستحدث .

وقد مات أبو الذهب ميتة طبيعيــة وهو فى بلاد الشام .. وحملت جثته الى مصر فدفن فى مسجده .. ثم دفنت بقبر آخر الى جانبه ابنته « عديلة هانم » التى زوجها من مملوكه ابراهيم الالفى ..

وبموت أبى الذهب فتح الحظ ذراعيه ليستقبل مملوكين آخرين ، همــا : مراد ، وابراهيم ..

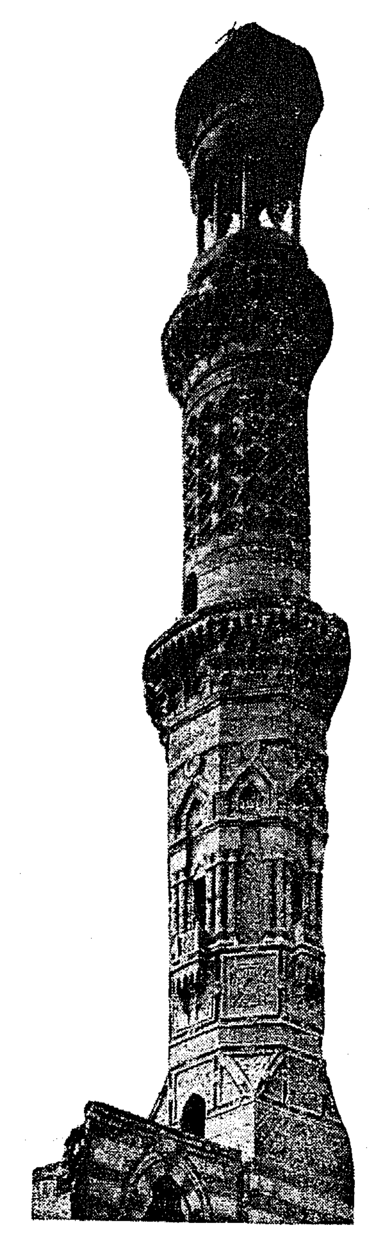
أما مراد فقد عرفناه : المتآمر على سـيده على بك الكبير ليظفر بالجارية الشركسية نفيسة المرادية ! !

وأما ابراهيم فقد كان زوج اخت أبى الذهب ..



« احدى الثريات الموجودة بمسجد السلطان قايتباى »

البلد الطيّب



« مئذنة جامع الامير قرقماس »

مصر .. الارض الطاهرة المجيدة ، التى تضن بالخير على نفسها ، وتمنحه للغرباء ، لتذيق الابناء العاقين مرارة الحرمان وكأنهم لم يحسوا غصصها ؛ فسارت جموعهم فى مواكب التاريخ ، ذائبين فى غيرهم كأنهم فقدوا الارادة والحرية الذاتية

مصر .. البلد الطيب الامين ، موئل العز وموطن الكرم .. والجنة التى تركزت حولها المطامع ، واليها سعت الشعوب تلتمس المأوى والامان والعز ..

ومع ذلك بقيت مصر ، هى مصر أم الدنيا ومنبع الحضارة فى الارض منذ فجر التاريخ فذابت فى بوتقتها كل الحضارات التى مرت على صفحتها واكتسبت طابعها وبقيت على كر العصور : مصر الخالدة ، ذات الحضارة والمجد الاصيل ..

مصر الفرعونية .. الفارسية .. الاغريقية .. البطلمية .. الرومانية .. العربية الفتية ، صاحبة العنفوان الذى كفل لها أن تتخلص من كل هاته المظاهر والحضارات ، لتبقى .. فرعونية الاصل .. عربية التحضر والتقاليد التى استطاعت دون أمم الارض أن تحتفظ بالتراثين الخالدين : الفرعونى ، والعربى ، كأحسن ما يكون الاحتفاظ بالمجد .

مصر التى غفل عنها أصحابها ذات يوم ، فتوالت عليها الدول وكرت جيوش المطامع واختلفت النظرات ..

كانت بالنسبة للمماليك أرض الاحلام البراقة التى حققت لمغامريهم المطامع ، وجعلت منهم وهم الرقيق التافه ـ سلاطين يتحكمون فى رقاب الاحرار .. ولم تقصر فى فرض حبها عليهم ، حتى نسوا فيها أوطانهم واعتبروها الوطن والحمى والملاذ .

كذلك اعتبرها السلطان العثمانى بقرة حلوبا ، تدر عليه المال اولا ، وتركز فى أرضها الخصيبة قواعد حكمه فى الشرق ..

أما حاشية السلطان على اختلاف مراتبها ، من صدور عظام ورؤساءوجاقاتوانكشارية ــ بل وأغوات ــ فقد اعتبروا مصر المضيافة الكريمة سوق مطامع وأهواء خاصة ، تباع فيها الضمائر وتشترى ، وتحاك مؤامرات الخلع والتولية والتقتيــل والاغتيــال .. وارتكاب كل عمل وضيع فى سبيل جمع المال والثراء من أى طريق ..

لهذا ؛ عز على المماليك الشراكسة بعد هزيمتهم فى « مرج دابق » وزوال سلطانهم ، أن يتنحوا عن مراكزهم ، أو يفارقوا أرض الاحلام التى أصبحت لهم كل شيء .. فبقوا فيها ينتظرون ويترقبون قيامة جديدة للحظ . أو فرصة مواتية لسلب السلطان ..

ولهذا أيضا عز على السلطان العثمانى ، أن يقدم على بك الكبير على انتزاع مصر ، درة الشرق من تاجه ، فراح بدوره يترقب فرصة مواتية وريحا رخاء تصل بسفينته التى أقصيت الى برها الرضى القديم ..

كما عز على رجال المابين ــ ودهاقين الرشوة والمؤامرات ، أن يتحول عنهم تدفق نهر الرشوة الذى كان يفيض مع مؤامراتهم اما لخلع ولاتهم الضعاف ، أو مساومة المماليك المتربصين ..

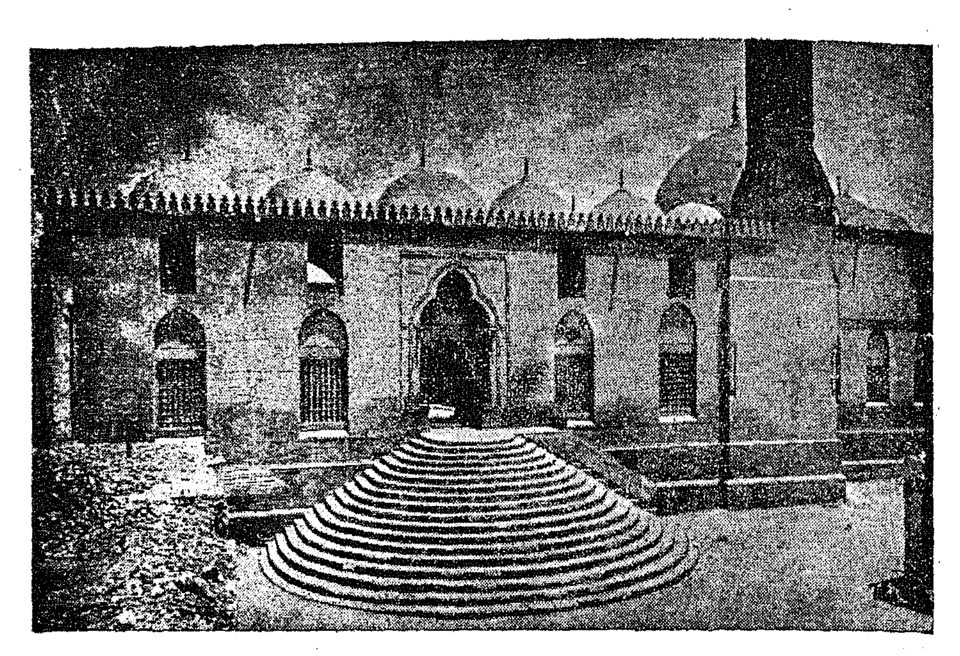
وهكذا تقاربت الرؤوس فى سبيل رفع السدود التى أقامتها الســيادة المصرية .. وكانت المؤامرة الرخيصــة التى عرف رجال المابين خــلالها كيف ينثرون الذهب والجاه المرتقب لشراء أبى الذهب ومن شاركوه المؤامرة ، أمثال مراد وغيره ..

فالمؤامرة العثمانية المملوكية اذن ، لم تكن معولا لهدم سلطان على بك الكبير ، بقدر ماكانت اعصارا اقتلع السيادة المصرية من أصولها ودمر اســـتقلالها ، وعاد بها ولاية عثمانية من جديد.. بعد ان تحررت ومارست شتى صفات الدولة ذات الاستقلال..

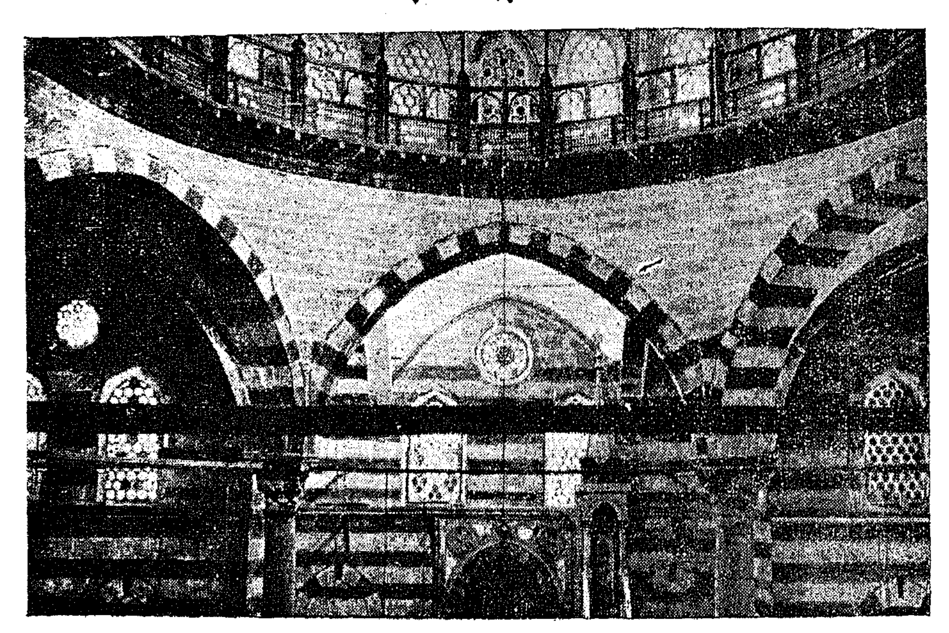
لقد فتح المملوك الخائن أبو الذهب باب عهد مظلم كئيب ، ملء بالفســـاد والقسوة والعنت وارهاق الشعب .. ومهد السبيل للصراع بين بكوات المماليك والولاةالعثمانيين الضــعاف ، صراعا كان على حســاب أمن الشعب وطمأنينته ورخائه ، وأفسح المجــال لطاغيتين جاءا من بعده هما ، خادماه ومملوكاه : مراد وابراهيم ..

لقد كان عهدا مظلما ، ذبحت فيــه كل عفة ، وأريقت فيه كل فضيلة واستبيح كل حمى ، فاختلت موازين الامن ، وضاعت ثقة المحكوم بحاكمه .. مما عجل بيقظة الشعب فعرف الوعى الوطنى كيف يشق طريقــه وســط الظلمات ، ويصـــبح قوة ترهب الطغاة ، وترغم المؤامرات على أن تتراجع لتختفى فى الجحور فلا ترى أمام يقظة صاحب الحق بعثا ولا نشورا ..

لقد أهدر أبو الذهب الكرامة .. وأراق صهره وخادمه ابراهيم مع شريكه مراد



« واجهة المسجد »



« مسجد الملكة صفية من الواجهة ومن الداخل »

انشا هذا المسجد سنة ١٠١٩ هـ ، ١٦١٠ م ـ احد مماليك الملكة صفيةزوجة السلطان مراد الثالث العثماني ووالدة السلطان محمد الثالث وسمي باسمها ، وهو يقعبالداودية بميدان الملكة صفية بشارع محمد علي قريبا من القلعة ،والمسجد كله مبني بالحجر الاحمر كما هي العادةفيالمباني التركية بمصر

دماءها .. ولكن يقظة الشعب كانت كافيـة لدرء بعض الاهوال .. وتمهيد السـبيل لظهور طبقة القادةالشعبيين من أهل مصر ، أمثال عمر مكرم ، والمحروقي ، والسادات .. وبعض علماء الازهر المتحررين ..

ومع بداية الصراع بين الطغاة والقوة الشعبية ، واحسـاس الطاغيتين « ابراهيم » و « مراد » وأشياعهما ـ بأن هناك قوة مناوئة ترقبهما وتسارع في مناقشتهما الحساب ـ قل اهتمام المماليك بالعمارة العـامة واتجهوا في مجموعهم الى العمـارة الخاصة كاقامة الدور الفخمة ، والقصور الباذخة ، منصرفين عن اقامة المساجد وكأنهم رأوا عددها قد كثر .. ولم يروا حاجة الى المزيد ..

وبرغم هذا القحط العمراني فقد اتجه مراد الى الفسطاط بناظريه ، فاذا هي خرائب دارسة ، واطلال تثير كمين الذكريات وتحرك الشجون وتستثير النخوة وتدفع من له قلب ونفس ، الى محاولة احياء التراث العظيم ، وخاصة مسجد « عمرو بن العاص » الذي شهد مشرق الاسلام في مصر والشرق ، وقام على بنائه أجلاء المسلمين وكرام صحابة سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام .. فكان أن فكر الطاغية بعقل سليم واحب أن يمحو عن نفسه بعض اثمه ، ويسهم على غير عادته في فعل الخير ، فيقيم المسجد العتيق ..

كان جامع عمرو بن العاص قد تهدم ، فتساقطت جدرانه ، وتهاوت أعمدته ، وضاعت معالمه .. وأصبح قاعا صفصفا ، لا يمكن أن ينفع فيه « ترميم » أو اصلاح ..

ورأى مراد بعد أن استشار أهل الفن المعمـاري أن يهـدم المسجد كله فيزيل بقاياه المتخربة ، ويبدأ في تشييده من جديد على أصوله القديمة ، كي لايفقـد هيئته وتضيع معالمه ..

وكلف مراد صديقا أثيرا عنده هو الحاج قاسم الموصلي بأن يشرف على الهدم ، وأن يقوم بمباشرة البناء الجديد .. فقام الرجل بالمهمة التي وكلت اليه خير قيام .. فأزال معالم المسجد العتيق وراح يتلمس أصـول جدرانه القديمـة ، وأسسها ، فأقام عليها الجدران الجديدة كلها حتى كمل بناء المسجد فالتفت الى الاعمدة التي كاد يضيق بها الصحن والايوانات فأخذ يقيمها في نفس أماكنها الاولى .

ولما كمل بناء جامع عمرو بن العاص من جديد ـ بنفس الهيئة القديمة وعلى أصولها ـ وجه الحاج قاسم اهتمامه الى زخرفة المسجد زخرفة شـاملة كاملة ، ليسـتعيد شبابه وجدته ، وأقام له منارتين شامختين ، وجدد جميع شققه بالخشب النقي وفرشـه بالحصر الفيومي وعلق به القناديل ..

وصليت به آخر جمعـة من رمضان سنة ١٢١٢ هجرية ، وكانت الصـلاة جامعة ، فتقاطر اليه الناس ..

وكان افتتاحه بعثا للعاصمة الاسلامية ، وصحوة لامجادها القديمة ..

وحضر الصلاة الامراء وكبار الاعيان والعلماء والخاصة والعامة •• وأقيمت الصلاة بامامة الشيخ عبد الله الشرقاوى •• الذى دعا بعد الصلاة الى مجلس علم لاحياء ذكرى المجالس العلمية القديمة ، وجعل الناس يتمثلون كبار فقهاء الشريعة وأئمتها ومجالسهم العتيدة فى جامع عمرو •• وراحوا يصغون الى حديث الشيخ الاجل ، وهو يشرح لهم الحديث الشريف :

« من بنى لله بيتا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا فى الجنة » ••

وعقب الشيخ على تفسير هذا الحديث بتفسير شامل لقوله تعالى للآية الكريمة :

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ؛ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »

وقد لقى حديث الشيخ تقديرا كبيرا ، جعل مراد بك يسارع الى تكريمه ، فألبسه فروا من السمور •• وألبس خطيب المسجد فروا مثله ••

ولم ينس مراد بك أن يسجل أخبار عمارته هذه لجامع عمرو ، فنقشها بالشعر على أربع لوحات رخامية ، علق أولاها على الباب الغربى أسفل المنارة ، والثانية على باب قريب من الباب الاول • والثالثة فى أعلا المحراب الكبير الداخلى ، والرابعة على المحراب الصغير وقد جاء فيها :

مسجد ابن العاص أضحى
بعد هدم قد أصابه
كعبة يسعى اليها
ترتجى فيها الاجابه
جعل التاريخ رجح
قد بنى هذا الصحابه

***

ولا شك أن فى هذه الابيات مايغنى عن الرغبة فى معرفة ماكتب على اللوحات الثلاث السابقة لها ••

وكانت عمارة مراد بك للجامع العتيق آخر عمارة مملوكية شهدتها مصر ، اذ لم تلبث الحال أن تبدلت بمرور السنين •• وزاد استبداد المماليك بالشعب ، كما زاد عبثهم بولاة السلطان ؛ فكانوا يخلعونهم مرة ، ويطردونهم أخرى •• ثم لاتلبث جموعهم أن تعتدى على الشعب ، ولا يسلم من عدوانها الاجانب المقيمون بمصر ••

وضج الناس بالشكوى ـ بين مصرى أصيل ، ومستوطن مقيم ، وأجنبى دعته ظروفه الى البقاء وسط هذه المعمعة المضطربة بالفتن ، فلم يجد الا أن يتصل بحكومته ، شاكيا مرة وطالبا العون والتدخل مرة أخرى ••

وكان أن تحولت أنظار أوروبا الى مصر •• واتجهت اليها المطامع ، وبدأ الغرباء المغامرون ينظرون اليها بعيون الذئاب ، لتكشف خفاياها الكامنة ، ومزاياها التى غفلت عنها عيون الابناء !!

وهكذا عرف الغرب مصر العظيمة ••

عرفها بعيون المطامع والاغراض ••

ودرس طبائعها ومميزاتها بعقلية التاجر اللص ، الذى لاينتقيد فى سبيل الكسب بمبدأ أو انسانية أو دين ••

وهكذا •• ومن أجل تحقيق مطامع اقليمية •• تحركت فرنسا •• وسار أسطولها الى الاسكندرية متخفيا بالسرية الكاملة ، ليصل الى شواطىء مصر ، فينشىء فيها أول امبراطورية شرقية على رأسها مغامر كورسيكى هو نابليون بونابرت !

وحرصت فرنسا على أن تسبق حملتها العسكرية ، بحملة « دعاية » واسعة ، تقول : انها حملة علمية لكشف آثار مصر ، وعرض تاريخها وأمجادها على أنظار العالم !!

ثم دعاية أخرى تقول : انها حملة « تحريرية » ، الغرض منها تخليص مصر من أيدى المماليك اللصوص !

وقيل •• وقيل •• ولكن ما لبثت الايام والواقع أن كذبت كل هذه الاقوال !

لقد كانت الحملة استعمارية بشعة ، الغرض منها استبدال السلطان العثمانى بسلطان فرنسى .. وجعلُ مصر مركزِ وثوب على أمم الشرق الاخرى بعد ذلك لاكمالِ ربطها الى العجلة الفرنسية الجامحة الراغبة فى التجوال حول الشرق لتملكه والتحكم فيه ، تنفيذا لسياسة المطامع الفرنسية ، التى كان ساستها يحلمون بها !!

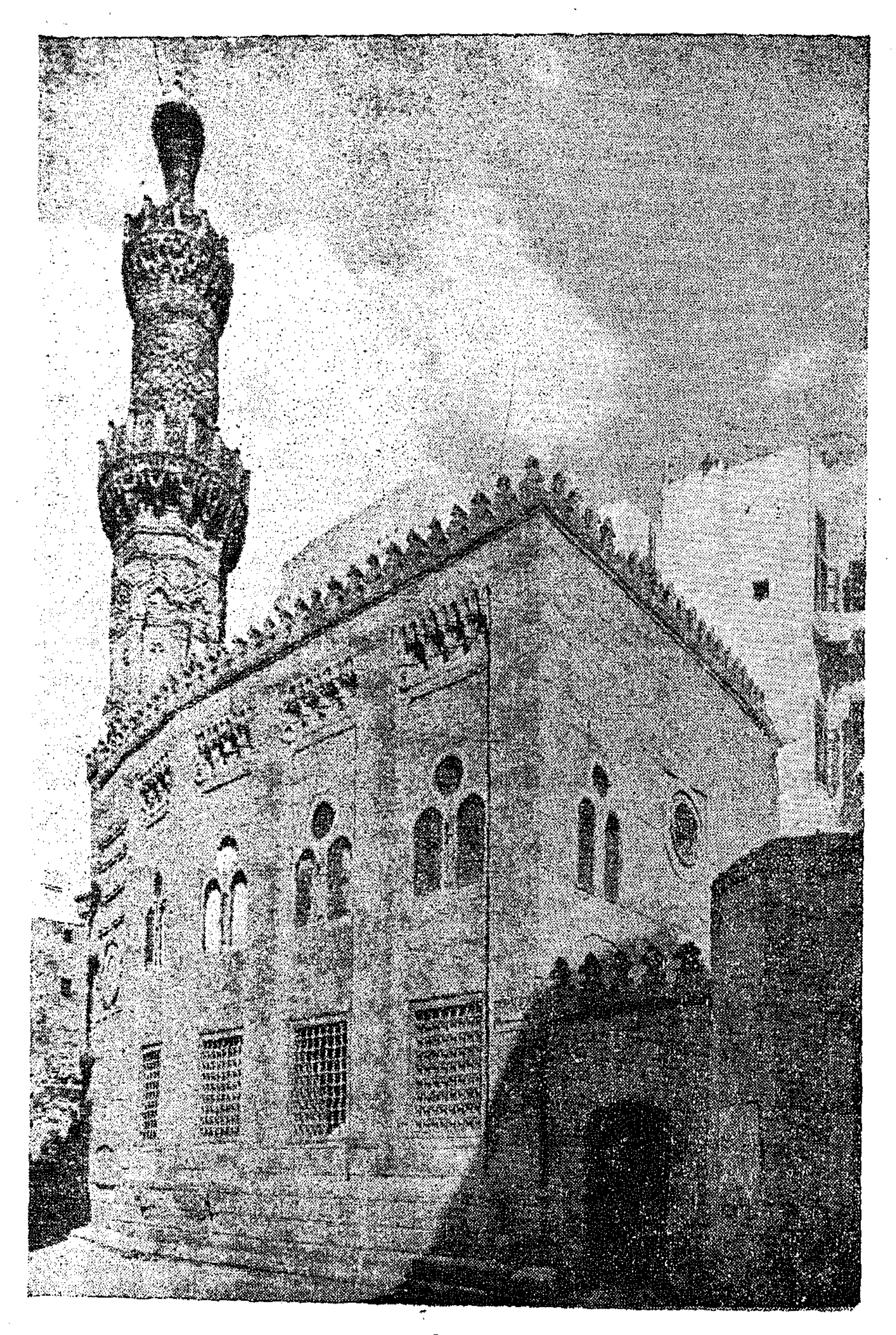
وتداعت الشجاعة المملوكية المزعومة أمام الحملة الفرنسية المحكمة بالسلاح والتكتيك الحديث •• وهرب الطغاة الجبناء ، ولم يهتموا بمصر ومصيرها قدر اهتمامهم بنفائسهم وأموالهم ، فجمعوها وحملوها وولوا هاربين •

ومن هنا بدأت الروح الوطنية تصحو بعد غفوة طويلة •• وتفيق ؛ فترى الحاضر ، وتذكر الماضى ••

وكانت حقبة من الزمن •• سجلها التاريخ بالدم الزكى لمجاهدى مصر العزل ، الذين حموا بلادهم بصدورهم العارية ، ساخرين بالحديد والنار !

ولكم كان من المخجل وقتها أن يتوارى السلطان العثمانى ، خاقان البحرين وحامى الحرمين •• وقد أصيب هو ورجاله وأساطيله وجيوشه بذعر ودوار !! فقوى بذلك مركز الغزاة اللصوص ، وجعلهم يرعون مصر ويسوسونها بشريعة الذئب الجائع الذى تحكم فى قطيع من الخراف !

ذبح ، وارهاب ، وتقتيل •• دون تحقيق أو سؤال ، بل لمجرد ما كانوا يسمونه « الاشتباه » !!



« مسجد البردينى »

انشأ هذا المسجد « كريم الدين احمد البردينى » سنة ١٠٢٥ هـ . ١٦١٦ م بالداودية قريبا من مسجد الملكة صفية ، وبالرغم من أنه أنشىء فى العصر العثمانى ، الا أنه احتفظ بالطابع المملوكى ، فمنـــارته مملوكية حافلة بالزخارف والكتابات وقد حوى بدائع من الفن الدقيق .. وسقفه مقسم ومزين بنقوش جميلة ، يحيط به أزار مكتوب فيه آيات قرآنية واسم المنشىء وتاريخ الانشاء

ولكن هذه الوسائل الاجرامية ، لم تفد فى اخماد الروح القومى ، بل زادتها اشتعالا وفورة وجعلت القوى تتركز وتتوحد كلها حول غاية واحدة ، هى طرد الغاصب الدخيل الذى استباح الحمى واعتدى على المقدسات !

ووسط هذا الطوفان الثورى المائج واشتداد زعازعه ، برز الازهر العظيم ..

المسجد العتيد ، صاحب الامجاد التاريخية ، الذى علم وهذب وأنار العقول وحمل مشعل الهدى الاسلامى منذ أشرق نوره على مصر الخالدة ..

كان الازهر معقل الثورة على الفرنسيين ..

وكان علماؤه وشيوخه قادتها المغاوير ..

وأمر بونابرت بأن يضرب الازهر بالمدافع ! ..

ونصب « روماراتون » مدافعه على سفح المقطم .. وصوبها الى المعقل الحصين للدين والثورة .. فهدم منه ماهدم ، وحطم ماحطم من سقوفه وجدرانه .. وتهاوى البناء الاشم على الارواح تحت وابل النيران الفرنسية ، ليشهد التاريخ على أخلاق فرنسا التى كانت قد ملأت الدنيا طنينا بالمبادىء والمثل العليا .. وحق الانسان فى الحياة !

واستمر جزارو فرنسا فى فظائعهم .. واقتحموا الازهر ، بيت الله المقدس بخيولهم وأحذيتهم ! واتخذوا من صحنه « حظيرة » للدواب !

وتحول الفرنسيون أمام ثورة الشعب وفتكه بقادتهم ، الى وحوش فاقدة الحس ! فزاد عدوانهم على بيوت الله ، وجعلوا من مسجد « قايتباى » بالروضة « ترسانة » لصنع الاسلحة !!

وكذلك فعلوا بجامع عمرو بن العاص !!

ثم ركبوا رؤوسهم ، فجعلوا من صحون المساجد حانات يتبادلون فيها الشراب علانية ويرتكبون المنكرات !

وكأنما أصبح العدوان على المساجد حمى تمكنت من رؤوس هؤلاء اللصوص ؛ فهاجموا جامع الظاهر بيبرس وهدموا مئذنته ذات الشهرة التاريخية ، وحولوها الى مرصد استكشافى .. كماجعلوا المسجد نفسه «قلعة محلية لجنودهم أسموها قلعةسولكوسكى»!

وكما اعتدوا على مساجد القاهرة .. كذلك لم تسلم منهم مساجد الأقاليم فى قنا وقوص والفيوم وأسوان وبنى عدى ؛ .. فهدموها بمدافعهم وأحالوها الى خرائبتصرخ باللعنة والعار فى وجوه الذئاب الفرنسية البشرية !

ولقد زادت هذه الفظائع من اصرار الشعب على مقاومة هذه العصابة السفاحة .. فكانت المواقع .. وكانت الانتصارات الشعبية .. وكانت يقظة الروح الوطنى .. وكان الثبات الشعبى الاعزل فى كل ميدان أمام قوى الطغيان وما كانت تحمل من آلات الهلاك والدمار !

وأخيرا تحرك السلطان !

لا ليحارب بجيوشه الضعيفة المفككة ! بل ليترامى على اقدام الانجليز ، وكانوا وقتها يتفاوضون فى تصفية تركته وتقسيم أملاك « الرجل المريض » !

وطلب منهم التدخل لحماية الشرق ومساعدته على اجلاء الفرنسيين !

وتحرك الاسطول الانجليزى ليحمى السيادة التركية فى الظاهر •• وليحاول تثبيت اقدام الاستعمار البريطانى فى الشرق ! •• انها مطامع جديدة !

مطامع أخفاها أصحابها الذين انتظروا الفرصة السانحة ، فساروا فى الركب •• وأطلقوا أبواق الدعاية ••

انهم يعملون لحماية السلطان ! العاجز الذى تفكك ملكه •• وتهاوت مقومات حكمه وآذنت شمسه بالغروب !

ووصلت الحشود العثمانية الى مصر فى حماية الانجليز ••

وبدأت جيوشهم تتحرك لتحرير الارض الغالية ••

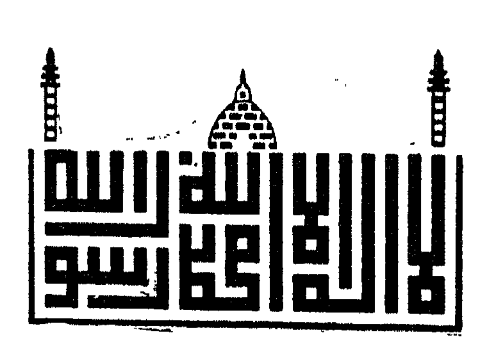
ولكن « كليبر » القائد الفرنسى تصدى لهم فى أكثر من موقعة برية •• ورمى بهم الى البحر فى أكثر من صراع بحرى وكشف حقيقة قواهم وأظهرهم فى صورة العاجزين

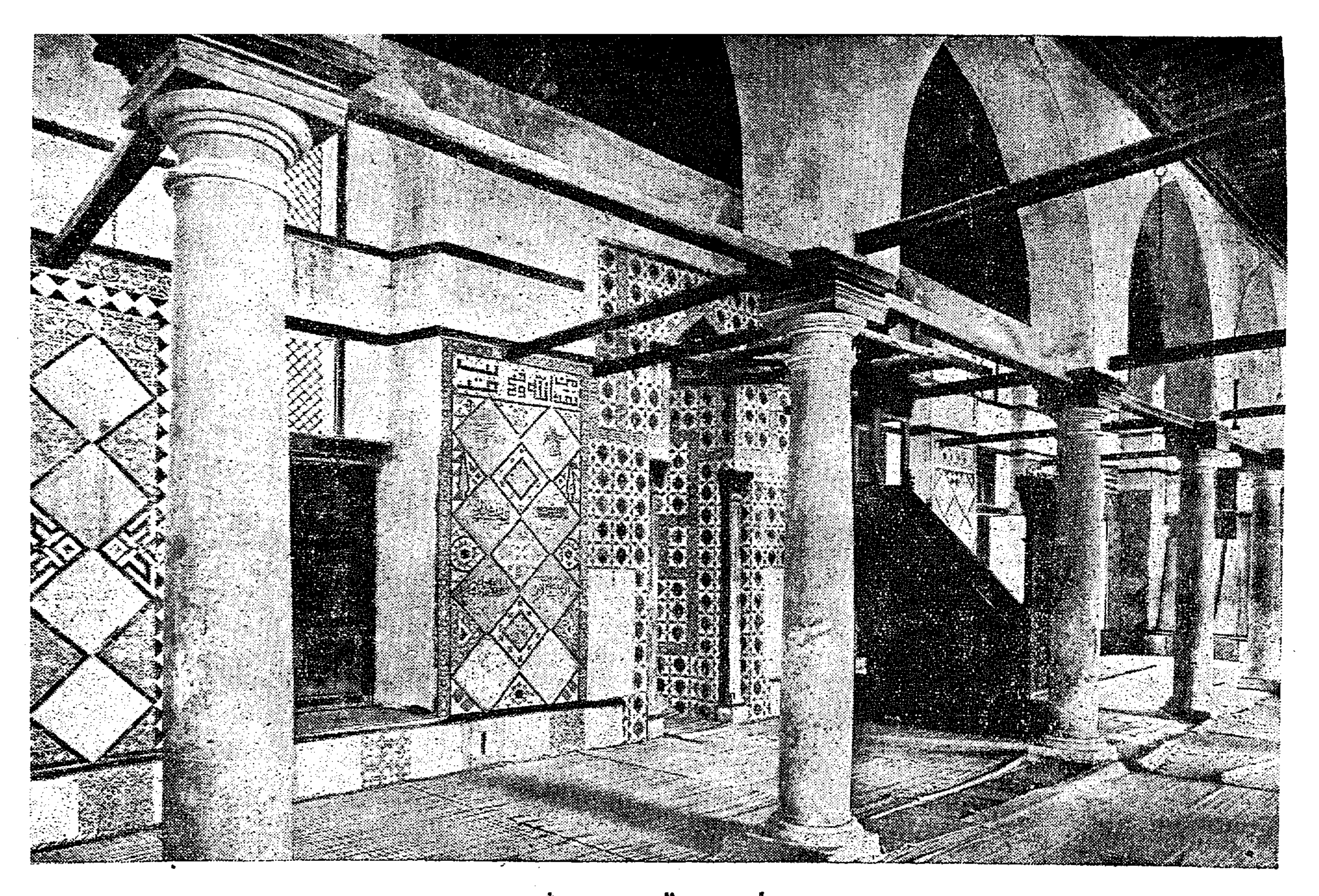
ومرة ثانية ، استغاث السلطان بالانجليز ليسندوا ظهره المتهالك ، وليحموا جيوشه •• ويحرموها لذة الفرار من الميدان !

وفى النهاية تمت « اتفاقية الجلاء » بين فرنسا وحدها من جانب ، والانجليز والاتراك معا من جانب آخر !

ومرة أخيرة عادت مصر الى حظيرة الحكم العثمانى وعاد اليها الطغاة والمرتشون وأصحاب المطامع ••

وفى ركابهم دخل الارض الطاهرة مغامر البانى من الجنود المأجورين الذين عرفهم الاتراك باسم « الجوفندكية » •• وكان اسمه « محمد على » ••

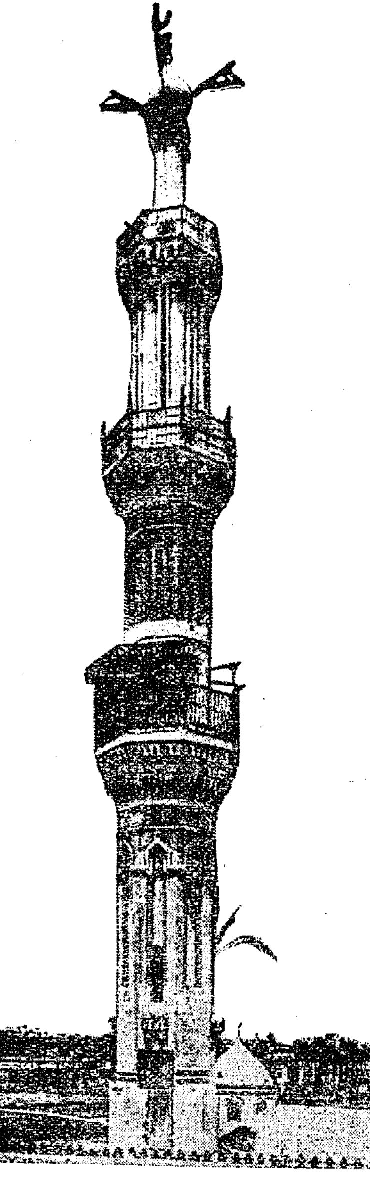




« جامع دومقسيس برشيد »

انشأ هذا الجامع صالح أغا دومقسيس فى سنة ١١١٦ هـ ، ١٧٠٤ م ويقع فى وسط مدينة رشيد ، وهو من المساجد المعلقة يصعد اليه ببضع درجات ، وأهم ما يتميز به محرابه المكسو بترابيع من القيشانى المزخرف الجميل ، والى جوار المحراب منبر خشبى دقيق الصنع ، وطراز منارته شائع فى كل من رشيدودمياط ومدن الوجه البحرى .

رشوة وطغيان



« مئذنة جامع المتبولى بدمياط »

الوالى التركى ..
رؤساء الانكشارية ووجاقاتهم ...
البكوات المماليك ، وعلى رأسهم « الالفى »
و « والبرديسى » ..
العلماء ومن ورائهم الشعب ..
ثم ..

وبمبعدة من هؤلاء جميعا كان يقف تاجر حقود طامع ، كان يترقب ويمنى نفسه بالاحلام البراقة ، يود لو تصبح حقائق من اى طريق ، شريف أو غير شريف .. ذلكم كان « الجوفندجى » الالبانى ، حارس الطرق ، وتاجر الدخان السابق ، والجندى المحترف فى الجيش العثمانى .. « محمد على » !!

اولئك كانوا ابطال المسرحية المتكررة الحوادث ، خلال الفترة التى تلت خروج الفرنسيين وعودة مصر الى السلطان العثمانى من جديد .. حيث كانت تجرهم الظروف الى الاشتراك فى القصة المألوفة ، المعروفة البداية والمكشوفة النهاية ، والتى قد تعترض مسيرها الرتيب مفاجآت وأحداث ..

الوالى التركى : رجل تورط ، فدفع .. ثم جاء الى مصر ليحصل على مادفعه .. وليحاول الحصول على المزيد عن طريق النهب والسلب والرشوة العلنية فى أرض الاحلام !! ..

والوالى لهذا يكره المماليك ، لانهم يتربصون به .. ويتجاسرون على مقامه بالعزل ، فيوقظونه من حلم بهيج ، كان ينير جوانبه بريق الذهب والهبات ممن لهم عنده حاجة أو رجاء ..

والمماليك ، يظنون انهم اصحاب البلاد ، وحفظة تراثها .. وانهم وحدهم المباح لهم ان يغتصبوا علانية كل ماتطمع فيه نفوسهم من مال ومتاع !!

أما «الوجاقات» وامراؤها فقد كانوا بين وال طامع ، ومماليك غاصبين .. فلم تفتهم الفرصة ، فاستباحوا كل محرم ، وراحوا يسرقون وينهبون ويعتدون على الآمنين ..

والشعب .. هو الفريسة لكل هذه الضوارى ، ثم هو مع ذلك السد القوى الذى كان يقف فى وجوههم فى كثير من الاحيان ..

ويأتى بعد هذا ثعلب له دور خطير .. دور من يسير وراء المتعاركين ليظفر بالفريسة التى تسقط ، أو بالبقايا التى يتركها الصائد الشجاع .. فهو مع المغلوب مرة ومع الغالب أخرى .. ومرة بينهما ، يسعى بالوقيعة فيثير الحفيظة ويملأ القلوب بالحقد الرهيب !!

وكأنما كان الثعلب الآدمى على موعد مع الحظ ، اذ سرعان ما بدأت القوى تصطرع من جديد ..

ومع فورة النضال راحت الرشوة تتسلل الى رجال الباب العالى وحاشية السلطان خليفة المسلمين ..

واقصى الوالى غير المرغوب فيه ..

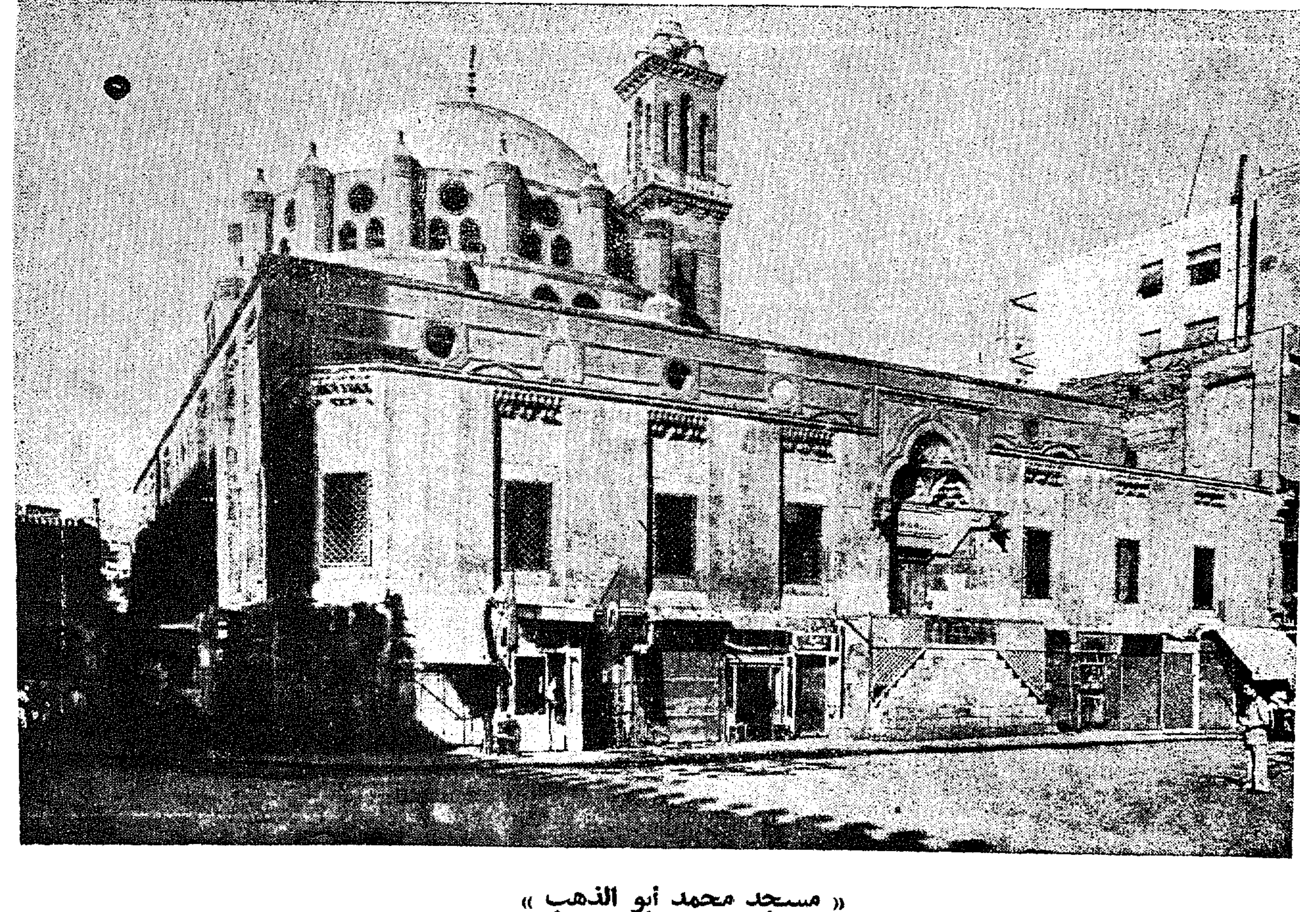
وجاء الوالى المحظوظ ، الذى أنفق وأسرف ، ليشترى الجاه ـ ولم يلبث أن هبط سعره فى سوق الرشوة ، فطرد قبل أن يتمكن من جنى ثمرات ما أنفق .. ليفسح المجال لمحظوظ جديد ، سخا بالمال والوعود لسادته رجال « المابين » . اذا تهيأ له البقاء ، وتحقق ما كان يرجوه من دعة وسلام واستقرار !! ..

وخرج الولاة ينهبون حيا من الاحياء .. فى الوقت الذى كان الانكشارية فيه يرتكبون نفس الحادث فى مكان آخر ، تاركين الفرصة لرفاقهم الالبان أو « الارنؤود » ، ليقوموا بنفس العمل !!

وتسلل الثعلب من مكمنه ، وعرف طريقه الى الشعب ..

لقد اعتاد أن يظهر أثناء الغارات الالبانية على الاحياء ، أو اغارات «الارانطة» ـ ليجليهم ويبعدهم ، ويطيب خواطر المظلومين !!

وراعت مسوح الصلاح والتقى التى لبسها « الجوفندجى » الماكر ، عقول الشعب.. حتى لقد ثبت لديهم ان « محمد على » هذا تركى طيب القلب كثير الحنان ، لاترضيه المظالم ، ولا يرضى بسياسة الاغتصاب التى كانت تحدث بايحاء من الولاة وتدبير من امراء الوجاقات ليبعدوا عنهم الجنود ومطالبتهم برواتبهم المتأخرة !!



« مسجد محمد أبو الذهب »

المملوك الخائن الذى باع نفسه للذهب العثمانى ، وكذلك باع سيده على بك الكبير وباع استقلال البلد المضياف الكريم « مصر » للغرباء وأسلمها الى الطغاة المرتشين من جديد .. أنشأ مسجده سنة ١١٨٧ هـ ، ١٧٧٤ م تجاه الجامع الازهر .. وهو من المساجد الرائعة ، وقد أنشأ فيه ابو الذهب قبرا ليدفن فيه ، عليه تركيبة رخامية حفرت عليها آيات من القرآن الكريم ـ وعرف بأبى الذهب لانه كان يمنح الذهب كثيرا

وكماقام السيد عمر مكرم قومته الغاضبة ومن خلفه جموع الشعب فى وجه الطاغية ابراهيم وصاحبه مراد .. وكما قام فى وجـه بونابرت ثم فى وجه كليبر من بعده ـ كذلك قام من جديد فى وجه الولاة ، وبخاصة « خورشيد »

والى جانب السيد عمر مكرم وقف الشعب ممثلا فى زعماء من العامة كان اظهرهم « حجاج الخضرى » و « ابن شمعة الجزار » و« اسماعيل افندى جوده » ..

وحوصر خورشيد فى القلعة ، وجاءه أمر عزل من الشعب وباسم الشعب لا باسم السلطان ..

وثار الوالى التركى المحاصر ، وعز عليه أن تطرده شراذم الفلاحين الحفاة .. ولكن السلطان نفسه أمام اصرار الشعب على عزل خورشيد أقر الامر وصدق عليه ..

وهنا ظهر الثعلب مرة ثانية ، وقد استخفى وراء مسوح الوعاظ أهل الخير والصلاح .. واســتطاع ان يخدع الشعب البرىء وأن يحول حماســتهم من أجـل وطنهم الى حماسة من أجله هو !!

وكان ان تخيروه واليا على مصر ..

وعززوا اختيارهم هذا بأن أرسلوا الى السلطان يطلبون الموافقة على اقرار تعيين محمد على !!

وهكذا .. وعلى أكتاف حجاج الخضرى ، وابن شمعة ، والسيد النقيب عمر مكرم وصل المغامر الالبانى الى تحقيق حلمه الذهبى ، ووقف أمام الشعب يتقبل بالشكران منحته ، ويلبس بأيدى أبنائه البررة المكافحين شارات الولاية ، ويتسلم صولجان الجاه الذى سوده على أرض الاحلام وجعله واليها وحاكمها المطلق !!

ووصول محمد على الى كرسى الولاية ، وانتقاله من داره المتواضعة الىقاعات وابهاء قلعة الجبل.. ثم حياته بعد ذلك فى جو مشبع بأنفاس السلاطين والملوك الذين جلسوا قبله هناك . كان كافيا لان يزعزع يقينه ويبدد ايمانه ويجعل منه شــخصا آخر .. ويصيبه بشبه « لوثة » بدت بعد ذلك فى كل تصرفاته !!

ابدا مافكر حارس الطرق ، وتاجر الدخان ، والجنـدى المرتزق ـ فى أن يرقى يوما فى سلك الجيش العثمانى الىأكثر من رتبته ، فضلا عن ان يصبح حاكما لمصر .. يجلس حيث جلس « صلاح الدين » و « الملك الصالح » و « وايبك » و « بيبرس » !! فكيف به اليوم وقد وصل ؟!

انه الآن يفكر بعقلية التاجر الفقير ، الذى ضحك له الحظ ذات يوم ، فاذا هو مقدم على التجار اجمعين !!

وانه بهذه العين اليوم يستعرض مركزه : انه الوالى .. واعداء الوالى لمـا يزالوا فى أماكنهم حيث عرفهم .. ولكنه كان أسعد من كل الولاة حظا ، اذ لم يسلح نفسه بقوة

الوجاقات العثمانية ، بل بالتفاف الشعب حواليه وحمايته له ..

وتلك كانت قوة لم يلتفت اليها أبدا من سبقوه !!

وهكذا بدأ الوالى الجديد يعمل بعقلية التاجر الذى يريد دعم مركز تجارته الجديد.

وكان أول عمل قام به هو الاتصال بسادته رجال الباب العالى ، فحولهم الى نصرته عن طريق الاسراف فى الرشوة .. وقد افلح فى ذلك وحقق اكبر نجاح

وخطا الثعلب بعد ذلك خطوته الثانية بترحيل الجند العثمانى المتمرد وضباطه الطامعين واستجلاب غيرهم ، حتى يحين وقت الاستغناء عنهم اجمعين ..

وبدأ المسرح يقفر من شخوصه العديدة .. وبدات فى ذات الوقت تتقلص قوى التيارات الخارجية العارمة .. واصبح على الوالى الذى دعم مركزه مع سادته أن يلتفت الى التيارات الداخلية المعارضة ..

وكانت أقواها بالنسبة اليه التيارات المملوكية ..

وتقرب محمد على الى « البرديسى » وجعله سلاحه ودرعه الذى حارب به « الالفى » .. فلما انتصرعليه وأقصاهوجرده منكلسلطان ، التفت الىحليفه البرديسى ، وحرض عليه الجنود فحاصروا داره وطالبوه برواتبهم المتأخرة .. وقضوا عليه !!

ولم يكد الرجل الداهية يقضى على رؤوس أعدائه ، حتى التفت الى الاذناب — وكانوا ممثلين فى البقية الباقية من بكوات المماليك ، فجعل منهم ذات يوم طعامه الشهى فى وليمة المذبحة المملوكية الشهيرة بالقلعة !!

وخلا المسرح للثعلب الرهيب ، الذى اغتصب جلد الاسد واحكم لبسه ، حتى لقد بدا وكأنه صاحبه !!

والتفت حواليه بعين الحذر ، فلم يجد أمامه غير قوة الشعب ، ممثلة فى زعيمه الحليف القديم السيد عمر مكرم ..

ودوى فى خيال محمد على اسم « عمر مكرم » .. وكان للدوى صدى مزعج !!..

عمر مكرم وحجاج الخضرى .. انهما صاحبا الفضل عليه فى هذا العرش الذى يتربع فوقه !!

وانه ليرغب فى التحرر ويكره المراقبة . وان مركزه اليوم لأقوى من مركز الوالى العادى ، وأمكن من مركز السلطان صاحب الحق المنفرد فى بلاده ..

ان «عمر مكرم » يريد أن يجعل من نفسه باسم الشعب رقيبا على أعمال الطاغية الجديد ، لاسيما تصرفاته المالية .. وان « حجاجا » لفى مكان الجهاد ، يرابط على أتم استعداد للعمل !!

وهكذا قضى محمد على بنفي عمر مكرم .. والقضاء على حجاج !!

وكان عمله هـذا ردا لصنيع الرجلين وجميلهما .. اذ غامرا وسمحا للوحش أن يعيش طليقا بين الناس ..

وهكذا أصبح «محمد على» فريد عصره فى مصر بعد أن قضى على الروح القومى .. وأفلح فى السعاية بين القادة الشعبيين من صفوة رجال الازهر ، فجعلهم يتنكرون لزميلهم وقائدهم القديمعمر مكرم !!

وجرى النضار بين يدى الالبانى المغامر ، وعرف عن طريقه كيف يشترى الذمم ويسكت السنة رجال المابين ، حتى السلطان نفسه .. فتفرد بالحكم .. وراح يتبع سياسة الضغط والارهاب ..

ولم يكتف الداهية بأن تكون له ولاية مصر طوال حياته .. فسعى وأفلح فى سعيه وانتزع من السلطان العاجز اعترافا بحصر « الولاية » فى أكبر أبنائه من بعده ، فهدأت ثائرة القلق فى نفسه ..

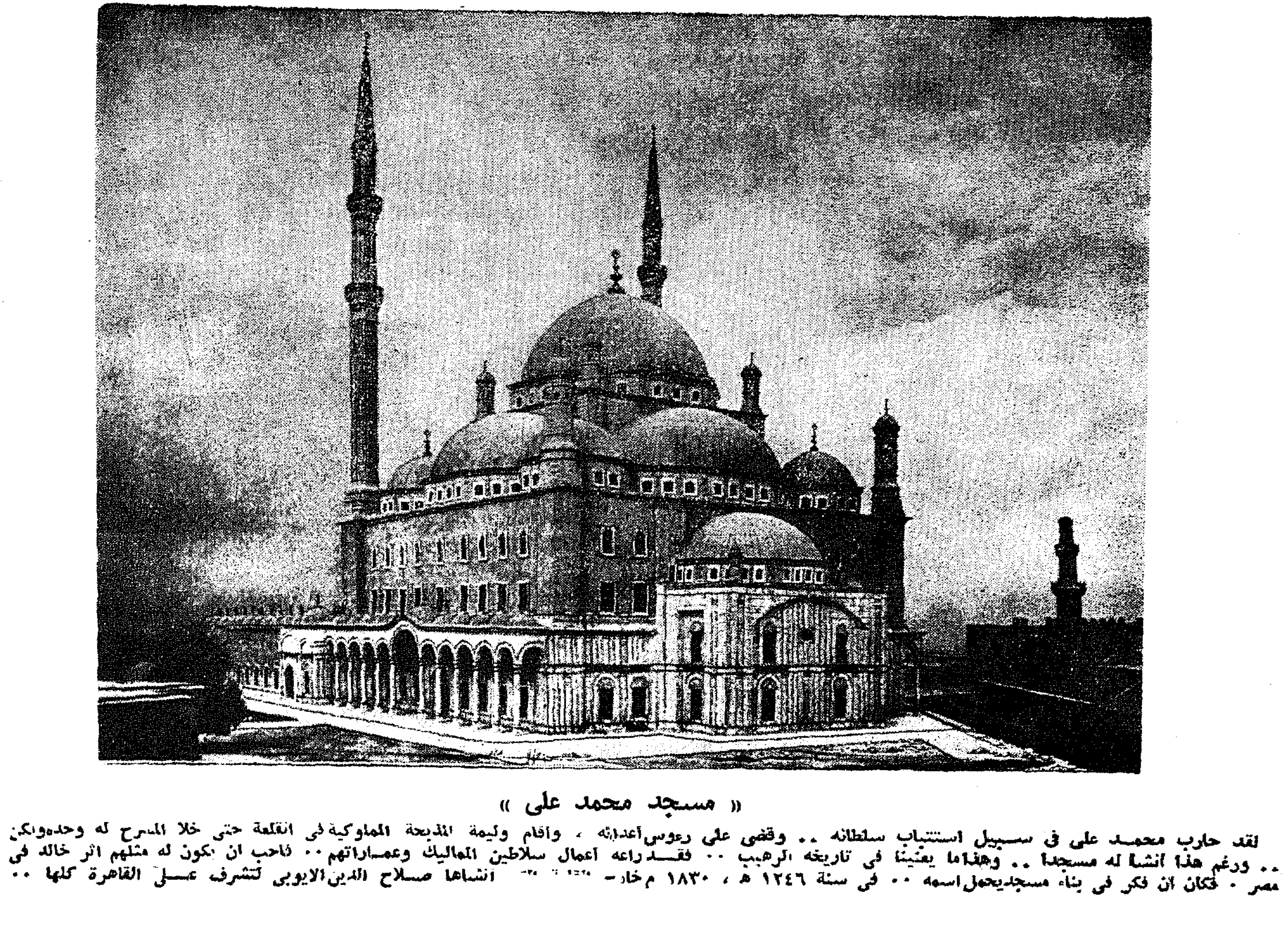
ونظر حوله .. يستعرض التاريخ فى معالم القاهرة الخالدة .. لقد راعت أعمال سلاطين المماليك وعمائرهم أنظار محمد على ، فأحب أن يكون له مثلهم أثر خالد فى مصر .. فكان أن فكر فى بناء مسجد يحمل اسمه ..

واستعرض الوالى الاماكن الشهيرة فى القاهرة .. فوجدها مكتظة بالمساجد والعمائر وكره أن يكون مسجده وسط الزحام وبين غيره من آثار عديدة .. وأحب فى نفسه أن يتفرد هذا المسجد كما تفرد هو بكل شىء .. وأن يشرف على مساجد القاهرة كلها كما أشرف هو على البلاد ومن فيها .. فاستقر رأيه على أن يجعل قلعة الجبل مكانا لهذا المسجد ..

وبناء مسجد فى القلعة ، فكرة سبقه اليها السلطان المملوكى « **الناصر محمد بن قلاوون** » ومن بعده ((**سليمان باشا الخادم**)) .. ولكن مع فارق ظاهر ، هو أن المسجدين السابقين بنيا داخل القلعة بحيث لا يظهران لأعين الناس .. أما محمد على فقد بنى مسجدا ظاهرا للعيان قابعا فوق مكان شاهق مشرف على القاهرة كلها ، وكأنه عين من عيونه العديدة التى كان يرسلها فى أثر الناس ، ليتقضى اخبارهم .. ويرى فيهم بعد ذلك مايراه !!

ومسجد محمد على ، يعتبر من أجمل مساجد القاهرة وأشهر آثارها .. وقد كانت مكانه من قبل عدة مبان قديمة ترجع الى عصور عديدة خلت ، أمر محمد على بازالتها فازيلت جميعا

وعمارة ينشئها محمد على فى ذلك الوقت البعيد ، كان من اللازم ان تسخر لها كل



« مسجد محمد على »

لقد حارب محمد على فى سبيل استتباب سلطانه .. وقضى على رءوس أعدائه ، وأقام وليمة المذبحة المملوكية فى القلعة حتى خلا المسرح له وحده ولكن .. ورغم هذا أنشأ له مسجدا .. وهذا ما يعنينا فى تاريخه الرهيب .. فقد راعه أعمال سلاطين المماليك وعماراتهم .. فأحب أن يكون له مثلهم أثر خالد فى مصر . فكان أن فكر فى بناء مسجد يحمل اسمه .. فى سنة ١٢٤٦ هـ ، ١٨٣٠ م خار [illegible] أنشأها صلاح الدين الأيوبى لتشرف على القاهرة كلها ..

الجهود والكفايات الفنية ، ليكون العمل جديرا بالانتساب لصاحب ((ضيعة)) مصر ، والمتصرف فى أقدارها وأقدار أهليها أجمعين .

واخذ العمال فى حفر أساس المسجد حتى وصلوا الى عمق عظيم .. ثم راحوا يضعون الاساس المتين ، بحيث يقوى على تحمل ثقل المسجد الفخم ، فأرسوا الحجارة الضخمة طولا وعرضا .. حتى ليبلغ الحجر منها أربعة امتار .. وبين كل حجرين كانوا يمدون قضيبا من الحديد ويسكبون فوقه الرصاص المذاب ، امعانا فى تثبيت الاساس وتقويته ..

واخذ «الاساس» يرتفع حتى وصل فى النهاية الى وجه الارض .. وهنا توقف العمل ، واخذ المهندسون فى تخطيط معالم المسجد الذى أراد له صاحبه أن يكون على هيئة مسجد عظيم فى القسطنطينية اسمه مسجد « **نور عثمان** » ..

***

ومسجد محمد على بالقلعة ذو اربعة أبواب فخمة تفضى الى داخله ، اثنان من ناحيته البحرية ، يوصل أولهما الى الصحن ، والثانى الى القبة .. والبابان الآخران فى الناحية القبلية ...

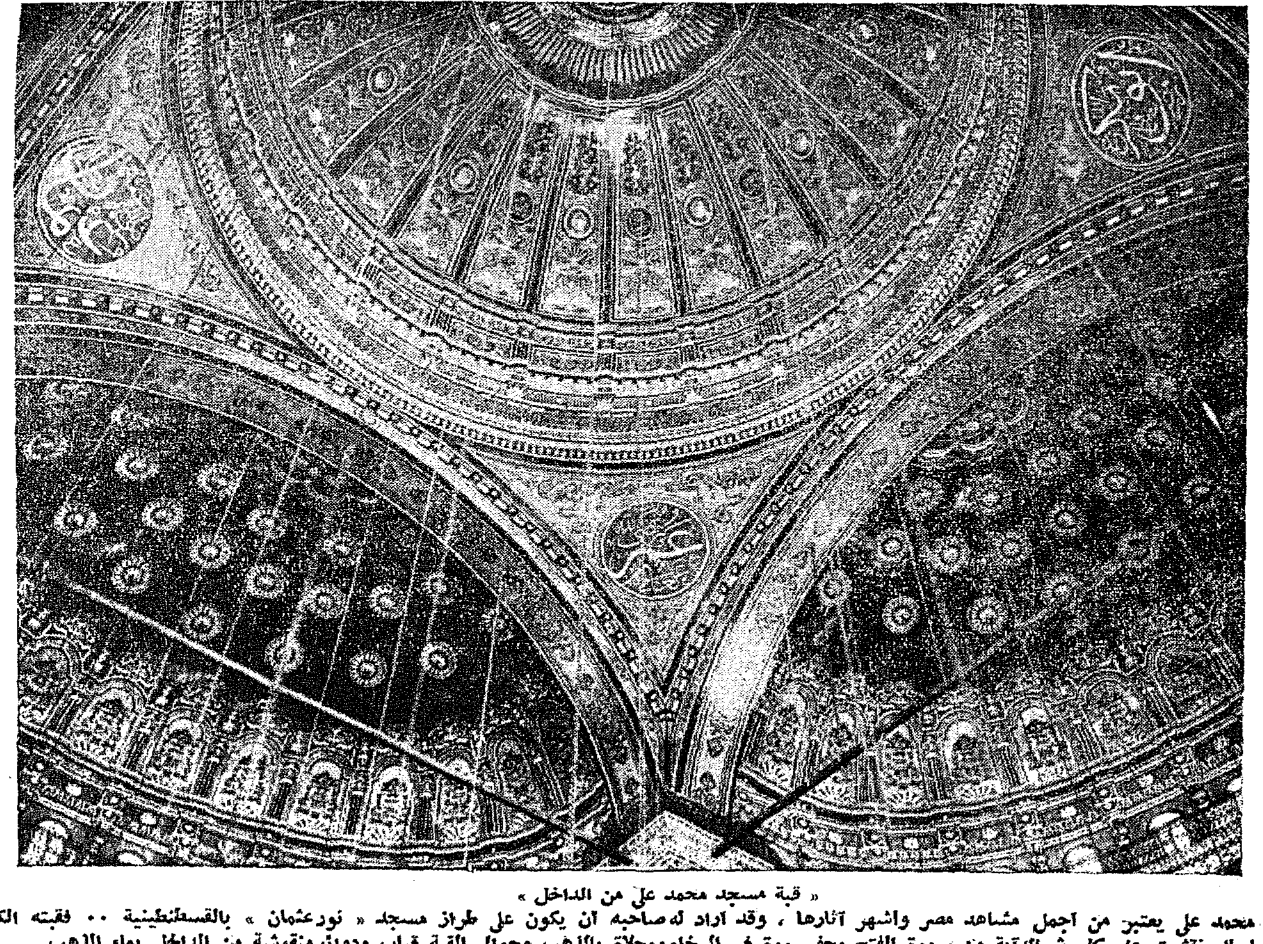
ومساحة المسجد ثلاثة آلاف ومائة وخمسة وثلاثون مترا .. وجدرانه كلها مطعمة بالمرمر النقى المستقطع من محاجر بنى سويف ..

والمسجد مكون من خمسة أيوانات فخمة متسعة ، تعلوها كلها دائريا سبع وأربعون قبة مركبة على عمد من المرمر ، طول كل منها ثمانية أمتار ، غير القاعدة .. وعدد هذه العمد ثمانية واربعين عمودا لكل واحد منها طوقان من النحاس الاصفر ، احدهما فى أعلا والآخر فى أسفل ، وبين كل عمود وآخر وتد من حديد ، علقت فيه سلسلةنحاسية تدلتمنها القناديل ..

ولمسجد محمد على منارتان مفردتان بديعتان شكلا وصنعا .. وباباهما منالخشب ويرقى اليهما بسلم يبلغ عدد درجاته مائتين وست وخمسين درجة عدا درج المسلة الحديدى الموجود داخل كل من المنارتين .. ويبلغ ارتفاعهما الى نهاية المسلة فى القمة أربعة وثمانين مترا .. وهما مكونتان من دورين ، وعلى باب كل منهما آية من سورة الفتح ..

وقبة المسجد الكبرى لها تسعة شبابيك ، نقشت على كل شباك آية من سورة الفتح ، محفورة فى الرخام ومحلاة بالذهب ..

وصحن المسجد تتوسطه قبة خشبية فخمة ، قائمة على ثمانية اعمدة رخامية ، طول كل عمود سبعة أمتار .. وأسفلها صنبور بقبة من المرمر ذو ستة عشر مصنا ، يعلو كل واحد منها لوح رخامى كتب فيه :



« قبة مسجد محمد علي من الداخل »

ان مسجد محمد علي يعتبر من اجمل مشاهد مصر واشهر آثارها ، وقد اراد له صاحبه ان يكون على طراز مسجد « نورعثمان » بالقسطنطينية .. فقبته الكبرى لها تسعة شبابيك نقشت على كل شباك آية من سورة الفتح محفــورة في الرخام ومحلاة بالذهب وحوالى القبة قباب ودوائر منقوشة من الداخل بماء الذهب

« يأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق » ..

ثم الحديث الشريف : « الوضوء سلاح المؤمن » ..

وايوان القبلة آية من آيات الروعة الصناعية ، مساحته تربو على مائة وخمسين مترا ، وارتفاع قبلته واحد وستون مترا ، تعلوه قبة مركبة على أربعة أكتاف من الحجر **الجص** ، وبه **وزرة** مرمرية دائرية ، ارتفاعها متران ، وحوالى القبة قباب ودوائر منقوشة من الداخل بماء الذهب ..

والمحراب والقبة مصنوعان من الرخام ، وفوق القبة دائرة بالزجاج الملون ، نقش فيها :

« رب اجعلنى مقيم الصلاة .. » .

وأسفلها فوق المحراب ، كتب :

«فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب .. »

ويكتنف المحراب عمودان من الرخام مطوقان و « دكة » قارىء السورة مصنوعة من الخشب وهى مرتفعة بحيث يصعد اليها بخمس درجات مفروشة بالجوخ الاحمر .

والى يمين « الدكة » يقوم منبر المسجد .. وهو آية من آيات الدقة الصناعية ، مصنوع من الخشب المحلى بماء الذهب ، وله خمس وعشرون درجة ، يرقى بها الى مكان الخطيب مفروشة بالجوخ الاحمر ، وله باب بمصراعين ، نقش فى اعلاه :

« أفضل الايام عند الله يوم الجمعة » ..

ويواجه المحراب باب القبة ، وتعلوه « دكة » المؤذنين وهى بعرض المسجد ، وتقوم على ثمانية أعمدة من المرمر النقى ولها حاجز نحاسى ..

***

وقد حرص « محمد على » على أن يكون له بالمسجد قبر يضم رفاته ، فأمر بأن ينحت فى الصخر .. وقد أشرف بنفسه على حفره واعداده الذى تم عام ١٢٦٥ الهجرى .. وقد دفن فيه عقب وفاته ..

وتولى أريكة الحكم فى حياة محمد على ولده ابراهيم ..

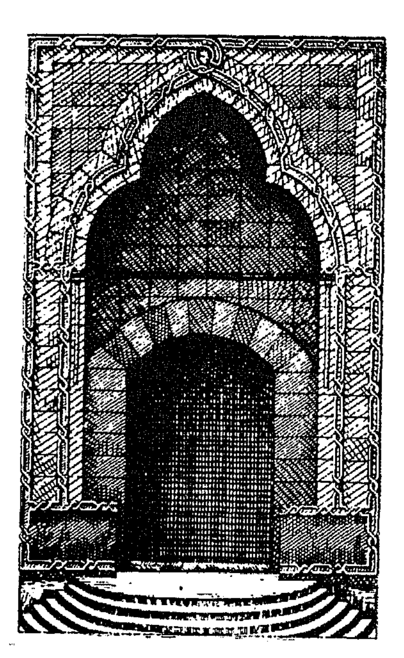
***

فلما مات ابراهيم ومات أبوه تولى الحكم عباس الاول ، وكان سفاحا ظالما يكره الاصلاح ويمقت كل ماهو مصرى .. ولكنه برغم هذا التفت الى مسجد محمد على ، فجدده ونقش اسمه هناك ودهن قبابه بالطلاء المذهب وجدد فرشه وزخرفته ،وجعل أرضه كلها من الرخام ، وعلق فيه الثريات الرائعة المصنوعة من البللور النقى ، كماجدد «شواهد» القبر وحبس عليه أوقافا متعددة ، جعل غلتها للانفاق عليه وعلى من يقومون بالخدمة فيه ..

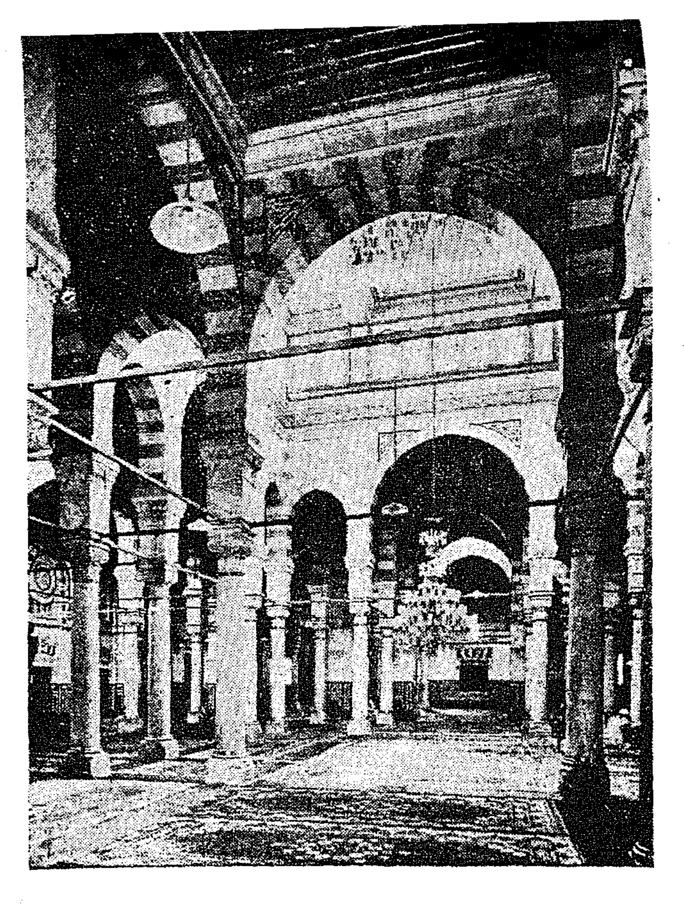
واعتنى الوالى محمد سعيد بهذا المسجد ، وزاد فى أوقافه ..

فلما جاء اسماعيل نمقه وزاده روعة وبنى فيه «جوسقا» خاصا يوم زاره السلطان العثمانى عبد العزيز ، كى يصلى فيه بعيدا عن الحضور !!

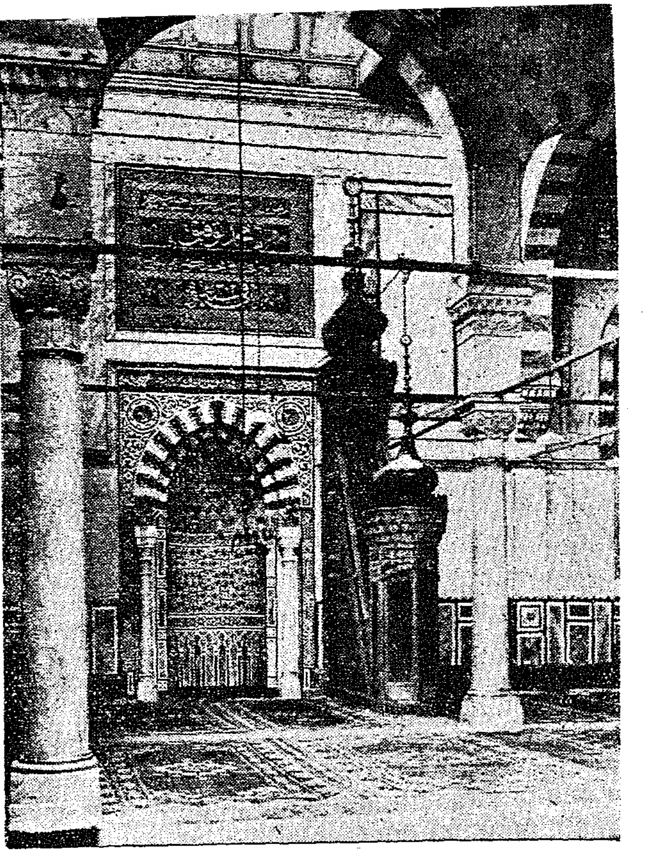
والمسجد من الخارج يمثل منظرا رائعا ، بمئذنتيه السامقتين ، وساعة البرج العتيدة التى أهداها امبراطور فرنسا « لويس فيليب » لمحمد على ..



« باب مسجد الملكة صفية »



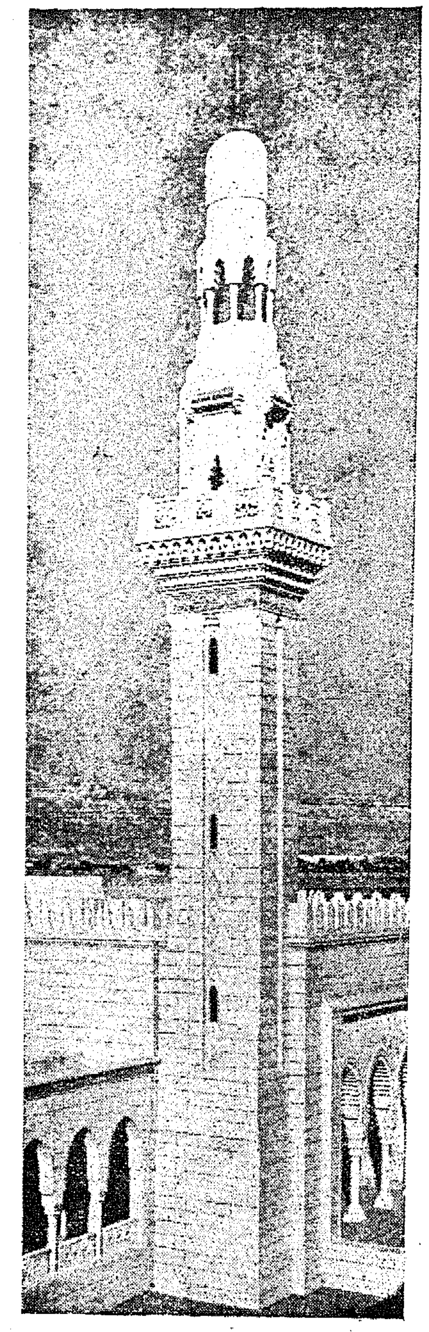
« من الداخل »



« المحراب والمنبر »

« مسجد السيدة زينب »

هى زينب الصغرى بنت على بن أبى طالب من فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، يصر المصريون على أنها دفنت بمصر ، بينما تؤكد مصادر أخرى أن صاحبة المسجد هى زينب بنت يحيى ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فان الامير عبد الرحمن كتخدا راح يكرم السيدة زينب بنت الامام على ويقيم لها ضريحا فخما عليه قبة جليلة ويلحق به مسجدا جامعا سنة ١١٧٤ هـ


« مئذنة جامع الفولى بالمنيا »

خاتمة وبعث

وجاء اسماعيل الغريب المغامر ، ليرث من سبقوه من الغرباء المغامرين ، وليسير فى نفس الطريق الذى سبقه فيه خلفاء الالبانى محمد على ..

واسماعيل سفاح ماجن عربيد ، لم يسع الى الولاية رغبة فى ارساء قواعد عمران ، أو نشر أمن ومعرفة ورخاء .. بل ليعوض مافاته من أسلاب ، وينسى – وقدتربع مترهلا فى ظل أريكة الحكم – أيام الانتظار القاسية التى قضاها منبوذا يحلم بولاية مصر .

وأغرق العربيد الماجن نفسه التافهة فى بحور من الطيش .. وفى غمرة الزيغ والضلالات.. نسى أمانة الحكم ومستقبل البلاد .. وكان أن غامر وقامر وأسرف فى غير وعى ، وتردى فى غير تحفظ ..

وكان اسماعيل صورة من أهله .. غريبا شاذا ، متعصبا لجنسه ، ترهبه فكرة القومية ، ويروعه أن يتصور مصر وقد ارتقت على يد بنيها ..

ومن هنا .. وعلى أساس التعصب الجنسى ، ورغبة فى تفتيت القومية المصرية نظر اسماعيل الى مصر ذات الحضارة والمجد العريق نظرته الى بقرة حلوب ، تعطى ولا يجب أن تأخذ .. وتسرف فى العطاء ، وليس من حقها ان تطالب المستغل الطامع ولو باليسير من الرعاية الواجبة .

وأخذته العزة بالاثم .. وتمادى فى استغلال سلطانه وجبروته ، حتى لقد تنكر للارض الواهبة المانحة ، وراح فى نشوة مجونه يعرضها فى سوق مطامعه .. واذا

به خــلال نوبة من نوبات حبه للشــهرةالكاذبة يبيعها للغريب المترقب ، ويسلمها للاجنبى الدخيل ..

وتمت الصفقة وسط مظاهرات من الصخب العالمى ظنها المجنون اعجابا بتهوره .. ومد يده الخسيسـة ، فقبضالثمن الذى كان وصمة عار جلله وأسرته الظالمة الىالأبد، وأظهره وأظهرهم لجيلهم وللاجيال التى لحقته فى مظهر مصــاصى الدماء ، الساعين وراء الثروة ، والذين لاتهمهم صوالح البلد فى شيء .. هذا البلد الذى آواهم ووهبهم الجاه والملك العريض !!

والحديث عن اسماعيل وعصر اسماعيل يطول ويتشعب .. ولست أرى له هنا فى هذا المقام مكانا .. وانه من الخير لنا ونحن نتذاكر حديث المقدسات ، ونتعرض بالذكر لبيوت الله ــ أن ننسى اسماعيل وعبثه ــ محاولين أن نجد له حسنة ، وهيهات !!

ولكن «ديوان عموم الاوقاف» فىذلك العهد ، قد أقدم على مد يد البر لبعضمساجد مصر ، وفى جملتها مسجد الامام أبى عبد الله الحسين بن على رضوان الله عليهما،ونسب ماتم من اصلاح وتشييد فى تلك الفترة الى اسماعيل ..

كانت آخر عمارة تمت بالمســجد الحسينى هى تلك العمارة الانشــائية التى قام بها رجل الخيروالصلاح عبدالرحمن كتخدا الذى ألحقبالمشهد الحسينى العظيمــالذىأنشأ فى أواخر الدولة الفاطمية مسجدا عظيما دخلت القبة التاريخية المباركة والقبر الطاهر ضمنه ..

وظل المشهد الحسينى والمسجد الملحق به علىحالهما طوال عهد علىبك الكبير ومن تبعه من مماليكوفرنسيين وولاة أتراك ، حتى عهد اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على حيث وجه ديوان عموم الاوقاف اهتمامه الى المسجد ، فكان أن عمل على توسيعه وتجميله ووضع الثريات به وفرشه فرشا أنيقا كما وجه اهتمامه الى حجرة «المخلفات النبوية» الملحقة بها ، ونسب العمارة كلها الى اسماعيل !!

واذا تركنا بعد ذلك اسماعيل وعصره وأعماله كلهــا .. وأردنا أن نعبر صــحائف التاريخ لنلقى هذه الذكريات وراء ظهورنا ــ راعنا بنــاء ضــخم منيف يعود تاريخه الى ذلك العصر المقيت،وهو وانلميكن منأعمال اسماعيل فهو منأعمال أمه «خوشيار هانم»

انه المسجد العظيم المعروف بجامع الرفاعى ..

والسيدة خوشيار بانية هذا المسجد الجامع المنيف سيدة تركية عاصرت عهــد محمد على وشهدت الكثير من اعماله عن كثب اذ كانت زوج ابنه الجندى ابراهيم .. ولقد أحبت لو يكون لها أثر اسلامى يحمل اسمها تسهم به فىالخير ، ويكونلها ذكرى على كر السنين .. ورأت ان تنشئه أيام ولاية زوجهــا ابراهيم ولــكن المنية عاجلته وحرمتهــا تحقيق أمنية كانت ترجوها فبقيت حيث هى تنتظر وتترقب وترجو ان ينصفها الزمن او تسعدها الايام ..



« مسجد الرفاعى بالقلعة »

فى سنة ١٢٨٦ هـ ، ١٨٦٩ م أمرت الاميرة خوشيار والدة الخديو اسماعيل بهدم « الزاوية البيضاء » والابنية المجاورة لها لاقامة مسجد كبير مكانها وضريحين للشيخ على أبى شباك الرفاعى والشيخ عبد الله الانصارى ممن كانوا مدفونين بها . وتوفيت الاميرة خوشيار سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٥ م قبل اتمام المسجد

وتولى عبــاس الاول الحكم ، وماكفت الامنية الغالية عن مراودة خيــال السيدة خوشيار .. وجاء ســعيد بعد عباس ، ولكنهــا لم تعدم أملا ، بل زادت استمســاكا بالرجاء ، حتى شاء الحظ اولا ، ومؤامرة اغراق ولى العهد عند كوبرى كفر الزيات ثانيا ــ ان يتولى ابنها اسماعيل الحكم ، ويصبح صاحب الامر والنهى فى البــلاد .. فتبدت لها بوارق الامل ، وآمنت بأنه قد أصبح من السهل الهين عليها أن تحقق الرجاء وتخرج بأمنيتها من الظلمات الى النور وان تقيم اثرا اســلاميا سامقا يحمــل اسمها ويخلدها على مر الزمان ..

وحملت خوشــيار الرغبة الى ولدها .. وكان وقتها فى عنفوان مجده وجــلال سلطانه .. يعمل لتقوية مركزه بالرشوة ، ويسرف فى غير حياء ولا وجل ..

وأنصت اسماعيل الى أمــه ، وراقته فكرتها ، بل لعله وجد فى اقدامهــا على بناء مســجد جامع مايكفر عن الكثير من جرائمه وآثامه ، فكان ان بارك الفــكرة وايدها ، وأبدى لامه كامل الاستعداد لمعاونتها فى تحقيق ما تأمل ..

واسرعت خوشيار تعد العدة للعمل العظيم الذي انتوت القيام به ، واستعرضت مع خلصائها والمقربين اليها الاماكن الشهيرة فى القاهرة ، وطرقت ميادينها جمعاء .. فلم يرقها غير حى « الرميلة » العامر بالمساجد العظيمة ، والآثار الاسلامية الرائعة التى تنطق بالثراء والاعجاز .. وارادت أن يكون مسجدها فيه ..

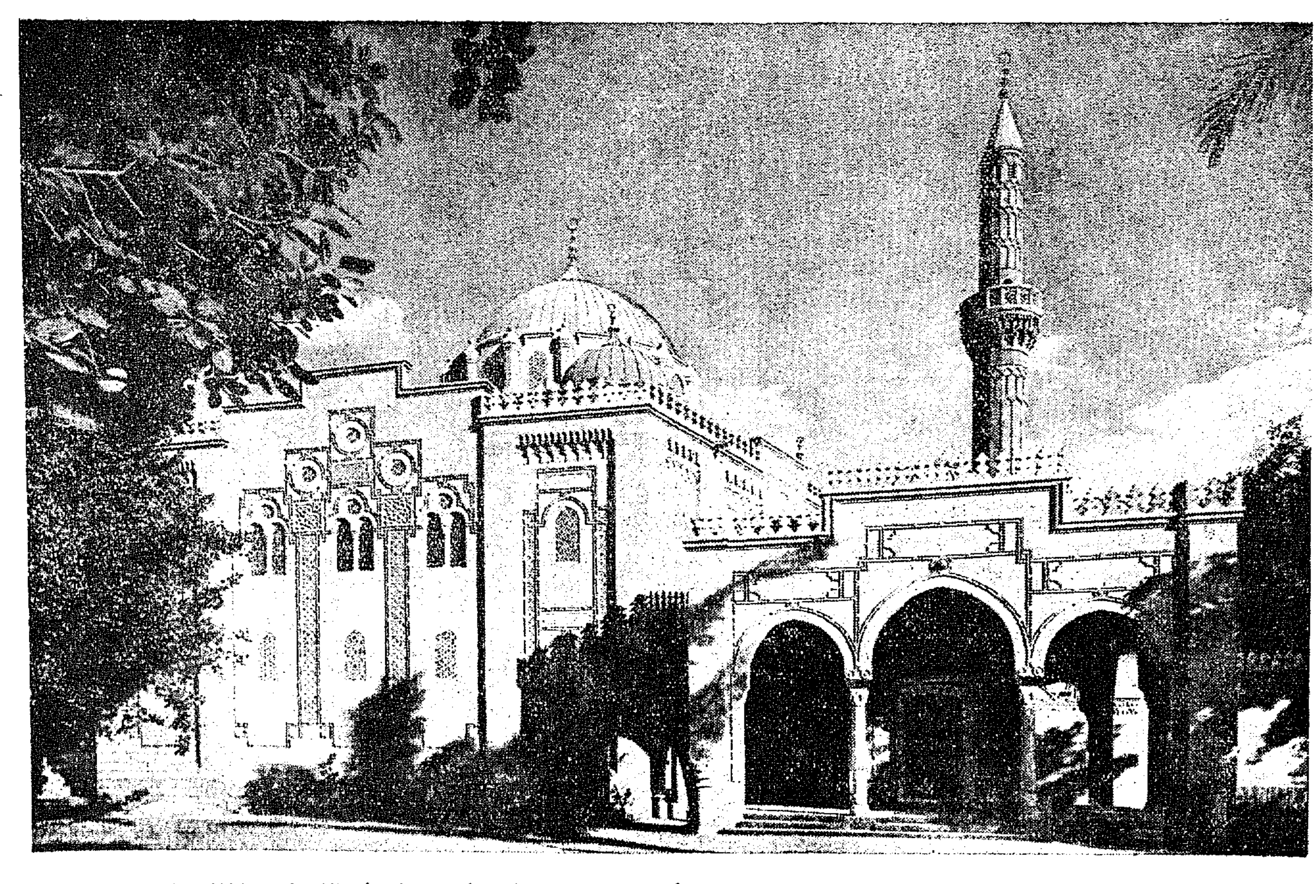
لقــد كان حى ((الرميلة)) مكانا عزيزا بالنسبة لام الخديو خوشــيار .. انه نفس المكان الذى تفتحت عليه عيناها يوم جاءت مصر لاول مرة لتزف الى الجندى ابراهيم ابن محمــد على .. وفى هــذا الحى كانت اقامتها الاولى .. وفى قلعة الجبــل كان بيتها القديم ..

انها ذكريات تربط بين حاضر تحبه ، وماض مازالت تعيش بالفكر فيه .. فهنا كانت بداية حياتها ، وهنا أيضا وعلى مقربة من قلعة الجبل ، وامام مسجد محمــد على والد زوجها ــ يسعدها ان يقام المسجد الجديد ، الذى سيضم رفاتها ويكون فيه مثواها الاخير ، ويكون فى وجوده فى هذا المكان أيضا مايشعرها بانها استطاعت ان تقلد أبا زوجها ، وتنافسه وتبرهن لروحه انها هى الاخرى قادرة على انشاء مسجد عظيم .

وهــكذا .. تخيرت خوشــيار المكان .. وحددته ، وأمرت باتخاذ الاجــراءات السريعة لاعداده هندسيا والبدء بالعمل فيه ..

والغريب فى الاختيــار ، ان المكان الذى أرادته السيدة خوشــيار لم يكن ميدانا معدا ، بل كان عدة حارات ودروب مليئة بالمساكن ، وبينها « زاوية » متواضعة ضمت رفات بعض الاقطاب الصالحين ..

وبرغم هذا .. أمرت بازالتها .. فأزيلت الابنية ومهدت الارض فى سرعة فاذا هى



« مسجد الفتح » أنشأ هذا المسجد سنة ١١٤١هـ ، ١٧٢٨/٢٩م أمير اللواء السلطاني عابدين بك في الشارع الخلفي لقصر عابدين .. في جهة تسمى سويقة صفية بالقربمن الزير المعلق وقد عرفت هذهالمنطقةمن القاهرة باسمه ، حتى ان الخديواسماعيل لما بنى القصر في تلك الجهةسماه قصر عابدين ولما أمر الملك فؤاد في سنة ١٣٣٦هـ١٩١٨م — "قصر اضيف المسجدالى حديقة القصر

فضاء متسع يستقبل القادمين للبدء فى بناء المسجد العظيم ..

ولكن .. وبعد ان أزيلت المساكن والدروب والحارات كلها ، جابهت « خوشيار » قوة جبارة لم تستطع أن تأتى عليها فى يسر كما أتت على المساكن العديدة .. كانت هذه القوة هى تلك « الزاوية » البسيطة التى ضمت رفات بعض الاقطاب الصالحين الذين كانوا يتمتعون بسمعة طيبة وشهرة شعبية عظيمة ..

وحارت خوشيار .. ماذا تفعل !! انها تريد بناء مسجد لها .. ولكن هذا الاصرار الشعبى على الاعتراض ارغمها على ان تبدل وتغير فى مشروعها ، وتسارع الى ادخال « الزاوية البيضاء » ضمن حرم مسجدها ، وهى تضم خمسة من الاولياء الصالحين هم : « **على أبو شباك الرفاعى** » و « **يحيى الانصارى** » و « **مصطفى الفورى** » و « **الشيخونى** » و « **المزاريقى** » ــ وعليها ان تخضع بعد هذا لحكم الحظ الذى أبى أن ينسب المسجد الشامخ اليها .. بل نسب الى السيد القطب « **على أبى شباك الرفاعى** » ساكن الضريح المتواضع فى « الزاوية البيضاء » !!

ونسبة مسجد السيدة خوشيار الى الخليفة الرفاعى دونها ، يثبت أن الشهرة الشعبية والقرب الى قلوب العامة ، أقوى من الجاه والاسم العريض ولو كان اسم أم الخديو اسماعيل صاحب السلطة والجاه العريض ..

وعلى أبو شباك المنسوب الى السيد احمد الرفاعى المتصوف الشهير وصاحب « الطريق » المعروف باسمه ــ كان صاحب كرامات .. وكان له تلامذة واتباع اعتادوا التجمع فى زاويته لقراءة الاذكار والاوراد ، حتى دوت شهرتهم فى الآفاق .. وحتى قيل ان التردد على « الزاوية البيضاء » يشفى من الامراض العصبية وخاصة اذا « حضر » المريض حلقات الاذكار ..

وبدأت بعد ذلك الخطوة الثانية فى بناء المسجد ، وهى خطوة الاعداد والتصميم ومحاولة تنفيذ المشروع الفخم لاقامة الاثر الاسلامى النفيس ..

ووجد المشرفون انهم أمام أثرين عظيمين .. مسجد السلطان حسن ، ومسجد محمد على .. اذن ، فمن اللازم أن يكون المسجد الجديد فى مثل فخامة هذين المسجدين ، والا .. فلا داعى لاقامته بالمرة ، حفظا لكرامة أم اسماعيل !!

وكلفت السيدة خوشيار ــ حسين فهمى باشا وكيل ديوان عموم الاوقاف ــ بوصفه مهندسا معماريا ، أن يقوم بتصميم مسجد يضاهى فى روعته وجلال بنائه مسجد السلطان حسن ، بحيث يكون المسجدان مجموعة تنطق بالروعة والجلال المعمارى ، وتكون أعظم شاهد على جمال العمارة الاسلامية ..

وقدم المهندس حسين فهمى التصميم المطلوب لبناء المسجد الجديد ، وقد راعى

فيه الجلال والروعة والتناسق بينه وبين مسجد السلطان حسن من حيث الضخامة والارتفاع ..

وأقرت ((خوشيار هانم)) التصميم وأمرت بالتنفيذ ، وكلفت خليل اغا كبير الاغوات بالاشراف على البناء والاسراع فيه ، خاصة لانها كانت قد أمرت المهندس المصمم بأن يلحق بالمسجد قبورا للسادة الذين كانت تضم عظامهم الزاوية البيضاء ، وأشهرهم على أبو الشباك الرفاعى وقبورا اخرى لمن يموت من ذريتها ..

وبدأ خليل أغا فى التنفيذ .. وأشار بأن تمد سكة حديد من هناك الى مكان المحاجر بالجبل لتحمل الحجر الى مكان البناء ..

واخذ البناء يرتفع .. ووصلت أنباؤه الى أسماع اسماعيل فراعته النفقات الباهظة التى كان يتكلفها.. وأحب أن يعرقل السير فيه ، وأرسل فى استدعاء مهندس أجنبى بحجة تعديل التصميم ..

وحضر ذلك الاجنبى وأحب أن يدخل على التصميم الاساسى بعض التعديلات ولكن أم الخديو عارضت ولم تقبل الا ان يقام المسجد كما رسمه حسين فهمى باشا..

وقامت جفوة بينها وبين ابنها توقف بسببها العمل ثم ما لبث ان استؤنف من جديد دون تعديل أو تنميق كما أرادت السيدة خوشيار ..

واستجلب الخشب اللازم للمسجد من جزيرة « طاش بوز » وامتلأت المخازن بمستلزمات الاعدادات النهائية ، كالذهب والابسطة والاعمدة وكان عددها ستة وثلاثين عمودا تكلف الواحد منها ألفا من الجنيهات !!

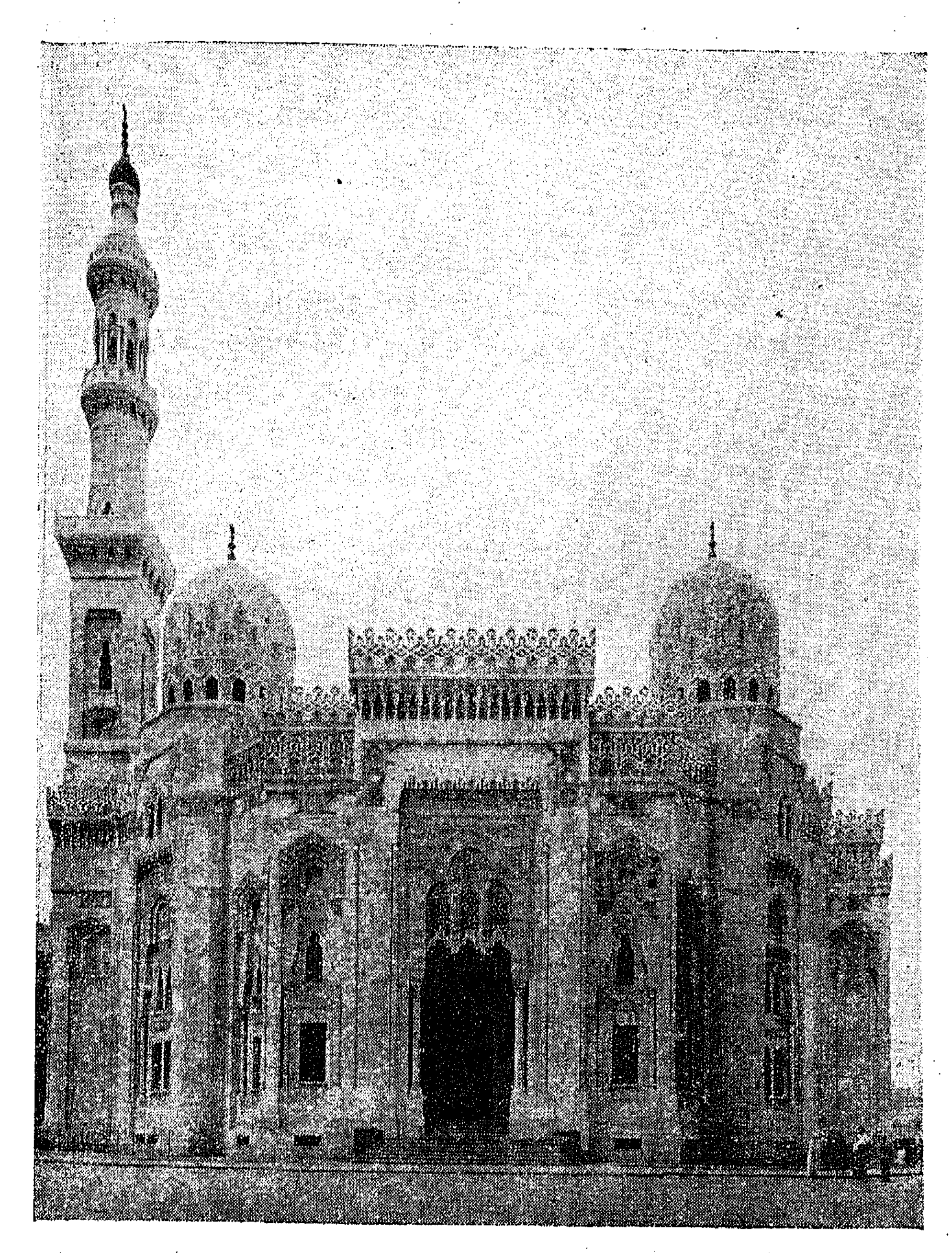
وحدث والعمارة قائمة على قدم وساق أن توفيت « خوشيار هانم » .. فأمر الخديو اسماعيل بأن يحال أمر اتمام المسجد على ديوان عموم الاوقاف ..

وقام الديوان من ناحيته بعمارة المسجد واتمامه على هيئته الحالية ، وقد بلغت تكاليفه الكلية حوالى نصف المليون من الجنيهات !!

ومسجد الرفاعى يمثل صورة من صور البذخ الاسلامى الذى أضفته وزارة الاوقاف على ذلك الاثر النفيس الذى كون مع مسجد السلطان حسن مشهدا من أروع المشاهد الدينية الداعية الى التأمل واطالة التفكير ..

والمسجد بحالته الراهنة ، يمثل التقدم المعمارى العظيم فى مصر الاسلامية ، والروعة الناطقة بالجلال ، والاعجاز الذى تقف عنده الجهود .. كما انه يمثل حقبة من الزمان ، ويروى تاريخا فيه الكثير من العبر .. وانه بمئذنتيه الدقيقتين ليعطى صورة من صور روعة التوحيد وجلال الدين ..

وتم المسجد .. واقيمت فيه الصلوات الجامعة .. وظل مكانه صامدا يروى



« مسجد أبى العباس المرسى بالاسكندرية »

أنشىء هـذا المسجد فى حياة أبى العباس سـنة ١١٨٩ هـ ، ١٧٧٥م وابوالعباس المرسى هو احمد ابن عمر الانصارى المرسى .. نسبة الىمرسية من بلاد الاندلس ويكنى أبا العباس ، وكان متصوفا زاهدا حمل راية الطريقة الشاذلية بعد شيخهالامام أبى الحسن الشـاذلى .. وكانمسجده المدفون به صغيرا فقامت وزارة الاوقاف بهدمه معالمحافظةعلى القبر واقامته على مساحة وسيعةوجعلته من افخم المساجد فى الشرق

قصة عصر تولى .. عصر اسماعيل الماجن الذى ذهب .. ومن بعده ولده توفيق صنيعة الانجليز الذى جاء من بعده عباس الثانى .. ثم حسين كامل .. واخيرا .. أحمد فؤاد ..

ومسجد الرفاعى بعد هذا - يمثل فى جلاله وشموخه وفخامته نهاية عصر معمارى تميز بالروعة والثراء .. وان فيه ، وفى المآذن العديدة والقباب الفخمة المقامة فوق مجموعة المساجد المجاورة له - لقصة من أروع قصص التاريخ الاسلامى .. قصص تربط بين عهود حديثة ، وأخرى موغلة فى القدم ..

وانه ، ومن حوله منارات وقباب السلطان حسن ، وقانى باى الرماح ، وأم الاشرف شعبان ، ومحمد على .. وبمبعدة منهم منارات وقباب عمرو بن العاص واحمدبن طولون ، **والازهر - لينطقون بلسان صدق أن مصر هى قلب العالم الاسلامى النابض بآيات العزة والمجد ، وانها كعبة العروبة ومعقد الآمال للغد المرجو السعيد ..**

ومسجد الرفاعى بعد كل اولئك يروى عبرة الموت للاجيال .. ففيه ، وبين جدرانه تقوم مدافن بعض أفراد اسرة اسماعيل .. الاسرة التى طغت وتجبرت ، وكانت حربا على القومية فقضى عليها الشعب .

انهم هناك فى مقابرهم بين أمراء .. وسلاطين .. وملك واحد .. هو احمد فؤاد بن اسماعيل ..

ان عصر فؤاد .. عصر جدير بالذكر .. لا لجلال شخصيته الطاغية العربيدة .. ولكن لانه قد تفتحت فيه براعم القومية المصرية ، وبدأ الشعب يرفع رأسه ، ويتطلع الى مزيد من الحريات .. وقد أحس بها فؤاد .. فعمل على محاربتها باعتماده على الحراب الانجليزية مرة .. وعلى تمزيق وحدة الامة مرات ..

كان فؤاد صورة من اسماعيل .. وكان اسماعيل صورة من محمد على .. وكان هؤلاء جميعا ، ومعهم أهلوهم - صورة للجشع والمطامع والاقبال على الدنيا ، ونسيان الآخرة وتجاهلها .. وان أسهموا اسميا - عن طريق مشروعات الدولة العمرانية بالتجديد أو التعمير أو اقامة بعض المساجد المنسوبة الى أهل بيت رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، وخاصة المساجد الجامعة التى كانت التجديدات والانشاءات التى قام بها عبد الرحمن كتخدا فيها - آخر عمل بها ..

وهكذا .. شاء حظ توفيق وعباس حلمى وفؤاد .. ان تنقش أسماؤهم على جدران مساجد السيدات : نفيسة ، وزينب ، وسكينة - كمجددين ومنشئين !!

وقد أبى طغيان فؤاد الا ان يصل الى بيوت الله ، ولم يكفه ما اغتصبه وسلبه من عقار ومتاع - لتكون له ثروة طائلة تليق بملك جاء الى العرش مفلسا شريدا - فامتدت يده الى مسجد أمير اللواء السلطانى « عابدين بك » ، وكان يومها يوسع

« السراى » ويجمله وينمقه ، فضمه الى حرم القصر وجدده تجديدا شاملا حتى لم يبق فى المسجد من آثاره القديمة شىء غير القبة والمئذنة ..

ثم حاول بعد ذلك ان ينسبه الى شخصه ، ولكنه عجز عن ذلك لشهرة المسجد ، فلم يجد غير أن يجرده من اسم صاحبه الاول ، ويسميه مسجد الفتح !!

لقد ختم ولاة أسرة محمد على عهد الخير وحبه ، والاقبال عليه ، واتجهوا بتفكيرهم ونشاطهم واساءة استغلال سلطانهم الى جمع المال وتكديسه ، وأبوا ـ امعانا منهم فى التنكر للفضائل ـ ان يسهموا فى اقامة بيت من بيوت الله أو عمارة من عمائر لها صلة بالدين ..

***

وكان التكليف الخديو الذى صدر من اسماعيل الى نظارة الاوقاف لتشرف على مسجد الرفاعى وتتولى اكمال عمارته ـ عبارة عن صك صريح بابتعاد حكام هذه الاسرة وولاتها عن حلبة العمائر الاسلامية ، وترك أمرها للدولة تنظمه حسبما تقضى اللوائح والقوانين .

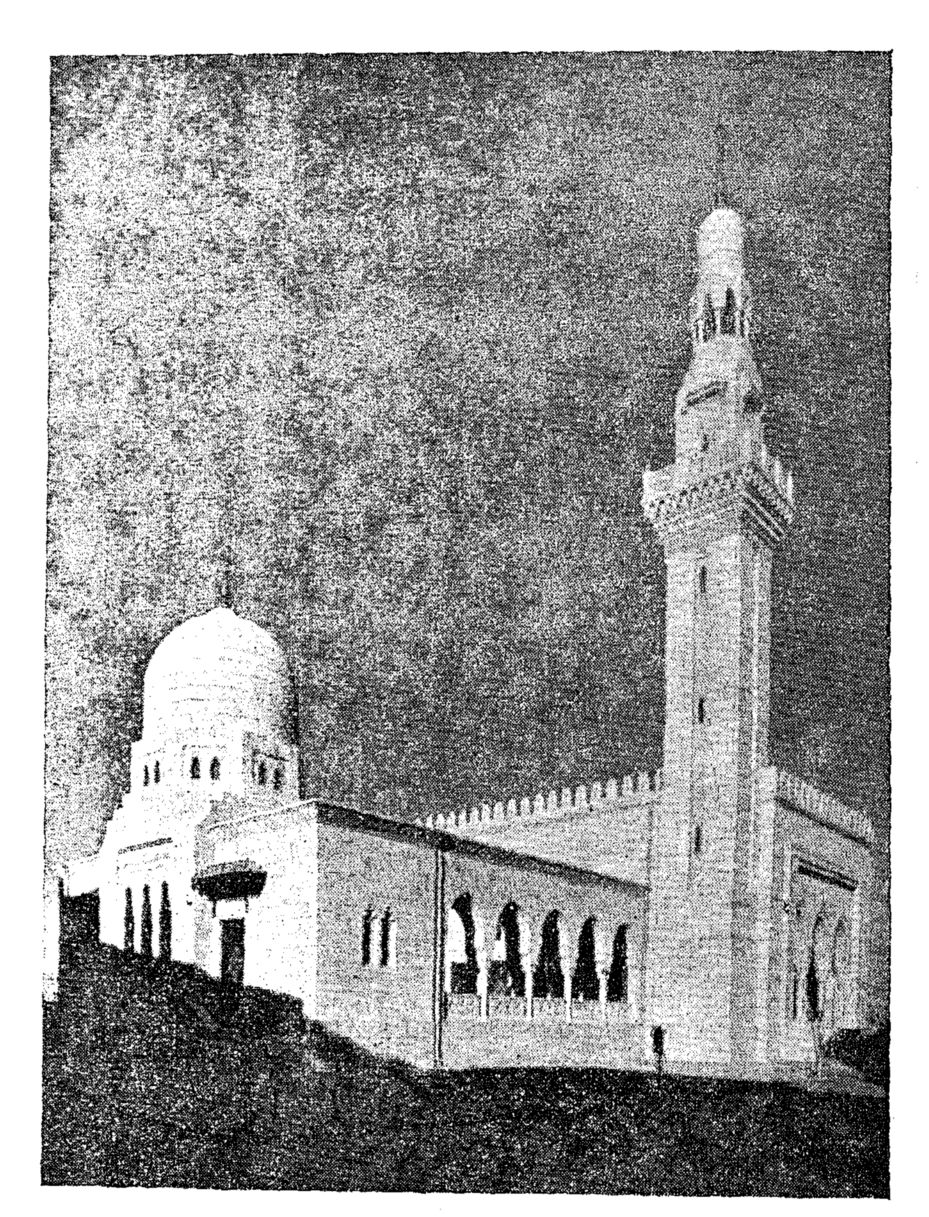
ومن هنا .. وأمام نقطة التحول التى أوجدها انسحاب اسماعيل من ميدان الخير ـ بدأت نظارة الاوقاف سلطانها وهيمنتها على جميع المساجد فى مصر .. ثم ، ولما أصبحت بعد ذلك « وزارة » ذات صبغة تنفيذية واشراف حكومى مباشر بعيد عن تدخل الولاة وأذناب الالبانيين ، اتجهت بسياسة انشائية شاملة الى الاهتمام بالمساجد وتعميرها .

ولما كانت البلاد غنية بوجود « مشاهد » بعض كرام الائمة من علماء الدين ، فقد اتجهت وزارة الاوقاف الى تخليد ذكراهم ، والاعتراف بسابق جهادهم وتضحياتهم فى سبيل الدين ، بأن حولت تلك « المشاهد » و « الزوايا » المتواضعة الى مساجد عظيمة ، فبنت وشيدت فى الاسكندرية مسجدا شاهقا للامام العالم أبى العباس المرسى ، وجملته وفرشته بالبسط الغالية ، وشرعت فى نزع ملكية المنازل المتداعية المحيطة به ، ليكون المسجد فى ميدان فسيح تظهر معه أبهته ، وتكتمل بوجوده المجموعة المكونة منه ومن مسجد الامام البوصيرى ، وزاوية بعض تلاميذ الامام من السادة العلماء المجتهدين ..

واتجهت وزارة الاوقاف بعد ذلك الى الوجه القبلى .. وخصت بنشاطها العارف بالله « الامام الفولى » ، فاقامت له مسجدا على أحدث طراز بمديرية المنيا ..

ثم سار موكب الاصلاح قدما .. حتى استقر فى قنا ، حيث اقيم مسجد جامع للسيد القطب عبد الرحيم القنائى ..

وظلت موجة الانشاء فى مسيرها جنوبا حتى وقفت عند مدينة الاقصر ، وفيها مسجد متواضع يحمل اسم القطب الصوفى السيد « يوسف أبى الحجاج » صاحب



« مسجد الفولى بالمنيا »

انشأ صاحبه الفولى لنفسه فى حياته زاوية صغيرة .. والفولى هو الشيخ العالم الصوفى على بن محمد الذى تلقى علومه بالازهر وتصوف على الطريقة الشاذلية ، واشتغل بتجارة « الفول » وسمى من أجل ذلك بالفولى وكان أهالى المنيا يحبونه لشدة تقواه وصلاحه ، ولأدل على ذلك من انتساب مدينتهم لاسمه .. فقد سميت من قبل « منية الفولى » فلا عجب أن يكثر رواده وزائروه حتى يضيق مسجده بمن يؤمه من المصلين ..

وفكرت وزارة الاوقاف فى تجديد مسجد الفولى وتوسيعه وكان أن نفذت عمارته وأعادت بناءه على أجمل طراز سنة ١٣٦٥هـ ، ١٩٤٦م

ويقع هذا المسجد فى مكان ممتاز على شاطىء النيل والحقت به الوزارة حديقة كبيرة ...

الكرامات الشهيرة ورأس الاسرة الحجاجية العريقة بالاقصر ، وفيه مشهده وضريحه . فتركت المسجد القديم فى مكانه فوق أنقاض معبد الاقصر ، وشيدت مسجدا جديدا آخر على الطراز الاندلسى يحمل أسم أبى الحجاج ..

ثم .. ظل المسجد الجديد حيث هو .. ولم ينقل اليه الضريح ، ولم يهدم المسجد القديم ، وبقى رابضا فوق الرابية المشرفة على المعبد الفرعونى الخالد ، كأنه حارس أمين ، يأبى أن يكشف ماتحته من أسرار ستكون لها قيمتها فى أسفار التاريخ !!

وكان من الغريب بعد هذا ، أن يتخذ الماجن فاروق حفيد العربيد اسماعيل ، من اقامة بيوت الله هذه ، وافتتاحها ، وسائل للدعاية الكاذبة عنه ، حتى لقد اعتاد أن يظهر فيها بما أراد عن طريقه أن يخفى بعض فضائحه .. ولكن الله كان للطاغية بالمرصاد ، وقد ظن انه يستطيع ان يخادع الله والذين آمنوا ، وما كان يخدع غير نفسه .. حتى شاء الله فى النهاية ان تأتيه الضربة القاضية من ناحية الشعب ، فأطاحت به وهدمت عزه ، وثلت عرشه ..

فقد حدث بعد هذا .. ووسط الظلم والظلمات التى شملت مصر — ان ثارت الارض على غاصبيها ، فاذا بالتاريخ يتجدد ، واذا بها تنبت الفلاح الاصيل من بنيها ، صاحبها ووارثها .. ليطرد الدخلاء ويطيح بالغرباء ، ويعيد كل شىء الى أصحابه ..

وانهار الصنم الالبانى الغريب ، وهوت فوقه مطرقة الشعب يحملها الزعيم المصرى جمال عبد الناصر مع فتية من أشبالها البررة ..

وبدأت مصر تدخل فى طور وعهد جديد ..

وقد ترجم جمال عن سياسة هذا العهد المصرى الصميم ، بأنها سياسة العمل والبناء .. بناء المجد المدعم ، المقام لصالح الشعب .. وراح البطل المصرى ينقل عينيه حواليه :

مشاكل رهيبة ..

قلق دولى ..

انهيار اقتصادى ..

أكاذيب تدعمها أرقام زائفة ..

افلاس أخلاقى ..

وقائمة أخرى مليئة بأسماء وصفات مثيرة مذهلة ، ورثتها الثورة المصرية الشابة .. فكان عليها أن تحاربها فى أكثر من جهة وان تسارع بالقضاء عليها فى أكثر من ميدان ..

واذن .. لم تكن الملكية وحدها هى علة العلل ، وآفة الآفات .. كان هناك الاحتكار ، والاستغلال ، والانتهازية ، والرجعية ، والحزبية المقيتة .. وبقية سدنة الصنم الذى تهاوى وتبدد ..

وظل جمال عبد الناصر فى الميـــدان ، يحارب بروح مصر كلها .. وبقلب الملايين التى كانت ترجو التحرر على يديه ، حتى استطاع بقــوة ايمانه الغالبــة ، أن يبــدد الظلمات الكثيبة ، ويفتح الابواب كلها استعدادا لمقدم موكب النور ..

وهكذا .. اشرق على مصر نور عهد جديد.. بدأت خلاله تسترد انفاسها اللاهثة وتسارع الى ظلة الايمان لتستروح عبقها الذى لم تشعر به طوال مدة حكم الطاغية ، الذى كانت نهايته نهاية مؤكدة لعهود تحكم الغرباء ..

واتجهت البصــائر كلها الى جمــال .. وجمــال بدوره راح يترجم عن عواطف الشعب ورغباته ، كى يضفى على أوشاب الماضى أضواء من النورانية . تشـعر العالمين جميعا بأن عهد الظلمات قد ولى ، وان عهد النور والاصلاح قد حلت مواعيده ..

وكما ترجم جمال عبد الناصر عن عواطف الشعب ورغائبه .. كذلك راح يترجم فى حماسة وقدرة عن سياسة العهد المصرى الجديد .. سياسة العمل والبناء ..

وانفتح المجال للاكفاء .. وسار الركب خلف جمــال وقد تعاظم الايمان بالمثــل العليا والمستقبل المرموق ..

وفرت الاشباح كلها .. واحس الشرق ببرد الراحة يسرى فى كيــانه ، فاتجهت القلوب الى الله تسأله التوفيق والسداد وحسن الالهام .. وراحت العيون المعجبــة ترقب الوثبة التى بدأت تتحرك كتائبها ..

ووسط طوفان الاصــلاح الشامل ، وقد طهرت الارض لتنبت أقوى الثمــرات ، وانشئت المصانع واقيمت المعامل ـ حظيت الاسماء الخالدة فى ســفر الجهاد بنصيب وافر من تقدير رجل الثورة وبطلها ..

لقد كرم جمال ذكرى عرابى ، ولم ينس نشر صحائف جهاد محمد فريد .. وأبى وقد اجتث شجرة اسرة محمد على من اساسها ، الا ان يكرم الزعيم الفلاح السيد عمر مكرم ، ويعيد نشر صفحته البيضاء امام العيون ليؤمن الجميع بأن الله لايضيع أجر من احسن عمــلا ، وانه يهيء للمظلوم من يقتص له من ظالمــه ولو طال الزمن وكرت السنون ..

لقد كان السيد عمر مكرم نقيب اشراف مصر وزعيم جهادها ضد بونابرت ، هو الرجل الطيب الذى البس الطاغية الغاصب محمد على خلعة الحكم واجبر بقوة الشعب الذى وراءه ـ سلطان تركيا على تنصيب محمد على واليا على مصر .. فكان جزاؤه من الغاصب الالبانى النفى والتشريد والتجريد من الممتلكات ، لانه أبى ان يقر سرقات « الباشا » ويوافق على تصرفاته الاستبدادية حيال الشعب ..

ولقد مات السيد عمر مكرم شبه منسى .. ودفن فى ضريح متواضع كاد ينسى على كر الاعوام لولا ان شاء الله لسيرة الزعيم الاسيوطى أن تنشر من جديد على يد الزعيـم

الشاب الذى أنبتته أرض أسيوط ، وأخرجته زرعا مباركا فى بلده « بنى مر » ..

ورأى جمال ألا يكون تكريم السيد عمر مكرم فى نشر سيرته فحسب ، بل فى اقامة أثر عظيم يحمل اسمه ويذكر الناس به على كر الايام .. وأى أثر أبقى وأجمل وأخلد من مسجد يقام فى أعظم ميادين الدولة يحمل اسم الزعيم المصرى الجرىء ؟!

وهكذا أقامت الثورة المباركة ، للثائر المصرى الاول أثرا نفيسا ، وشيدت من أجل تخليد ذكراه مسجدا على أحدث طراز فى ميدان التحرير ، ألحقت به مكتبة فاخرة للراغبين فى الاطلاع والعرفان ، وافتتحته للصلاة الجامعة بعد أن زينته وجعلته آية من آيات الفن المعمارى الحديث ، المعبر عن التطور الانشائى الجديد الذى حققته ثورة الابطال وأرادت به تكريم ذكرى العاملين ..

ورأى جمال بعد هذا التكريم .. وبعد أن أسهم عهده الميمون فى الحركة الانشائية الدينية ، أن يكون عمليا فى تعبيره عن حبه لهذا الميدان ورغبته فى توسيعه وتعظيمه ومد أثره الى ميادين أشد سعة من مجرد التشييد والاعداد لاقامة الصلوات ..

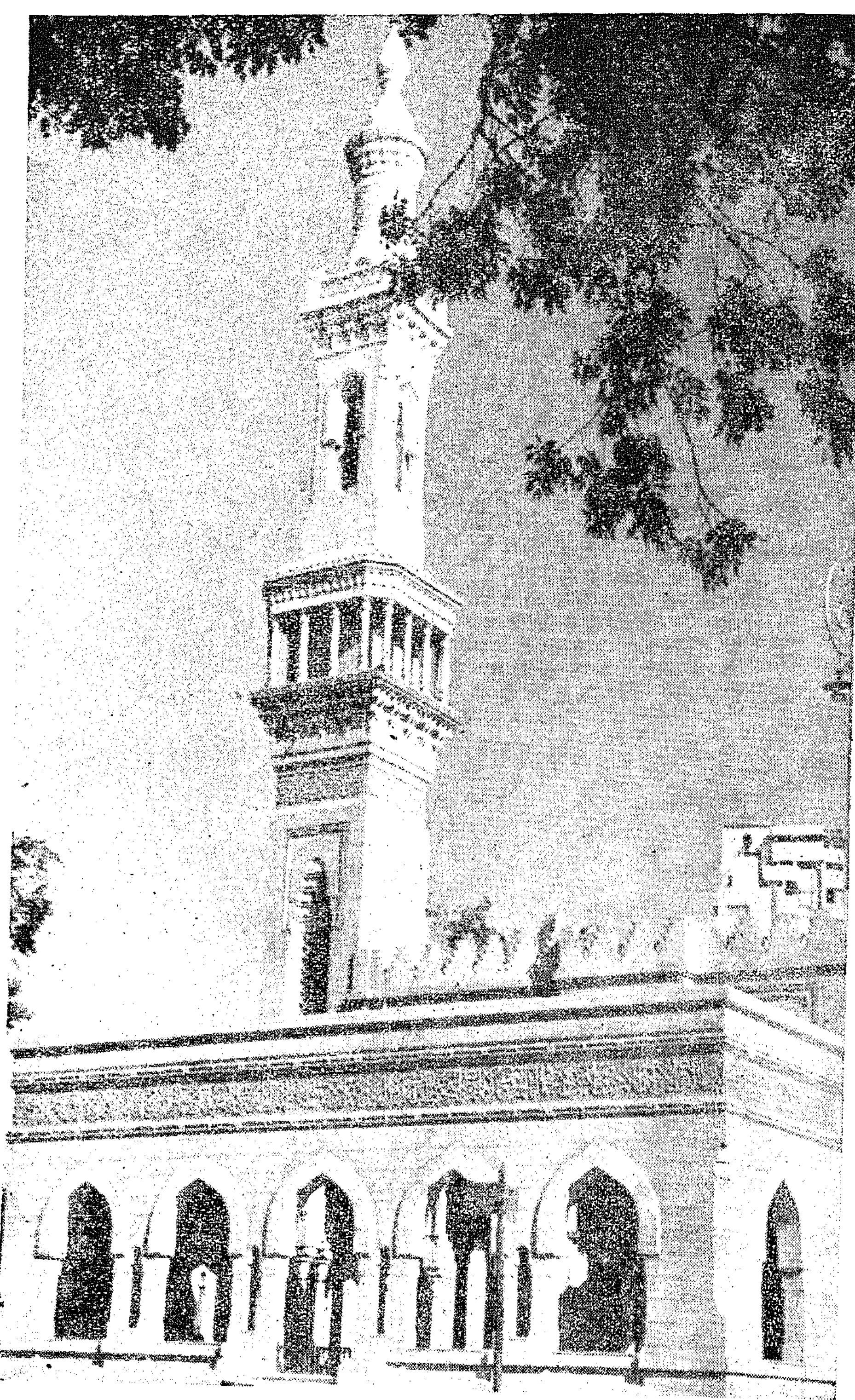
لقد كان المسجد فى أول الامر هو نواة المدينة ، وسر عمرانها . أنشأه الولاة المسلمون قبل أن يبنوا عواصمهم لتوجه منه الدعوة الى الدين الجديد ، وليكون فوق كونه دار تعبد وصلاح ، بيت عدل ودعوة الى الاحسان والجهاد فى سبيل الله ..

على هذه الاسس بنيت المساجد الجامعة فى مصر : عمرو ، وطولون ، والازهر ، وغيرها .. وعلى هذه الأسس بالذات أراد جمال أن يقيم دعائم عهد جديد ..

ان هذه المساجد العديدة ، بنيت على أساس الدعوة الشاملة الى الاتحاد التام .. ان الدعاة من فوق منائرها حين يكبرون ويدعون الى الصلاة وتعمير المساجد ، فانهم انما يجمعون الشمل ويطالبون بتقوية الصفوف وترتيب الجماعات واشعار الجميع بأنهم أخوة فى الله واللغة والوطن والدين .. فهل ترى هذه الدعوة قصرت ، أم تصامم عن سماعها المؤمنون !!

أبدا ما قصرت الدعوة ... ولا تهاون الدعاة ، ولا كفت بيوت الله عن اداء رسالتها السامية التى لاتقتصر على أداء الصلوات الخمس بل تتعداها الى غرس الفضائل فى أعماق النفوس والعمل بها من أجل خلق مجتمع فاضل عظيم يتمثل فيه قول الله تعالى **((كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)) ،**

رأى جمال أن رسالة المسجد استمرار للرسالة المحمدية الكبرى ، ودعوة القرآن للمسلمين جميعا الى الاعتصام بحبل الله دون تفرق ولا وهن ، مع تذكر حكمته جل وعلا وقد أراد لهم العزة فى الاتحاد بعد أن كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها بالترابط والتآخى والايمان ...



« مسجد الزمالك » انشىء سنة (١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م) افتتح سنة (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م) بحضور
السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية والسيد احمد حسن الباقورى والوزراء

لقد جعل الله البيت مثابة للناس وأمنـا وقبلة ارتضاها لهـم جميعا ، فلم لاتكون المساجد قبلة للعرب كلهم حيث يكونون !!

كان قلب جمال عبـد الناصر كبيرا .. وكان هذا القلب قادرا على أن يسـع العرب أجمعين ، فعز عليه أن تقتصر جهوده على مصر الحبيبة ورأى من واجب الوفاء عليـه لدينه وعروبته أن يمد يده الى الشرق بأسره ، لينهض من كبوته ويلقى عن كتفيه ذل القرون ويطيح بنواطير الاستعمار .. وينهض نهضة المارد الجبار المطالب بحقه ومكانته تحت الشمس ..

وأعلن جمال أن مصر جزء من الوطن العربى .. وسار بعد ذلك قدما ليحقق الوحدة الشاملة للعرب

وسـار الركب .. واستجابت القلوب للدعوة الفتيـة الى عودة دولة العـرب الى حدودها ومعالمها القديمة ، من شاطىء المحيط الصخاب الى ضفاف الخليج العربى .. دولة تبنى وتوطد .. وترسى أسس الحب والسلام والاخاء .

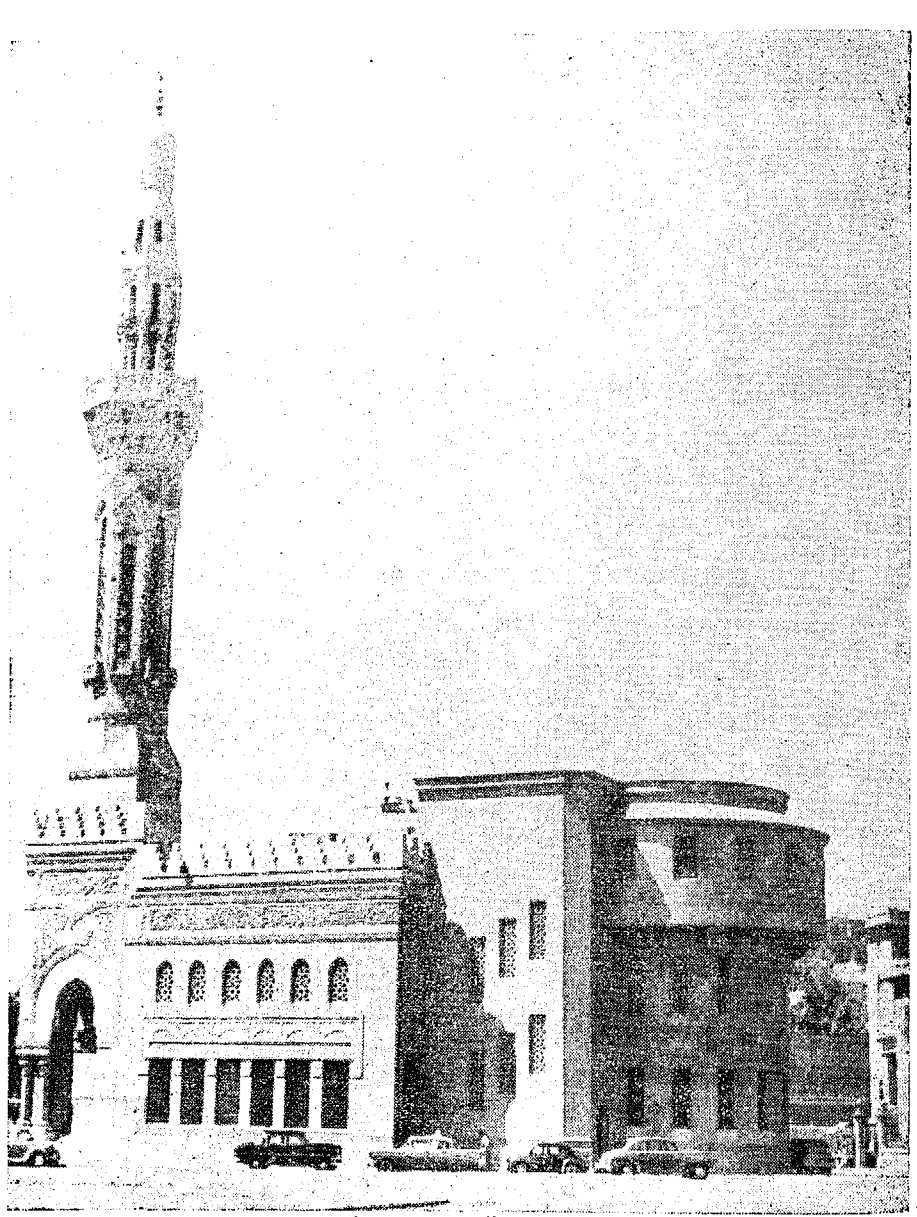
وتوحدت المساجد كلها فى مسجد واحد كانت القاهرة ميدانه .. وتلاقت المنـارات كلها فى منارة واحدة ، كانت الدعوة تصـدر منها واحدة ، فيها الامر بالمعروف والحث على الاتحاد والاستمساك بالترابط لتعود امجاد الماضى جمعاء ..

لقد أصبح المسجد دولة .. وأصبحت الدولة وحدة مترابطة جمعت بين الشـعوب العربية وربطت بينها بأكثر من رباط ..

وخرجت الدعوة الجريئة الى حيز العمل .. وابى ايمان جمال عبد الناصر بالسياسة العملية الا أن يمضى قدما الى الامام برغم العقبـات التى أثارها المغرضون .. وكان أن عرف الركب طريقه واستجابت القلوب للدعوة ونودى بضرورة قيام المؤتمر الاسلامى..

والمؤتمر الاسلامى ، الذى يعتبر مرقاة من مراقى اتمام الوحدة الشاملة بين المسلمين فى شتى بقاع الارض ــ فكرة .. ورسالة وهدف .. وفيه يقول الثائر الشاب السيد أنور السادات سكرتيره العام :

« كان حريا بالمسلمين بعد أن تخلصوا من الاستعمار وأدوائه ومكائده وسطوته ، أن يفكروا فى وسيلة فعالة تعمل على تنظيم حياتهم طبقا لتعاليم الاسلام الصحيحة القـوية المستمدة من هدى دينهم السمح ومثله العليا ، وتاريخهم المجيد .. وتعمل كذلك على ربط المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها برباط متين من الاخوة الصادقة ، واشعارهم بأن موثق الاسلام قوى مكين ، وانهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وأنهم أحوج مايكونون الى التعاون والتآزر فى مختلف ميادين الحيـاة ، يعين القوى منهـم الضعيف ويأخذ بيده الى مدارج القوة والنهوض ، غير مدخر فى سبيله جهدا حتى نشعر العالم الذى نواجهه فى هذه الآونة الحاسمة من تاريخنا ، ان هذه الرابطة الروحية التى تؤلف



« مسجد السيد عمر مكرم »

هذا المسجد شيدته الثورة المباركة تكريما وتخليدا للثائر المصرى الاول السيد عمر مكرم ...

ولد السيد عمر مكرم بمدينة أسيوط حوالى عام ١٧٥٥م ويتصل نسب أسرته بالنبى صلى الله عليه وسلم ، والتحق بالازهر واستطاع بقيادته الموفقة انتزاع جبروت المماليك ، كما استطاع فى احدى ثورات الجماهير أن يحمل تركيا على عزل ممثلها فى مصر ، واجبرها على احترام ارادة الشعوب ..

والمسجد شيد على أحدث طراز فى ميدان التحرير ، وألحقت به مكتبة فاخرة للراغبين فى الاطلاع والعرفان وافتتحته الثورة للصلاة الجامعة بعد أن زينته أجمل زينة وجعلته آية من آيات الفن المعمارى الحديث المعبر عن التطور الانشائى الجديد الذى حققته ثورة الابطال وأرادت به تكريم ذكرى العاملين

بين قلوبنا أقوى وأمتن من أية رابطة تزجيها المبادىء المبتسرة ، والتشريعات الفجـــة والمنافع الشخصية ، وتعمل على جمع الشعوب الاسلامية على كلمة واحدة هى كلمة الحق ، وتجعلهم قوة فعالة تستطيع أن تسهم فى تحقيق سلام العالم ورفاهيته وتقدمه

وقد ألهم الله قادة المسلمين فى موسم حج سنة ١٣٧٣ هـ ، وأمامهم الجموع الحاشدة التى وفدت الى بيت الله الحرام من شتى بقاع الارض مخلصة مؤمنـــة ، ترجو المثوبة وتؤدى الفريضة ، أن يتذكروا الحكمة السامية من الحج ، حيث كان منـــذ شرعه الله مؤتمرا اسلاميا عظيما ، أفاد منه السلف الصالح فى توجيه المسلمين وارشادهم الى خير الدنيا والآخرة . فنبتت فكرة المؤتمر الاسلامى ...

واستقر الرأى فى موسم حج تلك السنة على انشاء هيئة مشتركة تنهض بالمسلمين، وتجمع قواهم المبـــددة ، وتوجهها الوجهة الصالحة لخدمة السلام والانسانية ، وتنمى أواصر الود والمحبة والاخوة والتعاون بين المسلمين فى شتى أرجاء المعمورة .

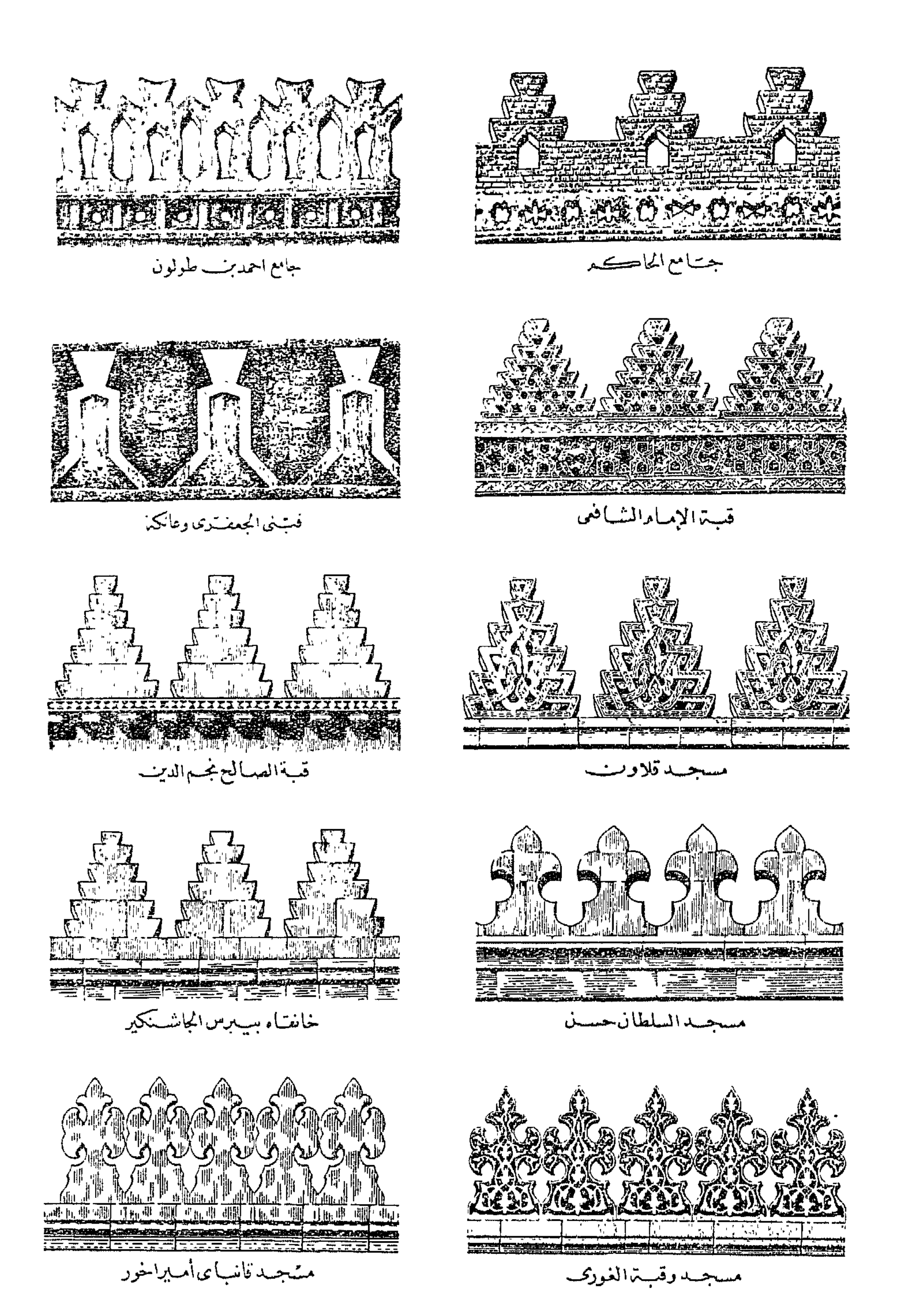
وقطع القادة علىأنفسهم عهدا ــيعتبر نقطة تحول فىتاريخالمسلمين ودليلا ساطعا على يقظة الشعوب الاسلامية ورغبتها القوية فى أنتتبوأ المكانة التى تليق بها بين أمم الارضــ أن ينشئوا هذه الهيئة ، وحددوا لها أغراضا عملية لتكون راشدا لهم فيما يهدفون اليه من خير الاسلام والمسلمين . وقرروا أن يتألف المؤتمر الاسلامى من مجموع المســـلمين أفرادا وجماعات وشعوبا فى أقطارهم المختلفة ، ممن يقبلون العمل المشترك لخيرالاسلام ورفعة المسلمين وتعاونهم ، وان لهذا المؤتمر شخصية اعتبارية مستقلة عن شخصيات أعضائه .

فالغاية التى يرمون اليها هى ضم شتات المسلمين،وجعل المؤتمر هيئة شعوب لاهيئة دول ، وان آزرته حكومات الدول التى يمثلها المجلس الاعلى للمؤتمر ماليـــا وأدبيـــا ، والحق أن المسلمين حين يشعرون بحاجتهم الملحة الى التعاون فى مختلف ميادينالحياة، وحين ينبع ذلك الشعور من قلوبهم ينجح المؤتمر ويؤتى ثماره الطيبة ، وبينوا كذلك ان الغاية النبيلة التى يسعون اليها هى تقوية أواصر الثقة والاخوة الاسلامية ورفعمستوى المسلمين ثقافيا واقتصاديا ، وانشاء صلات جديدة ، أو تعزيز الصلات القائمة بينهـــم وتنسيق جهودهم تحقيقا للتعاون والتآزر ، والنظر بصفة عامة فى شـــئون المســـلمين والعمل على كل ما من شأنه أن يعود عليهم فى شتى بلادهم بالخير والنفع

تلك هى سياسة الانشاء الاسلامى التى يريدها العهد الجديد وقائده الملهم جمال عبد الناصر

وهذه هى العمارة العربيـــة الشامخة التى وضـــع الرئيس أساسها وسارع بأقامة البناء

وهذه هى الدولة ... الدولة العظمى ذات الخير الوفير المكتملة الكيان ... الغنيـــة بمواردها عن المعونات أيا كان نوعها ...



نماذج من شرفات المساجد

الدولة القادرة التى تشغل ربع مساحة العالم ، والتى تستطيع أن تتحكم فى مصائر الامور وتوجه الرياح فى صفها لتسير سفينتها الى حيث يريد القائد البطل جمال ...

هذا هو المسجد الاعم الجامع الذى سيلتئم الشمل بين جدرانه العزيزة ... وهذه هى الدولة التى ستعيد أمجاد الماضى ، وتبنى للجيل الحاضر والاجيال المقبلة العز والسؤدد والرفعة والسعادة والسلام ...

الله أكبر ... الله أكبر ... الله أكبر والمجد للعرب والعزة للمسلمين ..

الله أكبر ... وحي على الاتحاد ...

انها دعوة جمال عبد الناصر ... وانها لنفس دعوة الاسلام ... حي على الفلاح ... وانها لنفس الدعوة المزهوة القدسية الرنين التى انطلقت بها حناجر بناة المجد الاسلامى الذين أقاموا صرح الوحدة الشاملة ، وانطلقوا حاملين مشاعل النور فتبددت أمامهم الظلمات ...

انها الدعوة التى أرادها الله ، وألهم بها خيار عباده ... وانها للصدى الذى ظل يتردد عبر الاجيال ولم يجد له من سميع حتى تقدم جمال عبد الناصر ، فحمل اللواء وتقدم الصفوف وحقق الآمال ...

وهذا الشرق ... المارد الذى صحا بعد غفوة طويلة ... هذا الشرق المزهو بآثاره ومعالمه ... الفخور بما حوى من مساجد كلما طالعته منائرها السامقة وقبابها الشامخة تذكر آيات المجد القديم ، وعاش بالروح فى ظلال الدول التى مرت به ...

هذا الشرق العظيم الذى أبى الا أن تكون أيامه جمعاء ، مواسم حجيج ، تجمع الشمل ، وتقوى أواصر الاتحاد ...

هذا الشرق ، شهد على يد جمال عبد الناصر بناء كعبة الوحدة ، ومسجدها العظيم ..

انه مسجد كنا نحلم به ... وانه لمن توفيق الله ، أن يقوم المسجد فى أرض مصر ... وأن تمتد رقعته نحو الشمال ، فيشمل سوريا وتصبح له صفة جديدة جديرة بالاكبار ، واسما عزيزا جديرا بالخلود ، هو الجمهورية العربية المتحدة ...

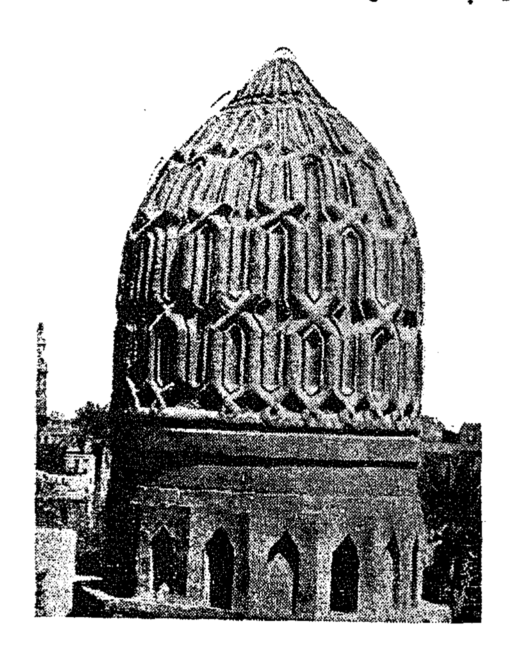
وانها ـ بعد ـ دولة كنا نرجوها ... دولة شامخة بناها جمال عبدالناصر ، وأقام صرحها فى أقدس البقاع وأغناها بالذكريات ، ليسترجع فيها التاريخ أجمل حوادثه ... ولتنطلق بعد ذلك أبواقه العادلة فى كل مكان : **ها قد تجمع الاشقاء ، واتحد الاهل ، واكتمل البناء وليس على العالم الا أن يرقب مشرق النور الجديد الذى ستعلو منارته لتكون هدى ورحمة للشعوب جميعا ...**

الله أكبر وحي على الاتحاد .. انها دعوة جمال عبد الناصر ناصر الوحدة ، وباعث

القومية العربية ، الذى آمن بعروبته ، وكرس حياته لخدمة هـذه العروبة الخالدة التى غير بعثها مجريات الحوادث وصحائف التاريخ ...

الدعوة الظافرة المنتصرة التى سيتم عن طريقها انشاء المسجد الأعم الشامل .. والدولة العربية القوية المتحدة التى سينضوى تحت لوائها سائر العرب فى كل مكان..

حفظ الله مصر فى جمهوريتها العربيـة المتحـدة .. وحيا شـعبها النبيل وقائد نهضتها البطل جمال عبد الناصر ..



« قبة جامع تغرى بردى »

« انتهى البحث والحمد لله »

كتابنا القادم : « حارس المجد » بقلم سنية قراعة

مكتب الصحافة الدولى
للصحافة والنشر

مؤسسة سنية قراعة
١ ميدان سليمان باشا بالقاهرة ـ تليفون ٢٥٧١٧

أهم اعمال المكتب :

يصدر مجله ثقافية أدبية باسم « الوان جديدة » تضم صفحاتها خلاصة انتاج رجال الفكر ، واعلام الطب ومشاهير رجال الادب والفن فى الشرق والغرب ـ كما تقدم الى ربات البيوت نماذج من ارقى واحدث الارشادات البيتية وطرق تنظيم البيت وحسن اعداده ، وترشدهن الى خير ما وصل اليه التفكير فى فن التفصيل الحديث والازياء المبتكرة ..

يقوم بنشر كتب علمية وثقافية اهم ما ظهر منها :

« مصارع الطغاة » تأليف سنية قراعة ، « خاطئات فاتنات » للاستاذ حبيب جاماتى ، « السينما والجماهير » للاستاذ عبد المنعم شميس ..

ويقوم فوق ذلك بأول محاولة من نوعها فى تاريخ الجهاد الفكرى المصرى لتكوين المكتبة النسائية التى تشرف المرأة المصرية وتضع اسمها فى مصاف الخلود

اذ تساهم مديرة المكتب وصاحبته فى ارساء أسس هذه المكتبة وتقدم للعالم العربى ثمرة بحوثها فى سلسلة مؤلفات تظهر خلال هذا العام كالآتى :

« ست الملك الفاطمية طبعة جديدة » ـ « أم الملوك » الفائز بالجائزة الاولى فى مسابقة وزارة التربية والتعليم لعام ١٩٥٨ ـ « حارس المجد » ـ « عروس الزهد رابعة العدوية » ـ « قصة الجامعة الازهرية » ـ « نفرتيتى طبعة جديدة » ـ امرأة العزيز ـ « موكب الزمن » .

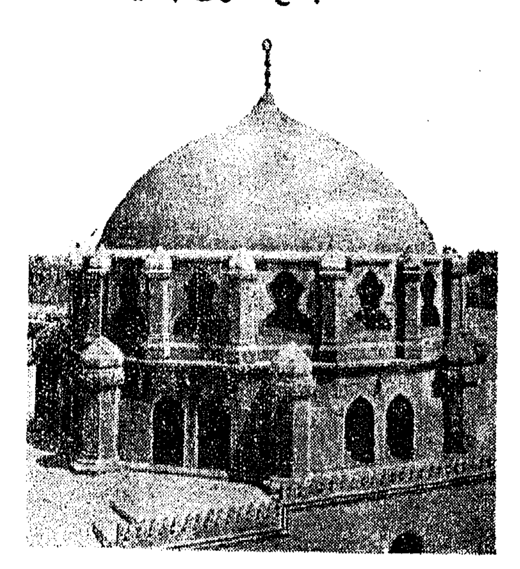
الكتب التى ظهرت للمؤلفة :

أذكرونى ـ البحث عن السعادة ـ نفرتيتى ـ ست الملك الفاطمية ـ نساء محمد «طبعة أولى» ـ نمر السياسة المصرية ـ مصارع الطغاه ـ نساء محمد «طبعة ثانية» ـ من وحي السماء ـ الاسكندر الاكبر ـ مساجد ودول .

فهرس الفصول

((وقد روعى ترتيب المآذن تاريخيا من حيث الانشـــاء))

صفحة



« قبة جامع سنان باشا »

فهرس الصور

« وقد روعى ترتيبها تاريخيا من حيث الانشاء »

صفحة

صفحة